معاني القرآن وإعرابه

المسمّى

المختصر في إعراب القرآن ومعانيه

تأليف

أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي

المتوفى ٣١١هـ

علق عليه ووضع حواشيه

أحمد فتحي عبد الرحمن

قدم له

الأستاذ الدكتور فتحي عبد الرحمن حجازي

عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر

الجزء الثالث

المحتوى:

من أول سورة يوسف - إلى آخر سورة الأحزاب

DKI

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Title: MAʿĀNI AL-QUR'ĀN WA'IʿRĀBUH

(Grammatical analysis and The meaning of the verses of The Holy Coran)

classification: Sciences of Coran

Author: Abu Isḥāq al-Zajjāj

Editor: Aḥmad Fatḥi ʿAbdul-Raḥmān

Publisher: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Pages: 1528 (4 volumes)

Year: 2007

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: معاني القرآن وإعرابه

التصنيف: علوم قرآن

المؤلف: أبو إسحاق الزجاج

المحقق: أحمد فتحي عبدالرحمن

الناشر: دار الكتب العلميـة - بيروت

عدد الصفحات: 1528 (4 أجزاء)

سنة الطباعة: 2007

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى

ISBN 2-7451-5249-1 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5249-7 (13 dig)

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Copyright
All rights reserved ©
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى
٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨١٣ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان
رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يوسف (١)

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾؛ المعنى: هذه الآيات.

﴿المُبِينِ﴾ الذي وعدتم به في التوراة كما قال: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ﴾[البقرة: ١، ٢].

وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً﴾؛ هذه الهاء تصلح لشيئين؛ أحدهما: أن تكون للكتاب؛ المعنى: إنا أنزلنا الكتاب قرآناً عربياً، ومعنى ((قرآن)) مجموع، ويجوز أن يكون ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ أي: أنزلنا خبر يوسف وقصته.

ويروى أن علماء اليهود قالوا لكبراء المشركين: سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف فقال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً﴾؛ ودليل هذا القول قوله -عز وجل-: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾؛ وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ﴾.

أي: نبين لك أحسن البيان والقاص الذي يأتي بالقصة على حقيقتها ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ﴾؛ أي: بوحينا إليك هذا القرآن. القراءة نصب ((القرآن)) ويجوز الجر والرفع جميعاً، ولا أعلم أحداً قرأ بهما. فأما الجر فعلى البدل من قوله: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، فيكون المعنى: نحن نقص عليك أحسن القصص بهذا القرآن، ولا تقرأن بها.

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة يوسف من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف الثانية عشرة. عدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية. وجاءت تسميتها يُوسف لأنها أفردت الحديث عن قصة نبي الله يوسف بن يعقوب،وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء.

تناولت السورة قصص الأنبياء وفصّلت قصة يوسف عليه السلام وما لاقاه من ضروب المحن والشدائد من إخوته ومن الآخرين في بيت عزيز مصر وفي السجن حتى نجاه الله.

هذه السورة الكريمة رغم أنها مكية إلا أن أسلوبها القصصي الممتع اللطيف أخرجها من جو التهديد والإنذار والوعيد. نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد هود، بعد توالي الشدائد والنكبات عليه، في ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول والمؤمنون، الوحشة والغربة، والانقطاع في جاهلية قريش، نزّل الله هذه السورة لتسلية عبده ورسوله ولتخفيف آلامه. وهكذا جاءت قصة يوسف الصديق تسلية لرسول الله ﷺ، وجاءت تحمل البشر والأنس والراحة والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء، فلا بد من الفرج بعد الضيق، ومن اليسر بعد العسر، وفي السورة دروس وعبر، وعظات بالغات، حافلات بروائع الأخبار العجيبة، والأنباء الغريبة.

والرفع على ترجمة ما أوحينا إليك، كأن قائلاً قال: ما هو؟ وما هذا؟ فقيل هذا القرآن، ولا تقرأن بها أيضاً.

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾؛ أي: من الغافلين عن قصة يوسف وإخوته، لأنه -عليه السلام- إنما علم ذلك بالوحي.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأبيه﴾؛ يجوز أن يكون موضع ((إذ)) نصباً.

المعنى: نقص عليك إذ قال يوسف لأبيه ويجوز أن يكون على معنى: اذكر إذ قال يوسف لأبيه.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي﴾؛ في قوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي﴾ قراءتان: ((يا أبتِ إني، ويا أبتَ إني)) بالخفض والنصب. وأجاز بعض أهل العربية: ((يا أبه إني)).

فمن قرأ ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي﴾ بكسر التاء، فعلى الإضافة إلى نفسه وحذف الياء، لأن ياء الإضافة في النداء، وقد ذكر ذلك فيما سلف من الكتاب، وأما إدخال التأنيث في الأب فإنما دخلت في النداء خاصة، والمذكر قد سمي باسم المؤنث فيه علامة التأنيث، ويوصف بما فيه هاء التأنيث.

فأما المذكر الذي يسمى بمؤنث فقولهم: عين ونفس يراد به الرجل، وأما الصفة فقولهم غلام يفعة ورجل ربعة. والتاء كثرت ولزمت في الأب عوضاً من تاء الإضافة. والوقف بالتاء لا غير، وإذا فتحت وقفت بالتاء والهاء، ولا فرق بين الكسر والفتح.

وزعم قطرب أن الفتح على جهات؛ أحدهما: أنك أردت ((يا أبه)) ثم حذفت التنوين، وعلى ((يا أبتاه)) وعلى قول الطرماح [من السريع].

يا دارُ أَقوَت بَعدَ إصرامِها عاماً وَما يُبكيكَ مِن عامِها[1]

وهذا الذي قاله قطرب خطأ كله. التنوين لا يحذف من المنادى المنصوب، لأن النصب إعراب المنادى، ولا يجوز معرب منصرف غير منون في حال النصب.

وأما قوله: ((يا دارَ أَقوَت))، ينصب ((الدار)) فلم يروه أحد من أصحابنا ولا أعرف له وجهاً. أنشد سيبويه والخليل وجميع البصريين: ((يا دارُ أَقوَت))، بضم الراء، وأما يا أبتاه، فالندبة ههنا لا معنى لها.

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/٣٣٤)، والفائق (٢/١٧٧).

ولكن الفتح يجوز على أنه أبدل من تاء الإضافة ألفاً ثم حذف الألف وبقيت الفتحة، كما تحذف بالإضافة.

وأما ((يا أبه إني)) بالرفع فلا يجوز إلا على ضعف، لأن الهاء ههنا جعلت بدلاً من ياء الإضافة.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾؛ القراءة بفتح العين وفتح جميع الحروف في أحد عشر. وقد روي بتسكين العين في القراءة: ((أحد عشر كوكباً)) قرأ بها بعض أهل المدينة وهي غير منكرة ما كان قبل العين حرف متحرك لكثرة الحركات في قوله: ((أحد عشر)) فأما: ((اثنا عشر)) فلا يجوز فيها الإسكان في العين. وقد رويت لغة أخرى وهي أحد عشر وهذه الرواية في الرداءة وترك الاستعمال بمنزلة ((الحمدِ لله))، لا يلتفت إليها.

فأما التسكين في العين فقراءة صحيحة كثيرة ولكن سيبويه والخليل وجميع أصحابهم لا يجيزون إلا فتح العين، إلا أن قطرباً قد روى إسكان العين ورواه الفراء أيضاً، وقد قرئ به. فأما ما لا خلاف فيه ففتح العين.

و﴿كَوْكَباً﴾ منصوب على التمييز.

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾؛ فكرر ((رأيتهم)) توكيداً.

المعنى: رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر لي ساجدين فكرر ((رأيتهم)) لما طال الكلام.

فأما قوله ﴿سَاجِدِينَ﴾ فحقيقته فعل كل ما يعقل، وجمعه وجمع ضميره بالواو والنون في الرفع، والياء والنون في النصب والجر. فإذا وصف غير الناس والملائكة بأنه يعبد ويتكلم فقد دخل في المميزين وصار الإخبار عنه كالإخبار عنهم.

فمن ذلك قوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[النمل: ١٨] وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣]، وقال: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ [يس: ٤٠]؛ فالواو والنون دخلتا لما وصفنا من دخولهم في التمييز، والألف والتاء والنون لكل مؤنث ولكل موات لا يعقل غير المميزين.

فإذا جعل الله -عز وجل- غير المميزة فكذلك تكون أفعالها والإنباء عنها.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾؛ معناه: يختارك ويصطفيك، وهو مشتق من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك، ومنه: جبيت الماء في الحوض، وموضع الكاف في قوله ((كذلك)) نصب.

المعنى: ومثل ما رأيت تأويله:، ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحاديث﴾ قيل: بعلمك تأويل الرؤيا، وقيل: يعلمك تأويل أحاديث الأنبياء والأمم، يعني الكتب وكلاهما جائز -والله أعلم-.

﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾؛ المعنى: يتمها كما أتمها على أبويك، فقد فسر له يعقوب الرؤيا.

والتأويل: أنه لما قال له: إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين، فتأول الأحد عشر كوكباً أحد عشر نفساً لهم فضل وأنهم يستضاء بهم، لأن الكواكب لا شيء أضوأ منها وبها يهتدى. قال الله -جل وعز-: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل: ١٦]؛ فتأول له أنه يكون نبياً، فالقمر أبوه والشمس أمه، والأحد عشر كوكباً إخوته، فتأول له أنه يكون نبياً، وأن إخوته يكونون أنبياء، لأنه أعلمه أن الله يتم بنعمته عليه وعلى إخوته كما أتمها على أبويه إبراهيم وإسحاق فإتمام النعمة عليهم أن يكونوا أنبياء، إذ قال: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾.

وقوله: ﴿لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾؛ الرؤيا: فيها أربع لغات:

((رؤيا)) بالهمز، ((ورويا)) بالواو بلا همز، وهاتان يقرأ بهما. ((ورياك)) بالإدغام، ((ورياك)) بكسر الراء، ولا تقرأ بهاتين.

ويوسف فيه لغتان، ((يوسُف)) بضم السين ((ويوسِف)) بكسر السين وكذلك ((يونس، ويونس)). وحكوا يونس بفتح النون، حكاها قطرب وهي شاذة.

وقوله -عز وجل-: ﴿آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾؛ وقرئت ((آية)). ومعناه: عبرة، وقد رويت في غير هذا المصحف عبرة للسائلين، وهذا معنى الآية.

ويجوز أن تكون ((آية)) بصيرة للسائلين الذين سألوا النبي ﷺ فأنبأهم بقصة يوسف وهو عنها غافل لم يقرأ كتاباً ولم يأته إلا من جهة الوحي جواباً لهم حين سألوه.

وقوله: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: إن أبانا قدم اثنين صغيرين في المحبة علينا، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾، أي: جماعة نفعنا أكثر من نفع هذين.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾؛ هذا موضع ينبغي أن يتفهم، إنما عنوا أن أباهم ضال في محبة هذين ولو وصفوه بالضلالة في الدين كانوا كفاراً.

والعصبة في كلام العرب: العشيرة ونحوهم .

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾؛ أي: تتوبون من بعد قتله.

وقوله: ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾؛ معناه: -والله أعلم- ((أرضاً)) يبعد بها عن أبيه لأنه لن يخلو من أن يكون في أرض.

قوله: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾؛ يدل على أنهم تآمروا في أن يطرحوه في أرض يقدر عليه فيها أبوه، و((أرضاً)) منصوب على إسقاط ((في)) وإفضاء الفعل إليها، لأن أرضاً ليست من الظروف المبهمة.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ﴾؛ الغيابة: كل ما غاب أو غيب عنك شَيْئاً، قال المنخل:

وإن أنا يوماً غيبتني منيتي فسيري بسيري في العشيرة والأصل

والجب: البئر ليست بمطوية، وسميت ((جباً)) من حيث أنها قطعت قطعاً، ولم يحدث فيها غير القطع، من طي وما أشبهه.

ورووا أن اسم الذي أشار عليهم بألا يقتلوه ((يهوذا))، وكان من أشدهم.

﴿يلتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾؛ هذا أكثر القراءة -بالياء-، وقرأ الحسن ((تلتقطه)) بالتاء، وأجاز ذلك جميع النحويين، وزعموا أن ذلك إنما جاز لأن بعض السيارة سيارة، فكأنه قال: تلتقطه سيارة بعض السيارة، وأنشدوا[1][من الطويل]:

وَتَشرَقُ بِالقولِ الَّذي قَد أَذَعتَهُ كَما شَرِقَت صَدرُ القَناةِ مِنَ الدَّمِ[2]

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾؛ قرئت على أربعة أوجه، على إشمام الميم الضم: ((تأمننا))، وعلى الإدغام وترك الإشمام، ﴿تَأْمَنَّا﴾، وقرئت ((تأمننا)) بنونين وضمة بينهما، وقرأ يحيى بن وثاب ((تيمنا)). وقراءة يحيى تخالف المصحف، وهي في العربية جائزة بكسر التاء في كل ما ماضيه على فعل نحو: آمن -يا هذا- والإدغام لأن الحرفين من جنس واحد.

---

(١) البيت للأعشى.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/٢١٢)، وتفسير القرطبي (٩/١١٤)، وروح المعاني (٤/٢٠)، وزاد المسير (٤/١٨٦)، ومعاني القرآن (٥/٦٤)، والجمل في النحو (١/٢٩٤)، والأصول في النحو (٣/٤٧٨)، ومغني اللبيب (١/٦٦٧)، ولسان العرب (٤/٤٤٥)، وتاج العروس (١/٣٠٥١).

والإشمام يدل على الضمة المحذوفة، وترك الإشمام جيد، لأن الميم مفتوحة فلا تغير، والإظهار في ((تأمننا)) جيد، لأن النونين من كلمتين.

وقوله -عز وجل-: ﴿غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ بالياء، وقرئت ((نرتع ونلعب)) بالنون وقرئت:((يُرتع ويُلعب)) بضم الياء، وقرئت ((نَرْتع ونَلْعب)). فجزم هذه القراءات كلها على جواب الأمر.

المعنى: أرسله إن ترسله يرتِع، وكذلك يُرْتع، وكذلك يرتعِ ويلعب بكسر العين، وكسر العين من ((الرَّعي))؛ المعنى: يرتعي ويلعب، كأنهم قالوا: يرعى ماشيته ويلعب، فيجتمع النفع والسرور.

ويرتع: من الرتعة، أي: يتسع في الخصب، وكل مخصب فهو راتع.

وقوله: ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الجُبِّ﴾؛ وقرئت ((غيابات)) الجب، وقد فسرنا الجب.

وجاء في التفسير: أنها بئر بيت المقدس.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾؛ هذا جائز أن يكون من صلة: ((لتنبئنهم وهم لا يشعرون))، وجائز أن يكون من صلة ((وأوحينا))؛ المعنى: وأوحينا إليه وهم لا يشعرون أي: أنبأناه بالوحي وهم لا يشعرون أنه نبي قد أوحي إليه.

﴿وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾؛ ﴿عِشَاءً﴾ منصوب على الظرف.

﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾؛ وقيل: ننتضل.

﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾؛ أي: بمصدق لنا.

﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾؛ ليس يريدون أن يعقوب -عليه السلام- لا يصدق من يعلم أنه صادق، هذا محال، لا يوصف الأنبياء بذلك، ولكن المعنى: لو كنا عندك من أهل الثقة والصدق لاتهمتنا في يوسف لمحبَّتك إياه، وظننت أنا قد كذبناك.

وقوله: ﴿وَجَاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾؛ يروى أنهم -رحمة الله عليهم- لما طرحوا يوسف -عليه السلام- في الجب أخذوا قميصه وذبحوا جدياً فلطخوا القميص بدم الجدي، وقيل: سخله، والمعنى واحد، فلما رأى يعقوب ﷺ القميص قال: كذبتم، ولو أكله الذئب لخرق قميصه. وقيل: إنه قال إن كان هذا الذئب لحليماً، أشفق على القميص فلم يمزق، وأكل ابني فالدم دم كذب، أي: ذو كذب؛ والمعنى: دم مكذوب فيه.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾؛ أي: بل زينت أنفسكم أمراً في قصة يوسف.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ معناه: صبر لا جزع فيه ولا شكوى إلى الناس.

وصبر جميل: مرفوع على ضربين؛ المعنى: فشأني صبر جميل، والذي أعتقده صبر جميل، ويجوز أن يكون على ((فصبري صبر جميل)) وهذا لفظ قطرب: فصبري صبر جميل.

والأول مذهب الخليل وجميع أصحابه، ويجوز في غير القرآن صبراً جميلاً، وأنشدوا في الرفع [من الرجز]:

يشكو إلي جملي طول السرى　　　يا جملي ليس إلي المشتكى

صبرٌ جميلٌ فكلانا مبتلى

وصبراً جميلاً: منصوب على مثل ((فاصبر صبراً جميلاً)).

وقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾؛ الوارد: الذي يرد الماء ليسقي للقوم.

﴿فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾؛ يقال: أدليت الدلو إذا أرسلتها لتملأها، ودلوتها إذا أخرجتها.

﴿قَالَ يَا بُشْرَى﴾؛ بألف وياء مفتوحة، وقرئت ((يا بشراي))، وقد فسرناها في قوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾[البقرة: ٣٨]، وتفسيرها أن ياء الإضافة تغير ما قبلها ولا يبين معها الإعراب، فإذا كان قبلها ألف فالاختيار إلا تغير الألف، وبعض العرب يبدل الألف معها ياء، فيكون بدلها بمنزلة تغيير الحروف قبلها، وقرئت: ﴿يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ﴾ بغير ياء.

ومعنى النداء في هذه الأشياء التي لا تجيب ولا تعقل إنما هو على تنبيه المخاطبين، وتوكيد القصة إذا قلت يا عجباه فكأنك قلت: اعجبوا ويا أيها العجب هذا من حينك. وكذلك إذا قال يا بشراي فكأنه قال: أبشروا، وكأنه قال يا أيتها البشرى هذا من إبانك وأوانك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾؛ لما وجدوه أحبوا أن لا يعلم بأنه موجود، وأن يوهموا أنه بضاعة دفعها إليهم أهل الماء.

وبضاعة: منصوب على الحال، كأنه قال: وأسروه جاعليه بضاعة.

وقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾؛ قيل: بخس: ظلم، لأن الإنسان الموجود لا يحل بيعه، وقيل: بخس نقصان، وأكثر التفسير على أن بخساً ظلم.

وجاء في التفسير: أنه بيع بعشرين درهماً، وقيل: باثنين وعشرين درهماً أخذ كل واحد من إخوته درهمين، وقيل: بأربعين درهماً، وروي كل ذلك.

وقوله: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾؛ ((فيه)) ليست بصلة الزاهدين.

المعنى: وكانوا من الزاهدين ثم بين في أي شيء زهدوا. فكأنه قال: زهدوا فيه، وهذا في الظروف جائز، فأما المفعولات فلا يجوز فيها، لا يجوز كنت زيداً من الضاربين، لأن زيداً من صلة الضاربين فلا يتقدم الموصول صلته.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِصْرَ﴾؛ مصر: مفتوحة في موضع الجر إلا أنها لا تنصرف، لأنها اسم والمدينة بعينها، وهي معروفة.

﴿لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾؛ ﴿مَثْوَاهُ﴾: مقامه؛ المعنى: أحسني إليه في طول مقامه عندنا.

ويروى أن أفرس الناس ثلاثة، وأن أجودهم فراسة العزيز في فراسته في يوسف، ابنة شعيب في فراستها في موسى حين قالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦] وأبو بكر في توليته عمر الخلافة بعده.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: ومثل الذي وصفنا مكنا ليوسف في الأرض.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾؛ جائز أن يكون تأويل الرؤيا، وأن يكون تأويل أحاديث الأنبياء.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾؛ الأشد: من نحو سبع سنوات إلى نحو الأربعين.

﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾: أي: جعلناه حكيماً عالماً، وليس كل عالم حكيماً. الحكيم: العالم المستعمل علمه، الممتنع من استعمال ما يجهل فيه.

وأصل أحكمت في اللغة: منعت، ومن هذا حكمت الدابة، لأن الفارس يمنع بها الدابة من إرادتها.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي: ومثل ما وصفنا من تعليم يوسف نجزي المحسنين.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾؛ المعنى: أنها راودته عما أرادته مما يريد النساء من الرجال، فعلم بتركه ذكر الفاحشة نفسها ما راودته عليه.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾؛ المعنى: هلم لك، أي: أقبل إلى ما أدعوك إليه.

وفي ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ لغات: يجوز ((هَيْتُ لك))، وهَيْتِ. وأجودها وأكثرها ((هيتً)) بفتح التاء. ورويت عن علي -صلوات الله عليه-: ((هِيتِ لك)) فأما الفتح مع فتح الهاء، فهو أكثر كلام العرب، قال الشاعر:

أَبْلِغْ أَميرَ المُؤمِنِيـ ـنَ، أَخا العراقِ إذا أَتَيْتا
إِنَّ العِراقَ وأَهلَهُ سِلْمٌ إِليكَ فهَيْتَ هَيْتا

أي: فأقبل وتعال.

وحكى قطرب أنه أنشده بعض أهل الحجاز لطرفة بن العبد:

ليس قومي بالأبعدين إذا ما قال داع من العشيرة هيت
هم يجيبون ذا هلم سراعاً كالأبابيل لا يغادر بيت

رويت عن ابن عباس: ((هئت لك)) مهموزة مكسورة الهاء، من الهيئة كأنها قالت: ((تهيأت لك))، فأما الفتح في ((هيتَ)) فلأنها بمنزلة الأصوات، ليس منها فعل يتصرف ففتحت التاء لسكونها وسكون الياء، واختبر الفتح لأن قبل التاء ياء كما قالوا: كيف وأين، ومن قال ((هيتِ لك)) بكسر التاء، فلأن أصل التقاء الساكنين حركة الكسر، ومن قال: ((هيتُ)) ضمها لأنها في معنى الغايات، كأنها قالت: دعائي لك، ولما حذفت الإضافة وتضمنت معناها بنيت على الضم كما بنيت حيث ومنذ يا هذا. وقراءة على ((هئت لك)) بمنزلة هيئت والحجة فيها كالحجة فيها مفتوحة.

ثم قال: ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾؛ مصدر. المعنى: أعوذ بالله أن أفعل هذا، تقول: عذت عياذاً ومعاذاً.

﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾؛ أي: عن العزيز صاحبي ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، أي: تولاني في طول مقامي ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾؛ أكثر المفسرين أنه هم بها حتى رأى صورة يعقوب -عليه السلام-، وهو يقول له: يا يوسف أتهم بفعل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء، وقيل: إنه رأى في البيت مكتوباً: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾؛ وهذا مذهب أهل التفسير، ولسنا نشك أنه قد رأى برهاناً قطعه عما هم به.

وقال قوم: المعنى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾؛ وذهبوا إلى أن المعنى: لولا أن رأى برهان ربه لهم بها.

والذي عليه المفسرون: أنه همَّ بها وأنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة إلا أن الله تفضل بأن أراه البرهان، ألا تراه قال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾؛ والمعنى: لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما هم به.

وليس في الكلام بكثير أن تقول: ضربتك لولا زيد، ولا هممت بك لولا زيد، إنما الكلام لولا زيد لهممت بك. و((لولا)) تجاب باللام، فلو كان: ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى أي: برهان ربه لكان يجوز على بعد.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾؛ أي: كذلك أريناه البرهان لنصرف عنه السوء والفحشاء، فالسوء خيانة صاحبه، والفحشاء ركوب الفاحشة.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾؛ أي: الذين أخلصوا، أخلصهم الله من الأسواء والفواحش، مثل المصطفى. وقرئت من ((المخلِصين)) بكسر اللام، أي: الذين أخلصوا دينهم لله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾؛ أي: استبقا إلى الباب، يعني به يوسف وامرأة العزيز.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾؛ والقد: القطع، أي: خرقته خرقاً انقد منه.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾؛ أي: صادفا سيدها لدى الباب، فحصرها في ذلك الوقت كَيْد لَمَّا فَاجَأت سيدها.

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ﴾؛ أي: ما جزاؤه إلا السجن.

أي: عذاب موجع. قال يوسف: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَفْسِي﴾؛ أي: هي التي أرادت السوء.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾؛ قيل: إنه رجل حكيم، وقيل: إنه طفل.

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ أي: إن كان هو المقبل عليها وهي الدافعة له عن نفسها فيجب أن تكون خرقت قميصة من قبل، وإن كان هو المتباعد منها، وهي التابعة له في استباقهما فيجب أن يكون قد القميص من دبر.

والقراءة ((من قُبُلٍ، ومن دُبُرٍ، ومن قَبْلٍ، ومن دُبْرٍ)). ويجوز: ((من قبل)) بغير تنوين، ((ومن دبر))، على الغاية، أي: من قبله. أما الفتح فبعيدٌ في قوله: من قُبُلَ ومن دُبُرَ. لأن الذي يفتح يجعله مبنياً على الفتح فيشبهة بما لا ينصرف فيجعلة ممتنعاً من الصرف لأنه معرفة ومزال عن بابه، وهذا الوجه يجيزة البصريون.

فأما قُبْل وقُبُل فالتسكين في الباء جائز، وقد روي عن ابن أبي إسحاق الفتح جميعاً والضم جميعاً، والفتح أكثر في الرواية عنه، ولا أعلم أحداً من البصريين ذكر الفتح غيره.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾؛ أي: إن قولك: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً﴾؛ من كيدكن.

فأما دخول ((كان)) مع ((إن)) الجزاء، وكون الفعل بعدها لما مضى ففيه قولان:

قال محمد بن يزيد: ((كان)) لقويتها وأنها عبارة عن الأفعال لم تغيرها إن الجزاء الخفيفة. والقول الثاني أن ((كان)) عبارة عن الأفعال، وإن كان في معنى الاستقبال ههنا عبرت عن فعل ماض؛ المعنى: إن يكن قميصة قد، أي: إن يعلم قميصه قُدَّ من قبل فالعلم ما وقع بعد، فكذلك لا يكون لأنه مؤد عن العلم.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾؛ معناه: يا يوسف أكتم هذا الأمر ولا تذكره.

﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾؛ ويروى أنه كان قليل الغيرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ﴾؛ ((بدا)) فعل استغنى عن فاعل.

العرب تقول: قد بدا لي بداء أي: تغير رأيي عما كان عليه. وأكثر العرب تقول: قد بدا لي، ولم يذكر بداء، لكثرته لأنه في الكلام دليلاً على تغير رأيه، فترك الفاعل وهو مراد، ثم بين ما البداء؟ فقال ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾، كأنهم قالوا: ليسجننه، والرأي الذي كاد لهم قبل: قيل إن العزيز أمره بالاعراض فقط ثم تغير رأيه عن ذلك.

وقوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾: يقال: نِسوة ونُسوة -بالضم والكسر-.

وقيل: ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾؛ أي: عبدها وغلامها، لأن استعمالهم كان للغلام المملوك أن يسمى ((فتى)).

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُباً﴾؛ أي: بلغ حبه إلى شغاف قبلها، وفي الشغاف ثلاثة أقوال:

قال بعضهم: ((الشغاف)) غلاف القلب، وقيل: هو داء يكون في الجوف في الشراسيف، وأنشدوا:

وقد حال همّ دون ذلك داخلٌ دخول الشغاف تبتغيه الأصابع[1]

وقد قرئت ((شعفها)) بالعين، ومعنى شعفها ذهب بها كل مذهب مشتق من ((شعفات الجبال))، أي: رؤوس الجبال، فإذا قلت فلان مشعوف بكذا، فمعناه: أنه قد ذهب به الحب أقصى المذاهب.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾؛ إن قال قائل: لم سمي قولهن مكراً؟ فالجواب فيه: أنها قد أطلعتهن، فاستكتمتهن فمكرن بها وأفشين سرها، فلما سمعت بما فعلن أرادت أن يوقعن فيما وقعت فيه فأرسلت إليهن.

﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾؛ ((أعتدت)) أفعلت من العتاد، وكل ما اتخذته عدة للشيء فهو عتاد.

ومعنى ﴿مُتَّكَأً﴾ ما يتكا عليه الطعام أو شراب أو حديث.

﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ يعالجن بالسكين ما يأكلن، وقال بعضهم متكأ، وقالوا: واحدته ((متكئة)) وهي ((أترج)).

والقراءة الجيدة ((متكأ)) بالهمز، يقال: تَكِئ الرجل يَتكأ، تَكْأً والتّكْأ أصله: من وكأت، وإنما متكأ مفتعل، وأصله موتكأ مثل موتزن من الوزن.

﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ إن شئت ضممت التاء، وإن شئت كسرت، والكسر الأصل لسكون التاء والخاء، ومن ضم التاء فلثقل الضمة بعد الكسرة.

واعتدت لهن الطعام وجعلت في أيديهن السكاكين، وأمرته بالخروج عليهن في هيئته، ولم يكن يتهيأ له ألا يخرج، لأنه بمنزلة العبد لها.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

أردن أن يقطعن الطعام الذي في أيديهن فدهشن لما رأينه فخدشن أيديهن. ولم يقطعن الأيدي حتى تبين منهن. وهذا مستعمل في الكلام، يقول الرجل: قد قطعت يدي. يعني أنك قد خدشتها.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥١/٩)، وزاد المسير (٢١٤/٤)، ومعاني القرآن (٤١٩/٣).

ومعنى ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أعظمنه. ويقال: أكبرنه: حضن. وقد رويت عن مجاهد. وليس ذلك بمعروف في اللغة، وقد أنشدوا بيتاً في هذا وهو قوله:

يأتي النِّسَاء عَلَى أَطْهَارِهنَّ وَلا يأتي النِّسَاءَ إِذَا أَكْبرنَ إِكْبَارا[1]

وهذه اللفظة ليست بمعروفة في اللغة. والهاء في ((أكبرنه)) تنفي هذا، لأنه لا يجوز أن يقول: النساء قد حضنه يا هذا، لأن حضن لا يتعدى إلى مفعول.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾؛ و((حاشى لله))، يقرأن -بحذف الألف وإثباتها- ومعناه: الاستثناء.

المعنى فيما فسره أهل التفسير: وقلن معاذ الله ما هذا بشراً، وأما على مذهب المحققين من أهل اللغة، فحاشا مشتقة من قولك: كنت في حشا فلان، أي: في ناحية فلان؛ فالمعنى: في ((حاش الله)) براه الله من هذا. من التنحي.

المعنى: قد نحى الله هذا من هذا، إذا قلت حاشا لزيد من هذا فمعناه قد تنحى زيد من هذا، وتباعد منه، كما أنك تقول قد تنحى من الناحية، وكذلك قد تحاشى، من هذا الفعل.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا هَذَا بَشَراً﴾؛ هذه القراءة المعروفة، وقد رويت: ((ما هذا بِشرىً))، أي: ما هذا بعد مشترى. وهذه القراءة ليست بشيء، لأن مثل ((بِشَرىً)) يكتب في المصحف بالياء، وقولها: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ((ملك)) مطابق في اللفظ لبشر.

وسيبويه، والخليل وجميع النحويين القدماء يزعمون أن ((بشراً)) منصوب. خبر ((ما)) ويجعلونه بمنزلة ليس و((ما)) معناها معنى ليس في النفي، وهذه لغة أهل الحجاز، وهي اللغة القدمى الجيدة.

وزعم بعضهم: أن الرفع في قولك: ﴿مَا هَذَا بَشَراً﴾ أقوى الوجهين، وهذا غلط، لأن كتاب الله ولغة رسول الله أقوى الأشياء وأقوى اللغات. ولغة بني تميم: ما هذا بشرٌ. ولا تجوز القراءة بها إلا برواية صحيحة. والدليل على ذلك إجماعهم على: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾[المجادلة: ٢] وما قرأ أحد ما هن أمهاتُهم.

وقوله: ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾؛ القراءة الجيدة تخفيف ((ليكوناً)). والوقوف عليها بالألف، لأن النون الخفيفة تبدل منها في الوقف الألف، تقول: اضرباً

---

(١) انظر: روح المعاني (١٢/٢٢٩).

زيداً، فإذا وقفت قلت: اضربا، كما أبدلت في: رأيت زيداً الألف من التنوين، وقد قرئت: ((ولتكونن)) بتشديد النون، وأكرهها لخلاف المصحف، لأن الشديدة لا يبدل منها شيء.

﴿مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾؛ من المذلين.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي﴾؛ و((السَّجن)) جميعاً بكسر السين وفتحها، فمن فتح فعلى المصدر؛ المعنى: أن أسجن أحب إلي، ومن كسر فعلى اسم المكان، فيكون المعنى: نزول السجن أحب إلي مما يدعونني إليه، أي: من ركوب المعصية.

﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾؛ أي: إلا تعصمني أصب إليهن، أي: أمل إليهن. يقال: صبا إلى اللهو يصبو صبواً، وصبياً، وصباً، إذا مال إليه.

وقال: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾؛ وجائز أن يكون يعني امرأة العزيز وحدها، إلا إنه أراد كيدها وكيد جميع النساء، وجائز أن يكون كيدها وكيد النسوة اللاتي رأين يوسف حين أرتهن إياه.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾؛ ولم يقل فحبس لأن في قوله: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ﴾ دليلاً أنه حبس.

و ((فتيان)) جائز أن يكونا حدثين أو شيخين، لأنهم كانوا يسمون المملوك فتى.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾؛ ولم يقل: ((إني أراني في النوم أعصر خمراً، لأن الحال تدل على أنه ليس يرى نفسه في اليقظة يعصر خمراً، وقال أهل اللغة: الخمر في لغة عمان اسم للعنب، فكأنه قال: أراني أعصر عنباً، ويجوز أن يكون عني الخمر بعينها، لأنه يقال للذي يصنع من التمر الدِّبْس: ((هذا يعمل دِبْساً))، وإنما يعمل خمراً، أي: أعصر عنب الخمر أي: العنب الذي يكون عصيره خمراً.

﴿وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾؛ أي: تأويل ما رأينا.

وقولهما ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ يدل على أنهما رأيا ذلك في النوم، لأنه لا تأويل لرؤية اليقظة غير ما يراه الإنسان.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ جاء في النفسير: أنه كان يعين المظلوم الضعيف، ويعود العليل، وقيل: من المحسنين، أي: ممن يحسن التأويل. وهذا دليل أن أمر الرؤية صحيح، وأنها لم تزل في الأمم الخالية، ومن دفع أمر الرؤيا وأنه منها ما يصح فليس بمسلم لأنه

يدفع القرآن والأثر عن رسول الله ﷺ لأنه روى عن رسول الله أن الرؤيا جزء من أربعين جزءاً من النبوة.

وتأويله أنَ الأنبياء يخبرون بما سيكون. والرؤيا الصادقة تدل على ما سيكون.

﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن﴾؛ وليس هذا جواب ما سألا عنه، إنما سألا أن يخبرهما بتأويل ما رأياه فأحب يوسف -عليه السلام- أن يدعوهما إلى الإيمان وأن يعلمهما أنه نبي، وأن يدلهما على نبوته بأية معجزة، فأعلمهما أنه يخبرهما بكل طعام يؤتيان به قبل أن يرياه، ثم أعلمهما أن كل ذلك مما عرفه الله إياه فقال:

﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾؛ أي: لست أخبركما على جهة التكهن، والتنجم، إنما أخبركما بوحي من الله وعلم، ثم أعلمهما أن هذا لا يكون إلا لمؤمن بنبي فقال:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾؛ أي: اتباعنا الإيمان بتوفيق الله لنا وبفضله علينا ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ بأن دلهم على دينه المؤدي إلى صلاحهم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾؛ ثم قال لهما:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾؛ فدعاهم إلى توحيد الله بعد أن علمهما أنه يخبرهما يالغيب.

ثم قال ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتم وَآبَاؤُكُم﴾؛ أي: أنتم جعلتم هذه الأسماء آلهة. ثم أخبرهم بتأويل الرؤيا بعد أن دعاهم إلى الإيمان. فأما تكرير قوله ((هم)) فعلى جهة التوكيد.

وقوله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾؛ فكان هذا صاحب شراب الملك، فأعلمه أن تأويله ما رأى هو هذا.

ويجوز ((فَيُسقي))، والأجود: فَيَسقي، تقول: سقيتة بمنزلة ناولته فشرب. وأسقيته جعلت له سَقياً، تقول: أسقيته من كذا وكذا أي: جعلت له سقياً.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ لما تأول لهما الرؤيا قال الذي أنبأه بأنه يصلب إنه لم ير شَيئاً فأعلمه أن ذلك واقع به وإن لم ير، كما أعلمهما بخبر ما يأتيهما من الطعام.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾؛ أي: عند الملك صاحبك.

﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾؛ أنسة يوسف الشيطان أن يذكر الله.

﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾؛ اختلفوا في ((البضع)):

فقال بعضهم: البضع ما بين الثلاث إلى الخمس، وقال قطرب: إلى السبع، وقال الأصمعي وهو القول الصحيح: البضع ما بين الثلاث إلى التسع، واشتقاق البضع والبضعة من قطعت الشيء فمعناه القطعة من العدد، فجعل لما دون العشرة من الثلاث إلى التسع.

وقوله -عز وجل-: ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾؛ العجاف: التي قد بلغت الهزال الغاية والنهاية.

﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾؛ الملأ: الذين يرجع إليهم في الأمور، ويقتدي بآرائهم.

﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾؛ هذه اللام أدخلت على المفعول للتبيين؛ المعنى: إن كنتم تعبرون وعابرين ثم بيّن باللام فقال ﴿لِلرُّؤْيَا﴾.

ومعنى: عبرت الرؤيا وعبرتها: خبرت بآخر ما يؤول إليه أمرها. واشتقاقه من عبر النهر، وهو شاطئ النهر، فتأويل: عبرت النهر، أي: بلغت إلى عبره، أي: شاطئه، وهو آخر عرضه.

﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾؛ والضغث في اللغة: الحزمة و الباقة من الشيء، كالبقل وما أشبهه، فقالوا له: رؤياك أضغاث أحلام، أي: حزم أخلاط ليست برؤيا بينة.

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ﴾؛ أي: ليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾؛ أي: بعد حين، وقرأ ابن عباس: واذكر بعد أمهٍ، والأَمَهُ: النسيان، يقال: أَمه يأمَهُ أَمَهاً. هذا الصحيح بفتح الميم، وروى بعضهم عن أبي عبيدة: أمْه بسكون الميم، وليس ذلك بصحيح عنه، لأن المصدر أنه يَأْمَه أَمَه لا غير.

وقرأ الحسن: ((أنا أتيكم بتأويله))، وأكرهها، لخلاف المصحف.

و((ادكر)) أصله: واذتكر، ولكن التاء أبدل منها الدال وادغمت الذال في الدال. ويجوز ((واذكر)) بالذال، والأجود الدال.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾؛ أراد يا يوسف، والنداء يجوز في المعرفة حذف ياء منه، فتقول: يا زيد أقبل، وزيد أقبل، قال الشاعر:

مُحَمَّدُ نَفْدِ نَفْسَكَ كُل نَفْسٍ إِذَا مَا خِفْتَ مِن أَمْرٍ تَبَالا

أراد يا محمد.

والصديق المبالغ في الصِدقة، والتصديق.

وقوله: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لعلهم يعلمون تأويل رؤيا الملك، ويجوز أن يكون: لعلهم يعلمون مكانك فيكون ذلك سبب خلاصك من الحبس.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً﴾؛ أي: تدأبون دأباً، ودل على تدأبون ﴿تَزْرَعُونَ﴾؛ والدأب الملازمة للشيء والعادة.

وقوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾؛ وقرئت: ((وفيه يُعْصِرون)).

فمن قال ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ بالياء أي: يأتي العام بعد أربع عشرة سنة الذي فيه يغاث الناس فيعصرون فيه الزيت والعنب، ومن قرأ ((يُعْصِرون)) أراد يمصرون، من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً﴾[النبأ: ١٤]، ومن قرأ: ((وفيه تعصرون))، فإن شاء كان على تأويل يعصرون، وإن شاء كان على تأويل وفيه تنجون من البلاء، وتعتصمون. قال عدي بن زيد [من الرمل]:

لَو بِغَيرِ الماءِ حَلقي شَرِقٌ كَنتُ كَالغَصّانِ بِالماءِ اِعتِصاري[1]

ويقال: فلان في عصر وفي عصرة، إذا كان في حصن لا يقدر عليه.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾؛ لما أعلم بمكانه من العلم بالتأويل طلبه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ﴾؛ أي: إلى صاحبك، ورب الشيء صاحبه.

﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ ويجوز ((اللائي قَطَعن))، أي: اسأله أن يستعمل صحة براءتي مما قرفت به.

ويروى أن النبي ﷺ قال: ((لو كنت في مكان يوسف ثم جاءني الرسول لبادرت إليه))، أنه ﷺ استحسن حزم يوسف وصبره حين دعاه الملك فلم يبادر إليه حتى يعلم أنه قد استقر عند الملك صحة براءته.

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/٢٣٥)، وكتاب اللامات (١/١٢٨)، ومغني اللبيب (١/٣٥٤)، والأغاني (٢/١٠٦)، والبيان والتبيين (١/٣٩٠)، وشرح كتاب الأمثال (١/٢٦٥)، وقرى الضيف (٢/١٠٢)، وكتاب جمهرة الأمثال (٢/٢٠٣)، ومجمع الأمثال (٢/٣١٧)، ولسان العرب (٤/٥٧٥)، وتاج العروس (١/٣٢٠٤).

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ﴾؛ لم يفرد يوسف -عليه السلام- امرأة العزيز بالذكر، حسن عشرة منه وأدب. فخلطها بالنسوة.

وقوله: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾؛ قرئت ((حاش لله)) و ((حاشى لله)) وقرأ الحسن: حاشْ لله بتسكين الشين.

ولا اختلاف بين النحويين أن الإسكان غير جائز، لأن الجمع بين ساكنين لا يجوز ولا هو من كلام العرب.

﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾؛ فأعلم النسوة الملك ببراءة يوسف.

وقالت امرأة العزيز: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾؛ أي: برز وتبين، واشتقاقه في اللغة من الحِصَّة، أي: بانت حصة الحق وجهته من جهة الباطل.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ هذا قول يوسف -عليه السلام-.

المعنى: إني أردت التبين للملك أمر أمراته والنسوة، ليعلم أني لم أخنه بالغيب.

و((ذلك)) مرفوع بالابتداء، وإن شئت على خبر الابتداء، كأنه قال: أمري ذلك.

ويروى أن جبريل -عليه السلام- قال له: ولا حين حللت التكة، وقيل: ولا حين هممت، فقال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ موضع ((ما)) نصب على الاستثناء.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾؛ جزم جواب الأمر، ومعنى استخلصه أي: اجعلة خالصاً لي، لا يشركني فيه أحد.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾؛ أي: عرفنا أمانتك وبراءتك مما قرفت به.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾؛ أي: على أموالها.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: أحفظها وأعلم وجوه متصرفاتها.

وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض لأن الأنبياء بعثوا لإقامة الحق والعدل ووضع الأشياء مواضعها، فعلم يوسف -عليه السلام- أنه لا أحد أقوم بذلك منه، ولا أوضع له في مواضعها فسأل ذلك إرادة للصلاح.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُم مِنْ أَبِيكُمْ﴾؛ وهذا -والله أعلم- قد كان قبله كلام جر إليه ما يوجب طلب أخيهم منهم، لأنه يقول ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُم مِنْ أَبِيكُمْ﴾ من غير أن يدري ما يوجب هذا القول.

فكأنه -والله أعلم- سألهم عن أخبارهم وأمرهم وعددهم، فاجترأ لقول هذه المسألة.

﴿أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ المُنزِلِينَ﴾؛ لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم.

وقوله: ﴿فَإِن لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾؛ القراءة بكسر النون، ويجوز الفتح بفتح النون لأنها نون جماعة كما قال: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾[الحجر: ٥٤] بفتح النون، وتكون ﴿وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ لفظه لفظ الخبر ومعناه معنى الأمر.

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾؛ ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ توكيد.

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ﴾؛ و((لفتيته))، قرئتا جميعاً، والفتيان والفتية: المماليك في هذا الموضع.

﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾؛ وفي هذا وجهان، أي: إذا رأوا بضاعتهم مردودة عليهم، علموا أن ما كيل لهم من الطعام لم يؤخذ منهم ثمنه، وأن وضع البضاعة في الرحال لم يكن إلا عن أمر يوسف، ويجوز أن يكون ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يردون البضاعة، لأنها ثمن ما اكتالوه. ولأنهم لا يأخذون شَيْئاً إلا بثمنه.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؛ أي: إن أرسلته معنا اكتلنا، وإلا فقد منعنا الكيل.

﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: كذلك قلتم لي في يوسف: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ فقد ضمنتم لي حفظ يوسف وكذلك ضمانكم هذا عندي.

﴿فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظاً﴾؛ وتقرأ ((حفظاً))؛ وحفظاً: منصوب على التمييز، و ﴿حَافِظاً﴾ منصوب على الحال ويجوز أن يكون ((حافظاً)) على التمييز أيضاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِم﴾؛ وتقرأ ﴿رِدَّتْ﴾ بكسر الراء، والأصل: رددت، فأدغمت الدال الأولى في الثانية وبقيت الراء مضمومة. ومن كسر الراء جعل كسرتها منقولة من الدال، كما فعل ذلك في: قيل وبيع، لتدل أن أصل الدال الكسر.

وقد حكى قطرب أنه يقال في: ((ضُرِب زيد)): ضُرْب زيد وضِرْب زيد بكسر الضاد. أسكن الراء، ونقل كسرتها إلى الضاد، وعلى هذه اللغة يجوز في ((كَبِدٍ)): كِبْد.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾؛ أي: ما نريد، ((وما)) في موضع نصب.

المعنى: أي: شيء نريد وقد ردت علينا بضاعتنا، ويجوز أن يكون ((ما)) نفياً كأنهم قالوا ما نبغي شيْئاً.

﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾؛ يقال: مرتهم أميرهم ميراً إذا أتيتهم بالمير.

﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾؛ لأنه كان يكال لكل رجل وقر بعير.

﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾؛ أي: ذلك كيل سهل، أي: سهل على الذي يمضي إليه.

﴿إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾؛ فموضع ((أن)) نصب.

والمعنى: لتأتنني به إلا لإحاطة بكم، أي: لا لتمتنعوا من الإتيان به إلا لهذا، وهذا يسمى مفعولاً له، وإلا ههنا تأتي بمعنى تحقيق الجزاء، تقول: ما تأتي إلا لأخذ الدراهم وإلا أن تأخذ الدراهم.

ومعنى الإحاطة بهم، أن يحال بينهم وبينه فلا يقدروا على الإتيان به.

﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾؛ قد خاف عليهم العين.

وأمر العين صحيح -والله أعلم- وقد روي عن النبي ﷺ أنه عَوَّذ الحسن والحسين فقال في دعوته: ((وأعيذكما من كل عين لامة)).

وقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾؛ أي: إلا خوف العين.

وتأويل ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِنَ اللهِ مِن شَيْءٍ﴾ لو قدر أن تصيبهم لأصابتهم وهم متفرقون كما تصيبهم مجتمعين، وجائز أن يكون: لا يغني مع قضاء الله شيء.

﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾؛ أي: لذو علم لتعليمنا إياه.

ونصب ((حاجة)) استثناء ليس من الأول؛ المعنى: لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها.

وقوله -عز وجل-: ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾؛ أي: ضم إليه أخاه.

﴿فَلاَ تَبْتَئِسْ﴾: أي: لا تحزن ولا تستكن.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي: أعلم معلم، يقال: أذنته بالشيء فهو مؤذن به أي: أعلمته وأذنت أكثرت الإعلام بالشيء.

﴿أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾؛ المعنى: يا أيها الأصحاب للعير.

ولكن قال: ﴿أَيَّتُهَا العِيرُ﴾، وهو يريد أهل العير، كما قال: ﴿وَاسْأَلِ القَرْيَةَ﴾ يريد أهل القرية وأنث ((أيا)) لأنه جعلها للعير.

وقوله: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ﴾؛ وقرئت ((صَوَاع الملك))، وقرئت ((صَاعَ الملك))، قرأ أبو هريرة ((صاغ الملك)) وقرئت: ((صوغ الملك)) بالغين المعجمة.

﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾؛ أي: حمل بعير من الطعام.

﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾؛ أي: كفيل.

الصواع: هو الصاع بعينه، وهو يذكر ويؤنث، وكذلك الصاع يذكر ويؤنث، وجاء في التفسير: أنه إناء مستطيل يشبه المكوك، كان يشرب به الملك، وهو السقاية. وقيل: إنه كان مصنوعاً من فضة مموهاً بذهب، وقيل: إنه كان من مس، وقيل: إنه كان يشبه الطاس.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ﴾؛ معنى ((تالله)): والله ؛ إلا أن التاء لا يقسم بها 'لا في ((الله)) لا يجوز ((تالرحمن ولا تربي لأفعلن))، والتاء بدل من الواو كما قالوا في وراث: ((تُرَاث))، وكما قالوا: ((يتزن))، وأصله يوتزن: من الوزن.

وإنما قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ﴾، لأنهم كانوا لا ينزلون على قوم ظلماً. ولا يرعون زرع أحد. وجعلوا على أفواه إبلهم الأكمه لئلا تعبث في زرع، وقالوا:

﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾؛ لأنهم قد كانوا فيما روي ردوا البضاعة التي وجدوها في رحالهم، أي: فمن رد ما وجده كيف يكون سارقاً.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: مثل هذا الجزاء نجزي الظالمين.

وكان جزاء السارق عندهم أن يستعبد بسرقته، يصير عبداً لأنه سرق.

فأما رفع ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ فمن جهتين:

أحدهما: أن هو جزاؤه ابتداء، ويكون ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ الخبر، ويكون المعنى: جزاء السرق الإنسان الموجود في رحله السرق. ويكون قوله ﴿فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ زيادة في الإبانة.

كما تقول: جزاء السارق القطع فهو جزاؤه. فهذا جزاؤه، زيادة في الإبانه.

ويجوز أن يكون يرتفع بالابتداء، ويكون ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ هذه الجملة خبر الجزاء، والعائد عليه من الجمله ((جَزَاؤُهُ)) الذي بعد قوله ﴿فَهُوَ﴾ كأنه قيل: قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو هو، أي: فهو الجزاء.

ولكن الإظهار كان أحسن ههنا لئلا يقع في الكلام لبس، ولئلا يتوهم أن ((هو)) إذا عادت ثانيه فليست يراجعة على الجزاء، والعرب إذا أقحمت أمر الشيء جعلت العائد عليه إعادة لفظة بعينه، أنشد جميع النحويين [1] [من الخفيف]:

لا أَرى المَوتَ يَسبِقُ المَوتَ شَيءٌ نَغَّصَ المَوتُ ذا الغِنى وَالفَقيرا[2]

ولم يقل: لا أرى الموت يسبقه شيء.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾؛ رجع بالتأنيث على السقاية، ويجوز أن يكون أنث الصواع.

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾؛ أي: في سيرة الملك، وما يدين به الملك، لأن السارق في دين الملك كان يغرم مثلي ما سرق، وكان عند آل يعقوب وفي مذهبهم أن يصير السارق عبداً يسترقه صاحب الشيء المسروق.

﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ موضع ((أن)) نصب، لما سقطت الباء أفضى الفعل فنصب؛ المعنى: ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا بمشيئة الله.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ﴾؛ على إضافة الدرجات إلى ((من)) ويجوز درجات بالتنوين، على أن يكون ((من)) في موضع نصب.

---

(١) البيت لعدي بن ثابت.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/٣٨٨)، وتفسير ابن كثير (١/١٨١)، وتفسير القرطبي (١/٤٥٤)، وفتح القدير (١/١٤١)، وروح المعاني (١/٣٣٤)، وزاد المسير (١/٢٢٧)، ومعاني القرآن (١/٣٨٥)، والخصائص (٣/٥٣)، ومغني اللبيب (١/٦٥٠)، وشرح كتاب الأمثال (١/٢٣٢)، ولسان العرب (٧/٩٩)، وتاج العروس (١/٤٥٤٧).

المعنى: نرفع من نشاء درجات. ويجوز رفع ((درجاتٌ من نشاء))، وهي حسنة، ولا أعلمها رويت فلا تقرأن بها إن لم تصح فيها رواية.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾؛ قيل: في التفسير: فوق كل ذي علم عليم حتى ينتهي العلم إلى الله -عز وجل-.

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ﴾؛ يعنون يوسف.

ويروى أنه كان في صغره أخذ صورة مما كان يتعبد به بعض من يخالف أهل ملة الإسلام من ذهب، وهذا الذي أخذه كان على جهة الإنكار، لئلا يعظم مثل ذلك.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾؛ أي: لم يظهرها لهم.

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾؛ وهذا إضمار على شريطة التفسير.

لأن قوله ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾ بدل من ((ها)) في قوله: ﴿فَأَسَرَّهَا﴾.

المعنى:. فأسر يوسف في نفسه قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَكَاناً﴾؛ المعنى: -والله أعلم- أنتم شر مكاناً في السرق بالصحة لأنكم سرقتم أخاكم من أبيكم.

﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: الله أعلم أسرق أخ له أم لا.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا العَزِيزُ﴾؛ والعزيز: الملك.

﴿إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً﴾؛ ﴿شَيْخاً﴾ من نعت أب، وأب: منصوب بـ((إن))، و ﴿كَبِيراً﴾ من نعت شيخ.

﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ المُحْسِنِينَ﴾؛ أي: ممن يحسن ولا يعامل بالتحديد في واجب لأنه كان أعطاهم الطعام وأعطاهم ثمنه في رده البضاعة لهم، فطالبوه بأن يحسن.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾؛ ﴿مَعَاذَ اللهِ﴾ منصوب على المصدر.

المعنى: أعوذ بالله معاذاً، وموضع ((أن)) نصب.

المعنى: أعوذ بالله من أَخذِ أحد إلا من وجدنا متاعنا عنده، فلما سقطت ((من)) أفضى الفعل فنصب.

﴿إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾؛ أي: إن أخذنا غيره فنحن ظالمون.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِياً﴾؛ المعنى: خلصوا يتناجون.

أي: خلصوا متناجين فيما يعملون في ذهابهم إلى أبيهم، وليس معهم أخوهم، و((نجيا)) لفظ واحد في معنى جمع، وكذلك ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾[الإسراء: ٤٧]؛ ويجوز قوم نجيٌّ وقوم نجوى وقوم أنجية، قال الشاعر[١]:

إِنِّي إذا مَا القَوْمُ كانُوا أَنْجِيَهْ
واضْطرب القَوْمُ اضْطرابَ الأَرْشِيَهْ
هُناكِ أَوْصِينِي ولا تُوصِي بِيَهْ [٢]

ومعنى ﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا وليس معهم أخوهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾؛ أجود الأوجه أن يكون ((ما)) لغواً، فيكون المعنى: ومن قبل فرطتم في يوسف، ويجوز أن يكون ((ما)) في موضع رفع، فيكون المعنى: ومن قبل تفريطكم في يوسف، أي: وقع تفريطكم في يوسف، ويجوز أن يكون ((ما)) في موضع نصب نسق على ((أن))؛ المعنى: ألم تعلموا أن أباكم، وتعلموا تفريطكم في يوسف.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾؛ أي: لن أبرح أرض مصر، وإلا فالناس كلهم على الأرض.

﴿أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي﴾؛ نسق على ﴿حَتَّى يَأْذَنَ﴾، ويجوز أن يكون ((أو)) على جواب ((لن))؛ المعنى: لن أبرح الأرض حتى يحكم الله لي.

وقوله: ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾؛ ويجوز: ((سُرِّق))، إلا أن سرق أكد في القراءة، وسُرِّق يكون على ضربين؛ سُرِّق: علم أنه سرق، وسُرِّق: اتهم بالسرقة.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ﴾؛ أي: زينت لكم أنفسكم، وحببت إليكم أنفسكم.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾؛ المعنى: فأمري صبر جميل أو فصبري صبر جميل، وقد فسرنا هذا فيما سبق من السور.

---

(١) هو: سُحَيْم بن وَثِيل اليَرْبُوعِي انظر: اللسان مادة ((نجا)).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٩/٢٠٥)، وزاد المسير (٤/٢٦٦)، والكشاف (١/٥٩٩)، ومغني اللبيب (١/٧٦٢)، ولسان العرب (١٤/٣٤٥).

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾؛ معناه: يا حزناه، والأصل: يا أسفي إلا أن ((يا)) الإضافة يجوز أن تبدل ألفاً لخفة الألف والفتحة.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾: أي: محزون.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾؛ معنى ((تالله)): والله و((لا)) مضمرة.

المعنى: والله تفتأ تذكر يوسف أي: لا تزال تذكر يوسف.

﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾؛ والحرض: الفاسد في جسمه، أي: حتى تكون مدنفاً مريضاً. والحرض: الفاسد في أخلاقه، وقولهم: حَرَّضت فلاناً على فلان، تأويله أفسدته عليه.

وإنما جاز إضمار ((لا)) في قوله ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ لأنه لا يجوز في القسم تالله تفعل حتى تقول: ((لتفعلن أو لا تفعل)). والقسم لا يجوز للناس إلا بالله -عز وجل-، ولا يجوز أن يحلف الرجل بأبيه، ولا ينبغي أن يحلف بالأنبياء، ولا يحلف إلا بالله.

ويروى عن النبي -عليه السلام- أنه قال لعمر: ((لا تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله)).

فإن قال القائل: فما مجاز القسم في كتاب الله -عز وجل- في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾[الليل: ١]، ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾[البروج: ١]، ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[التين: ١] وما أشبه هذه الأشياء التي ذكرها الله -جل جلاله- في كتابه، ففيها أوجه كلها قد ذكرها البصريون، فقالوا: جائز أن يكون الله -عز وجل- أقسم بها لأن فيها كلها دليلاً عليه وآيات بينات، قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ١٦٤]. وقال: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دآبة آيَاتٌ﴾[الجاثية: ٤]؛ فكأن القسم بهذا يدل على عظمة الله.

وقال قطرب: جائز أن يكون معناها: ورب الشمس وضحاها، ورب التين والزيتون، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾[البروج: ١]، وقال: ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾[الشمس: ٦]، وقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[الذاريات: ٢٣].

وقالوا أيضاً: جائز أن يكون وخلق السماوات والأرض، وخلق التين والزيتون.

وقالوا: يجوز أن يكون لما كان معنى القسم معنى التحقيق، وأن هذه الأشياء التي أقسم الله بها حق كلها، وكذلك ما أقسم عليه حق؛ فالمعنى: كما أن التين والزيتون حق، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم.

وأجود هذه الأقوال ما بدأنا به في أولها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾؛ قالوا ﴿مُزْجَاةٍ﴾ قليلة، وقالوا كانوا جاؤوا بمتاع الأعراب كالصوف والسمن، وما أشبه ذلك مما يبيعه الأعراب.

قيل: إن البضاعة كانت مما لا يتفق مثله في الطعام، لأن متاع الأعراب كذلك كان تحته رديء المال. وتأويله في اللغة: أن التزجية الشيء القليل الذي يدافع به، تقول: فلان يزجي العيش أي: يدفع بالقليل ويكتفي به.

فالمعنى على هذا: إنا جئنا ببضاعة إنما يدافع بها أي: يتقوت، ليس مما يتسع به، قال الشاعر[(١)] [من الكامل]:

الواهِبُ المائةِ الهِجانَ وَعَبدَها عوذاً تُزَجّي خَلفَها أَطفالَها[(٢)]

أي: تدفع أطفالها.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ﴾؛ فيها أربعة أوجه:

يجمع الهمزتين، ((قالوا أئنك)) على تحقيقهما، ويجوز ((أئنك)) على أن يجعل الثانية بين الياء والهمزة، وقرئت ((أئنك)) على ((أنك)) بفصل بين الهمزتين بألف لاجتماع الهمزتين، قال الشاعر [من الطويل]:

أيا ظبية الوعساء بين جلاجلٍ وبين النقا أأنت أَم أُمّ سالم[(٣)]

ويجوز قالوا: ((إنك لأنت)) على لفظ الخبر.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾؛ أي: لا إفساد عليكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ﴾؛ معناه:لولا أن تجهلون، ويروى: تسفهون.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾؛ يقال: ((قد خَطِئ يَخْطَأ خَطَأً وخِطَأً، وأَخْطَأَ يُخْطِئُ إِخْطَاءً))، قال امرؤ القيس [من الرجز]:

يــا لَهــفَ هِــندٍ إذ خَطِــئنَ كــاهِلا

---

(١) هو: الأعشى.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧/٢٨٥)، وتفسير ابن كثير (٢/٦٤١)، وفتح القدير (٣/٣٤٨)، وزاد المسير (٤/ ٢٧٨)، والأصول في النحو (١/١٣٤).

(٣) انظر: لسان العرب (١٥/٤٢٦).

القاتِلــــينَ المَلِــــكَ الحُلاحِـــــلا[1]

وقوله -عز وجل-: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾؛ قال ذلك يعقوب إرادة أن يستغفر لهم في وقت وجه السحر، في الوقت الذي هو لإجابة الدعاء لا أنه ضن بالاستغفار وذلك أشبه بأخلاق الأنبياء، أعني المبالغة في الاستغفار، وتعمد وقت الإجابة.

﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾؛ أي: ضم إليه أبويه.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ﴾؛ ﴿العَرْشِ﴾ السرير.

﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾؛ كان من سنه التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظم، وقيل: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾: وخروا لله.

وقوله -عز وجل-: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأحاديث﴾ فيها قولان، -أعني- في دخول ((من)):

جائز أن يكون أراد علمتني بعض التأويل، وآتيتني بعض الملك، وجائز أن يكون دخول ((من)) لتبين هذا الجنس من سائر الأجناس، ويكون المعنى: رب قد آتيتني الملك وعلمتني تأويل الأحاديث، مثل قوله -عز وجل-: ﴿تُؤْتِي المُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ المُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾[آل عمران: ٢٦] يدل على أن ((من)) ههنا إنما هي لتبين الجنس، ومثله قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[الحج: ٣٠] ولم يؤمروا باجتناب بعض الأوثان.

ولكن المعنى: واجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ ينتصب على وجهين:

أحدهما: على الصفة لقوله ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي﴾؛ والمعنى: يا رب قد آتيتني، وهذا نداء مضاف في موضع نصب، ويكون ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ صفة للأول، وجائز أن ينتصب على نداء ثان، فيكون المعنى: يا فاطر السماوات والأرض.

﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ أي: ألحقني بمراتبهم من رحمتك وغفرانك.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾؛ هذا خطاب للنبي -عليه السلام-.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٧٣/٨)، والأغاني (١٠٦/٩)، ومجمع الأمثال (٧٨/١)، ولسان العرب (٦٥/١)، وتاج العروس (١٠٧/١).

المعنى: الذي قصصنا عليك من أمر يوسف وإخوته من الأخبار التي كانت غائبة عنك.

فأنزلت عليه دلالة على إثبات[1] نبوته، وإنذاراً وتيسيراً بتفصيل قصص الأمم السالفة.

وموضع ﴿ذَلِكَ﴾ رفع بالابتداء ويكون خبره ﴿أَنبَاءِ الغَيْبِ﴾، ويكون ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبراً ثانياً، وإن شئت جعلت ﴿نُوحِيهِ﴾ هو الخبر، وجعلت ذلك في موضع الذي.

المعنى: الذي من أنباء الغيب نوحيه إليك ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَكثر النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾؛ معناه: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: وما تسألهم على القرآن وتلاوته وهدايتك إياهم من أجر، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾؛ أي: ما هو إلا تذكره لهم، بما هو صلاحهم ونجاتهم من النار ودخولهم الجنه وإنذارهم وتبشيرهم، فكل الصلاح فيه.

﴿وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ أي: من علامة ودلالة تدلهم على توحيد الله، من السماء وأنها بغير عمد لا تقع على الأرض، وفيها من مجرى الشمس والقمر ما فيها، وفيها أعظم البرهان والدليل على أن الذي خلقها واحد، وأن لها خالقاً، وكذلك فيما يشاهد في الأرض من نباتها وبحارها وجبالها.

﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ أي: لا يفكرون فيما يدلهم على توحيد الله -عز وجل- والدليل على أنهم لا يفكرون فيما يستدلون به قوله -عز وجل-:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُشْرِكُونَ﴾؛ أي: إن اعترفوا بأن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض، أشركوا في عبادته الأصنام، وأشركوا غير الأصنام.

﴿أَفَأَمِنُوا أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ﴾؛ أي: أن يأتيهم ما يعجزهم من العذاب.

﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة.

و﴿بَغْتَةً﴾ مصدر منصوب على الحال، تقول: لقيته بغتة وفجأة، ومعناه: من حيث لم أتوقع أن ألقاه.

---

(١) الكلام على نبينا صلوات ربي وسلامه عليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؛ وفي غير موضع ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ﴾[الأنعام: ٣٢]، فمن قال ((الدار الآخرة)) فالآخرة نعت للدار، لأن لجميع الخلق دارين، الدار التي خلقوا فيها وهي الدنيا، والدار الآخرة التي يعادون فيها خلقاً جديداً، ومن قال ((دار الآخرة)) فكأنه قال: ودار الحال الآخرة، لأن للناس حالين، حال الدنيا وحال الآخرة.

ومثل هذا في الكلام الصلاة الأولى، وصلاة الأولى. فمن قال الصلاة الأولى جعل الأولى نعتاً للصلاة، ومن قال صلاة الأولى أراد صلاة الفريضة الأولى، والساعة الأولى.

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾؛ قرئت: ((كُذِّبوا وكُذِبُوا))، بالتخفيف والتشديد، وقرئت ((وكَذَبُوا)).

فأما من قرأ: ((وظنوا أنهم قد كُذِّبُوا)) بالتشديد؛ فالمعنى: حتى إذا استيأس الرسل من أن يصدقهم قومهم جاءهم نصرنا. ومن قرأ: ((قَدْ كُذِبُوا)) بالتخفيف؛ فالمعنى: وظن قومهم أنهم قد كذبوا فيما وعدوا، لأن الرسل لا يظنون ذلك. وقد قال بعضهم وظنوا أنهم قد أخلفوا أي: ظن الرسل، وذلك بعيد في صفة الرسل.

يروى عن عائشة أن النبي ﷺ لم يوعد شَيْئاً أخلف فيه، وفي الخبر: ((ومعاذ الله أن يظن الرسل هذا بربها)).

ومعنى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ ظن قومهم أيضاً أنهم قد كذبوا.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَنُجِّيَ مَن نَشَاءُ﴾؛ قرئت: ((فَنُجِّيَ، وفَنُجِي))، وقرئت: ((فنجا من نشاء))، وقرأ عاصم: ((فَنُجِّيَ من نشاء)) بفتح الياء، فأما من قرأ ((فَنُجِي)) فعلى الاستقبال، والنون نون الاستقبال، أعني النون الأولى، ومن قرأ ((فنُنْجيْ)) - بإسكان الياء، فحذف النون الثانية لاجتماع النونين، كما تقول: أنت تبين هذا الأمر، تريد تتبين، فحذف لاجتماع تاءين، ومن قرأ: ((فنجا من نشاء)) عطف على قوله: ((جاءهم نصرنا فنجا من نشاء)) على لفظ الفعل الماضي، ومن قرأ ((فَنُجِّيَ من نشاء)). فمعنى الماضي على ما لم يسم فاعله، ويكون موضع ((من)) رفعاً. ويعلم بالمعنى أن الله -عز وجل- نجاهم.

وقوله -عز وجل- ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: الذي تقدمه من الكتب.

ونصب تصديقاً على معنى ((كان)).

المعنى: ما كان حديثاً يفترى ولكن كان تصديق الذي بين يديه، ويجوز: ﴿مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ فمن قرأ هكذا رفع الباقي المعطوف على تصديق، ويكون مرتفعاً على معنى: ولكن هو تصديق الذي بين يديه، ويكون ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ نسقاً عليه.

وهذا لم تثبت بقراءته رواية صحيحة، وإن كان جائزاً في العربية لا اختلاف بين النحويين في أنه جيد بالغ، فلا تقرأن به ولا تخالف الإجماع بمذاهب النحويين.

* * *

سورة الرعد (١)

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الـمر﴾؛ قد فسرنا في سورة البقرة ما قيل في هذا وأشباهه، وروي أن معناه: أنا الله أرى، وروي: أنا الله أعلم وأرى، وروي أن ((الـمر)) حروف تدل على اسم الرب جل جلاله.

وقوله -تعالى-: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ﴾؛ جاء في التفسير أن الذي قبل القرآن آيات الكتاب.

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة الرعد من سور القرآن الكريم المدنية. ترتيبها في المصحف الشريف الثالثة عشرة. عدد آياتها ثلاث وأربعون آية. جاءت تسميتها الرعد لما ذكر فيها من تلك الظاهرة الكونية العجيبة، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه، فالماء جعله الله سببًا للحياة، وأنزله بقدرته من السحاب، والسحاب جمع الله فيه بين الرحمة والعذاب، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق، وفي الماء الإحياء، وفي الصواعق الإفناء.

وسورة الرعد من السور المدنية التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المدنية، من تقرير: الوحدانية، والرسالة، والبعث والجزاء، ودفع الشُّبَه التي يثيرها المشركون.

ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى، قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته، فمع سطوع الحق ووضوحه، كذّب المشركون بالقرآن، وجحدوا وحدانية الرحمن، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته تعالى، وعجيب خلقه، في السموات والأرض، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح. وتحدثت عن إثبات البعث والجزاء، ثم بعد ذكر الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على انفراده جلّ وعلا بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والنفع والضر، ضرب القرآن مثلين للحق والباطل:

أحدهما: في الماء ينزل من السماء، فتسيل به الأودية والشعاب، ثم يجرف في طريقه الغثاء، فيطفو على وجهه الزبد الذي لا فائدة فيه.

والثاني: في المعادن التي تذاب لتصاغ منها الأواني وبعض الحلية كالذهب والفضة، وما يعلو هذه المعادن من الزبد والخبث، الذي لا يلبث أن يذهب جفاء، ويضمحل ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي.

وذكرت السورة الكريمة أوصاف أهل السعادة وأهل الشقاوة، وضربت لهم المثل بالأعمى والبصير، وبيّنت مصير كلا الفريقين.

ثم ختمت بشهادة الله لرسوله بالنبوة والرسالة وأنه مرسل من عند الله.

﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ﴾؛ أي: والقرآن المنزل عليك الحق، ويجوز أن يكون موضع ((الذي)) رفعاً على الابتداء، ويجوز أن يكون رفعاً على العطف على ﴿آيَاتُ﴾ ويكون ﴿الحَقُّ﴾ مرفوعاً على إضمار ((هو))، ويجوز أن يكون موضع ((الذي)) خفضاً، عطفاً على الكتاب.

المعنى: تلك آيات الكتاب وآيات الذي أنزل إليك، ويكون الذي أنزل من نعت الكتاب وإن جاءت الواو، ويكون الحق مرفوعاً على الإضمار، ويجوز أن يكون ((الحق)) صفة للذي.

المعنى: تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق، ولا أعلم أحداً قرأ بها.

وقوله -عز وجل-: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ لما ذكر أنهم لا يؤمنون عرف الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق -عز وجل- ، فقال: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، وفي ذلك من القدرة والدلاله ما لا شيء أوضح منه. أن السماء محيطة بالأرض متبرية منها بغير عمد.

والمعنى: بغير عمد وأنتم ترونها كذلك، ويجوز أن يكون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ من نعت العمد؛ المعنى: بغير عمد مرئية، وعلى هذا تعمدها قدرة الله -عز وجل-.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾؛ كل مقهور مدبر لا يملك لنفسة ما يخلصه من القهر، فذلك معنى السخرة، فالشمس والقمر مسخران يجريان مجاريهما التي سخرا جاريين عليها.

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾: يحكمه.

﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾؛ أي: يبين الآيات التي تدل على قدرته على بعثكم، لعلكم توقنون، لأنهم كانوا يجحدون البعث، فأعلموا أن الذي خلق السماوات وأنشأ الإنسان ولم يكن شَيْئاً قادر على إعادته.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾؛ دلهم -بعد أن بين آيات السماء- بآيات الأرض، فقال -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ﴾ روي في التفسير أنها كانت مدورة فمدت.

ومعناه: بسط الأرض.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالا ثوابت، يقال: قد رسا الشيء يرسو رُسواً فهو راس إذا ثبت.

﴿وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؛ جعل فيها نوعين، والزوج الواحد الذي ليس له قرين.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾؛ وتقرأ ((يَغْشِي الليل النهار)).

ثم أعلم أن ما ذكر من هذه الأشياء فيه برهان وعلامات بينات فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثم زادهم من البرهان فقال: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾؛ يروى في التفسير أنها تتجاوز، بعضها عامر، وبعضها غير عامر.

وكذا في التفسير أيضاً أن معناه: قطع متجاورات.

﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾؛ الأجود رفع ((جنات))؛ المعنى: وفي الأرض قطع متجاورات، وبينهما جنات، ويجوز النصب في جنات، ويقرأ: ((وجنات من أعناب))؛ المعنى: جعل فيها رواسي وجعل فيها جنات من أعناب، ويجوز أن يكون وجنات خفضاً، ويكون نسقاً على كل؛ المعنى: ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين أثنين، ومن جنات من أعناب.

﴿وَزَرْعٌ﴾، فأما ﴿وَزَرْعٌ﴾ فيجوز فيه الرفع والخفض وكذلك ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾؛ والصنوان: جمع صنو وصنو، ومعنى الصنوان: أن يكون الأصل واحداً وفيه النحلتان والثلاث والأكثر، ويجوز في جمع ((صنوان)): أصناء، مثل عدل وأعدال، وكذلك صنو فإذا كثرت فهي الصُّنِيُّ والصِّنِيّ.

﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾؛ ويجوز ((تسقى)) بالتاء بماء واحد.

﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ﴾؛ والأكل: الثمر الذي يؤكل، ويجوز: ويفضل بعضها على بعض لأنه جرى ذكر الله؛ فالمعنى: يفضل الله، وكذلك إذا قال: ((ونفضل)) بالنون لأن الإخبار عن الله بلفظ الجماعة كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾[ق: ٤٣] وهذا خوطب به العرب لأنهم يستعملون فيمن يبجلونه لفظ الجماعة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾؛ هذا خطاب للنبي -عليه السلام-.

﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: هذا موضع عجب، لأنهم أنكروا البعث، وقد بين لهم من عظم خلق السماوات والأرض ما يدل على أن البعث أسهل في القدرة مما قد تبينوا.

فأما موضع ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فموضع ((إذا)) نصب فمن قرأ.

﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً﴾ على لفظ الاستفهام، ثم قرأ ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فإذا منصوبة بمعنى: نبعث ويجدد خلقنا؛ المعنى: إذا كنا تراباً نبعث ودل على إرادتهم ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

ومن قرأ: ((إذا كنا تراباً إنا لفي خلق جديد)) أدخل ألف الاستفهام على جملة الكلام، وكانت ((إذا)) نصباً بـ((كنا))، لكن الكلام يكون في معنى الشرط والجزاء ولا يجوز أن تعمل ((جديد)) في ((إذا))، لأن ما بعد ((إذا)) لا يعمل فيما قبلها. لا اختلاف بين النحويين أن ما بعد ((إن وإذا)) لا يعمل فيما قبلهما.

ثم أعلم الله -عز وجل- أن المستفهم بعد البيان والبرهان عن هذا على جهة الإنكار كافر، فقال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾؛ جاء في التفسير: أن الأغلال الأعمال في أعناقهم يوم القيامة، والدليل على ذلك في القرآن قوله: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾[غافر: ٧١] وقيل: أولئك الأغلال في أعناقهم، أي: الأغلال التي هي الأعمال، وهي أيضاً مؤدية إلى كون الأغلال في أعناقهم يوم القيامة، لأن قولك للرجل: هذا غل في عنقك للعمل السيئ معناه: أنه لازم لك وأنك مجازى عليه بالعذاب يوم القيامة.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ﴾؛ أي: يطلبون العذاب بقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[الأنفال: ٣٢].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ المَثُلاتُ﴾؛ والمثلات: بضم الميم وفتحها، فمن قرأ ﴿المَثُلاتُ﴾، فهي جمع مَثلة، ومن قرأ ((الْمُثَلات)) فهي جمع مَثْلة. ويجوز في ((المثلات)) ثلاثة أوجه.

يجوز: ((دخلت المثْلات))، بإسكان التاء، ويجوز فتح التاء ((المثَلات))، ومن قرأ ((الْمُثُلات)) بضم الثاء والميم، وهي في الواحدة ساكنة مضمومة في الجمع فهذه الضمة عوض من حذف تاء التأنيث، ومن فتح فلأن الفتحة أخف الحركات، روت الرواة:

ولمّا رَأَوْنَا بَادِياً رُكَبَاتُنا عَلَى حَالَةٍ لاَ تَخْلِطُ الجِدَّ بالهزَلِ[1]

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٦٢/١٦).

ومن قرأ ((المثْلات)) بإسكان الثاء فلأن كل ما كان مضموماً أو مكسوراً نحو: ((رسل وعضد وفخذ)) فإسكانه جائز لنقل الضمة والكسرة؛ والمعنى: أنهم يستعجلون بالعذاب وقد تقدم من العذاب ما هو مثله وما فيه نكال لهم لو اتعظوا.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ﴾ معناه: هلا أنزل عليه وإنما طلبوا غير الآيات التي أتى بها النبي ﷺ نحو انشقاق القمر، والقرآن الذي دعوا أن يأتوا بسورة من مثله وما أشبه هذا النحو، فالتمسوا مثل آيات عيسى وموسى، فأعلم الله -عز وجل- أن لكل قوم هادياً، فقال -جل وعز-: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾؛ أي: نبي وداع إلى الله يدعوهم بما يعطي من الآيات لا بما يريدون ويتحكمون فيه.

وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾؛ معنى غاض في اللغة نقص.

وفي التفسير: ما نقص الحمل من تسعة أشهر وما زاد عنها على التسعة، وقيل: ما نقص عن أن يتم حتى يموت، وما زاد حتى يتم الحمل.

وقوله: ﴿سَوَاءٌ مِنكُم مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾: موضع ((من)) رفع بـ((سواء))، وكذلك من الثانية يرتفعان جميعاً بـ((سواء))، لأن ((سواء)) يطلب اثنين، تقول: سواء زيد وعمرو، في معنى ذوا سواء زيد وعمرو، لأن سواء مصدر فلا يجوز أن يرتفع ما بعده إلا على الحذف، تقول: عدل زيد وعمرو؛ والمعنى: ذوا عدل زيد وعمرو لأن المصادر ليست بأسماء الفاعلين، وإنما ترفع الأسماء أوصافها، فإذا رفعتها المصادر فهي على الحذف كما قالت الخنساء [من البسيط]:

تَرتَعُ ما رَتَعَت حَتّى إذا ادَّكَرَت فَإِنَّما هِيَ إِقبالٌ وَإِدبارُ[1]

المعنى: فإنما هي ذات إقبال وذات إدبار، وكذلك زيد إقبال وإدبار، وهذا مما كثر استعماله أعني سواء، فجرى مجرى أسماء الفاعلين، ويجوز أن يرتفع على أن يكون في موضع مستو، إلا أن سيبويه يستقبح ذلك، لا يجيز مستو زيد وعمرو، لأن أسماء الفاعلين عنده إذا كانت نكرة لا يبتدأ بها لضعفها عن الفعل فلا يبتدأ بها، ويجريها مجرى الفعل.

ومعنى الآية: إعلامهم أن الله -عز وجل- يعلم ما غاب عنهم وما شهد.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩/٤٢)، وتفسير البيضاوي (١/٢٣٧)، وروح المعاني (١٢/٦٩)، وتفسير الثعالبي (٢/٢٠٧)، والأغاني (١٥/٧٨)، ودلائل الإعجاز (١/٢٣١)، ومجمع الأمثال (٢/٢٦٥).

فقال -عز وجل-: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾؛ أي: من هو مستتر بالليل، والليل أستر من النهار.

ومن هو ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾؛ أي: من هو ظاهر بالنهار في سَرَبِه، يقال: خل له سربه أي: طريقه.

فالمعنى: الظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات، والجاهر بنطقه والمضمر في نفسه علم الله فيهم جميعاً سواء.

وذكر قطرب وجهاً آخر، ذكر أنه يجوز أن يكون ((مستخف بالليل)) ظاهراً بالليل، وهذا في اللغة جائز، ويكون مع هذا ((وسارب بالنهار)) أي: مستتر، يقال: انسرب الوحشي إذا أدخل في كناسه.

والأول بين، وهو أبلغ في وصف علم الغيب.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾؛ أي: للإنسان ملائكة يعتقبون، يأتي بعضهم بعقب بعض.

﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ المعنى: حفظهم إياه من أمر الله، أي: مما أمرهم الله -تعالى- به، لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله كما تقول: يحفظونه عن أمر الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾؛ أي: لا يلي أمرهم أحد من دون الله.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾؛ خوفاً للمسافر، لأن في المطر خوفاً على المسافر، كما قال الله -تعالى- ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِن مَطَرٍ﴾[النساء: ١٠٢].

((وطمعاً)) للحاضر لانتفاعه بالمطر، ويجوز أن يكون -والله أعلم- ﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ خوفاً لمن يخاف ضر المطر، لأنه ليس كل بلد ينتفع فيه بالمطر نحو مصر وما أشبهها، وطمعا لمن يرجو الانتفاع به.

﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾؛ أي: التي قد ثقلت بالماء.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾.

جاء في التفسير: أنه ملك يزجر السحاب.

وجائز أن يكون صوت الرعد تسبيحه، لأن صوت الرعد من أعظم الأشياء، وقد قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[الإسراء: ٤٤]؛ وخص ذكر الرعد لعظم صوته - والله أعلم.

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾؛ جائز أن تكون الواو واو حال. فيكون المعنى: فيصيب بها من يشاء في حال جداله في الله.

وذلك أنه أتى في التفسير: أن رجلاً من الجاهلية يقال له: ((أربد)) سأل النبي ﷺ فقال أخبرني عن ربنا أمن نحاس أم حديد، فأنزل الله عليه صاعقة فقتلته.

فعلى هذا يجوز أن تكون الواو واو حال. ويجوز أن يكون: لما تمم الله أوصاف ما يدل على توحيده وقدرته على البعث قال بعد ذلك ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾؛ أي: شديد القدرة والعذاب.

ويقال في اللغة مَاحَلْته مِحَالاً، إذا قاويته، حتى يتبين له أيكما أشد. والمحل في اللغة الشدة، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾؛ جاء في التفسير: دعوة الحق شهادة أن لا إله إلا الله.

وجائز -والله أعلم- أن تكون دعوة الحق أنه من دعا الله موحداً استجيب له دعاؤه.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾؛ ثم بين الله -عز وجل- كيف استجابة الأصنام لأنهم دعوا الأصنام من دون الله فقال: ﴿إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾؛ إلا كما يستجاب للذي يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه، والماء لا يستجيب.

فأعلم الله -عز وجل- أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان الماء إلى بلوغ فيه.

﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾؛ وقال بعضهم: إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه كإنسان على شفير بئر يدعو الماء من قرار البئر ليبلغ فاه، والتفسيران واحد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾؛ جاء في التفسير: أن المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرهاً.

وجاء أن من الناس من دخل في الإسلام طوعاً ومنهم من لم يدخل حتى فحص عن رأسه بالسيف، أي: فسجد ودخل في الإسلام في أول أمره كرهاً.

وجائز -والله أعلم- أن يكون ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ أن يكون السجود الخضوع لله، فمن الناس من يخضع ويقبل أمر الله فيما سهل عليه، ومنهم من تقبله وإن كان عليه فيه كره.

﴿وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾؛ أي: وتسجد ظلالهم.

وجاء في التفسير: أن الكافر يسجد لغير الله، وظله يسجد لله، وقيل: وظلالهم أشخاصهم، وهذا مخالف للتفسير.

وقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: هل أو أغير الله خلق شيئاً فاشتبه عليهم خلق الله من خلق غيره.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ﴾؛ أي: قل ذلك وبينه بما أخبر الله به من الدلالة على توحيده من أول هذه السورة بما يدل على أنه خالق كل شيء.

ثم قال -عز وجل- ضارباً مثلاً للكافرين والمؤمنين: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾؛ أي: بما قدر لها من أمثلها.

ويجوز ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: بقدر ملئها.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً﴾؛ أي: طافياً عالياً فوق الماء.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾؛ أي: ابتغاء متاع.

﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾؛ والذي يوقد عليه في النار ابتغاء حلية الذهب والفضة، والذي يوقد عليه ابتغاء أمتعة الحديد والصُفْر والنحاس والرصاص، و﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ أي: مثل زبد الماء.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾؛ أي: من زبد الماء، والزبد : من خبث الحديد، والصفر والنحاس والرصاص.

﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾؛ أي: فيذهب ذلك لا ينتفع به، والجفاء : ما جفا الوادي، أي: رمى به.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾؛ وأما ما ينفع الناس من الماء والفضة والذهب والحديد وسائر ما ذكرنا فيمكث في الأرض.

فمثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض وحياة كل شيء، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الالآت التي ذكرت لأنها كلها تبقى

منتفعاً بها، ومثل الكافر وكفره كمثل هذا الزبد الذي يذهب جفاء، وكمثل خبث الحديد، وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذي لا ينتفع به.

وموضع ((كذلك)) نصب، قال أبو زيد: يقال: ((جفأت الرجل)) إذا صرعته ((وأَجْفَأت القدر بزبدها)) إذا ألقت زبدها فيه.

﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾؛ من هذا اشتقاقه، وموضع ((جفاء)) نصب على الحال، وهو ممدود.

وزعم البصريون والكوفيون جميعاً: أن ما كان مثل القماش والقمام والجفاء فهذه الأشياء تجيئ على مثال ((فِعال)).

وقوله: -عز وجل-: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾؛ أي: لهم الجنه، وجائز أن يكون لهم جزاء المحسنين، وهو راجع إلى الجنه أيضاً كما قال -عز وجل-: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾[الرحمن: ٦٠].

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحِسَابِ﴾؛ وسوء الحساب: ألا تقبل منهم حسنة ولا يتجاوز لهم عن سيئة، وأن كفرهم أحبط أعمالهم كما قال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ وقيل: سوء الحساب أن يستقصى عليه حسابه ولا يتجاوز له عن شيء من سيئاته وكلاهما فيه عطب. ودليل هذا القول الثاني: من نوقش الحساب عذب، وتكون سوء الحساب المناقشة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾؛ أي: يدفعون، يقال: درأته إذا دفعته.

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾؛ ﴿جَنَّاتُ﴾ بدل من ﴿عُقْبَى﴾، وعدن: إقامة، يقال: عدن بالمكان إذا أقام فيه.

﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾؛ موضع ((من)) رفع، عطف على الواو في قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وجائز أن يكون نصباً، كما تقول: قد دخلوا وزيداً أي: مع زيد.

أعلم الله -عز وجل- أن الأنساب لا تنفع بغير أعمال صالحة فقال: يدخلونها ومن صلح ممن جرى ذكره.

﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾؛ أي: يقولون سلام عليكم بما صبرتم. هذه مكرمة من الله -عز وجل- لأهل الجنة.

والمعنى: يدخلون عليهم من كل باب يقولون ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم﴾؛ فأضمر القول ههنا لأن في الكلام دليلاً عليه.

وقوله: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾؛ يعني من رجع إلى الحق.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في موضع نصب رداً على من المعنى: يهدي إليه الذين آمنوا.

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي: إذا ذكر الله بوحدانيته آمنوا به غير شاكين.

﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾؛ ((إلا)) حرف تنبيه وابتداء.

ومعنى ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: التي هي قلوب المؤمنين لأن الكافر غير مطمئن القلب.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾؛ القراءة بالرفع في ﴿وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾؛ عطف على ﴿طُوبَى﴾ كما تقول: الحمد لله والكرامه وإن شئت كان نصباً على ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾؛ أي: جعل الله لهم طوبى وحسن مآب.

وطوبى عند النحويين فعلى من الطيب؛ المعنى: العيش الطيب لهم.

وجاء في التفسير عن النبي ﷺ أن طوبى شجرة في الجنة، وقيل: طوبى لهم حسنى لهم، وقيل: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ خير لهم. وقيل: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ اسم الجنة بالهندية. وقيل: ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ خيره لهم، وهذا التفسير كله يشبهه قول النحويين أنها فعلى من الطيب.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾؛ ترك جواب ((لو)) لأن في الكلام دليلاً عليه.

وكان المشركون سألوا النبي ﷺ أن يفسح لهم قوماً سموهم له، فأعلمهم الله -عز وجل- أن لو فعل ذلك بقرآن لكان يفعل بهذا القرآن.

والذي أتوهمه -والله أعلم- وقد قاله بعض أهل اللغة أن المعنى: لو أن قرآناً سيرت به الأرض أو كلم به الموتى لما آمنوا به.

ودليل هذا القول قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِم الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[الأنعام: ١١١].

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾؛ قيل: إنها لغة للنخع، ((ييأس)) في معنى يعلم، وأنشدوا [من الكامل]:

أقول لهم بالشِّعْب إذ يأسرونني ألم تَعْلموا أنِّي ابن فارس زَهْدَم(١)

وقرئت: أفلم يتبين الذين آمنوا، وقال بعض أهل اللغة: أفلم يعلم الذين آمنوا علماً ييأسوا معه من أن يكون غير ما علموه.

والقول عندي -والله أعلم- أن معناه: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم لا يؤمنون لأنه قال: ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

﴿جَمِيعاً﴾ منصوب على الحال.

﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾؛ قيل: سَرِيَّة، ومعنى: قارعة في اللغة نازلة شديدة تنزل بأمر عظيم.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ التِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾؛ قال سيبويه: المعنى: فيما يقص عليكم مثل الجنة، أو مثل الجنة فيما يقص عليكم، فرفعه عنده على الابتداء.

وقال غيره: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ التِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾ مرفوع على الابتداء وخبره ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ كما تقول: صفة فلان أمسر. كقولك: فلان أمسر. وقالوا معناها: صفة الجنة التي وعد المتقون. وكلا القولين حسن جميل.

والذي عندي -والله أعلم- أن الله -عز وجل-، عرفنا أمور الجنة التي لم نرها. ولم نشاهدها بما شاهدناه من أمور الدنيا وعايناه.

فالمعنى: ﴿مَثَلُ الجَنَّةِ الَتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾ جنة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُم الكِتَابِ﴾؛ أي: يمحو الله ما يشاء مما يكتبه الحفظة على العباد ويثبت.

قال بعضهم: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾، أي: من أتى أجله محي، ومن لم يأت أجله أثبت.

وقيل: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: ينسخ مما أمر به ما يشاء ويثبت أي: ويُبقي من أمره ما يشاء.

---

(١) البيت: لسحيم بن وثيل اليربوعي.

انظر: تفسير الطبري (٣٨٥/٧)، وروح المعاني (١٥٦/١٣)، وزاد المسير (٣٣١/٤)، وشرح قطر الندى (١/ ٦٢)، وفتح القدير (١١٩/٣) وفيه: أن أبا عبيدة أنشده لمالك بن عوف النضري.

﴿وَعِندَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾؛ أي: أصل الكتاب.

وقيل: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: من قدر له رزقاً وأجلاً محا ما يشاء من ذلك وأثبت ما يشاء.

وقوله -تعالى-: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾؛ ((إن)) أدخلت عليها ما لتوكيد الشرط. دخلت النون مؤكدة للفعل.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛ عطف على ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ وجواب الجزاء: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ﴾ أي: علينا الحساب لنجزي كل نفس بما عملت.

والمعنى: إما أريناك بعض الذي وعدناهم من إظهار دين الإسلام على الدين كله، أو توفيناك قبل ذلك، فليس عليك إلا البلاغ - كفروا هم به أو آمنوا.

ثم أعلم الله أن بيان ما وعدوا به قد ظهر وتبين فقال -عز وجل-: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؛ أي: أو لم يروا أنا قد فتحنا على المسلمين من الأرض ما قد تبين لهم.

ودليل هذا القول قوله -عز وجل- في موضع آخر: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الغَالِبُونَ﴾[الأنبياء: ٤٤]؛ وقيل: في تفسير هذه الآية ما وصفنا، وقيل: غير قول؛ قيل: نقصها من أطرافها موت أهلها. ونقص ثمارها، وقيل: ننقصها من أطرافها بموت العلماء، والقول الأول بين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾؛ وقرئت: ((وسيعلم الكافر))، ومعنى الكفار والكافر ههنا واحد. الكافر: اسم للجنس، كما تقول قد كثرت الدراهم في أيدي الناس، وقد كثر الدرهم في أيدي الناس.

وقرأ بعضهم: ((وسيعلم الكافرون))، وبعضهم: ((وسيعلم الذين كفروا)). وهاتان القراءتان لا تجوزان لمخالفتهما المصحف المجمع عليه، لأن القراءة سنة.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ الباء في موضع رفع مع الاسم. المعنى: كفى الله شهيداً، وشهيداً: منصوب على التمييز.

﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾؛ و ((من)) يعود على الله -عز وجل-.

وقيل في التفسير: يعني به عبد الله بن سلام، وقيل: ابن يامين، والذي يدل على أنه راجع إلى الله -عز وجل- قراءة من قرأ ((ومن عنده علم الكتاب))، لأن الأشبه، والله أعلم - أن الله لا يستشهد على خلقه بغيره.

وذلك التفسير جائز لأن البراهين إذا قامت مع اعتراف من قرأ الكتب التي أنزلت قبل القرآن فهو أمر مؤكد.

سورة إبراهيم(١)

مكية إلا اثنتين منها نزلت بالمدينة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾؛ ((كتاب)) مرفوع على خبر الابتداء.

المعنى: هذا كتاب أنزلناه إليك، وقال بعضهم: ((كتاب)) مرتفع بقوله ((الر)) و((الر)) ليست هي الكتاب إنما هي شيء من الكتاب. ألا ترى قوله ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾[الحجر: ١]، فإنما الكتاب جملة الآيات وجملة القرآن.

وقوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾؛ ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ ما كانوا فيه من الكفر، لأن الكفر غير بين فمثل بالظلمات، والإيمان بين نير فمثل بالنور، والباء متصلة بـ((تخرج)).

المعنى: ليخرج الناس بإذن ربهم، أي: بما أذن الله لك من تعليمهم، ويجوز أن يكون ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أنه لا يهتدي مهتد إلا بإذن الله ومشيئته.

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة إبراهيم من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف الرابعة عشرة. عدد آياتها اثنتان وخمسون آية. جاءت تسميتها إبراهيم تخليدًا لمآثر أبي الأنبياء، وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، الذي حطم الأصنام، وحمل راية التوحيد، وجاء بالحنيفية السمحة، ودين الإسلام الذي بعث به خاتم المرسلين.

تناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة: الإيمان بالله، والإيمان بالرسالة، والإيمان بالبعث والجزاء. وتكاد تكون الرسالة والرسول محور السورة الرئيسي.

وتناولت السورة دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل وبيّنت وظيفة الرسول، ووضّحت معنى وحدة الرسالات السماوية. وتحدثت السورة عن رسالة موسى عليه السلام، ودعوته لقومه بأن يعبدوا الله ويشكروه، وضربت الأمثال بالمكذبين للرسل من الأمم السابقة، كقوم نوح، وعاد، وثمود، ثم تناولت الآيات موضوع الرسل مع أقوامهم على مرّ العصور والدهور، وما جرى بينهم من محاورات ومناورات انتهت بإهلاك الله للظالمين.

ثم تحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة، حيث يلتقي الأشقياء المجرمون بأتباعهم الضعفاء، وذكرت ما يدور بينهم من حوار طويل.

ثم ضربت الآيات مثلاً لكلمة الإيمان، وكلمة الضلال، بالشجرة الطيبة، والشجرة الخبيثة.

وختمت السورة ببيان مصير الظالمين يوم الجزاء والدين.

ثم بين ما النور فقال: ﴿إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ﴾.

﴿الحَمِيدِ﴾ خفض من صفة ﴿العَزِيزِ﴾ ويجوز الرفع على معنى: الحميد الله، ويرتفع الحميد بالابتداء وقولك ((الله)) خبر الابتداء، ويجوز أن يرتفع الله ويخفض الحميد على ما وصفنا. ويكون اسم الله يرتفع بالابتداء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾؛ أي: يطلبون غير سبيل القصد وصراط الله وهو القصد، والعِوج في الدين مبني على فعل، وفي العصا عَوج بفتح العين. ونصب ﴿عِوَجاً﴾ على الحال مصدر موضوع في موضع الحال.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾؛ أي: بلغة قومه ليعقل عنه قومه.

﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ﴾، الرفع هو الوجه وهو الكلام وعليه القراءة؛ والمعنى: إنما وقع الإرسال للبيان لا للإضلال، ويجوز النصب على وجه بعيد، فيكون ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، ويكون سبب الإضلال الصيرورة إليه كما قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً﴾، أي: التقطوه فآل ذلك إلى أن صار لهم عدواً وحزناً، ولم يلتقطوه هم ليكون لهم عدواً وحزناً.

وكذلك يكون: ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ﴾، أي: فيؤول الأمر إلى أن يضلوا فيضلهم الله. والقول الأول هو القول وعليه القراءة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: البرهان الذي دل على صحة نبوته، نحو إخراج يده بيضاء وكون العصا حية.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾؛ أي: بأن أخرج قومك.

المعنى: أرسلناه بأن يخرج قومه ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، أي: من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، و ((أن)) ههنا يصلح أن يكون في معنى ((أن)) المخففة، وتكون مفسرة، ويكون المعنى: ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أي: أخرج قومك، كأن المعنى: قلنا له: أخرج قومك، ومثل هذا: ﴿وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾، أي: امشوا. والتأويل: قالوا لهم: امشوا.

قال سيبويه: تقول كتبت إليه أن قم، وأمرته أن قم، إن شئت كانت ((أن)) وصلت بالأمر، والتأويل تأويل الخبر؛ المعنى: كتبت إليه أن يقوم وأمرته أن يقوم، إلا أنها وصلت

بلفظ الأمر للمخاطب والمعنى معنى الخبر، كما تقول، أنت الذي فعلت؛ والمعنى: أنت الذي فعل، قال: ويجوز أن يكون في معنى ((أي))، ومثله: أرسلت إليه أَنْ مَا أَنْتَ وذَا.

وقوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾؛ ((ذكرهم)) عطف على ﴿أَخْرِجْ﴾، وتذكيرهم بأيام الله، أي: تذكيرهم بنعم أيام الله عليهم، وبنقم الله التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود، أي: ذكرهم بالأيام التي سلفت لمن كفر وما نزل بهم فيها، وذكرهم بنعم الله.

والدليل على أن التذكير مشتمل على الإنذار والتحذير مما نزل بمن قبلهم قوله -عز وجل- بعد هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾؛ أي: ألم يأتهم أخبار أولئك والنوازل بهم.

﴿لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾؛ فأعلم الله أن بعد هؤلاء أمماً قد مضى من كان يعلم أنباءها، ومن هذا قيل: كذب النسابون لأنهم لا يعلمون من كان بعد هؤلاء، وهذا يروى عن النبي ﷺ.

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ يروى عن ابن مسعود أنهم عضوا أناملهم غيظاً مما أتتهم به الرسل.

وقيل: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾، أومؤوا إلى الرسل أن اسكتوا.

وقيل: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾، الهاء والميم يوجهان على الرسل؛ المعنى: ردوا أيدي الرسل أي: نعم الرسل لأن مجيئهم بالبينات نعم، تقول: لفلان عندي يد أي: نعمة، ومعنى ﴿فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ بأفواههم، أي: ردوا تلك النعم بالنطق بالتكذيب لما جاءت به الرسل؛ والمعنى: ان الرد جاء في هذه الجهة، وفي معناها، كما تقول: جلست في البيت وجلست بالبيت.

وقالوا: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ﴾؛ هذا هو الرد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ ((استفتحوا)) يعنى به الرسل، سألوا الله أن يفتح عليهم أي: ينصرهم، وكل نصر فهو فتح.

والجبار: الذي لا يرى لأحد عليه حقاً، والعنيد: الذي يعدل عن القصد، يقال: جبار بين الجبرية، والْجِبرية بكسر الجيم، والْجِبِرية بكسر الجيم والباء، والْجَبَرُوَّة والْجَبَرُوَّة، والتِجْبَار والْجِبْرِياء، والْجَبُّورة والْجَبَرُوت.

﴿مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾؛ أي: جهنم بين يديه، و((وراء)) يكون لخلف وقدام، وإنما معناه: ما توارى عنك أي: ما استتر عنك، وليس من الأضداد كما يقول بعض أهل اللغة، قال النابغة [من الطويل]:

حَلَفتُ فَلَم أَترُك لِنَفسِكَ رِيبَةً وَلَيسَ وَراءَ اللهِ لِلمَرءِ مَذهَبُ(١)

أي: ليس بعد مذاهب الله للمرء مذهب.

﴿وَيُسْقَى مِن مَاءٍ صَدِيدٍ﴾؛ أي: مما يسيل من أهل النار من الدم والقيح.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾؛ أي: لا يقدر على ابتلاعه، يقال: ساغ لي الشراب وأسغته.

﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: من بعد ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾؛ فهو مرفوع على معنى وفيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا بربهم، أو مثل الذين كفروا بربهم فيما يتلى عليكم، وجائز أن يكون – والله أعلم – مثل الذين كفروا بربهم صفة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ﴾، كأنك قلت: الذين كفروا بربهم أعمالهم، كما تقول صفة زيد أسمر؛ المعنى: زيد أسمر وتأويله: أن كل ما يتقرب به الذين كفروا إلى الله فمحبط، قال الله -عز وجل-: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[البقرة: ٢١٧]؛ ومثله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ١].

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾؛ أي: جمعهم الله في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع.

﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ وهم الأتباع.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم المتبوعون.

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾؛ أي: اتبعناكم فيما دعوتمونا إليه، وتبعاً: جمع تابع، يقال: تابع وتبع، مثل غائب وغيب، وجائز أن يكون ((تبع)) مصدراً سمي به، أي: كنا ذوي تبع.

(١) انظر: تفسير الطبري (٢/٣٤٧)، وتفسير القرطبي (٤/١٦٦)، وفتح القدير (١/٥٦٠)، والدر المنثور (٧/ ٣٧٢)، وروح المعاني (١٣/٢٠١)، وزاد المسير (٤/٣٥٢)، ومعاني القرآن (٦/٣٤٦)، ومفردات القرآن (١/ ٥٥)، واتفاق المباني وافتراق المعاني (١/٢٣٥)، والأغاني (١١/١٠)، والإيضاح في علوم البلاغة (١/٣٤٢)، والمثل السائر (٢/٣١٠)، وصبح الأعشى (٢/٢١٣)، ولسان العرب (١٢/٢٢).

وقوله -عز وجل-: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَم صَبَرْنَا﴾؛ ﴿سَوَاءٌ﴾ رفع بالابتداء، و﴿أَجَزِعْنَا﴾ في موضع الخبر.

﴿مَا لَنَا مِن مَحِيصٍ﴾؛ أي: ما لنا من مهرب ولا معدل عن العذاب.

يقال: حَاصَ عن الشيء يَحِيص، وجَاص عنه يَجِيص في معنى واحد. وهذه اللغة لا تجوز في القرآن ويقال: ((وقع في حَيْص بَيْص، وحَاصَ بَاصَ وحاصٍ باصٍ))، إذا وقع فيما لا يقدر أن يتخلص منه.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ﴾؛ روي أنه إذا استقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار قام إبليس عليه لعنة الله خطيباً، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ﴾، أي: وعد من أطاعه الجنة ووعد من عصاه النار، ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ خلاف ذلك.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ﴾ أي: ما أظهرت لكم من حجة.

﴿إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾؛ أي: أغويتكم وأضللتكم، فاتبعتموني. ذكر الله -عز وجل- أن إبليس وما يقوله في القيامة تحذيراً من إضلاله وإغوائه.

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾؛ أي: ما أنا بمغيثكم، ولا أنتم بمغيثيّ، قرئت: ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ بفتح الياء، كذا قرأه الناس، وقرأ حمزة والأعشى: ((بمصرخيِّ)) بكسر الياء، وهذه القراءة عند جميع النحويين رديئة مرذولة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف ذكره بعض النحويين.

وذلك أن ياء الإضافة إذا لم يكن قبلها ساكن حركت إلى الفتح؛ تقول: هذا غلامي قد جاء، وذلك أن الاسم المضمر لما كان على حرف واحد وقد منع الإعراب حرك بأخف الحركات، كما تقول: هو قائم فتفتح الواو، وتقول: أنا قمت فتفتح النون، ويجوز إسكان الياء لثقل الياء التي قبلها كسرة، فإذا كان قبل الياء ساكن حركت إلى الفتح لا غير، لأن أصلها إن تحرك ولا ساكن قبلها، وإذا كان قبلها ساكن صارت حركتها لازمة لالتقاء الساكنين.

ومن أجاز ((بمصرخيِّ)) بالكسر لزمه أن يقول: ((هذه عصايِ أتوكأ عليها))، وأجاز الفراء على وجه ضعيف الكسر لأن أصل التقاء الساكنين الكسر وأنشد [من الرجز]:

قال لها هل لك يا تا فيِّ قالت له ما أنت بالمرضيِّ[1]

(١) قاله: الأغلب العجلي.

وهذا الشعر مما لا يلتفت إليه، وعمل مثل هذا سهل، وليس يعرف قائل هذا الشعر من العرب، ولا هو مما يحتج به في كتاب الله -عز وجل-.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ﴾؛ إني كفرت بشرككم -أيها التباع- إياي بالله، كما قال -عز وجل-: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وقوله -تعالى-: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معناه: وجيعٌ مؤلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾؛ ضرب الله -عز وجل- للإيمان به مثلاً، وللكفر به مثلاً، فجعل مثل المؤمن في نطقه بتوحيده والإيمان بنبيه واتباع شريعته، كالشجرة الطيبة فجعل نفع الإقامة على توحيده كنفع الشجرة الطيبة التي لا ينقطع نفعها وثمرها.

جاء في التفسير: الشجرة الطيبة النخلة، والدليل على أن هذا المثل يراد به توحيد الله، والإيمان بنبيه وشريعته قوله -عز وجل-: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

اختلف الناس في تفسير ((الحين))؛ فقال بعضهم: كل سنة، وقال بعضهم: كل ستة أشهر، وقال بعضهم: غدوة وعشية. وقال بعضهم: ((الحين)) شهران.

وجميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهب إلى أن الحين اسم كالوقت، يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت.

فالمعنى: في قوله -تعالى- ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أنها ينتفع بها في كل وقت، لا ينقطع نفعها البتة، والدليل على أن الحين بمنزلة الوقت قول النابغة، أنشده الأصمعي في صفة الحية والملدوغ [من الطويل].

تَناذَرَها الراقونَ مِن سوءِ سُمِّها تُطَلِّقُهُ طَوراً وَطَوراً تُراجِعُ[1]

فالمعنى: أن السم يخط ألمه في وقت ويعود وقتاً.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾؛ قيل: إن الشجرة الخبيثة الحنظل، وقيل: الكوث.

﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ﴾؛ معنى ﴿اجْتُثَّتْ﴾ استؤصلت من فوق الأرض، ومعنى اجتثت في اللغة أخذت جثته بكمالها.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩/٣٠٧)، ومعاني القرآن (٣/٥٢٩)، ومفردات القرآن (١/٤٣٤)، ولسان العرب (٤/٥٠٧)، وتاج العروس (١/٣١١٢).

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾؛ أن ذكر الله بالتوحيد يبقى أبداً ويبقى نفعه أبداً، وأن الكفر والضلال لا ثبوت له.

وقوله -تعالى-: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾؛ روي أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر، فإذا مات الميت قيل له: من ربك وما دينك ومن نبيك، فإذا قال: الله ربي ومحمد نبي والإسلام ديني، فقد ثبته الله بالقول الثابت في الآخرة، لأن هذا بعد وفاته، وتثبيته في الدنيا، لأنه لا يلفقه في الآخرة إلا أن يكون ذلك عقدة في الدنيا.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾؛ والبوار: الهلاك والاستئصال.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾؛ ﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل من قوله ﴿جَهَنَّمَ﴾ ومفسرة وجهنم لم تصرف لأنها مؤقتة وهي معرفة.

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً﴾؛ الند: المثل ، بيّن وجه كفرهم.

﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾، ولِيَضِلوا، قرئ بهما جميعاً.

وقوله: ﴿قُل لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾؛ إن شئت حركت الياء، وإن شئت أسكنتها، و((يقيمون)) جزم على جواب الأمر، فيه غير وجه، أجودها أن يكون مبنياً، لأنه في موضع الأمر.

وجائز أن يكون مجزوماً بمعنى اللام إلا أنها أسقطت، لأن الأمر قد دل على الغائب بـ((قل))، تقول: لزيد ليضرب عمراً، وإن شئت قلت: قل لزيد يضرب عمراً، ولا يجوز: قل يضرب زيد عمراً ههنا بالجزم حتى تقول ليضرب، لأن لام الغائب ليس ههنا منها عوض إذا حذفتها.

وفيها وجه ثالث على جواب الأمر على معنى: ﴿قُل لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ يقيموا الصلاة، لأنهم إذا آمنوا وصدقوا، فإن تصديقهم أمر الله -عز وجل.

وقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلالٌ﴾؛ إن شئت رفعت ((البيع والخلال)) جميعاً، وإن شئت نصبتهما جميعاً بغير تنوين، وإن شئت نصبت أحدهما: ورفعت الآخر، فالنصب على النفي بلا، وقد شرحنا ذلك فيما سلف من الكتاب.

والخلال والخلة: في معنى الصداقة .

وقوله -عز وجل-: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾؛ معناه: دائبين في إصلاح ما يصلحانه من الناس والنبات لا يفتران.

﴿وَآتَاكُم مِن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾؛ وتقرأ: ((من كل ما سألتموه)) بتنوين ((كل))، فموضع ((ما)) خفض بالإضافة؛ والمعنى: من كل الذي سألتموه، ومن قرأ: من كل ما سألتموه، فموضع ((ما)) نصب؛ والمعنى: وآتاكم من كل الأشياء التي سألتموه.

فإن قال قائل: فقد أعطى العباد ما لم يسألوا؟

قيل له: ذلك غير ناقض هذه الآية، إذا قال: ((وأتاكم من كل الذي سألتموه)) لم يوح هذا أن يكون لم يعطهم غير ما سألوه، ويجوز أن يكون ((ما)) نفياً، ويكون المعنى: وآتاكم من كل ما لم تسألوه أي: آتاكم ؛كل الشيء الذي لم تسألوه.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾؛ هذا اسم للجنس يقصد به الكافر خاصة، كما قال: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[العصر:١-٣]، والإنسان غير المؤمن ظلوم كفار.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾؛ يعني مكة.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾؛ وتقرأ: ((وأَجْنِبْنِي وبني)) على: ((أجنبته كذا وكذا)) إذا جعلته ناحية منه، وكذلك جنبته كذا وكذا.

ومعنى الدعاء من إبراهيم -عليه السلام- أن يجنب عبادة الأصنام، وهو غير عابد لها على معنى ثبتني على اجتناب عبادتها كما قال: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[البقرة: ١٢٨] أي: ثبتنا على الإسلام.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾؛ أي: ضللوا بسببها، لأن الأصنام لا تعقل ولا تفعل شيئاً، كما تقول: قد فتنتني هذه الدار، أي: أنا أحببتها واستحسنتها، وافتُتِنت بها.

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: فإنك غفور رحيم له إن تاب وإن آمن، لا أنه يقول إن من كفر فإن الله غفور رحيم، فإن الله لا يغفر له، ألا ترى قوله في أبيه: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[التوبة: ١١٤].

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: اجعل أفئدة جماعة من الناس تنزع إليهم، ويجوز تهوي إليهم، فمن قرأ: ((تهوى إليهم)) فهو على هوى يهوي إذا ارتفع، ومن قرأ: ((تهوي إليهم)) فعلى هويّ يهوي إذا أحب، والقراءة الأولى هي المختارة.

وقوله -عز وجل-: ﴿اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ أي: واجعل من ذريتي من يقيم الصلاة.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾؛ القراءة بغير ياء في ((دعائي)) إذا وقفت، فإذا وصلت فأنت بالخيار إن شئت قلت: دعاء بغير ياء، وكانت الكسرة في الهمزة تنوب عن الياء، والأجود إثبات الياء، وإن شئت أسكنتها، وإن شئت فتحتها.

وقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ هذا قبل أن يتبين لإبراهيم أن أباه عدو الله، فلما تبين له ذلك تبرأ منه.

وقيل: إنه يعني بوالديه هنا آدم وحواء، وقيل: أيضاً ((ولولدي))، يعني به إسماعيل وإسحاق، وهذه القراءة ليست بشيء لأنها خلاف ما عليه أهل الأمصار من أهل القراءات.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ﴾؛ يعني يوم القيامة، و ((يوم)) منصوب بـ((اغْفِرْ لِي)).

وقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ﴾؛ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ منصوب على الحال.

المعنى: إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه أبصارهم مهطعين أي: مسرعين قال الشاعر[١] [من الوافر]:

بِدِجلَةَ أَهلُها وَلَقد أَراهُم بِدِجلَةَ مُهطِعينَ إِلى السَّماعِ[٢]

أي: مسرعين.

و ﴿مُقْنِعِي رؤُوسِهِمْ﴾ رافعيها ملتصقة بأعناقهم، والمقنع: الرافع، والمقنع المرتفع. قال الشاعر[٣] [من الوافر]:

يُبادِرنَ العِضاهَ بِمُقنَعاتٍ نَواجِذُهُنَّ كَالحَدَاء الوَقيعِ[٤]

يصف إبلاً ترعى الشجر وأن أسنانها مرتفعة كالفؤوس.

وقوله: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾؛ أي: منحرفة لا تعي شَيْئاً من الخوف، وقيل: نزعت أفئدتهم من أجوافهم. قال الشاعر[٥] [من الوافر]:

---

(١) هو: يزيد بن مفرغ الحميري.

(٢) انظر: لسان العرب (٣٧٢/٨)، وتاج العروس (٥٦٢٨/١).

(٣) هو: الشماخ الذبياني.

(٤) انظر: لسان العرب (٥١٥/١٣).

(٥) هو: زهير بن أبي سلمى.

كَأَنَّ الرَّحلَ مِنها فَوقَ صَعلٍ مِنَ الظِّلمانِ جُؤجُؤُهُ هَواءُ[(١)]

وقوله -عز وجل-: ﴿وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ﴾؛ القراءة بكسر اللام الأولى، من ﴿لِتَزُولَ﴾ وفتح اللام الأخيرة، هي قراءة حسنة جيدة.

والمعنى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، أي: ما كان مكرهم ليزول به أمر النبي ﷺ وأمر دين الإسلام وثبوته كثبوت الجبال الراسية، لأن الله -عز وجل- وعد نبيه -عليه السلام- إظهار دينه على كل الأديان فقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[الفتح: ٢٨] ودليل هذا قوله: ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾؛ أي: لا يخلفهم ما وعدهم من نصرهم وإظهار نبوتهم وكلمتهم.

ويقرأ: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ﴾ على الرفع وفتح اللام الأولى، ومعناه معنى حسن صحيح؛ والمعنى: وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم يبلغ في الكيد إلى إزالة الجبال. فإن الله ينصر دينه، ومكرهم عنده لا يخفى عليه.

فإن قال قائل: فهل زالت الجبال لمكرهم؟

فقد روي في بعض التفسير قصة التابوت والنُّسُور، وأن الجبال ظنت أن ذلك أمر من أمر الله عظيم فزالت.

وقيل: هذا في قصة النمرود بن كنعان؛ ولا أرى لنمرود ههنا ذكراً، ولكنه إذا صحت الأحاديث به فمعناه: أن مكر هؤلاء لو بلغ مكر ذاك لم ينتفعوا به، وأما ما توجبه اللغة وخطاب العرب فأن يكون المعنى: وإن لم يكن جبل قط، زال لمكرِ المبالغة في وصف الشيء أن يقال: لو بلغ ما لا يظن أنه يبلغ ما انتفع به، قال الأعشى [من الطويل]:

لَئِن كُنتَ في جُبٍّ ثَمانينَ قامَةً وَرُقّيتَ أَسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

لَيَستَدرِجَنكَ القَولُ حَتّى تَهِرُّهُ وَتَعلَمَ أَنّي عَنكَ لَستُ بِمُلجَمِ[(٢)]

---

(١) انظر: روح المعاني (١٣/٢٤٧)، ومفردات القرآن (١/١١٠٧)، ولسان العرب (١/٢٤)، وتاج العروس (١/٧٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٦٩٨)، وتفسير القرطبي (٢/٢٠١)، وفتح القدير (٤/٧٠١)، وروح المعاني (١٢/١٩٢)، والكشاف (١/٤٣٨)، ومعاني القرآن (٦/٨٣)، ومفردات القرآن (١/١٠٢)، والجمل في النحو (١/٧٤)، والأصول في النحو (٢/٢٧)، وسر صناعة الإعراب (١/٢٦٧)، والمزهر في علوم اللغة (٢/٣٠٥)، وخزانة الأدب (١/٤٢٢)، وأخبار الحمقى والمغفلين (١/٨٥)، ولسان العرب (١/٤٥٥)، وتاج العروس (١/ ٥٧١).

فإنما بالغ في الوصف وهو يعلم أنه لا يرقى أسباب السماء، ولا يكون في جب ثمانين قامة فيستدرجه القول.

فالمعنى على هذا: لو أزال مكرهم الجبال لما زال أمر الإسلام وما أتى به النبي ﷺ.

﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾؛ وقرئت: ((مخلف وَعْدَه رُسُلِهِ))، وهذه القراءة التي بنصب الوعد وخفض الرسل شاذة رديئة، لا يجوز أن يفرق بين المضاف والمضاف إليه، وأنشدوا في مثل هذا.

فزججتها بمزجّة زجّ القلوص أبي مزاده[1]

المعنى: فزججتها بمزجة زج أبي مزادة القلوص. والقراءة ((مخلف وَعْدَه رُسُلِهِ))، كما تقول: هذا معطي درهم زيداً.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾؛ إن شئت نصبت ((اليوم)) على النعت لقوله: يوم يقوم الحساب يوم تبدل الأرض، وإن شئت أن يكون منصوباً بقوله: ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾؛ المعنى: أن الله -عز وجل- ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ أي: بينهم يوم تبدل الأرض غير الأرض.

والأرض: مرفوعة على اسم ما لم يسم فاعله، وغير منصوبة على مفعول ما لم يسم فاعله، تقول: بدل الخاتم خاتماً آخر. إذا كسر وصيغ صيغة أخرى، وقد تقول: بدل زيد إذا تغيرت حاله.

فمعنى ﴿تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾ تسيير جبالها وتفجير بحارها وكونها مستوية لا يرى فيها عوج ولا أمتا، فهذا -والله أعلم- تبديلها.

﴿وَالسَّمَوَاتُ﴾؛ أي: وتبدل السماوات غير السماوات، وتبديل السماوات انتشار كواكبها وانفطارها وانشقاقها وتكوير شمسها وخسوف قمرها.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾؛ أي: خرجوا من قبورهم بارزين.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾؛ والأصفاد: الأغلال، واحدها صفد، يقال: صَفَّدته بالحديد، وأَصْفَدته، وصَفَدت في الحديد أكثر، وأَصْفَدته إذا أعطيته، وصَفَدته إذا أعطيته أيضاً، إلا أن الاختيار في العطية أَصْفَدته وفي الحديد صَفَّدته، قال الشاعر:

---

(١) انظر: تفسير البغوي (١/١٩٢)، وتفسير البيضاوي (١/٤٥٦)، والكشاف (١/٣٧٩)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٢/٤٢٧)، والمفصل في صنعة الإعراب (١/١٣٣).

وإِنْ جِئْتُه يَوْمَاً فَقَرَّب مَجْلِسِي وأَصْفَدَنِي عَلَى الزَّمَانَةِ قَائِدا

معناه: أعطاني قائداً.

﴿سَرَابِيلُهُم مِن قَطِرَانٍ﴾؛ السربال: كل ما لبس ، وجعلت سرابيلهم من قطران -والله أعلم- لأن القطران يبالغ في اشتعال النار في الجلود.

ولو أراد الله المبالغة في إحراقهم بغير نار وغير قطران لقدر على ذلك، لكن عذب بما يعقل العباد العذاب من جهته وحذرهم ما يعرفون حقيقته، وقرئت من: ((قِطْرٍ آن))، قرأ بها جماعة.

والقِطْر: النحاس، وآن: قد انتهى مَرُّه[1].

* *

(١) أي: انتهى مره حتى صار سائلا يصب.

سورة الحجر(1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿ربما يود الذين كفروا﴾؛ قرئت ربما يود بتشديد الباء وتخفيفها، والعرب تقول: ((رُبَّ رجل جاءني)) ويخففون فيقولون: ((رُبَ رجل))، قال الحادرة [من الكامل]:

فَسُمَيَّ ما يُدريكِ أَن رُبَ فِتيَةٍ   باكَرتُ لَذَّتَهُم بِأَدكَنَ مُترَعِ(2)

يريد: سمية، فرخم.

ويسكنون في التخفيف فيقولون: ((رَبْ رجلٍ قد جاءني))، وأنشدوا بيت الهذلي(3) [من الكامل]:

أَزُهيرُ إِن يَشِبُ القَذالُ فَإِنَّني   رُبَ هَيضَلٍ مَرِسٍ لَفَفتُ بِهَيضَلِ(4)

---

(1) **مقدمة للسورة الكريمة**: سورة الحجر إحدى سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف الخامسة عشرة. عدد آياتها تسع وتسعون آية.

جاءت تسميتها الحِجْر لأن الله تعالى ذكر ما حدث لقوم صالح، وهم قبيلة ثمود، وديارهم في الحِجر بين المدينة والشام، فقد كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها، وكأنهم مخلّدون في هذه الحياة، لا يعتريهم موت ولا فناء، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح.

سورة الحجر يدور محورها حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسل الله في شتى الأزمان والعصور، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد.

عرضت السورة لدعوة الأنبياء، وبينت موقف أهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام، فما من نبي إلا سخر منه قومه الضالون، من بعثة شيخ الأنبياء نوح عليه السلام، إلى بعثة خاتم المرسلين. وعرضت السورة للآيات الباهرات المنبثة في صفحة هذا الكون العجيب الذي ينطق بآثار خلقه، ويشهد بجلال عظمة الخالق الكبير. وعرضت السورة إلى قصة البشرية الكبرى، قصة الهدى والضلال، ممثلة في خلق آدم عليه السلام، وعدوه اللدود إبليس اللعين، وما جرى من سجود الملائكة لآدم، واستكبار إبليس عن السجود.

ومن قصة آدم، تمضي السورة إلى قصص بعض الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ، وتثبيتًا لقلبه الشريف، لئَلا يتسرب إليه اليأس والقنوط؛ فذكر قصة لوط، وشعيب، وصالح عليهم السلام، وما حلّ بأقوامهم المكذبين. وتختتم السورة الكريمة بتذكير الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه بإنزال هذا الكتاب المجيد المعجز، وتأمره بالصبر والسلوان على ما يلقاه من أذى المشركين وتبشره بقرب النصر له وللمؤمنين.

(2) انظر: الأغاني (٣/٢٦٧). (3) هو: أبو كبير الهذلي.

(4) انظر: زاد المسير (٤/٣٨٠).

ويقولـون: ربَتَّا رجل، وربَّت رجل، ويقولـون: رَبَّ رجل، فيفتحون الراء، ورَبَمَا رجل جاءني. بفتح الراء، ورَبَّتَمَا رجل فيفتحون. حكى ذلك قطرب.

فأما تفسير الآية ففيه غير قول:

قيل: إنه إذا كان يوم القيامة وعاين الكافر القيامة وَدَّ لو كان مسلماً، وقيل: إنه إذا عاين الموت وَدَّ لو أنه مسلم، وقيل: إذا كان يوم القيامة أخرج المسلمون من النار فوَدَّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين.

وقيل: يعير أهل النار الكفرة المسلمين قائلين: ما نفعكم إيمانكم، فيغضب الله -عز وجل- لذلك، فيخرجهم من النار فيود الذين كفروا لو كانوا مسلمين.

والذي أراه -والله أعلم- أن الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب ورأى حالاً عليها أحوال المسلم وَدَّ لو كان مسلماً. فهذه الأحوال كلها تحتملها الآية.

فإن قال قائل: فلم كانت ((رُبَّ)) ههنا، ورُبَّ للتقليل؟

فالجواب في هذا: أن العرب خوطبت بما تعقله في التهدد، والرجل يتهدد الرجل فيقول له: لعلك ستندم على فعلك، وهو لا يشك في أنه يندم، وتقول له: ربما ندم الإنسان من مثل ما صنعت، وهو يعلم أن الإنسان يندم كثيراً، ولكن مجازه أن هذا لو كان مما يود في حال واحدة من أحوال العذاب، أو كان الإنسان يخاف أن يندم على الشيء لوجب عليه اجتنابه. والدليل على أنه على معنى التهدد قوله -عز وجل-: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

وجائز أن يكون -والله أعلم- أن أهوال يوم القيامة تسكرهم وتشغلهم عن التمني، فإذا أفاقوا من سكرة من سكرات العذاب ودوا لو كانوا مسلمين.

فأما من قال عن ((رُبَّ)) يعني بها الكثير فهذا ضد ما يعرفة أهل اللغة، لأن الحروف التي جاءت لمعنى تكون على ما وضعت العرب. فرب موضوعة للتقليل، وكم موضوعة للتكثير، وإنما خوطبوا بما يعقلون ويستفيدون.

وإنما زيدت ((ما)) مع ((رُبَّ)) ليليها الفعل، تقول: رُبَّ رجل جاءني وربما جاءني رجل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾؛ أي: إلا ولها أجل لا تتقدمه ولا تتأخر عنه.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ...﴾ الآية؛ معناه: هلا تأتينا بالملائكة، روي ذلك قالوا للنبي -عليه السلام-: لولا أنزل عليه ملك. فقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ المَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: إنما تنزل بآجال أو بوحي من الله.

﴿وَمَا كَانُوا إِذاً مُنظَرِينَ﴾؛ أي: لو نزلت الملائكة لم ينظروا، وانقطعت التوبات، كما قال: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ﴾[الأنعام: ٨]؛ وتقرأ ((ما تُنَزِّل الملائكة إلا بالحق)) و ((ما تُنزِّل الملائكة))، و ((ما تُنزَّل الملائكة))، و ((ما تَنْزِلُ الملائكة)).

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾؛ أي: نحفظه من أن يقع فيه زيادة أو نقصان، كما قال: ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[فصلت: ٤٢].

وقوله -عز وجل-: ﴿فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ﴾؛ أي: في فرق الأولين.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِن رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ فأعلم الله -عز وجل- أن سفهاء كل أمة يستهزئون برسلها.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ﴾؛ وتقرأ: ((نُسْلِكُه))، أي: كذلك نسلك الضلال في قلوب المجرمين، أي: كما فعل بالمجرمين الذين استهزأوا بمن تقدم من الرسل كذلك نسلك الإضلال في قلوب المجرمين.

ثم بين ذلك فقال: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾؛ أي: وقد مضت سنة الأولين بمثل ما فعله هؤلاء، فهم يقتفون آثارهم في الكفر.

ثم أعلم -تعالى- أنهم إذا وردت عليهم الآية المعجزة قالوا سحر وقالوا: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ كما قالوا حين انشق القمر: هذا ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾[القمر: ٢]، فقال -عز وجل-: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾؛ ويقرأ: ((يَعْرِجون))، أي: يصعدون ويذهبون ويجيئون، ويصلح أن يكون ﴿يَعْرُجُونَ﴾ للملائكة والناس، وقد جاء بهما التفسير.

﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾؛ وسكرت، ويجوز: سَكرت بفتح السين، ولا تقرأن بها إلا إن ثبتت بها رواية صحيحة.

وفسروا ﴿سُكِّرَتْ﴾ أغشيت، وسَكِرت: تحيرت وسكنت عن أن تنظر، والعرب تقول: سَكِرت الريح تسكُر إذا سكنت وكذلك سَكَر الحر يسْكَر، قال الشاعر:

جاء الشِّتَاءُ واجْثَأَلَّ القُبَّرُ وجَعَلَتْ عَينُ الحَرُورِ تَسكَرُ(١)

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾؛ جاء في التفسير: نجوماً وكواكب، وقيل: منازل الشمس والقمر.

وهذه البروج التي يسميها الْحسَّاب: الجمل، والثور، وما أشبهها، هي كواكب أيضاً، صورها على صور أسماء أصحابها. فالبروج: نجوم كما جاء في التفسير.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾؛ معنى ((رجيم)) قيل: ملعون.

وجائز أن يكون ((رجيم)) مرجوماً بالكواكب، كما قال -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾[الملك: ٥].

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾؛ موضوع ((من)) نصب.

المعنى: لكن من استرق السمع، وجائز أن يكون في موضع خفض، على معنى ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾.

والشهب: الكواكب المنقضَّة من آيات الله للنبي -عليه السلام-، والدليل على أنها كانت انقضَّت بعد مولد النبي ﷺ أن شعراء العرب الذين كانوا يمثلون في السرعة بالبرق وبالسيل وبالأشياء المسرعة لم يوجد في أشعارها بيت واحد فيه ذكر الكواكب المنقضة، فلما حدثت بعد مولد النبي -عليه السلام- استعملت الشعراء ذكرها قال ذو الرمة [من البسيط].

كَأَنَّهُ كَوكَبٌ في إِثرِ عِفرِيَةٍ مُسَوَّمٌ في سَوادِ اللَّيلِ مُنقَضِبُ(٢)

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾؛ كانت الأرض طينة فمدت، وقيل: مدت من تحت البيت الحرام.

والرواسي: الجبال الثوابت، ومعنى ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي: من كل شيء مقدور جرى على وزن من قدر الله -عز وجل- لا يجاوز ما قدره الله عليه، لا يستطيع خلق زيادة فيه ولا نقصاناً.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/٤٩٦)، ولسان العرب (٤/٣٧٢)، وتاج العروس (١/٢٩٦٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٠/١٢)، وفتح القدير (٣/١٧٩)، وصبح الأعشى (١٤/٢٩٥)، ولسان العرب (١/٦٧٨)، وتاج العروس (١/٨٦١).

وقيل: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾، أي: من كل شيء يوزن نحو الحديد والرصاص والنحاس والزرنيخ.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾؛ موضع ((من)) نصب من جهتين أحدهما: العطف على ﴿مَعَايِشَ﴾.

المعنى: وجعلناكم من لستم له برازقين، وجائز أن يكون عطفاً على تأويل ((لكم))؛ المعنى: في ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ أعشناكم ومن لستم له برازقين.

وفي التفسير: أن ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ الدواب والأنعام. وقيل في بعض التفسير: الوحوش.

والنحويون يذهبون إلى أن ((من)) لا يكاد أن يكون لغير ما يعقل، وقد قال -عز وجل-: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾، فجاءت ((من)) لغير الناس إذ وصف غير الناس بصفاتهم، كما جاءت الواو لغير الناس في قوله ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[يس: ٤٠].

والأجود: -والله أعلم- أن يكون ((من)) ههنا أن ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ يراد بها العبيد والأنعام والدواب، فيكون المعنى: جعلناكم فيها معايش وجعلنا لكم العبيد والدواب والأنعام وكفيتم مؤونة إرزاقها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾؛ ﴿لَوَاقِحَ﴾ تأتي بالسحاب، ولو تُلْقح السحاب وتُلَقِح الشجر، وجاز أن يقال: للريح لقحت إذا أتت بالخير، كما قيل لها ((عقيم)) إذا لم تأت بخير، وأتت بعذاب، كما قال -عز وجل-: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، ويجوز أن يقال لها ((لواقح)) وإن لقحت غيرها لأن معناها النسب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾؛ قيل: فيها غير قول:

قيل: المستقدمين: ممن خلق، والمستأخرين: ممن يحدث من الخلق إلى يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾؛ أي: الذي أنشأهم وعلمهم هو يحشرهم مبعوثين كما بدأهم أول خلق.

﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾؛ أي: تدبيره يجري بحكمة وعلم، وقيل: ولقد علمنا المستقدمين منكم في طاعة الله والمستأخرين فيها.

وقيل: إنه كانت امرأة حسناء تصلي خلف رسول الله ﷺ فيمن يصلي من النساء، وكان بعض من يصلي يتأخر في آخر الصفوف، فإذا سجد اطلع إليها من تحت إبطه، والذين لا يقصدون هذا المقصد إنما يطلبون التقدم في الصفوف لما فيه من الفضل.

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ فمن قرأ ﴿صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ فالمعنى: هذا صراط مستقيم علي أي: على إرادتي وأمري، ومن قرأ ((عَلِيٌّ)) أراد: طريق رفيع في الدين والحق.

وقوله: ﴿مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾؛ الصلصال: الطين اليابس الذي يصل ليبسه، ومعنى يصل بصوت قال الشاعر[1] [من الطويل]:

رَجَعتُ إلى صَدرٍ كَجَرَّةِ حَنتَمٍ   إذا قُرِعَت صِفراً مِن الماءِ صَلَّتِ[2]

و ﴿مَسْنُونٍ﴾؛ قيل: فيه متغير. وإنما أخذ من أنه على سنة الطريق، لأنه إنما تغير إذا قام بغير ماء جار.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَارِ السَّمُومِ﴾؛ ﴿وَالْجَانَّ﴾ منصوب بفعل مضمر. المعنى: وخلقنا الجان خلقناه، وخلق الله الملائكة من نور العزة، وخلق آدم من تراب وخلق الجان من نار السموم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾؛ قال سيبويه والخليل: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ توكيد بعد توكيد.

وقال محمد بن يزيد: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ يدل على اجتماعهم في السجود.

المعنى: فسجدوا كلهم في حال واحدة. وقول سيبويه والخليل أجود، لأن أجمعين معرفة، فلا يكون حالاً.

﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾؛ إبليس مستثنى وليس من الملائكة إنما هو من الجن كما قال -عز وجل-: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[الكهف: ٥٠]؛ وهو منصوب استثناء ليس من الأول، كما قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٧٧]؛ المعنى: لكن إبليس أبى أن يكون.

---

(١) هو: عمرو بن شأس الأسدي.

(٢) انظر: لسان العرب (١٥٩/١٢)، وتاج العروس (٧٦٨٤/١).

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾؛ موضع ((أن)) نصب بإسقاط ((في))، وإفضاء الناصب إلى ((أن)).

المعنى: أي شيء يقع لك في أن لا تكون مع الساجدين.

وقوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾؛ معناه: مرجوم ملعون.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾؛ لجهنم سبعة منازل لكل منزلة صنف ممن يعذب على قدر منزلته في الذنب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ﴾؛ الغل: الحقد.

ويروى أنه يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، ثم يؤمر بهم إلى الجنة وقد نقوا وهذبوا فخلصت نياتهم من الأحقاد.

﴿إِخْوَاناً﴾؛ منصوب على الحال.

﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾؛ في التفسير: لا ينظر بعضهم في قفا بعض.

﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾؛ أي: لا ينالهم تعب.

﴿أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾؛ يروى في التفسير: أن العبد لو علم قدر الله لما أمسك عن ذنب، ولو علم مقدار عقوبته لبخع نفسه في العبادة، ولما قدم على ذنب.

﴿فَقَالُوا سَلاماً﴾ قال سلام.

﴿سَلاماً﴾ منصوب على المصدر كأنهم قالوا: سلمنا سلاماً.

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾؛ أي: خائفون، فإنما وجل لما قدم إليهم العجل فرآهم لا يأكلون منه فوجل.

﴿قَالُوا لاَ تَوْجَلْ﴾؛ يقال: وَجَل يُوجَل، ويَاجَل ويَجِل ويِجَلُ، إذا خاف.

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؛ بفتح النون وهو أجود في القراءة، وقرئت: ((فبم تبشرونِ)) بكسر النون قرأ بها نافع، والأصل ((فبم تبشرونن)) فاستثقل النونان، فحذفت أحدهما.

وقيل: الحذف من الإدغام، كأنها ((فبم تبشرونّ))، بتشديد النون، فحذفت إحدى النونين لثقل التضعيف، كما قالوا رُبَمَا، ورُبَّمَا، قال الشاعر في حذف النون [من الوافر]:

تَراهُ كالثَّغامِ يُعَلُّ مِسكاً   يَسُوءُ الفالياتِ إذا فَلَيني[1]

يريد فلينني.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾؛ يقال: قَنَط يَقْنَط، وقَنِط يَقْنِط، وهما جميعاً جائزتان، والقنوط: بمعنى اليأس.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾، أي: فما أمركم.

وقوله: ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ﴾؛ استثناء ليس من الأول.

المعنى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ المعنى: إنا أرسلنا بالعذاب إلى قوم لوط.

وقوله: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الغَابِرِينَ﴾؛ المعنى: علمنا إنها لمن الغابرين، وقيل: دبرنا إنها لمن الغابرين، و﴿قَدَّرْنَا﴾ ههنا لا يحتاج إلى تفسير.

المعنى: إلا امرأته قدرنا أنها لمن الباقين في العذاب، والغابر: الباقي ، قال الشاعر[2] [من الرجز]:

فَما وَنى مُحَمَّدٌ مُذ أَن غَفَر

لَهُ الإِلَهُ ما مَضى وَما غَبَر[3]

المعنى: وما بقي.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾؛ أي: جئناك بالعذاب الذي كانوا يشكون في نزوله.

وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾؛ وتقول: ((فأَسْرِ بأهلك)) بقطع الألف ووصلها. وسير الليل يقال: فيه أسرى وسرى.

ومعنى ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾، أي: بعدما يمضي شيء صالح من الليل.

﴿وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾؛ أمر ﷺ بترك الالتفات لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم من العذاب -والله أعلم-.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾؛ موضع ((أن)) نصب، وهو بدل من قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ﴾ ثم فسر ما الأمر.

---

(١) مر هذا الشاهد في مواضع وهو لعمرو بن معدي كرب الزبيدي.

(٢) هو: العجاج.

(٣) مر ذكره.

فالمعنى: وقضينا إليه ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾.

﴿مُصْبِحِينَ﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾؛ الضيف: يوحد وإن وصفت به الجماعة، تقول: هذا ضيف، وهذان ضيف وهؤلاء ضيف. كما تقول: هؤلاء عدل، وإن شئت قلت أضياف وضيفان. فمن وحد فلأنه مصدر وصف به الاسم، فلذلك وحد، وإنما وحد المصدر في قولك: ضربت القوم ضرباً، لأن الضرب صنف واحد. وإذا كان أصنافاً وجمعت، فقلت: ضربتهم ضرباً، وضربتهم ضروباً، أي: أجناساً من الضرب.

والضيف: مصدر ضفت الرجل أضيفه ضيفاً. فأنا ضائف، والرجل مضيف إذا كان مفعولاً، وأضفته إذا أنزلته.

﴿قَالُوا أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾؛ معناه: ألم ننهك عن ضيافة العالمين.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾؛ فالجواب محمول على المعنى، لأنهم أرادوا الضيفان للفساد، فقال لهم لوط: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ لأن نساء أمة كل نبي بمنزلة بناته وأزواجه بمنزلة أمهاتهم.

المعنى: النساء على جهة التزويج أطهر لكم.

ومعنى ﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾؛ أي: إن كنتم مريدين لهذا الشأن فعليكم بالتزويج ببناتي.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛ هذه الآية آية عظيمة في تفضيل النبي -عليه السلام- أعني قوله سبحانه ﴿لَعَمْرُكَ﴾.

جاء في التفسير: أنه قسم بحياة محمد ﷺ كذلك أكثر التفسير، وقد جاء في بعض التفسير: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ كلمة من كلام العرب، ولست أحب هذا التفسير، لأن قوله: كلمة من كلام العرب لا فائدة فيه، لأن القرآن كله عربي مبين، وكلمة من كلام العرب، فلا بد من أن يقال: ما معناها.

وقال سيبويه والخليل وجميع أهل اللغة: العَمْرُ والعُمْرُ بمعنى واحد، فإذا استعمل في القسم فتح أوله لا غير، لا تقول العرب: إلا لعمرك، وإنما آثروا الفتح في القسم لأن الفتح أخف عليهم وهم يكثرون القسم بـ((لعمري ولعمرك))، فلما كثر استعمالهم إياه لزموا الأخف عليهم.

وقال النحويون: ارتفع ﴿لَعَمْرُكَ﴾ بالابتداء والخبر محذوف؛ المعنى: لعمرك قسمي، ولعمرك ما أقسم به. وحذف الخبر لأن في الكلام دليلاً عليه.

المعنى: أقسم ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ومعنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون. وباب القسم قد يحذف معه الفعل، تقول: والله لأفعلن وتالله لأفعلن؛ والمعنى: أحلف بالله، وأحلف والله، فيحذف أحلف لعلم المخاطب بأنك حالف، وكذلك يحذف خبر الابتداء كما ذكرنا.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾؛ أي: أخذت قوم لوط الصيحة بالعذاب مشرقين، يقال: أشرقنا فنحن مشرقون، إذا صادفوا شروق الشمس، وهو طلوعها، كما تقول أصبحنا إذا صادفوا الصبح. يقال: أشرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت بمعنى واحد، إلا أن معنى ((مشرقين)) في معنى مصادفين لطلوع الشمس.

وقوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ﴾؛ معنى ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ من طين عليه كتاب. واشتقاق ذلك من السجل، ودليل هذا التفسير قوله: ﴿حِجَارَةً مِن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾[الذاريات: ٣٣، ٣٤]، فأعلم أنها من طين وأنها مسومة أي: معلمة لعلامات الكتاب.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾؛ قيل: المتوسمون المتفرسون، وقيل: المتفكرون.

وحقيقته في اللغة ((المتوسمون)) النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء. تقول: تَوَسَّمْت في فلان كذا وكذا، أي: عرفت وسم ذلك فيه.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾؛ أي: لبطريق واضح بين.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: لعلامة بينة للمصدقين.

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾؛ أي: أصحاب الشجر.

والأيك: الشجر وهؤلاء أهل موضع كان ذا شجر، فانتقم الله منهم بكفرهم، قيل: إنه أخذهم الحر أياماً ثم اضطرم عليهم المكان ناراً فهلكوا عن آخرهم. ومعنى ((إن واللام)) التوكيد.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: لبطريق يؤتم أي: يقصد فَيبيَّن.

و﴿أَصْحَابُ الحِجْرِ﴾ أصحاب واد يقال له: الحجر.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾؛ قيل: السبع من المثاني هي فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات، وإنما قيل لها المثاني لأنها يثنى بها في كل ركعة من ركعات الصلاة، ويثني بها مع ما يقرأ من القرآن.

ويجوز -والله أعلم- أن يكون ﴿مِنَ الْمَثَانِي﴾ أي: مما أثني به على الله، لأن فيها حمد الله، وتوحيده وذكر ملائكته وملكه يوم الدين.

وروي في التفسير: أنه ما أعطيت أمة كما أعطيت أمة محمد ﷺ من سورة الحمد.

فأما دخول ((من)) فهي ههنا تكون على ضربين، تكون للتبعيض من القرآن، أي: ولقد آتيناك سبع آيات من جملة الآيات التي يثنى بها على الله -عز وجل- وآتيناك القرآن العظيم، ويجوز أن يكون السبع هي المثاني، وتكون ((من)) الصفة كما قال -عز وجل-: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[الحج: ٣٠]؛ المعنى: اجتنبوا الأوثان، لا أن بعضها رجس.

ويجوز أن يكون المعنى: سبعاً مثاني على هذا القياس، ويدل على القول الأول قوله -عز وجل-: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾[الزمر: ٢٣]؛ وقيل: سبعاً من المثاني: السبع الطوال، من البقرة إلى الأعراف ست، واختلفوا في السابعة، فقال بعضهم: سورة يونس؟ وقيل: الأنفال وبراءة. وإنما سميت مثاني لذكر الأقاصيص فيها مثناة.

ويجوز ((وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ)) بالخفض، ولكن لا تقرأن به إلا أن تثبت به رواية صحيحة.

﴿أزواجاً مِنْهُمْ﴾ أي: أمثالا في النعم.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ألن جانبك للمؤمنين، أي: لمن آمن بك وبما أتيت به.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾؛ يروى أن المشركين قالوا: أساطير الأولين، وقالوا: سحر، وقالوا: شاعر وقالوا: كاهن. فقسموه هذه الأقسام، وعضوه أعضاء.

ويروى أن أهل الكتاب هم المقتسمون، آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، وقالوا نحواً مما روي عن المشركين.

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾؛ قيل في التفسير: اجهر بالقرآن، ويكون -والله أعلم- ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، أبن ما تؤمر به وأظهره، وأخذ ذلك من الصديع وهو الصبح. قال الشاعر:

* كَأَنَّ بَيَاضَ غُرَّتِه الصَّدِيعُ *

وتأويل الصدع في الزجاج، أو في الحائط، أن يبين بعض الشيء عن بعض.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾؛ قيل: هؤلاء جماعة من المشركين، خمسة نفر كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ فنزلت بهم آفات مات أكثرهم منها، وعمي واحد منهم.

والخمسة سموا في التفسير منهم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث. أعلم الله أنهم من المشركين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾؛ أي: حتى يأتيك الموت، كما قال عيسى ابن مريم: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً﴾.

فإن قال قائل كيف تكون عبادةٌ لغيرِ الحي؟، أي: كيف يعبد الإنسان وهو ميت؟

فإن مجاز هذا الكلام مجاز ((أبداً))؛ المعنى: اعبد ربك أبداً، واعبده إلى الممات، لأنه لو قيل: أعبد ربك -بغير التوقيت- لجاز إذا عبد الإنسان مرة أن يكون مطيعاً، فإذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، أي: أبداً وما دمت حياً، فقد أمرت بالإقامة على العبادة.

* * *

سورة النحل[1]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -تعالى-: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

﴿أَمْرُ اللهِ﴾ ما وعدهم الله به من المجازاة على كفرهم من أصناف العذاب، والدليل على ذلك قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾[هود: ٤٠] أي: جاء ما وعدناهم به، وكذلك قوله: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً﴾[يونس: ٢٤] وذلك أنهم استعجلوا العذاب واستبطأوا أمر الساعة.

فأعلم الله -عز وجل- أن ذلك في قربة بمنزلة ما قد أتى، كما قال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ﴾[القمر: ١]؛ وكما قال: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ﴾[النحل: ٧٧].

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ معناه: تنزيهه من السوء، كذلك جاء في الحديث عن النبي ﷺ وكذلك فسره أهل اللغة قالوا: ((معناه: تنزيه الله من السوء))، وبراءة الله من السوء قال الشاعر[2] [من السريع]:

أَقولُ لَمّا جاءَني فَجرُهُ   سُبحانَ مِن عَلقَمَةَ الفاجِرِ[3]

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة**: سورة النحل من سور القرآن الكريم المكية، ترتيبها في المصحف الشريف السادسة عشرة. عدد آياتها ثمان وعشرون ومائة آية.

جاءت تسميتها النحل لاشتمالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق، وتدل على الألوهية بهذا الصنع العجيب لشتى مخلوقاته ومنها النحل.

تعالج السورة الكريمة موضوعات العقيدة الكبرى: الألوهية، والوحي، والبعث والنشور، وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في ذلك العالم الفسيح: في السموات والأرض، والبحار والجبال، والسهول والوديان، والماء الهاطل، والنبات النامي، والفلك التي تجري في البحر، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل إلى آخر تلك المشاهد.

تناولت السورة أمر الوحي الذي كان موضع إنكار المشركين الذين استبعدوا قيام الساعة، فاستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوّفهم به، وكلما تأخر العذاب زادوا استهزاءً. ومن أهداف السورة تقرير مبدأ وحدانية الله جلَّ وعلا، بلفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهار. ثم تتابعت السورة الكريمة تذكر الناس بنتيجة الكفر بنعم الله. وختمت السورة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة، والموعظة الحسنة، والصبر، والعفو عما يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله.

(٢) هو: الأعشى.

(٣) مر ذكره.

أي: براءة منه.

وقوله: ﴿يُنَزِّلُ المَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾؛ ويقرأ: ((تَنَزَّلُ الملائكة))، ويجوز فيها أوجه لا أعلمه قرئ بها: ((يُنْزِلُ الملائكة، ويُنَزِّل الملائكة، وتَنَزَّلُ الملائكة بالروح)).

والروح -والله أعلم-: ما كان فيه من أمر الله حياة للنفوس والإرشاد إلى أمر الله، والدليل على ذلك قوله: ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾؛ المعنى: أنذروا أهل الكفر والمعاصي بأنه لا إله إلا أنا، أي: مروهم بتوحيدي، وألا يشركوا بي شَيْئاً.

ثم أعلم ما يدل على توحيده مما خلق فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ ارتفع عن الذين أشركوهم به، لأنهم لا يخلقون شَيْئاً وهم يخلقون.

وقوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾؛ اختصر ههنا، وذكر تقلب أحوال الإنسان في غير مكان من القرآن.

وقوله: ﴿والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾؛ نصب ((الأنعام)) على فعل مضمر.

المعنى: خلق الأنعام خلقها، مفسر للمضمر، والدفء: ما يدفئهم من أوبارها وأصوافها. وأكثر ما تستعمل الأنعام في الإبل خاصة، وتكون للإبل والغنم والبقر، فأخبر الله -عز وجل- أن في الأنعام ما يدفئنا، ولم يقل لكم فيها ما يكنكم ويدفئكم من البرد، لأن ما ستر من الحر ستر من البرد، وما ستر من البرد ستر من الحر، قال الله -عز وجل- في موضع آخر: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾[النحل: ٨١] فعلم أنها تقي البرد أيضاً، وكذلك إذ قيل: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ علم أنها تستر من البرد، وتستر من الحر.

وقوله: ﴿وَمَنَافِعُ﴾؛ أي: ومنافعها ألبانها وأبوالها وغير ذلك.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾؛ الإراحة: أن تروح الإبل من مراعيها إلى الموضع الذي تقيم فيه.

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، أي: حين تخلونها للرعي، وفيما ملكه الإنسان جمال وزينة كما قال -عز وجل-: ﴿المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف: ٤٦]، والمال ليس يخص الوَرِق والعين دون الإملاك، وأكثر مال العرب الإبل، كما أن أكثر أموال أهل البصرة النخل. إنما يقولون مال فلان بموضع كذا وكذا يعنون النخل.

وقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾؛ تقرأ بالفتح والكسر، أي: تكلفتم بلوغه على غير الإبل لشق عليكم ذلك.

وقوله: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾؛ أي: وخلق الخيل والبغال والحمير للركوب، وكثير من الناس يقولون إن لحوم الخيل والبغال والحمير دلت عليه هذه الآية أنها حرام، لأنه قال في الإبل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾[غافر: ٧٩، ٨٠].

وقال في الخيل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ ولم يذكر فيها الأكل.

وقال قوم: لو كانت حرمت بهذه الآية لم يحرم النبي ﷺ لحوم الحمر الأهلية، ولكفاه ما دل عليه القرآن. وهذا غلط لأن القرآن قد دل على أن الخمر حرام، وقال النبي ﷺ: ((حرمت الخمر بعينها)). فذكر النبي ﷺ ما حرم في الكتاب بأنه حرام، توكيداً له وزيادة في البيان.

ونصب ﴿وَزِينَةً﴾ مفعول لها؛ المعنى: وخلقها زينة.

وقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾؛ أي: على الله تبين الطريق المستقيم إليه بالحجج والبراهين.

وقوله: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾؛ جائر أي: من السبل طرق غير قاصدة للحق.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: لو شاء الله لأنزل آية تضطر الخلق إلى الإيمان به، ولكنه -عز وجل-: يهدي من يشاء ويدعو إلى صراط مستقيم.

وقوله: ﴿مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾؛ المعنى: أنه ينبت الشجر التي ترعاها الإبل، وكل ما أنبت على الأرض فهو شجر، قال الشاعر يصف الخيل:

يَعْلِفُها اللحمَ إذا عزَّ الشجَرْ والخَيْلُ في إطْعامِها اللحمَ ضَرَرْ[1]

يعني أنهم يسقون الخيل اللبن إذا أجدبت الأرض.

وقوله: ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾؛ أي: ترعون، يقال: أَسمتُ الإبل إذا رعيتها، وقد سَامَت تَسُوم وهي سَائِمة إذا رعت، وإنما أخذ ذلك من السُّومة، وهي العِلامة وتأويلها أنها تؤثر في الأرض برعيها علامات.

وقوله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾؛ معنى ﴿مَوَاخِرَ﴾ جواري تجري جرياً، وتشق الماء شقاً.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾؛ ﴿رَوَاسِيَ﴾ جبالاً رواسي ثوابت.

---

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٣٨٨/١)، وزاد المسير (٤٣٣/٤)، ولسان العرب (٢٥٥/٩).

﴿أَن تَمِيدَ﴾ معناه: كراهة أن تميد ومعنى ((تميد)) لا تستقر، يقال: ماد الرجل يميد ميداً، إذا دير به والْمَيْدَى: الذين يدار بهم إذا ركبوا في البحر، وأن تميد في موضع نصب، مفعول لها.

﴿وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً﴾؛ المعنى: وجعل فيها رواسي وأنهاراً وسبلاً، لأن معنى ألقى في الأرض رواسي جعل فيها رواسي، ودليل ذلك قوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[النبأ: ٧].

وقوله: ﴿وبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ النجم والنجوم في معنى واحد، كما تقول: كثر الدرهم في أيدي الناس وكثرت الدراهم.

خلق الله -جل ثناؤه- النجوم لأشياء منها: أنها جعلت زينة للسماء الدنيا. ومنها: أنها جعلت رجوماً للشياطين.

ومنها: أنها يهتدى بها.

ومنها: أنها يعلم بها عدد السنين والحساب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ ويقرأ: ((تدعون من دون الله)) بالتاء والياء.

﴿لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ يعنى به الأوثان التي كانت تعبدها العرب.

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي: وهم أموات غير أحياء.

وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: ما يشعرون متى يبعثون.

و﴿أَيَّانَ﴾ في موضع نصب بقوله: ﴿يُبْعَثُونَ﴾ ولكنه مبني غير منون لأنه بمعنى الاستفهام فلا يعرب كما لا تعرب ((كم ومتى وكيف وأين))، إلا النون فتحت لالتقاء الساكنين.

فإن قال قائل: فهلا كسرت؟

قيل: الاختيار إذا كان قبل الساكن الأخير ألف أن يفتح، لأن الفتح أشبه بالألف وأخف معها.

زعم سيبويه والخليل أنك إذا رَخَّمت رجلاً اسمه ((أسحار))، قلت: ((يا أَسْحَارَّ -بتشديد الراء- أقبل)) ففتحت الراء لالتقاء الساكنين، وكذلك تختار مع المفتوح، تقول إذا أمرت من غض: ((غض يا هذا)).

وقوله: ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ معنى ﴿لاَ جَرَمَ﴾ حق أن الله يعلم، ووجب، وقوله: ﴿لاَ﴾ رد لفعلهم، قال الشاعر:

ولقد طَعَنْتَ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً جَرَمَتْ فَزَارَةُ بعدَهَا أَنْ يَغْضبُوا[1]

المعنى: أحقت فزارة بالغضب.

وقوله: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُم مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾؛ ((ما)) مبتدأ، و ((ذا)) في موضع ((الذي))؛ المعنى: ما الذي أنزل ربكم.

وأساطير مرفوعة على الجواب، كأنهم قالوا: الذي أنزل أساطير الأولين، أي: أكاذيب الأولين، واحدها أسطورة.

وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ هؤلاء كانوا يصدون من أراد اتباع النبي ﷺ، وإذا سئلوا عما أتى به قالوا الذي جاء أساطير الأولين.

فأعلم الله -عز وجل- أنهم يحملون بذلك آثام الذين كفروا بقولهم. ولا ينقص ذلك من إثم التابع.

وقوله: ﴿أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛ ((ما)) في موضع رفع، كما ترفع بنعم وبئس؛ المعنى: ساء الشيء وزرهم، وهذا كما تقول: بئس الشيء.

وقوله: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِنَ القَوَاعِدِ﴾؛ أي: من أساطين البناء التي تعمده.

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾؛ يروى أن ذلك في قصة نمرود بن كنعان، بنى صرحاً يمكر به فخر سقفه عليه وعلى أصحابه، وقال بعضهم: هذا مثل، جعلت أعمالهم التي عملوها بمنزلة الباني بناء يسقط عليه فمضرة عملهم كمضرة الباني إذا سقط عليه بناؤه.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾؛ و ﴿تُشَاقُّونِ فِيهِمْ﴾ بكسر النون، وقد فسرنا مثل هذا، وإنما ﴿شُرَكَائِيَ﴾ حكاية لقولهم والله -جل ثناؤه- لا شريك

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٠٠/٤)، وتفسير القرطبي (٣٦/٦)، وفتح القدير (٩/٢)، وروح المعاني (١٢/ ١٢١)، وزاد المسير (٩٢/٤)، وحروف المعاني (٧٢/١)، وأدب الكاتب (٥٠/١)، ولسان العرب (٩٠/١٢)، وتاج العروس (٧٦٤٥/١).

له؛ المعنى: أين الذين في دعواكم أنهم شركائي.

﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾؛ أي: ألقوا الاستسلام، وذكر السلم، والسلم الصلح، لذكره المشاقة، وبإزاء المشاقة والمعاداة الصلح.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَى﴾؛ أي: قالوا: ما كنا نعمل من سوء.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾؛ ((ما)) و((ذا)) كالشيء الواحد.

والمعنى: أي شيء أنزل ربكم.

﴿قَالُوا خَيْراً﴾؛ على جواب ((ماذا))؛ المعنى: ((أنزل خيراً)).

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ جائز أن يكون هذا الكلام ذكر ليدل على أن الذي قالوه اكتسبوا به حسنة، وجائز أن يكون تفسيراً لقولهم خيراً، و﴿حَسَنَةٌ﴾، بالرفع القراءة. ويجوز ((للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنةً)) ولا تقرأن بها، وجوازها أن معناها أن أُنزل خيراً جُعل للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، أي: جعل لهم مكافأة في الدنيا قبل الآخرة.

وقوله: ﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾؛ المعنى:، ولنعم دار المتقين دار الآخرة، ولكن المبين لقوله: ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ هو قوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾؛ وهي مرفوعة بإضمار ((هي)) كأنك لما قلت، ولنعم دار المتقين على جواب السائل أي: دار هي هذه الممدوحة؟، فقلت: جنات عدن يدخلونها.

وإن شئت رفعت على الابتداء، ويكون المعنى: جنات عدن نعم دار المتقين.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾؛ أي: لقبض أرواحهم، أو يأتي ما وعدهم الله به من عذابه.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ أي: كذلك فعلوا فأتاهم أمر الله بالعذاب ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ هذه الآية وأشباهها فيه تنازع وينبغي أن يقف أهل القرآن والسنة على حقيقة تفسيرها، لأن قوماً زعموا أن من قال هذا فقد كفر، وأن من قال من العباد: أن لا يفعل إلا ما شاء الله فقد كفر، وهذا تأويل رديء، وإنما كفر أولئك وكذبوا، لأنهم كانوا يقولون: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء على

جهة الهزء، والدليل على ذلك أن قوم شعيب قالوا لشعيب: ﴿أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[هود: ٨٧]؛ فلو قالوا له هذا معتقدين لكانوا مؤمنين، وإنما قالوه مستهزئين، وقد اتفقت الأمة على أن الله لو شاء ألا يعبد غيرُه مشيئةً اضطرار إلى ذلك لم يقدر أحد على غير ذلك، ولكن الله -جل ثناؤه- تعبّد العباد ووفق من أحب توفيقه، وأضل من أحب إضلاله، وهؤلاء قالوا هذه محققين ما قيل لهم: إنهم مكذبون إذ كان الإجماع على أن الله -عز وجل- يقدر على أن يجبر العباد على طاعته.

وأعلم الله أنهم مكذبون كما كذب الذين من قبلهم فقال: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ﴾؛ أي: الإبلاغ الذي يُبَيِّنُون معه أنهم أنبياء.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ فأعلم الله أنه بعث الرسل بالأمر بالعبادة، وهو من وراء الإضلال والهداية، فقال:

﴿فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾؛ فهذا يدل على أنهم لو قالوا ذلك معتقداً لكانوا صادقين، ثم أكد ذلك فقال:

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾؛ وقرئت: ((فإن الله لا يهدي من يُضِلُّ))، كما قال: ﴿مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾[الأعراف: ١٨٦].

وفيها وجه ثالث في القراءة.. ((لا يهدي من يَضل)) وهو أقل الثلاثة.

وقوله: ﴿بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً﴾؛ ﴿وَعْداً﴾ منصوب مؤكد؛ المعنى: بلى يبعثهم الله وعداً عليه حقاً.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾؛ فهذا على ضربين؛ جائز أن يكون معلقاً بالبعث، ويكون المعنى: بلى يبعثهم الله ليبين لهم وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وجائز أن يكون ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ معلقاً بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ ليبين لهم اختلافهم، وأنهم كانوا من قبله على ضلالة.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾؛ القراءة الرفع، وقد قرئت بالنصب، فالرفع على فهو، ويكون على معنى ما أراد الله فهو يكون، والنصب على ضربين أحدهما: أن يكون قوله ﴿فَيَكُونُ﴾ عطفاً على ((أن نقول فيكون)). ويجوز أن يكون نصباً على جواب ((كن)) فـ((قولنا)) رفع بالابتداء، وخبره ((أن نقول))؛ المعنى: إنما قولنا لكل مراد قولنا ((كن)).

وهذا خوطب العباد فيه بما يعقلون وما أراد الله فهو كائن على كل حال، وعلى ما أراده من الإسراع ولو أراد خلق الدنيا السماوات والأرض في قدر لمح البصر لقدر على ذلك، ولكن العباد خوطبوا بما يعقلون، فأعلمهم الله سهولة خلق الأشياء عليه قبل أن تكون، فأعلمهم أنه متى أراد الشيء كان، وأنه إذا قال: كن كان. ليس أن الشيء قبل أن يخلق كان موجوداً، إنما المعنى: إذا أردنا الشيء نقول من أجله ((كن)) أيها المراد فيكون على قدر إرادة الله.

لأن القوم أعني المشركين أنكروا البعث، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾؛ وهو معنى قوله: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الحِنثِ العَظِيمِ﴾[الواقعة: ٤٦] أي: كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون.

ولقد جاء في التفسير: أن الحنث الشرك لأن من اعتقد هذا فضلاً أن يحلف عليه فهو مشرك. فقال جل وعلا: ﴿بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً﴾؛ أي: بلى يبعثهم ﴿وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً﴾ منصوب مصدر مؤكد لأنه إذا قال يبعثهم دل على ((وعد بالبعث وعداً)).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ هؤلاء قوم كان المشركون يعذبونهم على اعتقادهم الإيمان منهم: صهيب وبلال.

وذلك أن صهيباً قال لأهل مكة: أنا رجل كبير، إن كنت معكم لم أنفعكم، وإن كنت عليكم لم أضركم، خذوا مالي ودعوني، فأعطاهم ماله وهاجر إلى رسول الله ﷺ فقال له أبو بكر الصديق: ربح البيع يا صهيب، وقال عمر: نعم الرجل صهيب لو لم يخف الله لم يعصه، تأويله: لو أنه آمن عذابه وعقابه لما ترك ولا جنح إلى المعصية لأمنه العذاب.

ومعنى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ أي: لأنهم صاروا مع النبي ﷺ ودخلوا في الإسلام وسمعوا ثناء الله عليهم.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي﴾؛ و﴿رِجَالاً نُوحِي﴾، و((يُوحي إليهم)).

أما القراءتان الأوليان فجيدتان والثالثة ضعيفة لذكره ((أرسلنا)). فأن يكون اللفظ على نوحي ويوحي أحسن، لأن نوحي يوافق اللفظ والمعنى، ويوحي إنما هو محمول على المعنى، لأن المعنى: وما أرسل الله إلا رجالاً يوحي إليهم.

وإنما قيل لهم؛ لأنهم قالوا: لولا أنزل عليه ملك أو جاء مع نذير، فأعلم الله -جل وعز- أن الرسل بشر إلا أنهم يوحى إليهم.

ثم أعلم كيف يستدل على صحة نبوتهم فقال: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾؛ أي: بالآيات والحجج، والزبر: الكتب، واحدها: زبور، يقال: زبرت الكتاب وزبرته بمعنى واحد، قال أبو ذؤيب [من المتقارب]:

عَرَفتُ الدِّيارَ كَرَقمِ الدَوا ةِ يَزبِرُها الكاتِبُ الحِميَرِيُّ[١]

وقوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾؛ فيها قولان:

قيل: فاسألوا أهل الكتب أهل التوراة والإنجيل وأهل جميع الكتب يعترفون أن الأنبياء كلهم بشر. وقيل: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أي: فاسألوا من آمن من أهل الكتاب.

ويجوز -والله أعلم- أن يكون قيل لهم: اسألوا كل من يذكر بعلم وافق أهل هذه الملة أو خالفهم.

والدليل على أن أهل الذكر أهل الكتب قوله -تعالى-: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم﴾ وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾[الأنبياء: ٥٠].

وقوله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ﴾؛ أي: أفأمنوا أن يفعل بهم ما فعل بقوم لوط، والذين أهلكوا من الأمم السالفة بتعجيل العذاب في الدنيا.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾، عطف على ﴿أَن يَخْسِفَ﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ أي: في تصرفهم في أسفارهم، وسائر ما ينقلبون فيه.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾؛ أي: أو يأخذهم بعد أن يخيفهم، بأن يهلك فرقة فتخاف التي تليها، وقيل: على تخوف على تنقص، ومعنى ((التنقص)) أن ينتقصهم في أموالهم وثمارهم حتى يهلكهم.

ويروى عن عمر قال: ما كنت أدري ما معنى ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ حتى سمعت قول الشاعر[٢] [من البسيط]:

---

(١) انظر: زاد المسير (٩/٥٥)، ولسان العرب (٤/٣٠١)، وتاج العروس (١/٢٨٥٥)، وغريب الحديث لابن قتيبة (١/٢٤٥).

(٢) هو: تميم بن أبي بن مقبل.

تَخَوَّفَ السَّيْرُ مِنْهَا تامِكاً قَرِداً كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[1]

وصف ناقة وأن السير تنقص سنامها بعد تمكنه واكتنازه.

وقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: من رحمته أن مهل فجعل فسحة للتوبة.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾؛ وتقرأ: ((تتفيأ ظلاله)).

﴿سُجَّداً﴾ منصوب على الحال.

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾؛ ومعنى ﴿دَاخِرُونَ﴾: صاغرون.

وهذه الآية فيها نظر، وتأويلها -والله أعلم-: أن كل ما خلق الله من جسم وعظم ولحم ونجم وشجر خاضع لله ساجد، والكافر إن كفر بقلبه ولسانه وقصده فنفس جسمه وعظمه ولحمه وجميع الشجر والحيوان خاضعة لله ساجدة.

والدليل على ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ﴾[الحج: ١٨].

روي عن ابن عباس أنه قال: ((الكافر يسجد لغير الله، وظله يسجد لله)).

وتأويل الظل تأويل الجسم الذي عنه الظل.

وقوله: ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾؛ أي: هذه الأشياء مجبولة على الطاعة.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دابة وَالْمَلائِكَةُ﴾؛ المعنى: ولله يسجد ما في السماوات من الملائكة وما في الأرض من دابة والملائكة، أي: وتسجد ملائكة الأرض، والدليل على أن الملائكة في الأرض أيضاً قوله -تعالى-: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨]، وقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾[الرعد: ١١]، وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً﴾[الانفطار: ١٠، ١١].

وقوله: ﴿وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِن فَوْقِهِمْ﴾؛ أي: يخافون ربهم خوف مخلدين معظمين.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾؛ وصفهم بالطاعة وأنهم لا يجاوزون أمراً له ولا يتقدمونه.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٩٠/٧)، والأغاني (٨٢/٦)، ولسان العرب (٩٩/٩)، وتاج العروس (٥٨٤٣/١).

وقوله: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾؛ قيل: معناه: دائماً، أي: طاعة واجبة أبداً، ويجوز -والله أعلم- أن يكون ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ أي: له الدين والطاعة، رضي العبد بما يؤمر به أو لم يرض، وسهل عليه أو لم يسهل، فله الدين وإن كان فيه الوصب. والوصب: شدة التعب .

ثم قال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: أفغير الله قد بان لكم أنه وحده، وأنه خالق كل شيء وأن ما بكم من نعمة فمن عنده، وأنه لو أراد إهلاككم حين كفرتم وألا ينظركم إلى يوم التوبة لقدر.

وأعلم أنه مع إقامته الحجج في أنه واحد، وأنه أمر ألا يتخذ معه إله عبدوا غيره، لأنهم قالوا عن الأصنام: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[الزمر: ٣]؛ فأعلم الله -عز وجل- أن لا إله إلا هو، ولا يجوز أن يعبد غيره، وإن قصد التقرب بالعبادة لله وحده، فقال - جل وعلا -: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

فذكر ((اثنين)) توكيداً لقوله " ﴿إِلَهَيْنِ﴾، كما ذكر الواحد في قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا بِكُم مِن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾؛ دخلت الفاء، ولا فعل ههنا لأن الباء متصلة بالفعل.

المعنى: ما حل بكم من نعمة فمن الله، أي: ما أعطاكم الله من صحة جسم أو سعة في رزق، أو متاع بمال أو ولد فكل ذلك من الله.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾؛ أي: إليه ترفعون أصواتكم بالاستغاثة، يقال: جَأَرَ الرجل يَجْأَر جُوأراً، والأصوات مبنية على ((فعال وفعيل))، فأما ((فُعال)) فنحو: ((الصراخ، والْجُؤَار، والبكاء)). وأما ((الفعيل)) فنحو: ((العويل والزئير))، والفعال أكثر.

وقوله: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾؛ هذا خاص فيمن كفر به.

وقوله: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾؛ أي: ليكفروا بأنا أنعمنا عليهم، أي: جعلوا ما رزقناهم وأنعمنا به عليهم سبباً إلى الكفر كما قال -تعالى-: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾[يونس: ٨٨]؛ ويجوز أن يكون ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي: ليجحدوا نعمة الله في ذلك، كما قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[النحل: ٧١].

وقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ لم يأمرهم الله -جل وعلا- أن يتمتعوا أمر تعبد، إنما هو لفظ أمر ليهدد كما قال: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا﴾[الإسراء: ١٠٧]؛ أي: فقد

وعد الله وأوعد وأنذر وبلغت الرسل فمن اختار بعد ذلك الكفر والتمتع بما يباعد من الله فسوف يعلم عاقبة أمره. وقد بين الله عاقبة الكفر والمعصية بالحجج البالغة والآيات البينات.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾؛ هو معنى قوله -تعالى-: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾[الأنعام: ١٣٦]، فجعلوا نصيباً يتقربون به إلى الله -تعالى-، ونصيباً يتقربون به إلى الأصنام والحجارة.

وقوله: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾؛ أي: تالله لتسألن عنه سؤال توبيخ حتى تعترفوا به على أنفسكم وتلزموا أنفسكم الحجة.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾؛ لأنهم زعموا أن الملائكة بنات الله، ﴿سُبْحَانَهُ﴾ معناه: تنزيهاً له من السوء.

﴿وَلَهُم مَا يَشْتَهُونَ﴾؛ في موضع رفع لا غير؛ المعنى: سبحانه، ولهم الشيء الذي يشتهون كما قال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾[الطور: ٣٩].

فإن قال قائل لم لا يكون المعنى: ويجعلون لهم ما يشتهون؟

قيل: العرب تستعمل في هذا الموضع: جعل لنفسه ما يشتهي، ولا يقولون: جعل زيد له ما يشتهي، وهو يعني نفسه.

ثم أعلم أنهم يجعلون لله البنات. فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً وَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ فيجعلون لمن يعترفون بأنه خالقهم البنات اللاتي محلهن منهم هذا المحل.

ومعنى ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَداً﴾، متغيراً تغير مغموم. ويقال لكل من لقي مكروهاً: قد اسود وجهه غماً وحزناً، ومن ذلك قولك: سودت وجه فلان.

وقوله: ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾؛ قيل: كان الرجل في الجاهلية إذا حزب امرأته المخاض توارى لكي يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً سر به وابتهج، وإن كانت أنثى اكتأب بها وحزن، فمنهم من يئد ولده يدفنها حية، أو يمسكها على كراهة وهوان. فقال الله -تعالى-: ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ألا ساء حكمهم في ذلك الفعل وفي جعلهم لله البنات وجعلهم لأنفسهم البنين ونسبهم لله اتخاذ الولد.

وقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾؛ معنى ﴿عَلَيْهَا﴾ على الأرض، ودل الإضمار على الأرض لأن الدواب إنما هي على الأرض.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾؛ جاء في التفسير أنه قوله: لا إله إلا الله، وتأويله: أن الله -جل ثناؤه- له التوحيد ونفي كل إله سواه.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾؛ أي: يجعلون لله البنات اللاتي يكرهونهن.

وقوله: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الحُسْنَى﴾؛ ﴿أَنَّ﴾ بدل من ﴿الكَذِبَ﴾.

المعنى: وتصف ألسنتهم أن لهم الحسنى، أي: يصفون أن لهم -مع فعلهم هذا القبيح- من الله -جل ثناؤه- الجزاء الحسن.

وقوله: ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾؛ ((لا)) رد لقولهم.

المعنى: -والله أعلم- ليس ذلك كما وصفوا، جرم أن لهم النار؛ المعنى: جرم فعلهم هذا أن لهم النار، أي: كسب فعلهم أن لهم النار.

وقيل: إن ((أن)) في موضع رفع، ذكر ذلك قطرب، وقال المعنى:إن لهم النار.

﴿وَأَنَّهُم مُفْرَطُونَ﴾؛ فيها أربعة أوجه:

﴿مُفْـرَطُونَ﴾ بإسكان الفاء وفتح الراء، و((مفَـرَّطون)) بفتح الفاء وتشديد الراء وبفتحها، و((مفْرِطون)) - بإسكان الفاء وكسر الراء، و((مفَرِّطون)) بفتح الفاء وتشديد الراء وكسرها.

فأما تفسير ﴿مُفْـرَطُونَ﴾، و((مفَرَّطون)) فجاء عن ابن عباس، متركون، وقيل عنه: معجلون.

ومعنى الفرط في اللغة: التقدم ، وقد فرط إلي منه قول أي: تقدم، فمعنى مُفْرَطون مقدمون إلى النار، وكذلك مفَرَّطون، ومن فسر متركون فهو كذلك، أي: قد جعلوا مقدمين في العذاب أبداً متروكين فيه.

ومن قرأ و((مفَرِّطون))؛ فالمعنى: أنه وصف لهم بأنهم فرطوا في الدنيا فلم يعملوا فيها للآخرة. وتصديق هذه القراءة قوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾[الزمر: ٥٦].

ومن قرأ ((مفْرِطون))؛ فالمعنى: على أنهم أفرطوا في معصية الله، كما تقول: قد أفرط فلان في مكروهي. وتأويله أنه آثر العجز وقدمه.

وقوله: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ بنصب ﴿وَرَحْمَةً﴾.

المعنى: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا هدى ورحمة، أي: ما نزلناه عليك إلا للهداية والرحمة، فهو مفعول له. ويجوز: ((وهدى ورحمة)) في هذا الموضع.

المعنى: وما أنزلنا عليك الكتاب إلا للبيان وهو مع ذلك هدى ورحمة.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾؛ وتقرأ ((نَسْقِيكم))، ويقال: سَقَيْتُه وأَسْقَيْتُه في معنى واحد. قال سيبويه والخليل: سقيته كما تقول: ناولته فشرب. وأسقيته جعلت له سقياً، وكذلك قول الشاعر[1] يحتمل المذهبين [من الوافر]:

سَقى قَومي بَني مَجدٍ وَأَسقى نُمَيراً وَالقَبائِلَ مِن هِلالِ[2]

وهذا البيت وضعه النحويون على أنه ((سقى وأسقى)) بمعنى واحد، وهو يحتمل التفسير الثاني.

والأنعام: لفظه لفظ جمع، وهو اسم للجنس يذكر ويؤنث، يقال: هو الأنعام وهي الأنعام.

﴿نُسْقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾، وفي موضع آخر ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾[المؤمنون: ٢١] فأعلم الله -عز وجل- أن في إخراجه اللبن ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ دليلاً على قدرة لا يقدر عليها إلا الله الذي ليس كمثله شيء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: فيما بينا علامة تدل على توحيد الله.

وقالوا في التفسير قوله: ﴿سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ إنه الخمر من قبل أن تحرم والرزق الحسن يؤكل من الأعناب والتمور. وقيل: إن معنى السكر الطعم وأنشدوا:

جَعَلْتُ أَعْرَاضَ الكِرَامِ سَكَراً[3]

أي: جعلتهم طعماً لك. وهذا بالتفسير الأول أشبه؛ المعنى: جعلت تتخمر بأعراض الكرام، وهو أبين فيما يقال: الذي يتبرك في أعراض الناس.

---

(١) هو: لبيد بن ربيعة العامري.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦٠٥/٧)، وتفسير القرطبي (٤٥٦/١)، وفتح القدير (٢٤٨/٣)، وروح المعاني (١٤/ ١٧٧)، وزاد المسير (٣٩٥/٤)، والتبيان تفسير غريب القرآن (٢٥٦/١)، والخصائص (٣٧٠/١)، ولسان العرب (٣٩٥/٣)، وتاج العروس (٢٢٦١/١).

(٣) انظر: الكشاف (٦٦٠/١)، وتفسير البيضاوي (٤٠٧/١)، ولسان العرب (٣٧٢/٤)، وتاج العروس (١/ ٢٩٥٩).

وقوله: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً﴾؛ و((بِيُوتاً)).

فمن قرأ ﴿بُيُوتاً﴾ بالضم فهو القياس، مثل: كعب وكعوب وقلب وقلوب، ومن قرأ ((بِيُوتاً)) بالكسر فهذا لم يذكر مثله أحد من البصريين لأنهم لا يجيزون مثله. ليس في الكلام مثل: فعل ولا فعول، والذين قرأوا به قلبوا الضمة إلى الكسرة من أجل الياء التي بعدها.

ومعنى الوحي في اللغة على وجهين يرجعان إلى معنى الإعلام والإفهام، فمن الوحي وحي الله إلى أنبيائه بما سمعت الملائكة من كلامه، ومنه الإلهام كما قال الله: ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ إلى ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[الزلزلة: ٢ - ٥] معناه: ألهمها.

فالله أوحى إلى كل دابة وذي روح في التماس منافعها واجتناب مضارها، فذكر من ذلك أمر النحل، وواحد النحل نحلة، مثل: نخل ونخلة أن فيها من لطيف الصنعة وبديع الخلق ما فيه أعظم معتبر بأن ألهمها اتخاذ المنازل والمساكن، وأن تأكل من كل الثمرات على اختلاف طعومها.

ثم سهل عليها سبيل ذلك فقال -جل وعز-: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾ أي: قد ذللها الله لك وسهل عليك مسالكها.

ثم قال: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾؛ فهي تأكل الحامض والمر وما لا يوصف فيحيل الله ذلك عسلاً يخرج من بطونها إلا أنها تلقيه من أفواهها ولكنه قال: ﴿مِن بُطُونِهَا﴾، لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلا في البطون فيخرج بعضها من الفم كالريق الدائم الذي يخرج من فم ابن آدم، فالنحل تخرج العسل من بطونها إلى أفواهها.

﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾؛ في هذا قولان:

قيل: إن الهاء ترجع على العسل؛ المعنى: في العسل شفاء للناس. وقيل: إن الهاء للقرآن؛ المعنى: في القرآن شفاء للناس هذا القول إذا فسر علم أنه حسن؛ المعنى: فيما قصصنا عليكم من قصة النحل في القرآن وسائر القصص التي تدل على أن الله واحد شفاء للناس. والتفسير في العسل حسن جداً.

فإن قال قائل: قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره العسل، فكيف يكون فيه شفاء للناس؟

فجواب هذا: أن يقال له: الماء حياة كل شيء فقد رأينا من يقتله الماء إذا أخذه على ما يصادف من علة في البدن، وقد رأينا شفاء العسل في أكثر هذه الأشربة، لأن ((الجلاب والسكنجين))، وإنما أصلهما العسل، وكذلك سائر المعجونات.

وهذا الاعتراض في أمر العسل إنما هو اعتراض جهلة لا يعرفون قدره في النفع، فأما من عرف مقدار النفع فهو وإن كان من غير أهل الملة فهو غير رافض أن في العسل شفاء.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾؛ أي: منكم من يكبر ويسن حتى يذهب عقله خوفاً فيصير بعد أن كان عالماً جاهلاً.

والمعنى: -والله أعلم- ﴿لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: ليريكم من قدرته أنه كما قدر على أماتته وإحيائه أنه قادر على نقله من العلم إلى الجهل.

وأعلم -عز وجل- أن الموت والحياة بيده، وأنّ الإنسان قد يتغذى بالأغذية التي يتعمد فيها الغاية في الصلاح والبقاء فلا يقدر أن يزيد في مقدار مدته شَيْئاً.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾؛ أي: قد فضل الله الملاك على مماليكهم، فجعل المملوك لا يقدر على ملك مع مولاه.

وأعلم أن المالك ليس يرد على مملوكه من فضل ما في يده حتى يستوي حالهما في الملك. وقيل لهم: إنكم كلكم من بني آدم، وأنتم لا تسوون بينكم فيما ملكت أيمانكم، وأنتم كلكم بشر. فكيف تجعلون بعض الرزق الذي رزقكم الله له، وبعضه لأصنامكم، فتشركون بين الله وبين الأصنام، وأنتم لا ترضون لأنفسكم فيمن هو مثلكم بالشركة.

وقوله: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ فيها وجهان:

يجوز أن يكون، أفبأن أنعم الله عليكم اتخذتم النعم لتجحدوا وتشركوا به الأصنام. وجائز أن يكون ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾: أفبما أنعم الله عليكم بأن بيّن لكم ما تحتاجون إليه تجحدون.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أزواجاً﴾؛ جاء في التفسير: أن الله خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم.

فهو معنى ﴿جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أزواجاً﴾ أي: من جنسكم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾؛ اختلف الناس في تفسير الحفدة، فقيل الأولاد، وقيل: البنات، وقيل: الأختان، وقيل: الأصهار، وقيل: الأعوان. وحقيقة هذا أن الله -عز وجل- جعل من الأزواج بنين ومن يعاون على ما يحتاج إليه بسرعة وطاعة، يقال: حَفَد يَحْفِد حَفْداً وحَفَدَاناً إذا أسرع. قال الشاعر[1] [من الكامل]:

حَفد الوَلائِد حَولَهُنَّ وأَسلَمَت بأَكُفِّهِنَّ أزِمّةَ الأَجمالِ[2]

معناه: أسرعوا في الخدمة.

وقوله: ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾؛ أي: لا تجعلوا لله مثلاً لأنه واحد لا مثل له، -جل وعز-، ولا إله إلا هو -عز وجل-.

ثم ضرب لهم المثل فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِراً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ﴾؛ فأعلم الله -جل وعز- أن الاثنين المتساويين في الخلق إذا كان أحدهما مقتدراً على الإنفاق مالكاً والآخر عاجزاً لا يقدر على أن ينفق لا يستويان، فكيف بين الحجارة التي لا تتحرك ولا تعقل وبين الله -عز وجل- الذي هو على كل شيء قدير، وهو رزاق جميع خلقه، فبين لهم أمر ضلالتهم وبعدهم عن الطريق في عبادتهم الأوثان.

ثم زاد في البيان فقال -جل وعز-: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾؛ والأبكم: المطبق الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يعقل.

ثم قال: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ﴾؛ أي: على وليه.

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: هل يستوي القادر التام التمييز والعاجز الذي لا يحس ولا يأتي بخير فكيف بين الله وبين الأحجار.

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ ومعناه -والله أعلم-: ولله علم غيب السماوات والأرض.

---

(١) هو: جميل بثينة.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦١٦/٧)، وتفسير ابن كثير (٧٦٢/٢)، وتفسير القرطبي (١٢٧/١٠)، وفتح القدير (٢٥٧/٣)، والدر المنثور (١٤٩/٥)، وروح المعاني (١٩٠/١٤)، ومعاني القرآن (٩٠/٤)، ومفردات القرآن (٣٤٠/١)، ولسان العرب (١٥٣/٣).

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ البَصَرِ﴾؛ والساعة: اسم لإماتة الخلق وإحيائهم.

فأعلم الله -عز وجل- أن البعث والإحياء في قدرته ومشيئته.

﴿كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ ليس يريد أن الساعة تأتي في أقرب من لمح البصر، ولكنه يصف سرعة القدرة على الإتيان بها.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾؛ و((إِمَّهَاتِكم)) بالكسر، والأصل في ((أمهات)): أمات، ولكن الهاء زيدت مؤكدة كما زادوا هاء في قولهم: أهرقت الماء، وإنما أصله: أرقت الماء، والأفئدة جمع فؤاد. مثل: غراب وأغربة. ولم يجمع فؤاد على أكثر العدد، لم يقل: فئدان، مثل غراب وغربان.

ثم دلهم – سبحانه – على قدرته على أمر الساعة بما شاهدوا من تدبيره فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾.

﴿جَوِّ السَّمَاءِ﴾ الهواء البعيد من الأرض، وأبعد منه من الأرض السُّكاكُ، ومثل السكاك: اللوح، وواحد السُّكاك: سكاكة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾؛ أي: موضعاً تسكنون فيه.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً﴾؛ والأنعام اسم للإبل والبقر والغنم.

وقوله: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾؛ معنى ((تستخفونها))، أي: يخف عليكم حملها في أسفاركم وإقامتكم، ويقرأ: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ و((ظَعْنُكم)).

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾؛ الأوبار: للإبل، والأصواف: للضأن، والأشعار: للمعز. والأثاث: متاع البيت.

ويقال لمتاع البيت أيضاً: الأهرة، ويقال: قد أَثَّ يَئِثُ أَثّاً إذا صار ذا أثاث.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾؛ أي: جعل لكم من الشجر ما تستظلون به.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً﴾؛ واحد الأكنان: كن، على وزن ((حمل وأحمال))، ولا يجوز أن يكون واحدها: ((كناناً))، لأن جمع الكنان أكنة. أي: جعل لكم ما يكنكم.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾؛ كل ما لبسته فهو سربال. من قميص أو درع أو جوشن أو غيره، قال الله -عز وجل-: ﴿سَرَابِيلُهُم مِن قَطِرَانٍ﴾[إبراهيم: ٥٠]، وقال تقيكم الحر ولم يقل تقيكم البرد لأن ما وقي من الحر وقي من البرد.

وقوله: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾؛ أي: جعل لكم دروعاً تتقون بها في الحروب من بأس الحديد وغيره.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾؛ أكثر القراء ﴿تُسْلِمُونَ﴾، ويقرأ: ((لعلكم تَسْلَمُون))، أي: لعلكم إذا لبستم الدروع في الحرب سلمتم من الجراح.

ثم قال بعد أن بين لهم الآيات: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

أي: عليك أن تبلغ الرسالة وتأتي بالآيات الدالة على النبوة.

وقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾؛ أي: يعرفون أن أمر النبي ﷺ حق ثم ينكرون ذلك.

وقوله: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِم الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ أي: لما رأى الذين أشركوا ما كانوا يشركون بالله غير نافعهم وجحدتهم آلهتهم كما قال الله -جل وعز-: ﴿كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً﴾[مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾؛ روي في التفسير: أن الذي زيدوا عقارب لها أنياب كالنحل الطول، وقيل أيضاً: إنهم يخرجون من حر النار إلى الزمهرير، فيبادرون من شدة برده إلى النار.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ كل نبي شاهد على أمته، وهو أعدل شاهد عليها.

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ تبيان اسم في معنى البيان، ومثل التبيان التلقاء، ولو قرئت ((تبياناً)) على وزن تفعال لكان وجهاً، لأن التبيان في معنى التبيين، ولا تجوز القراءة به لأنه لم يقرأ به أحد من القراء.

وقوله: ﴿وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ يقال: وكدت الأمر، وأكدت الأمر. لغتان جيدتان، والأصل الواو، والهمزة بدل منها.

وقوله: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً﴾؛ ﴿أَنكَاثاً﴾ منصوب لأنه في معنى المصدر، لأن معنى ((نكثت)): نقضت، ومعنى ((نقضت)): نكثت، وواحد الأنقاض نكث وهو ما نقض بعد أن غزل، قال الشاعر:

ترعية تعرف الأرباع ضجعته　　　له نكاث من الأنجاد والفضل

وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾؛ أي: غشاً بينكم وغلاً. و﴿دَخَلاً﴾ منصوب لأنه مفعول له.

المعنى: تتخذون أيمانكم للغش والدخل، وكل ما دخله عيب قيل: هو مدخول، وفيه دخل.

وقوله: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمة﴾؛ لتغير إحداهما بالأخرى، وأربى مأخوذ من ربا الشيء يربو إذا كثر.

وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾؛ يقال: نَفِد الشيء يَنْفَد نَفَاداً إذا فني.

وقوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾؛ قيل: لنرزقنه حلالاً، وقيل: ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ الجنة وموضع: ﴿أَرْبَى﴾ رفع.

المعنى: أن تكون أمة هي أكثر من أمة، وزعم الفراء أن موضع ﴿أَرْبَى﴾ نصب و﴿هِيَ﴾ عماد، وهذا خطأ، ((هي)) لا تدخل عماداً ولا فصلاً مع النكرات، وشبهه بقوله: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾[المزمل: ٢٠]؛ و((تجدوه)) الهاء فيه معرفة، وأمة نكرة.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾؛ معناه: إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ليس معناه: استعذ بالله بعد أن تقرأ، لأن الاستعاذة أمر بها قبل الابتداء، وهو مستعمل في الكلام، مثله إذا أكلت فقل بسم الله، ومثله في القرآن: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾[المائدة: ٦] فالهيئة قبل الصلاة؛ والمعنى: إذا أردتم ذلك فافعلوا.

وقوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾؛ أي: إذا نسخت آية بآية أخرى عليها فيها مشقة.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾؛ أي: قالوا قد كذبتنا.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾؛ أي: إنما يفتري الكذب الذين إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها، فهؤلاء أكذب الكذبة.

وقوله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾؛ ﴿مَن﴾ في موضع رفع على البدل من الكاذبين ومفسر عن الكاذبين ولا يجوز أن يكون ﴿مَن﴾ رفعاً بالابتداء، لأنه لا خبر ههنا للابتداء، لأن قوله: ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ

وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾؛ ليس بكلام تام، وبعده: ﴿وَلَكِن مَن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

فقوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ﴾ خبر ﴿مَن﴾ التي بعد ﴿وَلَكِن﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾؛ أعلم الله -عز وجل- نبيه ما يقولونه بينهم.

وقوله: ﴿لِسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾؛ ويقرأ: ((يَلْحِدُون))، أي: لسان الذي يميلون القول إليه أعجمي.

وقيل: هذا غلام كان لحويطب اسمه ((عايش))، أسلم وحسن إسلامه.

﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾؛ يقال: عَرَبَ الإنسان يَعْرُب عُروبيَّةً وعَرَابَة وعُرُوبَةً.

وقوله: ﴿مُبِينٌ﴾؛ وصفه بالبيان كما وصفه بأنه عربي، ومعنى عربي أن صاحبه يتكلم بالعربية ومعناه: معرب مبين.

وقوله: ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾؛ ((أن)) يصلح أن تكون في موضع رفع على أن ((لا)) رد للكلام؛ والمعنى: وجب أنهم، ويجوز أن تكون ((أن)) في موضع نصب على أن المعنى: جرم فعلهم هذا أنهم في الآخرة هم الخاسرون.

ومعنى ((جرم)): كسب، والمجرم: الكاسب، وأكثر ما يستعمل للذنوب.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: من بعد الفعلة التي فعلوها.

وهذه الآية في قصة عمار بن ياسر وأصحابه حين عذبهم أهل مكة فأكرهوهم على أن يتركوا الإيمان، وكفروا بألسنتهم وفي قلوبهم ونياتهم الإيمان، ثم هربوا منهم وهاجروا إلى النبي ﷺ فألحقهم جمع من أهل مكة فقاتلوهم حتى نجاهم الله منهم، وصبروا على جهادهم.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَفْسِهَا﴾؛ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب على أحد شيئين، على معنى ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي﴾ ويجوز أن يكون بمعنى اذكر لأن معنى القرآن العظة والإنذار والتذكير. أي يوم تأتي كل نفس أي كل إنسان يجادل عن نفسه.

ويروى أنه إذا كان يوم القيامة زفرت جهنم زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه، وقال يا رب نفسي نفسي، وتصديق هذا قوله -تعالى-: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾[عبس: ٣٤، ٣٥] الآية.

وقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾؛ المعنى: -والله أعلم- وضرب الله مثلاً مثلَ قرية كانت آمنة مطمئنة.

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾؛ أي: واسعاً من كل مكان.

الذي جاء في التفسير: أنه يعنى بها مكة، وذلك أنهم كانوا قد آمنوا الجوع والخوف لأن الله -جل ثناؤه- جعل أفئدة من الناس تهوي إليهم، فأرزاقهم تأتيهم في بلدهم وكان حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم.

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾؛ وقد جاعوا حتى بلغوا إلى أن أكلوا الوبر بالدم، وبلغ منهم الجوع الحال التي لا غاية بعدها.

وأنعم: جمع نعمة، وقالوا: شِدَّة، وأَشُد. وقال قطرب: جائز أن يكون جمع نعم وأَنْعُم، مثل وُد وأَوُد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ عذبهم الله بالسيف والقتل.

وقوله: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ﴾؛ في الكذب ثلاثة أوجه، قرئت: ((الكَذِبَ، وقرئت: الكُذُبُ، وقرئت الكذِب)).

فمن قرأ -وهو أكثر القراءة- ((الكَذِبَ))؛ فالمعنى: ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب: ﴿هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾؛ ومن قرأ ((الكذِب)) كان رداً على ((ما))؛ المعنى: ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذب. ومن قرأ ((الكُذُبُ)) فهو نعت للألسنة، يقال: لسان كَذُوب وألسنة كُذُوب. وهذا إنما قيل لهم لما كانوا حرموه وأحلوه، فقالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾[الأنعام: ١٣٩]، وقد شرحنا ذلك في موضعه.

وقوله: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾؛ المعنى: متاعهم هذا الذي فعلوه متاع قليل.

ولو كان في غير القرآن لجاز فيه النصب: ((متاعاً قليلاً))، على أن المعنى: يتمتعون كذلك متاعاً قليلاً.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً﴾؛ جاء في التفسير أنه كان آمن وحده، وفي أكثر التفسير أنه كان معلماً للخير وإماماً.

﴿حَنِيفاً﴾، قيل: أخذ بالختانة، وحقيقته في اللغة أن الحنيف: المائل إلى الشيء لا يزول عنه أبداً ، فكان -عليه السلام- مائلاً إلى الإسلام غير زائل عنه، وقالوا في ((القانت)) هو المطيع ، والقانت: القائم بجميع ما أمر الله -جل وعز-.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ ((لم يك)) أصلها: لم يكن، وإنما حذفت النون عند سيبويه لكثرة استعمال هذا الحرف، وذكر الجلة من البصريين أنه اجتمع فيها كثرة الاستعمال، وأنها عبارة عن كل ما يمضي من الأفعال وما يستأنف، وأنها مع ذلك قد أشبهت حروف اللين لأنها تكون علامة كما تكون حروف اللين علامة، وأنها غنة تخرج من الأنف. فلذلك احتملت الحذف.

وقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾؛ الكلام يدل على أنهم ألزموا آية نبوة موسى -عليه السلام-.

وجاء في التفسير: أنه حرمه بعضهم وأحله بعضهم وهذا أدل ما جاء من الاختلاف في السبت.

وقد جاء كثير في التفسير أنهم أمروا بأن يتخذوا عيداً فخالفوا وقالوا: نريد يوم السبت لأنه آخر يوم فرغ فيه من خلق السماوات والأرض، وأن عيسى أمر النصارى أن يتخذوا الجمعة عيداً فقالوا لا يكون عيدنا إلا بعد عيد اليهود فجعلوه الأحد، -والله أعلم- بحقيقة ذلك.

وقوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾؛ جاء في التفسير: ((الحكمة)): النبوة، و((الموعظة)): القرآن.

﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ أي: جادلهم غير فظ ولا غليظ القلب في ذلك. ألن لهم جانبك.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾؛ سمي الأول عقوبة، وإنما العقوبة الثاني - لازدواج الكلام لأن الجنسين في الفعل معنى واحد. ومثله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ فالثاني ليس بسيئة ولكنه سمي به ليتفق اللفظ، لأن معنى القتل واحد، وقد بينا هذا في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾[آل عمران: ٥٤].

وجاء في التفسير: أن المسلمين هموا بأن يمثلوا بالمشركين، لأنهم كانوا قد مثلوا بهم، فهم المسلمون بأن يزيدوا في المثلة، فأمروا بأن لا يزيدوا، وجائز -والله أعلم- أن يكون معنى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠] أي: من فعل به ما يجب فيه القصاص فلا يجاوز القصاص إلا بمثل.

وقوله -جل وعز-: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾؛ هو مثل قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[الشورى: ٤٠].

وقوله: ﴿وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾؛ ((ضيق))، في معنى ضَيْق مخفف، مثل ((مَيْت ومَيِّت)). وجائز أن يكون بمعنى الضيق، فيكون مصدراً لقولك ضَاقَ الشيء يَضِيقُ ضَيْقاً.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُحْسِنُونَ﴾؛ أي: أن الله ناصرهم، كما قال: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠]؛ فقد وعد في هذه الآية بالنصر.

* *

سورة الإسراء(١)

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿سُبْحَانَ الذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾.

﴿سُبْحَانَ﴾ منصوب على المصدر؛ المعنى:أسبح الله تسبيحاً. ومعنى سبحان الله في اللغة تنزيه الله عن السوء، وكذلك ما روي عن النبي ﷺ.

وقوله: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾؛ معناه: سير عبده، يقال: أسريت وسريت إذا سرت ليلاً، وقد جاءت اللغتان في القرآن، قال الله -جل وعز-: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾[الفجر: ٤] هذا من

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة:** سورة الإسراء من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف السابعة عشرة. عدد آياتها إحدى عشرة ومائة آية. وجاءت تسميتها الإسراء لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء التي خصّ الله تعالى بها نبيه الكريم.

اهتمت سورة الإسراء بأصول الدين: الوحدانية والرسالة والبعث، ولكن العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو شخصية الرسول ﷺ وما أيده به الله من المعجزات.

تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء التي كانت مظهرًا من مظاهر التكريم الإلهي، لخاتم الأنبياء والمرسلين. فقبل الهجرة بعام، تم الإسراء والمعراج. فقد أصبح محمد ﷺ يحدث الناس ذلك اليوم بأنه قد أسري به إلى المسجد الأقصى، وصلى الرسول الكريم فيه ركعتين ثم عرج به إلى السماء وعاد من ليلته. وكذبته قريش، وصدقه المؤمنون وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق. وفي تلك الليلة المباركة فرض الله عليه الصلاة خمسين، ثم خففها إلى خمس تفضلاً منه ورحمة منه ولطفًا بعباده. وقد تناولت سورة النجم معراج الرسول ﷺ إلى السماء أيضًا. وتحدثت سورة الإسراء عن بني إسرائيل، وما كتب الله عليهم من التشرد في الأرض مرتين بسبب طغيانهم وفسادهم وعصيانهم لأوامر الله.

وتحدثت عن بعض الآيات الكونية التي تدل على العظمة والوحدانية.

وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية والأخلاق الفاضلة الكريمة، فحثت عليها.

وتحدثت عن ضلالات المشركين حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد، وأنّهم نسبوا لله البنات اللائي لا يرضونهن لأنفسهم.

وتحدثت عن البعث والنشور والمعاد والجزاء الذي كثر حوله الجدل، وأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه، ثم تحدثت عن القرآن العظيم، وذكرت تعنت المشركين في اقتراحاتهم حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن.

وختمت بتنزيه الله عن الشريك والولد وعن صفات النقص.

سَرَيت ومعنى يَسْرِي: يمضي.

أسرى الله سبحانه بالنبي ﷺ من المسجد الحرام وهو مكة، والحرم كله مسجد، فأسرى الله به في ليلة واحدة من المسجد الحرام من مكة إلى بيت المقدس وهو قوله -جل وعز-: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾؛ أجرى الله حول بيت المقدس الأنهار وأنبت الثمار، فذلك معنى باركنا حوله.

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾؛ أي: لنري محمداً.

فأراه الله في تلك الليلة من الأنبياء، وآياتهم ما أخبر به في غد تلك الليلة أهل مكة فقالوا للنبي ﷺ: إن لنا في طريق الشام إبلا فأخبرنا خبرها فخبرهم بخبرها، فقالوا فمتى تقدم الإبل علينا، فأخبرهم أنها تقدم في يوم سماه لهم مع شروق الشمس، وأنه يتقدمها جمل أورق، فخرجوا في ذلك اليوم، فقال قائل: هذه الشمس قد أشرقت، وقال آخر فهذه الإبل قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ﷺ فلم يؤمنوا بعد ذلك.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي: دللناهم به على الهدى.

﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾؛ أي: لا تتوكلوا على غيري ولا تتخذوا من دوني رباً.

وقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾؛ القراءة بنصب ((ذرية)) وقرأ بعضهم ((ذِرية)) بكسر الذال، والضم أكثر.

وذرية: فعلية من الذر، وهي منصوبة على النداء كذا أكثر الأقوال.

المعنى: يا ذرية من حملنا مع نوح. وإنما ذكروا بنعم الله عندهم أنه أنجى أبناءهم من الغرق بأنهم حملوا مع نوح. ويجوز النصب على معنى: ألا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً، فيكون الفعل تعدى إلى الذرية وإلى الوكيل، تقول: اتخذت زيداً وكيلاً، ويجوز ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ على معنى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾.

ويجوز الرفع في ﴿ذُرِّيَّةَ﴾ على البدل من الواو؛ والمعنى: ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ أي: لا تتخذوا من دوني وكيلاً ذرية، ولا تقرأن بها إلا أن تثبت بها رواية صحيحة، فإن القراءة سنة لا يجوز أن تخالف بما يجوز في العربية.

وقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾؛ معناه: أعلمناهم في الكتاب، وأوحينا إليهم، ومثل ذلك قوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ

مُصْبِحِينَ﴾[الحجر: ٦٦]؛ ومعناه: وأوحينا إليه، وقوله: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[فصلت: ١٢] معناه: خلقهن وفرغ منهن، ومثل هذا الشعر قوله [من الكامل]:

وَعَلَيهِما مَسرودَتانِ قَضاهُما   داودُ أَو صَنَعُ السَوابِغِ تُبَّعُ[1]

معناه: عملهما. وجملة هذا الباب أن كل ما عمل عملاً محكماً فقد قضي، وإنما قيل للحاكم قاض لأنه إذا أمر أمراً لم يرد أمره فالقضاء قطع الأشياء عن إحكام، والمعنى: إنا أوحينا إليهم لتفسدن في الأرض ولتعلن علواً كبيراً. ومعناه: لتعظمن ولتبغن، لأنه يقال لكل متجبر قد علا وتعظم.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا﴾؛ المعنى: فإذا جاء وعد أولى المرتين.

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ يروى أنه بعث عليهم بختنصر.

﴿فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ﴾؛ أي: فطافوا في خلال الديار ينظرون هل بقي أحد لم يقتلوه، والجوس: طلب الشيء باستقصاء.

وقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: رددنا لكم الدولة.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾؛ أي: جعلناكم أكثر منهم أنصاراً، ويجوز أن يكون نفيراً جمع نفر كما يقال: العبيد والكليب والضئين والمعيز. و((نفيراً)) ومنصوب على التمييز.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ﴾؛ وتقرأ ((ليسوء وجوهكم))؛ المعنى: فإن جاء وعد الآخرة ليسوء الوعد وجوهكم.

ومن قرأ ((ليسوؤوا))؛ فالمعنى: ليسوء هؤلاء القوم وجوهكم، وقد قرئت ((لنسوء وجوهكم)) -بالنون الخفيفة- ومعناه: ليسوء الوعد وجوهكم، والوقف عليها ((ليسوءا)). والأجود: ((ليسوء)) بغير نون، و﴿لِيَسُوؤُوا﴾. ويجوز: ((ليسوء وجوهكم))، ويكون الفعل للوعد على الأمر، ولا تقرأ به، ويجوز لنسوء بالنون في موضع الياء.

وقوله: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾؛ معناه: ليدمروا، ويقال لكل شيء منكسر من الزجاج والحديد والذهب تبر.

ومعنى ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: ليدمروا في حال علوهم عليكم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾؛ معناه: حبساً، أخذ من قوله: ((حصرت الرجل إذا حبسته فهو محصور وهذا حصيرة أي: محبسة))، والحصير: المنسوج إنما سمي

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، مر مراراً.

حصيراً لأنه حصرت طاقاته بعضها مع بعض. والجنب يقال له: الحصير لأن بعض الأضلاع محصور مع بعض.

وقوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾؛ أي: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد الله -عز وجل- أي: شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان برسله، والعمل بطاعته، وهذه صفة الحال التي هي أقوم الحالات.

وقوله: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾؛ المعنى: إن الإنسان ربما دعا على نفسه وولده وأهله بالشر غضباً كما يدعو لنفسه بالخير، وهذا لم يُعَرَّ منه بشر.

ويروى أن النبي ﷺ رفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً، فأقبل يئن بالليل، فقالت له: ما بالك تئن فشكا ألم القد والأسر.

فأرخت من كِتَافه، فلما نامت أخرج يده وهرب، فلما أصبح النبي ﷺ دعا به فأعلم شأنه، فقال: ((اللهم اقطع يديها))، فرفعت سودة يديها تتوقع الاستجابة، وأن يقطع الله يديها، فقال النبي ﷺ: ((وإني سألت الله أن يجعل دعائي ولعنتي على من لا يستحق من أهلي رحمة فقولوا لها لأني بشر أغضب كما يغضب البشر فلترد سودة يديها)).

فأعلم الله -عز وجل- أن الإنسان خلق عجولاً، فهذا خلق عليه جملة البشر من آدم إلى آخر ولده.

والإنسان ههنا في معنى الناس.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾؛ أي: علامتين يدلان على أن خالقهما واحد ليس كمثله شيء وتدلان على عدد السنين والحساب.

﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾؛ أي: جعلنا آية الليل دليلة عليه بظلمته.

﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ﴾؛ أي: جعلناها تضيء لكم لتبصروا كيف تصرفون في أعمالكم.

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ ويروى أن القمر كان في ضياء الشمس فمحا الله ضياءه بالسواد الذي جعل فيه.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾؛ أي: بيناه لا يلتبس معه بغيره، والاختيار النصب في ((كل))؛ المعنى: في النصب: لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عَدَّ السنين، وفصلنا كل شيء تفصيلاً، و﴿كل﴾ منصوب بفعل مضمر الذي ظهر يفسره، وهو ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ ويجوز

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾. وكذلك النصب والرفع في قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إلا أني لا أعلم أحداً قرأ بالرفع.

وجاء في التفسير: ((طائر))، أي: خيره وشره، وهو -والله أعلم- ما يتطير من مثله من شيء عمله كما قال ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[النحل: ٢٥]، كما يقال: للإنسان إثمي في عنقك، وإنما للشيء اللازم له: هذا في عنق الإنسان، أي: لزوم له كلزوم القلادة له من بين ما يلبس في العنق.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾؛ وفي هذه أربعة أوجه: وتُخْرَج له، ويُخْرِجُ له، أي: ويخرج الله له، ويَخْرُجُ له. أي: ويخرج عمله له يوم القيامة كتاباً، وكذلك يَخْرَج له عمله يوم القيامة.

﴿كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾؛ ﴿بِنَفْسِكَ﴾ في موضع رفع، وإن كان مجروراً بالباء، ولو كان في غير القرآن جاز: ((كفى بنفسك اليوم حسيبة)).

والمعنى: كفت نفسك حسيبة، أي: إذا كنت تشهد على نفسك فكفاك بهذا. وحسيباً منصوب على التمييز.

وقوله: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾؛ يقال: ((وَزَرَ يَزِرُ فهو وَازِر وَزِراً، وَوِزْراً، وزِرَة))، ومعناه: أثم يأثم إثماً.

وفي تأويل هذه الآية وجهان؛ أحدهما: أن الآثم والمذنب، لا يؤخذ بذنب غيره، والوجه الثاني أنه لا ينبغي للإنسان أن يعمل بالإثم لأن غيره عمله كما قالت الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٢].

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾؛ أي: حتى نبين ما به نعذب، وما من أجله ندخل الجنة.

وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾؛ تقرأ ((أَمَرنا)) مخففة على تقدير: ((فعلنا))، وتقرأ ((آمرنا مترفيها)) على تقدير أفعلنا، ويقرأ: ((أَمَّرنَا)) بتشديد الميم، فأما من قرأ بالتخفيف فهو من الأمر؛ المعنى: أمرناهم بالطاعة ففسقوا، فإن قال قائل: ألست تقول: أمرت زيداً فضرب عمراً؛ فالمعنى: أنك أمرته أن يضرب عمراً فضربه، فهذا اللفظ لا يدل على غير الضرب، ومثل قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ من

الكلام: أمرتك فعصيتني. وقد علم أن المعصية مخالفة الأمر، وكذلك الفسق مخالفة أمر الله -جل ثناؤه-.

وقد قيل: إنما معنى ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ كثرنا مترفيها، والدليل على هذا قول النبي ﷺ: ((خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة)) أي: مكثرة، والعرب تقول قد أَمِرَ بنو فلان إذا كثروا، قال الشاعر[1] [من المنسرح]:

إِن يُغبَطوا يُهبَطوا وَإِن أَمِروا يَوماً يَصيروا لِلهُلكِ وَالنَّكَدِ[2]

ويروى بالنقد -بالقاف- ومن قرأ ((آمرنا)): فتأويله: أكثرنا، والكثرة ههنا تصلح أن تكون شيئين؛ أحدهما: أن يكثر عدد المترفين، والآخر أن تكثر جِدَتهم ويسارهم. ومن قرأ ((أمَّرنا)) بالتشديد، فمعناه: سلطنا مترفيها أي: جعلنا لهم إمرة وسلطاناً.

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾؛ أي: أهلكنا عدداً كبيراً من القرون، بأنواع العذاب، نحو قوم لوط وعاد وثمود ومن ذكر اسمه، وقروناً بين ذلك كثيراً، وموضع ((كم)) النصب بقوله ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُرِيدُ﴾؛ أي: من كان يريد العاجلة بعمله، أي: الدنيا، عجل الله لمن أراد أن يعجل له ما يشاء الله، أي: ليس ما يشاء هو، و ﴿مَا نَشَاءُ﴾ بمعنى ما نشاء، ويجوز أن يكون المضمر في نشاء ((من))؛ المعنى: عجلنا للعبد ما يشتهيه، إذا أراد الله ذلك.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾؛ لأنه لم يرد الله بعمله.

﴿يَصْلاهَا مَذْمُوماً﴾؛ و((مذؤوماً)) في معنى واحد.

﴿مَدْحُوراً﴾؛ أي: مباعداً من رحمة الله. يقال: ((دَحَرْتُه أَدْحَرُه دَحْراً ودُحُوراً)) إذا باعدته عنك.

ثم أعلم الله -عز وجل- أن يعطي المسلم والكافر وأن يرزقهما جميعاً فقال: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾؛ أي: نمد المؤمنين والكافرين من عطاء ربك.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾؛ معناه: أمر ربك.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾؛ أي أمر أن يحسنوا بالوالدين.

---

(١) هو: لبيد بن ربيعة العامري.

(٢) انظر: لسان العرب (٤/٢٦)، وتاج العروس (١/٥٤٩٠).

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾؛ ترفع ﴿أَحَدُهُمَا﴾ بـ﴿يَبْلُغَنَّ﴾، و﴿كِلاهُمَا﴾ عطف عليه، ويقرأ: ((يبلغانِّ عندك الكبر))، ويكون ﴿أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا﴾ بدل من الألف.

وقوله: ﴿فَلاَ تَقُل لَهُمَا أُفٍّ﴾؛ في قوله ((أف)) سبع لغات: الكسر بغير تنوين، والكسر بتنوين، والضم بغير تنوين، وبتنوين، وكذلك الفتح بتنوين، وبغير تنوين، وفيها لغة أخرى سابعة لا يجوز أن يقرأ بها، وهي ((أفي)) بالياء.

فأما الكسر فلالتقاء الساكنين، وأف غير متمكن، بمنزلة الأصوات، فإذا لم تنون فهي معرفة، وإذا نونت فهي نكرة بمنزلة: ((غاق وغاق في الأصوات، والفتح لالتقاء الساكنين أيضاً، والفتح مع التضعيف حسن لخفة الفتحة وثقل التضعيف والضم، لأن قبله مضموماً، حسن أيضاً، والتنوين فيه كله على جهة النكرة.

والمعنى: لا تقل لهما كلاماً تتبرم فيه بهما، ومعنى ((أُفِّ)): النتن، وقيل: إن ((أُفَ)) وسخ الأظفار، والتف: الشيء الحقير نحو: وسخ الآذان أو الشظية تؤخذ من الأرض.

ومعنى الآية: لا تقل لهما ما فيه أذى بتبرم، أي: إذا كبرا، أو أسنا، فينبغي أن تتولى من خدمتهما مثل الذي توليا من القيام بشأنك وخدمتك.

﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ بمعنى: لا تنتهرهما، أي: لا تكلمهما ضجراً صائحاً في وجههما، يقال: نَهرتة أَنْهره نَهْراً، وانتهرته أنتهره انتهاراً، بمعنى واحد.

وقوله: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾؛ وتقرأ الذل -بكسر الذل- ومعنى ((اخفضن لهما جناح الذل))، أي: ألن لهما جانبك متذللا لهما، من مبالغتك في الرحمة لهما، ويقال: رجل ذليل بين الذل، وقد ذل يذل، ودابة ذلول. بينة الذل، ويجوز أن جميعاً في الإنسان.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾؛ الأواب: بمعنى التواب، والراجع إلى الله في كل ما أمر به، المقلع عن جميع ما نهى عنه، يقال: قد آبَ يَؤُوب أَوْباً إذا رجع.

وقوله: ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾؛ معناه: لا تسرف، وقيل: ((التبذير)) النفقة في غير طاعة الله، وقيل: كانت الجاهلية تنحر الإبل الأموال، تطلب بذلك الفخر والسمعة وتذكر ذلك في أشعارها، فأمر الله -عز وجل- بالنفقة في وجوههما فيما يقرب منه ويزلف عنده.

وقوله: ﴿إِنَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾؛ أي: يفعلون ما يسول لهم الشيطان.

وقوله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾؛ ﴿عَنْهُمُ﴾ هذه الهاء والميم يرجعان على ((ذي القربي والمسكين وابن السبيل)).

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾، أي: وإن أعرضت عنهم، ابتغاء رحمة من ربك ترجوها، أي: لطلب رزق من ربك ترجوه ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾.

﴿ابْتِغَاءَ﴾ منصوب لأنه مفعول له؛ المعنى: وإن أعرضت عنهم لابتغاء رحمة من ربك.

وروي أن النبي ﷺ كان إذا سئل وليس عنده ما يعطي أمسك انتظار الرزق يأتي من الله -جل وعز- كأنه يكره الرد، فلما نزلت هذه الآية ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾؛ كان -عليه السلام- إذا سئل فلم يكن عنده ما يعطي قال: ((يرزقنا الله وإياكم من فضله)). فتأويل قوله: ﴿مَيْسُوراً﴾ والله أعلم أنه يكسر عليهم فقرهم بدعائه لهم.

وقوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾؛ معناه: لا تبخل ولا تسرف.

﴿فَتَقْعُدَ﴾ منصوب على جواب النهي، و﴿مَحْسُوراً﴾ أي: قد بالغت في الحمل على نفسك وحالك حتى تصير بمنزلة من قد حسر، والحسير والمحسور الذي قد بلغ الغاية في التعب والإعياء.

قوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾؛ ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ منصوب لأنه مفعول له، والإملاق: الفقر ، يقال: أملق يملق إملاقاً.

وكانوا يدفنون البنات إذا ولدن لهم خوفاً من الفقر، فضمن الله -عز وجل- لهم رزقهم، فقال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ وهي الموءودة كانوا يدفنون الإبنة إذا ولدت حية.

وقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾ وتقرأ ((خطأ كبيراً)). فمن قال ((خطئاً)): بالكسر فمعناه: إثماً كثيراً، يقال: قد خَطِئ الرجل يَخْطَأ خِطئاً: أَثِم يَأْثَم إِثْمَاً.

((وخطأ كبيراً)) له تأويلان؛ أحدهما: معناه: إن قتلهم كان غير صواب يقال: قد أَخْطَأَ يُخْطِئُ إِخْطَاءً، وخَطَأً، والخطأ: الاسم من هذا لا المصدر، ويكون الخطأ من خَطَأَ يُخْطئ خَطَأً إذا لم يصب مثل: ((لَجِجَ يَلْجَجُ)) قال الشاعر[1] [من الكامل]:

وَالنَاسُ يَلحَونَ الأَميرَ إذا هُـم خَطِئُوا الصَّوابَ وَقَد يُلامُ المُرشِدُ[2]

---

(١) هو: لبيد بن ربيعة العامري.

(٢) انظر: لسان العرب (٤/٢٦)، وتاج العروس (١/٢٤٦٩).

وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾؛ أي: وساء الزنا سبيلاً. وسبيلاً: منصوب على التميز.

وقوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾؛ حرم الله قتل المؤمن إلا أن يرتد بعد إيمانه، أو يقتل مؤمناً متعمداً، أو يزني بعد إحصان. كذلك قال قتادة في تفسير هذه الآية.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً﴾؛ أي: من غير أن يأتي بواحدة من هذه الثلاث.

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾؛ الأجود: إدغام الدال في الجيم، والإظهار جيد بالغ، لأن الجيم من وسط اللسان، والدال من طرف اللسان، والإدغام جائز لأن حروف وسط اللسان قد تقرب من حروف طرف اللسان.

((ووليه)) الذي بينه وبينه قرابة وتوجب المطالبة بدمه.. فإن لم يكن له ولي فالسلطان وليه، و ((سلطاناً)) أي: حجة.

وقوله: ﴿فَلاَ يُسْرِف فِي الْقَتْلِ﴾؛ القراءة الجزم على النهي، ويقرأ: بالياء والتاء جميعاً، وتقرأ فلا ((يسرفُ بالرفع)).

والإسراف في القتل قد اختلف فيه، فقال أكثر الناس: الإسراف أن يقتل الولي غير قاتل صاحبه.

وقيل: الإسراف أن يقتل هو القاتل دون السلطان، وكانت العرب إذا قتل منها السيد وكان قاتله خسيساً لم يرضوا بأن يقتل قاتله وربما لم يرضوا أن يقتل واحد بواحد حتى تقتل جماعة بواحد.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾؛ أي: إن القتيل إذا قتل بغير حق فهو منصور في الدنيا والآخرة، فأما نصرته في الدنيا فقتل قاتله وأما في الآخرة فإجزال الثواب له، ويخلد قاتله النار، ومن قرأ: ((فلا يسرفُ في القتل)) بالرفع؛ فالمعنى: أن وليه ليس بمسرف في القتل إذا قتل قاتله ولم يقبل الدية.

وقوله: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾؛ أي: لا تدخلوا من ماله، ولا تأكلوا -إذا اقمتم عليه- إلا ما يسكن الجوعة، ولا تكتسوا إلا ما ستر العورة، ولا تقربوه إلا بالإصلاح للمال.

﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أن يبلغ النكاح، وقيل: ﴿أَشُدَّهُ﴾ أن يأتي له ثماني عشر سنة، وبلوغ أشده هو الاحتلام، وأن يكون مع ذلك غير ذي عاهة في عقل وأن يكون حازماً في ماله.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤولاً﴾؛ قال بعضهم: لا أدري ما العهد، والعهد: كل ما عوهد الله عليه ، وكل ما بين العباد من المواثيق فهي عهود. وكذلك قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾[النحل: ٩١].

وقوله: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾؛ و ((الْقُسْطَاس)) جميعاً -بالضم والكسر- قيل: القسطاس: هو القرسطون، وقيل: القفان، والقسطاس ميزان العدل، أي: ميزان كان موازين الدراهم أو غيرها.

وقوله: ﴿ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾؛ معنى ﴿وأحسن تأويلاً﴾ أن الوفاء أحسن من النقصان؟ ويجوز أن يكون المعنى: أحسن ما يؤول إليه أمر صاحب الوفاء.

وقوله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾؛ أي: لا تقولن في شيء بما لا تعلم.

فإذا نهى النبي ﷺ - مع حكمته وعلمه وتوفيق الله إياه - أن يقول بما لا يعلم، فكيف سائر أمته والمسرفين على أنفسهم.

يقال: قفوت الشيء أَقْفُوه قَفْواً إذا اتبعت أثره، فالتأويل: لا تتبعن لسانك من القول ما ليس لك به علم، وكذلك من جميع العمل.

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ شواهد عليك، قال الله -عز وجل- ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور: ٢٤]؛ فالجوارح شواهد على ابن آدم بعمله، ويقرأ: ((ولا تقُفْ ما ليس لك به علم)) بإسكان الفاء وضم القاف، قَاف يَقُوف، وكأنه مقلوب من قفا يقفو، لأن المعنى واحد.

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾؛ فقال ﴿مَسْؤُولاً﴾، وقال: ﴿كَانَ﴾، لأن ((كل)) في لفظ الواحد، فقال ﴿أُولَئِكَ﴾ لغير الناس، لأن كل جمع أشرت إليه من الناس وغيرهم ومن الموات فلفظه ((أولئك)) قال جرير [من الكامل]:

ذُمَّ المَنازِلَ بَعدَ مَنزِلَةِ اللِوى وَالعَيشَ بَعدَ أُولَئِكَ الأَقوامِ[1]

وقوله: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾؛ ويقرأ: ((مرِحاً)) بكسر الراء.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨٠/٨)، وتفسير ابن كثير (٥٧/٣)، وتفسير القرطبي (٢٢٨/١)، وفتح القدير (٣/ ٣٢٥)، وتفسير أبي السعود (١٧٢/٥)، وتفسير النسفي (٢٨٦/٢)، وروح المعاني (٧٤/١٥)، وزاد المسير (٣٥/٥)، وتفسير الثعالبي (٣٤٢/٢)، والمفصل في صنعة الإعراب (١٨٠/١)، وشرح ابن عقيل (١٣٢/١)، والمثل السائر (١١٣/٢)، ولسان العرب (٣٦٤/١٥)، وتاج العروس (٨٦٨٢/١).

وزعم الأخفش أن ﴿مَرَحاً﴾ أجود من ((مرِحاً))، لأن ((مرِحاً)) اسم الفاعل. وهذا - أعني المصدر- جيد بالغ، وكلاهما في الجودة سواء، غير أن المصدر أوكد في الاستعمال تقول: جاء زيد ركضاً، وجاء زيد راكضاً، فركضاً أوكد في الاستعمال لأن ركضاً يدل على توكيد الفعل. ومرَحاً: بفتح الراء أكثر في القراءة.

وتأويل الآية: ولا تمش في الأرض مختالاً ولا فخوراً.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الجِبَالَ طُولاً﴾؛ قالوا: معنى ﴿تخْرِقَ الأَرْضَ﴾ تقطع الأرض، وقيل: تثقب الأرض، والتأويل: أن قدرتك لا تبلغ، فيكون ذلك وصلة إلى الاختيال.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾؛ ﴿سَيِّئُهُ﴾ في معنى خطيئته.

وكان أبو عمرو لا يقرأ سيئه، ويقرأ: ((سيئة))، وهذا غلط، لأن في الأقاصيص سيئاً وغير سيئ، وذلك أن فيها ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ وفيها: ﴿وَآتِ ذَا القُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، و﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾، ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: اقربوه بالتي هي أحسن.

ففيما جرى من الآيات سيئ وحسن، فسيئه بلا تنوين أحسن من ((سيئة)) ههنا. ومن قرأ ((سيئة)) جعل ((كلا)) إحاطة بالمنهي عنه فقط؛ المعنى: كل ما نهى الله عنه كان سيئة.

وقوله: ﴿فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً﴾؛ أي: مباعداً من رحمة الله.

وقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾؛ كانت الكفرة من العرب تزعم أن الملائكة بنات الله، فبوخوا، وقيل: لهم: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾، أي: اختار لكم ربكم صفوة الشيء وأخذ من الملائكة غير الصفوة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾؛ أي: بينا.

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾؛ أي: ما يزيدهم التبيين إلا نفوراً، كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾[الإسراء: ٨٢].

﴿قُل لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾؛ فمن قرأ: ((كما تقولون)) فعلى مخاطبة القائلين: ﴿إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي العَرْشِ سَبِيلاً﴾.

أي: لتقربوا إلى ذي العرش، كما قال: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾؛ وقال بعضهم: ﴿إِذاً لابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾، أي: لكانوا مضادين له يطلبون الانفراد بالربوبية. والقول الأول عليه المفسرون.

وقوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ قيل: إن كل ما خلق الله يسبح بحمده وإن صرير السقف وصرير الباب من التسبيح لله -عز وجل-.

ويكون على هذا الخطاب للمشركين وحدهم من قوله: ﴿وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ وجائز أن يكون تسبيح هذه الأشياء مما علم الله به، لا يفقه منه إلا ما علمنا.

وقال قوم: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: ما من شيء إلا وفيه دليل أن الله خالقه، وأن خالقه حكيم مبرأ من الأسواء ﴿وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ أي: ولكنكم أيها الكفار لا تفقهون أثر الصنعة في هذه المخلوقات.

وهذا ليس بشيء لأن الذين خوطبوا بهذا كانوا مقرين بأن الله خالقهم وخالق السماوات والأرض ومن فيهن، فكيف يجهلون الخلقة وهم عارفون بها.

وقوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾؛ قال أهل اللغة: معنى ﴿مَسْتُوراً﴾ ههنا في موضع ساتر، وتأويل الحجاب -والله أعلم-: الطبع الذي على قلوبهم. ويدل على ذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ والأكنة: جمع كنان وهو ما ستر.

ومعنى أن يفقهوه كراهة أن يفقهوه، وقيل: معناه: إلا يفقهوه والمعنيان واحد، غير أن كراهة أجود في العربية.

وقيل: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً﴾، والحجاب: منع الله إياهم من النبي -عليه السلام- ويجوز أن يكون ﴿مَسْتُوراً﴾ على غير معنى ساتر، فيكون الحجاب ما لا يرونه ولا يعلمونه من الطبع على قلوبهم.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾؛ الوقر: ثقل السمع ، والوقر أن يجعل الإنسان وقره.

وقوله: ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾؛ ﴿نُفُوراً﴾ يحتمل مذهبين أحدهما: المصدر؛ المعنى:. ولوا نافرين نفوراً، ويجوز أن يكون ﴿نُفُوراً﴾ جمع نافر، فيكون نافر ونفور، مثل شاهد وشهود.

وقوله: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾؛ ﴿نَجْوَى﴾ في معنى المصدر، أي: وإذ هم ذوو نجوى، النجوى اسم للمصدر، وكانوا يستمعون من النبي ﷺ ويقولون بينهم: هو ساحر وهو مسحور وما أشبه ذلك من القول. وقال أهل اللغة في قوله. ﴿إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ قولين:

أحدهما: أن مسحوراً ذو سحر، والسحر: الرئة، وقالوا: إن تتبعون إلا من له سَحْرٌ بشر مثلكم يأكل الطعام، قال لبيد [من الطويل].

فَإِن تَسأَلينا فيمَ نَحنُ فَإِنَّنا عَصافيرُ مِن هَذا الأَنامِ المُسَحَّرِ(١)

وقالوا: ﴿مَسْحُوراً﴾ أي: قد سحر وأزيل عن حد الاستواء.

﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾؛ الرفات: التراب، والرفات أيضاً: كل شيء حطم وكسر، وكل ما كان من هذا النحو فهو مبني على فعال، نحو الفتات والحطام والرفات والتراب.

وقوله: ﴿خَلْقاً جَدِيداً﴾، في معنى مجدد.

وقوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ أكثر ما جاء في التفسير في قوله: ﴿أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ إن هذا الخلق هو الموت، وقيل: ﴿أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ نحو السماوات والأرض والجبال.

ومعنى هذه الآية فيه لطف وغموض، لأن القائل يقول: كيف يقال لهم: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾ وهم لا يستطيعون ذلك؟

فالجواب في ذلك: أنهم كانوا يقرون أن الله -جل ثناؤه- خالقهم، وينكرون أن الله يعيدهم خلقاً آخر، فقيل لهم: استشعروا أنكم لو خلقتم من حجارة أو حديد لأماتكم الله ثم أحياكم، لأن القدرة التي بها أشأكم - وأنتم مقرون أنه أنشأكم بتلك القدرة - بها يعيدكم، ولو كنتم حجارة أو حديداً، أو كنتم الموت الذي هو أكبر الأشياء في صدوركم.

وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ﴾؛ أي: فسيحركون رؤوسهم تحريك من يبطل الشيء ويستبطئه.

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/٨٧)، وتفسير ابن كثير (٣/٦٢)، وتفسير القرطبي (٢/٤١)، وفتح القدير (٤/ ١٦١)، ولسان العرب (٤/٣٤٨)، وتاج العروس (١/٢٩٢٩).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾؛ يقال: أَنْغضت رأسي إذا حركته أَنْغَضُه إِنْغَاضاً، ونَغَضَت السن تَنْغَضُ نَغْضاً ونَغَضَ برأسه يَنْغضُ نَغْضاً، إذا حركه، قال العجاج [من الرجز].

أَصَكَّ نَغضاً لايَني مُستَهدَجا

وقوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾؛ أي: يعيدكم يوم القيامة. ومعنى ((تستجيبون بحمده)). تستجيبون مقرين بأنه خالقكم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾؛ معنى ذكر داود ههنا أن الله -جل ثناؤه- أعلم أنه قد فضل بعض النبيين على بعض، أي: ينكروا تفضيل محمد ﷺ وإعطاءه القرآن، فقد أعطى الله داود الزبور.

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾؛ أي: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهتكم.

وجاء في التفسير أشياء في هذه الآية، منها؛ قيل: قل ادعوا العزيز وعيسى لأن النصارى واليهود زعموا أن هؤلاء آلهتهم، فأعلمهم الله -عز وجل- أنهم لا يملكون كشف ضر عنهم ولا تحويلا من واحد إلى آخر، وقيل: إنه يعنى به الملائكة لأن منهم من كان يعبد الملائكة. وقيل: إن قوماً من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم أولئك النفر من الجن ولم يعلم بهم من كان يعبدهم، فقيل فادعوا هؤلاء فإنهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾؛ بالياء والتاء.

﴿أُولَئِكَ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿الَّذِينَ﴾ رفع صفة لهم، و﴿يَبْتَغُونَ﴾ خبر الابتداء.

المعنى: الجماعة الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة، والوسيلة والسؤال والسول والطلبة في معنى واحد.

﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾؛ إن شئت ﴿أَيُّهُمْ﴾ كان رفعاً بالابتداء، والخبر ﴿أَقْرَبُ﴾، ويكون المعنى: يطلبون إلى ربهم الوسيلة ينظرون أقرب الوسيلة إلى الله فيتوسلون به، فإن قال قائل: فالذي أنكر عليهم هو التوسل بغير عبادة الله إلى الله، لأنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾[الزمر: ٣] فالفرق بين المتوسلين إلى الله بمحبة أنبيائه وملائكته وصالحي عباده أنهم يتوسلون بهم موحدين الله -عز وجل-، ولا يجعلون له شريكاً في العبادة والكفار يتوسلون بعبادة غير الله فجعلوا الكفر وسيلتهم.

ويجوز أن يكون ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلاً من الواو في يبتغون؛ فالمعنى: يبتغي أيهم هو أقرب الوسيلة إلى الله، أي: يتقرب إليه بالعمل الصالح.

﴿يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾؛ أي: الذين يزعمون أنهم آلهة يرجون ويخافون.

قوله: ﴿وَإِن مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ﴾؛ أي: ما من أهل قرية إلا سيهلكون، إما بموت وإما بعذاب يستأصلهم.

﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً﴾؛ أي: مكتوباً.

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ﴾؛ ((أن)) الأولى نصب، و((أن)) الثانية رفع.

المعنى: ما منعنا الإرسال إلا تكذيب الأولين. والتأويل: أنهم سألوا الآيات التي استوجب بها الأولون العذاب، لما كذبوا بها، فنزل عليهم العذاب، والدليل على أنهم سألوا تلك الآيات قولهم: ﴿لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾[القصص: ٤٨]، فأعلم الله -جل ثناؤه- أن موعد كفار هذه الأمة الساعة، فقال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾[القمر: ٤٦]؛ فأخرهم إلى يوم القيامة رحمة منه وتفضيلاً.

﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾؛ ويقرأ: ((مُبْصَرَةٌ))، فمن قرأ ((مُبْصِرَةً))؛ فالمعنى: تبصرهم، أي: تبين لهم، ومن قرأ ((مُبْصَرَةٌ))؛ فالمعنى: مبينه.

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾، أي: فظلموا بتكذيبها.

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾؛ جاء في التفسير: أحاط بهم أي: كلهم في قبضته، وعن الحسن: ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي: حال بينهم وبين أن يقتلوك أو يغلبوك كما قال -عز وجل- ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً﴾؛ جاء في التفسير: أنها رؤيا المقدس حين أسرى به، وذلك أنه ارتد بعضهم حين أعلمهم قصة الإسراء به، وازداد المؤمنون المخلصون إيماناً.

وجاء في التفسير: أنه ﷺ رأى في منامة قوماً يرقون المنابر فساءه ذلك، فأعلم ﷺ أنه عطاء في الدنيا.

﴿وَالشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ﴾؛ قيل: في التفسير الملعون أكلها، وهي شجرة الزقوم التي ذكرها الله في القرآن فقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ﴾[الدخان: ٤٣،

٤٤] وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾[الصافات: ٦٦]، وقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾[الصافات: ٦٤] فافتتن بها المشركون، فقال أبو جهل: ما نعرف الزقوم إلا أكل التمر بالزبد فتزقموا، وقال بعض المشركين: النار تأكل الشجر فكيف ينبت فيها الشجر، فلذلك قال -جل ثناؤه-: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾.

فإن قال قائل: ليس في القرآن ذكر لعنها؟

فالجواب في ذلك: لعن الكفار وهم آكلوها، وجواب آخر أيضاً: أن العرب تقول لكل طعام مكروه وضار: ملعون.

وقوله: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾؛ المعنى: لمن خلقته طيناً، وطيناً منصوب على جهتين؛ أحدهما: التمييز؛ المعنى: لمن خلقته من طين، ويجوز أن يكون ((طيناً)) منصوب على الحال؛ المعنى: أنك أنشأته في حال كونه من طين.

وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾؛ جاءت ﴿قَالَ﴾ ههنا بغير حرف عطف لأنه على معنى: قال اسجد لمن خلقت طيناً.

وقوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ في معنى أخبرني، فالكاف لا موضع لها، لأنها ذكرت في الخطاب توكيداً، وموضع ﴿هَذَا﴾ نصب بأرايت، والجواب محذوف؛ المعنى: أخبرني عن هذا الذي كرمت علي لم كرمته علي وقد خلقتني من نار وخلقته من طين، فحذف هذا لأن في الكلام دليلاً عليه.

ومعنى: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾؛ لاستأصلنهم بالغواء لهم، وقيل: لاستولين عليهم. والذي تقول العرب: قد احتنكت السنة أموالنا إذا استأصلتها، قال الشاعر [من الرجز]:

نَشْكُو إِلَيْكَ سَنَةً قَدْ أَجْحَفَتْ
جَهْداً عَلَى جَهْدٍ بِنَا وأَضْعَفَتْ
واحْتَنَكَت أَمْوَالَنَا وَجَلَّفَتْ[1]

وقوله: ﴿جَزَاءً مَوْفُوراً﴾؛ أي: موفر، يقال: منه وفرته أفره فهو موفور، قال زهير [من الطويل]:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠٦/٨)، وروح المعاني (١١٠/١٥).

وَمَن يَجعَلِ المَعروفَ مِن دونِ عِرضِهِ   يَفِرهُ وَمَن لا يَتَّقِ الشَتمَ يُشتَمِ[(١)]

وقوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾؛ معناه: استدعهم استدعاء تستخفهم به إلى إجابتك، وبصوتك تفسيره بدعائك، وقيل: بصوتك بأصوات الغناء والمزامير.

وقوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾؛ أي: اجمع عليهم كل ما تقدر عليه من مكايدك، وقيل في التفسير: خيله ورجله كل خيل يسعى في معصية الله فهي من خيل إبليس، وكل ماش في معصية فهو رجال إبليس، ورَجِل جمع رَاجِل، ويجوز: ((ورِجَالِك)) فيكون جمع راجل ورِجَال مثل صاحب وصحاب. وجائز أن يكون لإبليس خيل ورجال.

وقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلاَدِ﴾؛ أي: مرهم أن يجعلوا من أموالهم شَيْئاً لغير الله كما قال الله سبحانه: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]؛ وما قالوه في السائبة والبحيرة.

والشركة في الأولاد قولهم: عبد العزى، وعبد الحرث. وقيل: شركته في الأولاد يعنى به أولاد الزنا، وهو كثير في التفسير، وكل معصية في ولد أو مال فإبليس اللعين شريكهم فيها.

قوله: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾؛ فإن قال قائل: فكيف يجوز أن يؤمر إبليس أن يقال له: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلاَدِ﴾ واجلب عليهم بخيلك ورجالك وعدهم بأنهم لا يبعثون؟ فإذا فعل ذلك فهو مطيع؟

فالجواب في ذلك: أن الأمر على ضربين، أحدهما: متبع لا غير، والثاني: إذا تقدمه نهى عما يؤمر به؛ فالمعنى: في الأمر الوعيد والتهديد لأنك قد تقول: لا تدخلن هذه الدار، فإذا حاول أن يدخلها قلت: أدخلها وأنت رجل، فلست تأمره بدخولها ولكنك توعده وتهدده وهذا في اللغة والاستعمال كثير موجود، ومثله: في القرآن: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[فصلت: ٤٠]؛ وقد نهوا أن يتبعوا أهواءهم وأن يعملوا بالمعاصي.

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ أي: من أخلص فلا حجة لك عليه ولا سلطان.

﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾؛ أي: كفى بالله وكيلاً لاوليائه، يعصمهم من القبول من إبليس.

---

(١) انظر: روح المعاني (١١٠/١٥)، والأغاني (١٦٠/٢)، والمزهر في علوم اللغة (٤٠٨/٢)، وخزانة الأدب (٤٢٢/١)، ومجمع الأمثال (٢٣٢/١).

وقوله: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الفُلْكَ فِي البَحْرِ﴾؛ تفسير ﴿يُزْجِي﴾ يُسَير، وقد زَجَّيت: قدمت الشيء، وهذا الكلام ذكر معطوفاً على قوله: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾، وقوله: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ فالمعنى: أنه يبعثكم الذي بدأ خلقكم، والابتداء والإنشاء أشد من الإعادة.

ثم أعلمهم أن الذي قدر على تسخير الفلك في البحر -والفلك كالجبال- قادر على إعادتهم، وقال الله -تعالى-: ﴿وَلَهُ الجَوَارِ المُنشَآتُ فِي البَحْرِ كَالأَعْلامِ﴾[الرحمن: ٢٤] أي: كالجبال.

﴿وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُوراً﴾؛ الإنسان ههنا يعني به الكفار خاصة.

وقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾؛ الحاصب: التراب الذي فيه الحصباء، والحصباء حصى صغار.

وقوله: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾؛ أي: لا تجدوا من يتبعنا بإنكار ما نزل بكم، ولا من يتبعنا بأن يصرفه عنكم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾؛ تأويله: أن الله -جل ثناؤه- فضلهم بالتمييز، وبأن سخر لهم ما في السماوات والأرض وبحملهم في البر والبحر.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾؛ قال: ﴿عَلَى كَثِيرٍ﴾ ولم يقل على كل من خلقنا، لأن الله -جل وعلا- فضل الملائكة، فقال: ﴿وَلاَ المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ﴾[النساء: ١٧٢]؛ ولكن ابن آدم مفضل على سائر الحيوان الذي لا يعقل ولا يميز.

وجاء في التفسير: أن فضيلة ابن آدم أنه يمشي قائماً وأن الدواب والإبل والحمير وما أشبهها تمشي منكبة، وأن ابن آدم يتناول الطعام بيديه ويرفعه إلى فيه، وأن سائر الحيوان يتناول ذلك بفيه.

وهذا الذي في التفسير هو بعض ما فضل به ابن آدم. وفضله فيما أعطى من التمييز ورزق من الطيبات وبصر من الهدى مع ما لا يحصى من النعم عليه كثير جداً.

وقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾؛ وتقرأ: ((يوم يدعو)) -بالياء-.

﴿كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، يعنى به يوم القيامة، وهو منصوب على: اذكر يوم يدعو كل أناس بإمامهم، ويجوز أن يكون منصوباً بمعنى: يعيدكم الذي فطركم يوم يدعو كل أناس بإمامهم.

ومعنى ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ بدينهم الذي ائتموا به، وقيل: بكتابهم؛ والمعنى واحد. ويدل عليه ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ﴾؛ أي: من كان على حق أعطي كتابه بيمينه.

﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾؛ المعنى: ولا يظلمون مقدار فتيل، والفتيل: القشرة التي في شق النواة.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾؛ أي: في هذه الدنيا.

﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى﴾؛ وهذا من عمى القلب، أي: هو في الآخرة أشد عمى. وتأويله: أنه إذا عمي في الدنيا، وقد عرَّفه -جل وعلا- وجعل له إلى التوبة وصلة، وفسخ له في ذلك إلى وقت مماته فعمي عن رشده، ولم يتب ففي الآخرة لا يجد متاباً ولا متخلصاً مما هو فيه، فهو في الآخرة أشد عمى ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾؛ أي: وأضل طريقاً، لأنه لا يجد طريقاً إلى الهداية فقد حصل على عمله.

وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾؛ معنى الكلام كادوا يفتنونك، ودخلت ((إن)) واللام للتوكيد، وتأويله: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: لا نتركك تستلم الحجر حتى تُلمَّ بآلهتنا، فقال ﷺ في نفسه، وما علي أن افعل ذلك والله يعلم ما في نفسي، وأتمكن من استلام الحجر. وهذا مما جاء في التفسير.

وجاء في التفسير أيضاً: أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: أطرد عنك سقاط الناس ومواليهم وهؤلاء الذين رائحتهم رائحة الضأن، وذلك أنهم كانوا يلبسون الصوف، فقالوا: اطرد هؤلاء إن كنت أرسلت إلينا حتى تجلس إلينا ونسمع منك، فهمَّ النبي أن يفعل في ذلك ما يستدعي به إسلامهم، فتوعده الله -عز وجل- فيه أشد الوعيد وعصمه الله من أن يمضي ما عزم عليه، فقال: ﴿وَإِذاً لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾؛ أي: إن فعلت ما أرادوا لاتخذوك خليلاً.

﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾؛ وحكيت ﴿تَرْكُن﴾ بضم الكاف. يقال: رَكَن يَركَن، ورَكَن يَركُن، فتوعده الله في ذلك أشد التوعد، فقال: ﴿إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ﴾.

والمعنى: لو ركنت إليهم في ذلك الشيء القليل إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات، أي: ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات لأنك أنت نبي ويضاعف لك العذاب على عذاب لو جنى هذه الجناية كما قال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ

مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[الأحزاب: ٣٠] لأن درجة النبي ودرجة آله الذين وصفهم الله فوق درجة غيرهم.

وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾؛ كانوا قد كادوا أن يخرجوا النبي ﷺ من مكة فأعلمهم الله أنهم لو فعلوا ذلك لم يلبثوا بعده إلا قليلاً، وقيل: ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾، أي: ليقتلونك.

وقوله: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُسُلِنَا﴾؛ ﴿سُنَّةَ﴾ منصوب بمعنى: إنا سننا هذه السنة فيمن أرسلنا قبلك من رسلنا، أنهم إذا أخرجوا نبيهم من بين أظهرهم أو قتلوه لم يلبثهم العذاب أن ينزل بهم، وكان خروج النبي ﷺ من مكة مهاجراً بأمر الله.

وقوله: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾؛ ((دلوك الشمس)) زوالها وميلها في وقت الظهيرة، وكذلك ميلها إلى الغروب هو دلوكها أيضاً، يقال: قد دلكت بَراحِ وبِرَاحِ.

أي: قد مالت للزوال حتى صار الناظر يحتاج إذا تبصرها أن يكسر الشعاع عن بصره براحته، قال الشاعر [من الرجز]:

هذا مُقامُ قَدَمَيْ رَباحِ ذَبَّبَ حتى دَلَكَتْ بَراحِ(١)

وقوله: ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾؛ أي: ظلمة الليل.

﴿وَقُرْآنَ الفَجْرِ﴾؛ أي: فأقم قرآن الفجر، وفي هذا الموضع فائدة عظيمة تدل على أن الصلاة لا تكون إلا بقراءة، لأن قوله: أقم الصلاة وأقم قرآن الفجر قد أمر أن تقيم الصلاة بالقراءة حتى سميت الصلاة قرآناً، فلا تكون إلا بقراءة.

وقوله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾؛ جاء في التفسير: أن ملائكة الليل يحضرون قراءة الفجر، وملائكة النهار يحضرونها أيضاً.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾؛ يقال: تهجد الرجل إذا سهر، وهَجَد إذا نام، وقد هَجَدته إذا نومته قال لبيد:

---

(١) أنشده قطرب. انظر اللسان: مادة((برح)).

وانظر أيضاً: تفسير الطبري (١٢٢/٨)، وتفسير القرطبي (٢٦٢/١٠)، وفتح القدير (٣٥٨/٣)، وشرح كتاب الأمثال (٦٣/١)، وتاج العروس (١٥٨٣/١).

قلتُ هَجِّدْنا فقد طالَ السُّرَى وقَدَرْنا إن خَنا الدَّهْر غَفَلْ(١)

وهذه ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ زيادة للنبي ﷺ خاصة ليست لأحد غيره لأن الله -جل وعز- أمره بأن يزداد في عبادته على ما أمر به الخلق أجمعون، لأنه فضله عليهم، ثم وعده أن يبعثه مقاماً محموداً.

والذي صحت به الرواية والأخبار في المقام المحمود أنه الشفاعة.

وقوله: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، و((مَدْخَل صدق))، ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

وجاء في التفسير: ((أدخلني مدخل صدق)): الجنه، ((وأخرجني مخرج صدق))، أي: وأخرجني من مكة إلى المدينة.

وجاء أيضاً: ((مدخل ومخرج صدق)): دخوله المدينة وخروجه من مكة.

وجاء: ((مدخل صدق ومخرج صدق)): الإدخال في الدين والخروج من الدنيا وهو على الحق.

وجاء أيضاً -وهو حسن-: دخوله في الرسالة وخروجه مما يجب عليه فيها ﷺ.

وكل ذلك حسن. فمن قال: ((مُدخل)) بضم الميم، فهو مصدر ادخلته مدخلاً، ومن قال: ((مَدخل صدق)) فهو على أدخلته فدخل مَدخل صدق، وكذلك شرح مخرج مثله.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِي مِن لَدُنكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾؛ أي: اجعل نصرتي من عندك بتسليطي بالقدرة والحجة.

وقد أجاب الله -عز وجل- دعاءه وأعلمه أنه يعصمه من الناس، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ﴾[المائدة: ٥٦]، وقال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾[التوبة: ٣٣].

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾؛ معناه: على طريقته وعلى مذهبه، ويدل عليه: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾؛ أي: أهدى طريقاً. ويقال: هذا طريق ذو شواكل، أي: يتشعب منه طرق جماعة.

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾؛ سألت اليهود النبي ﷺ عن الروح وهم مقدرون أن يجيبهم بغير ما علم من تفسيرها، فأعلمهم أن الروح من أمر الله.

---

(١) انظر: لسان العرب (٣/٤٣١)، وتاج العروس (١/٣٣٧٧).

ثـم قـال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْـمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾؛ فقالـوا للنبي ﷺ قد أوتينا التوراة، وفيها الحكمة، وقد تلوت: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[البقرة: ٢٦٩]؛ فأعلمهم الله -عز وجل- أن علم التوراة قليل في علم الله، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾[لقمان: ٢٧] أي: ما نفدت الحكمة التي يأتي بها الله -عز وجل-، فالتوراة قليلة بالإضافة إلى كلمات الله.

((وقليل وكثير)) لا يصح إلا بالإضافة، فإنما يَقِل الشيء عندما يعلم أكثر منه، وكذلك يكثر عند معلوم هو أقل منه.

وقد اختلف الناس في تفسير ((الروح))؛ فقيل: إن الروح جبريل، ومن تأول ذلك فدليله قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾[الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقيل: إن الروح خلق -لخلق بني آدم- في السماء. وقال بعض المفسرين: إن الروح إنما يعني به القرآن، قال: ودليل ذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾[الشورى: ٥٢]، وكذلك قيل: الروح من أمر ربي، وتأويله: تسمية القرآن بالروح أن القرآن حياة القلوب وحياة النفس فيما تصير إليه من الخير عند الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾؛ أي: لو شئنا لمحوناه من القلوب ومن الكتب حتى لا يوجد له أثر.

﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾؛ أي: لا تجد من يتوكل في رد شيء منه.

وقوله: ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِن رَبِّكَ﴾؛ استثناء ليس من الأول؛ والمعنى: ولكن الله رحمك فأثبت ذلك في قلبك وقلوب المؤمنين.

ثـم احـتج الله عليهم بعـد احـتجاجه بقـوله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾ بالقـرآن فـأعلمهم - وهـم العـرب العاربة أهـل البيان، ولهـم تأليف الكـلام - فقال لهـم: ﴿قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾؛ والظهير: المعين.

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾؛ هذا قولهم بعد أن انقطعت حجتهم ولـم يأتـوا بسورة من القـرآن ولا دفعوا أن يكـون معجـزة، فاقترحوا من الآيات ما ليس لهم، لأن الذي آتاهم به من القرآن وانشقاق القمر وما دلهم به على توحيد الله أبلـغ وأعجـز في القـدرة ممـا اقترحوا، فقالـوا: ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾؛ والينبوع: تقديره تقدير يفعول، من نبع الشيء.

وقوله: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾؛ و((كِسْفاً)).

فمن قرأ ((كِسَفاً)) جعلها جمع كسفة، وهي القطعة، ومن قرأ ((كِسْفاً)) فكأنه قال أو تسقطها طبقاً علينا، واشتقاقه من كسفت الشيء إذا غطيته.

وقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾؛ في ((قبيل)) قولان، جائز أن يكون. تأمر بهم حتى نراهم مقابلة. وأن يكون ((قبيلا)) كفيلاً، يقال: قبلت به أقبل قبالة، كقولك: كفلت به أكفل كفالة، وكذلك قول الناس: قد تقبل فلان بهذا أي: تكفل به.

وقوله: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ﴾؛ جاء في التفسير أن معناه: بيت من ذهب.

وأصل الزخرف في اللغة والزخرفة: الزينة ، والدليل على ذلك قوله -عز وجل-: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾[يونس: ٢٤] أي: أخذت كمال زينتها.

وزخرفت الشيء إذا أكلمت زينته، ولا شيء في تزيين بيت وتحسينه، وزخرفة كالذهب. فليس يخرج ما فسره عن الحق في هذا.

وقوله: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾؛ يقال في ((الصعود)): رَقِيت أَرْقَى رَقِيّاً، ويقال فيما تداويه بالعوذة: رَقَيت أُرْقِي رُقْيَة ورَقياً.

وقوله: ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾؛ أي: حتى تنزل علينا كتاباً يشهد بنبوتك.

فأعلم الله -جل ثناؤه- أن ذلك لو نزل عليهم لم يؤمنوا فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[الأنعام: ٧]؛ فإذا كانوا يدعون فيما يعجز عنه أنه سحر فكيف يوصل إلى تبصيرهم والتبيين لهم بأكثر مما أتى به النبي ﷺ ودل على نبوته كل ما يخطر بالبال.

وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى﴾؛ موضع ((أن)) نصب.

وقوله: ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا﴾؛ موضع ﴿أَن قَالُوا﴾ رفع.

المعنى: ما منعهم من الإيمان إلا قولهم: ﴿أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾؛ فأعلم الله أن الأعدل عليهم، والأبلغ في الأداء إليهم بشر مثلهم.

وأعلمهم أن ﴿لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: يمشون مستوطنين الأرض ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ لأنه لا يرسل إلى خلق إلا ما كان من جنسه.

وقوله: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ قالوا للنبي ﷺ من يشهد لك بأنك رسول الله، فقال: الله يشهد لي و﴿كَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ في موضع رفع.

المعنى: كفى الله شهيداً، وشهيداً: منصوب على نوعين، إن شئت على التمييز، كفى الله من الشهداء، وإن شئت على الحال؛ المعنى: كفى الله في حال الشهادة.

وقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾؛ أي: كلما خمدت، ونضجت جلودهم ولحومهم بدلهم الله غيرها لذوقوا العذاب.

وقوله: ﴿قُل لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾؛ هذا جواب لقولهم: ﴿لَن نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾.

فأعلمهم الله - جل وعلا - أنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لأمسكوا شحا وبخلا فقال: ﴿إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾؛ يعني بالإنسان ههنا الكافر خاصة كما قال -عز وجل-: - ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[العاديات: ٦]، أي: لكفور، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[العاديات: ٨] أي: من أجل حب الخير وهو المال لبخيل.

فأما ﴿أَنتُمْ﴾ فمرفوع بفعل مضمر؛ المعنى: قل لو تملكون أنتم لأن ((لو)) يقع بها الشيء لوقوع غيره، فلا يليها إلا الفعل، وإذا وليها الاسم عمل فيها الفعل المضمر، ومثل ذلك من الشعر قول المتلمس [من الطويل]:

ولو غيرُ أَخْوالي أرادُوا نَقِيصَتي جَعَلْتُ لهم فَوْقَ العَرانِين مِيسَما(1)

المعنى: لو أراد غير أخوالي.

والقتور: البخيل.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ قيل في التفسير: إنها أخذ آل فرعون بالسنين وهي الجدب حتى ذهبت ثمارهم، وذهبت من أهل البوادي مواشيهم. ومنها إخراج موسى يده بيضاء للناظرين، ومنها إلقاؤه عصاه فإذا هي ثعبان مبين، وأنها تلقفت إفك السحرة، ومنها: إرسال الله عليهم الطوفان -نعوذ بالله منه-، والجراد والقمل والضفادع والدم، فذلك تسع آيات.

وقد قيل: إن البحر منها. ومن آياته: انفجار الحجر ولكنه لم يرو في التفسير.

---

(١) انظر: روح المعاني (١٥/١٨٠)، وزاد المسير (٥/٩١)، والكشاف (١/٦٩٧)، وكتاب اللامات (١/١٢٨)، والأغاني (٢٤/٢٥٤)، وشرح كتاب الأمثال (١/١٤٩)، ولسان العرب (١٢/٦٣٥).

وقوله: ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾؛ لم يجد فرعون ما يدفع به الآيات إلا إقراره على نفسه بأنه ظان أن موسى مسحور، فأعلمه الله أن فرعون قد بيَّن أنها آيات فقال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ﴾؛ يعني الآيات.

﴿إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾؛ وقرأ بعضهم: ((لقد علمتُ)) بضم التاء، والأجود في القراءة: ((لقد علمتَ)) بفتح التاء، لأن علم فرعون بأنها آيات من عند الله أوكد في الحجة عليه، ودليل ذلك قوله -عز وجل- في فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً﴾[النمل: ١٤].

وقوله: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾؛ أي: لأظنك مهلكاً، يقال: ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك.

وقوله: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِنَ الأَرْضِ﴾؛ أي: فأراد فرعون أن يستفز موسى وقومه من الأرض فجائز أن يكون استفزازهم إخراجهم منها بالقتل أو بالتنحية.

﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَعَهُ جَمِيعاً﴾؛ وقوله: ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾؛ أي: اتينا بكم من كل قبيلة، واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

وقوله: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ﴾؛ وتقرأ ((فرَّقناه)) بالتشديد، ﴿وَقُرْآناً﴾ منصوب بفعل مضمر؛ المعنى: وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً، تبشر المؤمنين بالجنة وتنذر من عصى الله بالنار، وقرآنا فرقناه.

أنزل الله -عز وجل- القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، ثم أنزل على النبي ﷺ في عشرين سنة، فرقه الله في التنزيل ليفهمه الناس، فقال: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾؛ و((مَكث)) جميعاً، والقراءة بضم الميم.

وقوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾؛ لأن الذي يخر وهو قائم يخر لوجهه، والذقن: مجتمع اللحين وهو عضو من أعضاء الوجه، وكما يبتدئ المبتدئ يخر فأقرب الأشياء من جهة إلى الأرض الذقن، و﴿سُجَّداً﴾، منصوب على الحال.

وقوله: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾؛ معناه: ما كان وعد ربنا إلا مفعولاً. ((وإن واللام)) دخلتا للتوكيد.

وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياً مَا تَدْعُوا﴾؛ لما سمعت العرب ذكر الرحمن قالت:اتدعونا إلى اثنين إلى الله وإلى الرحمن. وإسم ((الرحمن)) في الكتب الأول

المنزلة على الأنبياء. فأعلمهم الله أن دعاءهم الرحمن ودعاءهم الله يرجعان إلى شيء واحد فقال: ﴿أَياً مَا تَدْعُوا﴾؛ المعنى: أي أسماء الله تدعوا ﴿فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾.

﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾؛ المخافتة: الإخفاء، والجهر رفع الصوت، وكان النبي ﷺ إذا جهر بالقرآن سب المشركون القرآن، فأمره الله -جل وعز- إلا يعرض القرآن لسبهم وألا يخافت بها مخافتة لا يسمعها من يصلي خلفه من أصحابه.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾؛ أي: اسلك طريقاً بين الجهر والمخافتة.

وقوله: ﴿وَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ﴾؛ يعاونه على ما أراد.

﴿وَلَمْ يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾؛ أي: لم يحتج إلى أن ينتصر بغيره.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾؛ أي: عظمه عظمة تامة.

* * *

سورة الكهف (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً * قَيِّماً﴾.

قال أهل التفسير وأهل اللغة إن معناه: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجاً.

ومعنى ((قيم)): مستقيم، و((العِوج)) -بكسر العين- فيما لا يرى له شخص، وما كان له شخص قيل فيه: ((عَوَج)) بفتح العين، تقول: في دينه عِوج، وفي العصا عَوَج -بفتح العين-.

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة الكهف من سور القرآن الكريم المكية ترتيبها في المصحف الشريف الثامنة عشرة. عدد آياتها عشر ومائة آية. جاءت تسميتها الكهف لتضمنها المعجزة الربانية، في تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف.

وسورة الكهف من السور المكية التي تعالج أمور العقيدة والتوحيد، وهي إحدى سور خمس بدئت بـ((الحمد لله)) وهذه السور هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر. فالكهف تبتدئ بتمجيد الله جلّ وعلا، وتقديسه، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء، والجلال والكمال.

تعرضت السورة الكريمة لثلاث قصص من روائع قصص القرآن، في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة، والإيمان بعظمة ذي الجلال. أما الأولى فهي، قصة أصحاب الكهف، قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فرارًا بدينهم، ولجأوا إلى غار في الجبل، ثم مكثوا فيه نيامًا تسعًا وثلاثمائة سنة، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة.

أما القصة الثانية فقصة موسى عليه السلام مع الخضر، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم، وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح، ولم يكن يعرفها موسى عليه السلام، حتى أخبره بها الخِضر كقصة السفينة، وحادثة قتل الغلام، وبناء الجدار.

أما القصة الثالثة فقصة ذي القرنين، وهو مِلِك مكّن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يبسط سلطانه على المعمورة، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها، وما كان من أمره في بناء السد العظيم.

ثم ضربت السورة أمثلة لتحقيق هدفها وبيان أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان، وإنما هو مرتبط بالعقيدة. وهي مَثَلُ الغني المزهو بماله، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه، في قصة أصحاب الجنتين، ومَثَلُ الحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال، ومَثَلُ التكبر والغرور مصورًا في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم وما ناله من الطرد والحرمان.

وتأويله: الشكر لله الذي أنزل على محمد الكتاب مستقيماً ولم يجعل له عوجاً، أي: لم يجعل فيه اختلافاً كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾[النساء: ٨٢].

وقوله: ﴿لِيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَدُنْهُ﴾؛ أي: لينذرهم بالعذاب البائس.

﴿مِن لَدُنْهُ﴾ من قبله.

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾؛ المعنى: بأن لهم أجراً حسناً.

وقوله: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾؛ ﴿مَاكِثِينَ﴾ منصوب على الحال في معنى خالدين.

وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾؛ وتقرأ ﴿كَلِمَةً﴾ بالرفع والنصب، فمن نصب؛ فالمعنى: كبرت مقالتهم ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ كلمة، فكلمة: منصوب على التمييز.

ومن قرأ ﴿كَلِمَةً﴾ بالرفع؛ فالمعنى: عظمت كلمة هي قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ ويجوز في ((كبرت)): ((كبْرت كلمة)) بتسكين الباء، ولا أعلم أحداً قرأ بها.

وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾؛ تأويله: فلعلك مهلك نفسك، وقال بعضهم: قاتل نفسك؛ والمعنى واحد، قال الشاعر[1] [من الطويل]:

أَلاَ أَيُهذا الباخِعُ الوَجدُ نَفسَهُ بِشَيءٍ نَحَتهُ عَن يَدَيهِ المَقادِرُ[2]

المعنى: إلا أيهذا الذي أهلك الوجد نفسه.

ومعنى ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي: من بعدهم.

﴿إِن لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾؛ يعني بالحديث القرآن، و ﴿أَسَفاً﴾ منصوب لأنه مصدر في موضع الحال.

والأسف: المبالغة في الحزن أو الغضب. يقال: قد أَسف الرجل فهو آسف وأَسِف، قال الشاعر:

أَرَى رَجُلاً مِنْهُمْ أَسِيفاً كَأَنَّمَا يَضُمُّ إِلَى كَشْحَيْهِ كَفّاً مُخَضَّبَا[3]

---

(١) هو: ذو الرمة.

(٢) انظر: روح المعاني (١٥/٢٠٤)، وزاد المسير (٥/١٠٤)، ومفردات القرآن (١/٩٣)، والمفصل في صنعة الإعراب (١/٦٣)، ولسان العرب (٥/٨)، وتاج العروس (١/٥٠٩٠).

(٣) انظر: روح المعاني (٨/١٤٣)، وزاد المسير (٥/١٠٥)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٢/٧٧٦)، وفقه اللغة (١/١٢٤٢)، ولسان العرب (٩/٥)، وتاج العروس (١/٥٧١٥).

وقوله: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾؛ أي: لنختبرهم، وأيهم مرفوع بالابتداء، إلا أن لفظه لفظ الاستفهام.

المعنى: ليخبر أهذا أحسن عملاً أم هذا؛ فالمعنى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ أي: اختباراً ومحنة، فالأحسن العمل من زهد فيما زين له من الدنيا.

ثم أعلمهم أنه مبيد ومفن ذلك كله فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾؛ والصعيد: الطريق الذي لا نبات فيه، والجرز: الأرض التي لا تنبت شيئاً كأنها تأكل النبت أكلا، يقال: أرض جُرُز، وأرضون أَجرَاز.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾؛ والرقيم: قيل: إنه اسم الجبل الذي كان فيه الكهف، والكهف: كالفج وكالغار في الجبل.

وقيل: إن الرقيم اسم القرية التي كانوا فيها، وقيل: إن الرقيم لوح كان فيه كتاب في المكان الذي كانوا فيه -والله أعلم-.

وقيل: كان المشركون سألوا النبي ﷺ بمكة فصارت جماعة منهم إلى يثرب فأعلمت جماعة من رؤساء اليهود بقصة رسول الله ﷺ فقالت اليهود: إن اسمه عندنا مكتوب وأن يبعث على فترة من الرسل فاسألوه عن هذه الأشياء فإن أجاب عنه فهو نبي، فصارت الجماعة من المشركين إلى مكة وجمعوا جمعاً كثيراً، وسألوا النبي ﷺ عن هذه الأشياء. فأعلمهم أنه لا يعلمها، وأنه إن نزل عليه وحي بها أعلمهم.

فروي بعضهم أنه قال: ((سأخبركم بها ولم يقل إن شاء الله)) فأبطا عنه الوحي أياماً ونزلت: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ فأخبرهم النبي ﷺ بما أوحى الله إليه وأنزله الله في كتابة مما دل على حقيقة نبوته.

ثم أعلم الله -عز وجل- أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله، لأنا نشاهد من خلق السماوات والأرض وما بينهما مما يدل على توحيد الله ما هو أعجب من قصة أصحاب الكهف فقال -جل وعز-: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾؛ أي: حتى نبين قصتهم.

وقوله: ﴿إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ﴾؛ ومعنى: أووا إليه صاروا إليه وجعلوه مأواهم، والفتية: جمع فتي مثل: ((غلام وغلمة وصبي وصبية)) وفعلة: من أسماء الجمع، وليس ببناء يقاس عليه، لا يجوز: ((غراب وغربة، ولا غني وغنية)).

وقوله: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً﴾؛ أي: أعطنا من عندك رحمة، أي: مغفرة ورزقاً.

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾؛ يجوز في ﴿رَشَداً﴾ رُشداً، إلا أنه لا يقرأ بها ههنا لأن فواصل الآيات على ((فعل)) نحو: ((أمداً وعدداً))، فرشدٌ أحسن في هذا المكان أي: أرشدنا إلى ما يقرب منك ويزلف عندك.

وقوله ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾؛ معنى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ معناه: أن يسمعوا، لأن النائم إذا سمع انتبه.

فالمعنى: أنمناهم، ومنعناهم والسمع. و ﴿عَدَداً﴾ منصوب على ضربين؛ أحدهما: على المصدر؛ المعنى: تعد عدداً، ويجوز أن يكون نعتاً للسنين؛ المعنى: سنين ذات عدد والفائدة في قولك: ((عدد)) في الأشياء المعدودات أنك تريد توكيد كثرة الشيء لأنه إذا قل فهم مقداره ومقدار عدده، فلم يحتج إلى أن يعد، فإذا كثر احتاج إلى أن يعد، فالعدد في قولك: أقمت أياماً عدداً. أنك تريد بها الكثرة. وجائز أن تؤكد بعدد معنى الجماع في أنها قد خرجت من معنى الواحد.

فمعنى قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾؛ أي: بعثناهم من نومهم، ويقال لكل من خرج من الموت إلى الحياة أو من النوم إلى الانتباه: مبعوث. وتأويل ((مبعوث)): أنه قد زال عنه ما كان يحبسه عن التصرف والانبعاث.

وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾؛ الأمد: الغاية.

و ﴿أَمَداً﴾ منصوب على نوعين، وهو على التمييز منصوب وإن شئت كان منصوباً على أحصي أمداً فيكون العامل فيه أحصي، كانه قيل: لنعلم أهؤلاء أحصي للأمد أم هؤلاء، ويكون منصوباً بلبثوا، ويكون أحصي متعلقاً بـ(لما) فيكون؛ المعنى: أي: الحزبين أحصى للبثهم في الأمد.

وقوله: ((لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾؛ أي: قد قلنا إذن جوراً.

و﴿شَطَطاً﴾ منصوب على المصدر؛ المعنى: لقد قلنا إذن قول شطط. يقال: شَطَّ الرجل وأشَطَّ إذا جار، قال الشاعر[1] [من الطويل]:

---

(١) هو: الأحوص الأنصاري.

أَلا يا لَقَومي قَد أَشَطَّت عَواذِلي وَيَزعُمنَ أَن أَودى بِحَقّي باطِلي[١]

وقوله: ﴿لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾؛ أنكر الفتية عبادة قومهم، وأن يعبدوا مع الله غيره، فقالوا: هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ﴿لَوْلا يَأْتُونَ﴾. ((ولولا)) في معنى هلا.

المعنى: هلا يأتون عليهم بحجة بينة، ومعنى ﴿عَلَيْهِم﴾ أي: على عبادة الآلهة.

وقوله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾؛ موضع ((ما)) نصب.

المعنى: إذا اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون إلا الله فإنكم لن تتركوا عبادته.

﴿فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ﴾؛ أي: اجعلوا الكهف مأواكم.

﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِن رَحْمَتِهِ﴾؛ أي: ينشر لكم من رزق.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِنْ أَمْرِكُم مِرْفَقاً﴾؛ يقال: هو مِرفق اليد: بكسر الميم وفتح الفاء، وكذلك مِرفق الأمر مثل: مِرفق اليد سواء. قال الأصمعي: لا أعرف غير هذا. وقرأت القراء ﴿مَرْفِقاً﴾. بفتح الميم وكسر الفاء.

وذكر قطرب وغيره من أهل اللغة اللغتين جميعاً في ((مرفق الأمر ومرفق اليد)). وقالوا جميعاً ((المرفق)) لليد بكسر الميم. وهو أكثر في اللغة وأجود.

وقوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ﴾؛ في ﴿تَّزَاوَرُ﴾ ثلاثة أوجه: ((تَزَاوَرُ، وتَزْوَرُّ -بغير ألف-، على مثال: تحمر، وتَزْوَارُّ على مثال: تحمار، ووجه رابع تَزَّوار. والأصل فيه تتزوار فأدغمت التاء في الزاي.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾؛ ﴿تَقْرِضُهُمْ﴾ بكسر الراء، وتقرُضهم -بضم الراء- والكسر القراءة عليه، وتأويله: تعدل عنهم وتتركهم، قال ذو الرمة [من الطويل]:

إِلى ظُعُنٍ يَقرِضنَ أَجوازَ مُشرِفٍ شِمالاً وَعَن أَيمانِهِنَّ الفَوارِسُ[٢]

يقرضن: يتركن، وأصل القرض القطع والتفرقة بين الأشياء، ومن هذا قولك: أقرضني درهماً، تأويله: اقطع لي من مالك درهماً.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾؛ أي: في متسع منه.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٨٩/٨)، ولسان العرب (٣٣٣/٧)، وتاج العروس (٤٨٩٥/١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٩١/٨)، وتفسير القرطبي (٣٠٣/١٠)، ولسان العرب (٣٩٨/٥)، وتاج العروس (٣٧٩٠/١).

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾؛ قيل: إن باب الكهف كان بازاء بنات نعش، فذلك لم تكن الشمس تطلع عليهم، وهذا التفسير ليس بين، إنما جعل الله فيهم هذه الآية لأن الشمس لا تقربهم في مطلعها ولا عند غروبها.

وقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾؛ أكثر اللغة فهو المهتدي بإثبات الياء، وفي المصحف في هذا الموضع بغير ياء وهذا في هذا الموضع كالذي في الأعراف، فهذا هو الوجه، وهو في الأعراف بالياء وفي الكهف بغير ياء وحذف الياء جائز في الأسماء خاصة ولا يجوز في الأفعال، لأن حذف الياء في الفعل دليل الجزم. وحذف الياء في الأسماء واقع إذا لم يكن مع الاسم الألف واللام، نحو: مهتد ومفتد، فأدخلت الألف واللام وترك الحذف على ما كان عليه. ودلت الكسرة على الياء المحذوفة.

وقوله: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾؛ الأيقاظ: المنتبهون، والرقود: النيام، وواحد الأيقاظ يقظ ويقظان، والجمع أيقاظ، قال الراجز:

ووجدوا إخوتهم أيقاظاً

وقيل في التفسير: إنهم كانوا مفتحي الأعين، الذي يراهم يتوهمهم منتبهين وقيل: لكثرة تقبلهم يظن أنهم غير نيام، ويدل عليه ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ ويجوز: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾، وتحسِبهم.

﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾؛ والوصيد: فناء البيت، وفناء الدار.

وقوله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ بكسر الواو، وتقرأ: ((لوُ اطلعت عليهم)) بضم الواو، والكسر أجود، لأن الواو ساكنة والطاء ساكنة، فكسرت الواو لالتقاء الساكنين، وهذا هو الأصل، وجاز الضم لأن الضم من جنس الواو، ولكنه إذا كان بعد الساكن مضموم فالضم هناك أحسن منه ههنا. نحو ﴿أَوِ انقُصْ﴾[المزمل: ٣] واو ((انقص)) بالضم والكسر.

وقوله: ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾؛ ﴿فِرَاراً﴾ منصوب على المصدر، لأن معنى وليت فررت منهم.

﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ و ((رُعُباً)).

و﴿رُعْباً﴾ منصوب على التمييز، تقول: امتلأت ماء واكتلأت فرقاً، أي: امتلأت من الفرق ومن الماء.

وقيل في التفسير: إنهم طالت شعورهم جداً وأظفارهم، فلذلك كان الرائي لو رآهم لهرب منهم مرعوباً.

وقوله: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾؛ فيها أربعة أوجه: بفتح الواو وكسر الراء، ((وبورْقكم)) بتسكين الراء ((وبِورْقكم)) بكسر الواو وتسكين الراء، يقال: وَرَق ووَرِق، ووِرْق، كما قيل: كَبِد وكَبْد وكِبْد. وكسر الواو أردؤها ويجوز ((بورقكم)) تدغم القاف في الكاف وتصير كافاً خالصة.

وقوله: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾؛ ﴿أَيُّهَا﴾ مرفوع بالابتداء.

ومعنى ﴿أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾، أي: أي أهلها أزكى طعاماً، وأزكى: خبر الابتداء، وطعاماً: منصوب على التمييز.

وقيل: إن تأويل﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ أحل طعاماً، وذكروا أن القوم كان أكثرهم مجوساً، وكانوا لا يستنظفون ذبائحهم.

وقيل: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾، أي: طعاماً لم يؤخذ من غضب، ولا هو من جهة لا تحل.

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾؛ و((فَلِيَأتكم)) بإسكان اللام وكسرها، والقراءة بإسكان اللام. والكسر جائز.

قوله: ﴿وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أحداً ﴾؛ قيل: لا يعلمن بكم، أي: إن ظهر عليه فلا يوقعن إخوانه فيما يقع فيه.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾؛ أي: يقتلوكم بالرجم، والرجم من أخبث القتل.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾؛ ((إذا)) تدل على الشرط، أي: ولن تفلحوا إن رجعتم إلى ملتهم.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أطلعنا عليهم ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾؛ أي: ليعلم الذين يكذبون بالبعث أن وعد الله حق، ويزداد من يؤمن به إيماناً.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾؛ أي: يتناظرون في أمرهم.

فيجوز أن يكون ((إذا)) منصوباً بقوله: ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ فيكون المعنى: وكذلك اعثرنا عليهم أي: أطلعنا عليهم إذ وقعت المنازعة لإي أمرهم، ويجوز أن يكون منصوباً بقوله: ليعلموا، أي: ليعلموا في وقت منازعتهم.

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِداً﴾؛ هذا يدل -والله أعلم- أنه لما ظهر أمرهم غلب المؤمنون بالبعث والنشور لأن المساجد للمؤمنين.

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾؛ ﴿ثَلاثَةٌ﴾ مرفوع بخبر الابتداء.

المعنى: سيقول الذين يتنازعون في أمرهم، هم ثلاثة رابعهم كلبهم.

﴿رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: يقولون ذلك رجماً، أي: ظناً وتخصراً. قال زهير [من الطويل]:

وَما الحَربُ إِلا ما عَلِمتُم وَذُقتُمُ وَما هُوَ عَنها بِالحَديثِ المُرَجَّمِ[1]

﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾؛ دخول الواو ههنا وإخراجها من الأول واحد.

وقد يجوز أن يكون الواو يدخل ليدل على انقطاع القصة وأن الشيء قد تم.

وقوله: ﴿قُل رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾؛ روي عن ابن عباس أنه قال:كان أصحاب الكهف سبعة، وأنا من القليل الذين يعلمونهم.

وقول ابن عباس إذا صح عنه فهو من أوثق التفسير.

وقوله: ﴿فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً﴾؛ أي: تات في أمرهم بغير ما أوحي إليك، أي: افت في قصتهم بالظاهر الذي أنزل إليك.

﴿وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِنْهُمْ﴾؛ أي: في أصحاب الكهف.

﴿مِنْهُمْ أحداً ﴾؛ أي: من أهل الكتاب.

وقوله: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾؛ موضع ((أن)) نصب.

المعنى: لا تقولن إني أفعل أبداً إلا بمشيئة الله، فإذا قال القائل: إني أفعل ذاك إن شاء الله فكأنه قال: لا أفعل إلا بمشيئة الله.

وقوله: ﴿وَاذْكُر رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾؛ أي: أي وقت ذكرت لم تستثن فاستثن، وقل: إن شاء الله.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (١٧٨/٥)، وروح المعاني (٢٤١/١٥)، وزاد المسير (١٢٤/٥)، ومفردات القرآن (٥٣٧/١)، وشرح قطر الندى (٢٦٢/١).

﴿وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾؛ أي: قل عسى أن يعطيني من الآيات والدلالات على النبوة ما يكون أقرب في الرشد وأدل من قصة أصحاب الكهف.

وقوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾؛ جائز أن يكون سنين نصباً، وجائز أن يكون جراً.

فأما النصب فعلى معنى: فلبثوا في كهفهم سنين ثلاثمائة، ويكون على تقدير آخر ((سنين)) معطوفاً على ثلاث عطف البيان والتوكيد، وجائز أن تكون سنين من نعت المائة، وهو راجع في المعنى إلى ثلاث كما قال الشاعر[1] [من الكامل]:

فيها اِثْنَتانِ وَأَربَعونَ حَلوبَةً سوداً كَخافِيَةِ الغُرابِ الأَسحَمِ[2]

فجعل ((سوداً)) نعتاً ((لحلوبة))، وهو في المعنى عت لجملة العدد.

فجائز أن يكون: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾، محمولاً على قوله ﴿سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ....﴾ ويقولون: لبثوا في كهفهم، وهذا القول دليله قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾.

ويجوز -وهو الأجود عندي- انه إخبار عن الله أخبرهم بطول لبثهم، وأعلم أنه أعلم بذلك. وكان هذا أبلغ في الآية فيهم أن يكون الصحيح أنهم قد لبثوا هذا العدد كله.

فأما قوله: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾؛ فلا يكون على معنى وازدادوا تسع ليال، ولا تسع ساعات، لأن العدد يعرف تفسيره، وإذا تقدم تفسيره استغنى بما تقدم عن إعادة ذكر التفسير.

تقول: عندي مائة درهم وخمسة فيكون الخمسة قد دل عليها ذكر الدرهم.

وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أشهر وَعَشْراً﴾؛ قال أبو العباس محمد بن يزيد: ((وعشراً)) معناه: وعشر مدد، وتلك المدد كل مدة منها يوم وليلة، والعرب تقول: ما رأيته منذ عشر وأتيته لعشر خلون، فيغلبون الليالي على ذكر الأيام، والأيام داخلة في الليالي والليالي مع اليوم مدة معلومة من الدهر، فتأنيث عشر يدل على أنه لا يراد به أشهر فهذا أحسن ما فسر في هذه الآية.

---

(١) هو: عنترة بن شداد.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/٧٥)، وروح المعاني (١٥/٢٥٤)، ومعاني القرآن (٢/٥٤)، والأصول في النحو (١/٣٢٥).

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾؛ أجمعت العلماء أن معناه: ما أسمعه وأبصره. أي: هو عالم بقصة أصحاب الكهف وغيرهم.

وقوله: ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أحداً ﴾؛ وقرئت: ﴿وَلاَ يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أحداً ﴾ على النهي. والآية -والله أعلم- تدل على أحد معنيين:

أحدهما: أنه أجرى ذكر علمه وقدرته، فأعلم -عز وجل- أنه لا يشرك في حكمه مما خبر به من الغيب أحداً، كما قال: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أحداً ﴾[الجن: ٢٦] وكذلك إذا قرئت: ولا تشرك -بالتاء- في حكمه أحداً، أي: لا تنسبن أحداً إلى علم الغيب ويكون -والله أعلم-، وهو جيد بالغ على معنى: أنه لا يجوز أن يحكم حاكم إلا بما حكم الله، أو بما يدل عليه حكم الله، وليس لأحد أن يحكم من ذات نفسه، فيكون شريكاً لله في حكمة، يأمر بحكم كما أمر الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾؛ أي: لن تجد معدلاً عن أمره ونهيه، ولا ملجأ إلا إليه، وكذلك: ﴿لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾؛ أي: ما أخبر الله به، وما أمر به فلا مبدل له.

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾؛ وقرئت ((بالغدوة والعشي))، و﴿بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أجود في قول جميع العلماء لأن ((غدوة)) معرفة لا تدخلها الألف واللام، والذين أدخلوا الألف واللام جعلوها نكرة، ومعنى ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، أي: يدعونه بالتوحيد والإخلاص له، ويعبدونه يريدون وجهه، أي: لا يقصدون بعبادتهم إلا إياه.

وقوله: ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾؛ أي: لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الهيئات والزينة.

روي أن جماعة من عظماء المشركين قالوا للنبي -عليه السلام-: باعد عنك هؤلاء الذين رائحتهم كرائحة الضأن، وهم موال وليسوا بأشراف لنجالسك ولنفهم عنك، يعنون خباباً، وصهيباً وعماراً وبلالاً ومن أشبههم، فأمره الله بأن لا يفعل ذلك وأن يجعل إقباله على المؤمنين وألا يلتفت إلى غيرهم فقال: ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾؛ أي: كان أمره التفريط، والتفريط: تقديم العجز.

وقوله: ﴿وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾؛ المعنى: وقل الذي آتيتكم به الحق من ربكم.

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾؛ هذا الكلام ليس بأمر لهم، ما فعلوه منه فهم فيه مطيعون، ولكن كلام وعيد وإنذار قد بين بعده ما لكل فريق من مؤمن وكافر، قال -عز وجل-: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً﴾؛ معنى ((أعتدنا)) جعلناها عتاداً لهم كما تقول: جعلت هذا عدة لهذا. والعتاد: الشيء الثابت اللازم.

وقوله: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾؛ أي: صار عليهم سرادق من العذاب، والسرادق كل ما أحاط بشيء نحو الشقة في المضرب والحائط المشتمل على الشيء.

وقوله: ﴿كَالْمُهْلِ﴾؛ يعني أنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أي: الصفر والفضة، وكل ما أذبته من هذه الأشياء فهو ((مهل)). وقيل: ((المهل)) دُرْدِي الزيت أيضاً، وقيل: ((المهل)) صديد الجرح.

﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾؛ أي: إذا قدم ليشرب أشوى الوجه من حرارته.

﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾؛ ﴿مُرْتَفَقاً﴾ منصوب على التمييز، ومرتفقاً: منزلاً، وقال أهل اللغة مرتفقاً: متلكأ وأنشدوا [من البسيط].

إنّي أَرَقتُ فَبِتُّ اللَّيلَ مُرتَفِقاً كَأَنَّ عَيْنِي فِيهَا الصَّابُ مَذْبُوحُ[1]

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾؛ خبر ((إن)) هنا على ثلاثة أوجه:

فأحدها: أن يكون على إضمار ((إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا منهم)) ولم يحتج إلى ذكر منهم لأن الله -تعالى- قد أعلمنا أنه يحبط عمل غير المؤمنين، قال -عز وجل-: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[الفتح: ٢٩].

ويجوز أن يكون خبر ((أن)): ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ ويكون قوله: ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ قد فصل به بين الاسم وخبره، لأن فيه ذكر ما في الأول، لأن من أحسن عملا بمنزلة الذين آمنوا.

ووجه ثالث، أن يكون الخبر ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ في معنى إنا لا نضيع أجرهم، لأن ذكر ((من)) كذكر الذي، وذكر حسن العمل كذكر الإيمان. فيكون

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي.

انظر: تفسير الطبري (٢١٦/٨)، وروح المعاني (٢٦٩/١٥)، وزاد المسير (١٣٦/٥)، والكشاف (٧٠٨/١)، ومعاني القرآن (٢٣٥/٤)، ولسان العرب (٥٣٤/١)، وتاج العروس (٦٧٠/١).

كقولك: إن الذين يعملون الصالحات إن الله لا يضيع أجر من آمن، فهو كقولك: إن الله لا يضيع أجرهم.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾؛ ومعنى ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة. وقيل: في التفسير: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ جنات من الأربع الجنات التي أعدها الله لأوليائه.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾؛ أساور: جمع أسورة، وأسورة جمع سوار. يقال: هو سِوار في اليد بالكسر، وقد حكى سَوار وحكى قطرب إِسوار، وذكر أن أساور جمع أسوار، على حذف الياء، لأن جمع أسوار أساوير.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾؛ والسندس والاستبرق: نوعان من الحرير.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً﴾؛ الأرائك: واحدتها أريكة، والأرائك الفرش في الحجال. مرتفقاً: منصوب على التمييز وقد فسرنا المرتفق.

وقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾؛ كان المشركون سألوا النبي ﷺ بمشورة اليهود عليهم أن يسألوا النبي ﷺ عن قصة أصحاب الكهف وعن الروح وعن هذين الرجلين، فأعلمه الله الجواب وأنه مثل له -عليه السلام- وللكفار، ومثل لجميع من آمن بالله وجميع من عند عنه وكفر به فقال -تعالى-: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾؛ ﴿رَجُلَيْنِ﴾ منصوب على معنى المفعول على معنى: واضرب لهم مثلاً مثل رجلين.

﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: جعلنا النخل مطيفاً بهما، يقال: قد حف القوم بزيد إذا كانوا مطيفين به.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾؛ فأعلم الله أن عمارتهما كاملة متصلة لا يفصل بينهما إلا عمارة، وأعلمنا أنهما كاملتان في تأدية حملهما من نخلهما وأعنابهما والزرع الذي بينهما، فقال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيْئاً﴾؛ أي: لم تنقص منه شَيْئاً، وقال: آتت ولم يقل أتتا، رده على كلتا لأن لفظ كلتا لفظ واحد.

والمعنى: كل واحدة منهما أتت أكلها، ولو كان ((أتتا)) لكان جائزاً يكون المعنى: الجنتان كلتاهما أتتا أكلهما.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً﴾؛ ولو قرئت نهراً لكان جائزاً، يقال: نَهْر ونَهَر، فأعلمنا شربهما كان من ماء نهر وهو من أغزر الشرب.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾؛ وقرئت ((ثُمُر))، وقيل: الثَّمر ما أخرجته الشجر، والثُّمُر المال، يقال: قد ثمر فلان مالا. والثمر ههنا أحسن، لأن قوله: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ قد دل على الثمر، وتجوز أن يكون ثُمَر جمع ثَمَرة. وثِمَار وثُمُر.

وقوله: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾؛ مالاً، ونفراً، منصوبان على التمييز، وأخبره أنه أعز منه ناصراً، أي: يخبر أن أنصاره كثير.

وقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾؛ وكل من كفر بالله فنفسه ظلم، لأنه يولجها النار ذات العذاب الدائم، فأي ظلم للنفس فوق هذا.

وقوله: ﴿مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾؛ فأخبر بكفره بالساعة وبكفره بفناء الدنيا.

﴿وَلَئِن رُدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾؛ فدل على أن صاحبه المؤمن قد أعلمه أن الساعة تقوم وأنه يبعث، فأجابه بأن قال له: ولئن رددت إلى ربي كما أعلمتني أن أبعث ليعطيني في الآخرة خيراً مما أعطاني في الدنيا، لأنه لم يعطني هذا في الدنيا إلا وهو يزيدني إن كان الأمر على هذا في الآخرة.

فقال له صاحبه منكراً له بهذا القول: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾؛ أي: ثم أكملك، فأنكرت أمر البعث حتى شككت فيه، وقد أعلمنا أن الشاك في أمر الله كافر، وأن بعض الظن إثم أي: باطل، وقد قال الله -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[ص: ٢٧].

ثم أعلمه صاحبه أنه موحد لله، وأن كل ما قدر عليه الإنسان من ملك ونعمة فلا قوة له ولا قدرة عليه إلا بالله، فقال: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾؛ فدل خطابه على أن صاحب الجنتين مشرك عابد مع الله غيره.

وفي قوله: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ خمسة أوجه:

((لكنَّ هو الله ربي)) بتشديد النون وفتحها، ويوقف عليها بالألف، ويوصل بغير ألف، ويقرأ: ((لكنا هو الله ربي)) بالألف موصولة، ويقرأ: ((لكنْ هو الله ربي)) بسكون النون، ويجوز -ولا أعلم أحداً قرأ به- ((لكنن هو الله ربي)) بنونين مفتوحتين، ويجوز: ((لكننا هو الله ربي)) بنونين وألف.

فمن قرأ بتشديد النون؛ فالمعنى: لكن أنا هو الله ربي فطرحت الهمزة على النون فتحركت بالفتح واجتمع حرفان من جنس واحد، فأدغمت النون الأولى في الثانية، وحذفت الألف في الوصل لأنها تثبت في الوقف وتحذف في الوصل.

ومن قرأ: ((لكنا)) فأثبت الألف في الوصل كما كان تثبيتها في الوقف فهذا على لغة من قال: أنا قمت فأثبت الألف قال الشاعر[1] [من الوافر]:

أَنا سَيفُ العَشيرَةِ فاعرِفوني حُميداً قَد تَذَرّيتَ السَّناما[2]

قال إسحاق: وألف أنا في كل هذا إثباتها شاذ في الوصل، ولكن من أثبت فعلى الوقف كما أثبت الهاء في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ﴾ و﴿كِتَابِيَهْ﴾.

ومن قرأ: ((لكنْ هو الله ربي))، وهي لكن وحدها ليس معها اسم.

ومن قرأ: ((لكنن لم)) يدغم لأن النونين من كلمتين، وكذلك من قال: ((لكننا)) بنونين وألف، على قياس ((لكن أنا))، لم يدغم لأن النونين من كلمتين، وفي ((أنا)) في الوصل ثلاث لغات أجودها ((أنا قمت))، مثل قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ﴾[النازعات: ٢٤] بغير ألف في اللفظ، ويجوز: ((أنا قمت)) بإثبات الألف، وهو ضعيف جداً، وحكوا أن قمت بإسكان النون، وهو ضعيف أيضاً فأما: ((لكنَّا هو الله ربي)) فهو الجيد بإثبات الألف، أن الهمزة قد حذفت من ((أنا))، فصار إثبات الألف عوضاً من الهمزة.

فهذا جميع ما يحتمله هذا الحرف.

والجيد البالغ ما في مصحف أُبي بن كعب ولم نذكره في هذه القراءات لمخالفته المصحف وهو ((لكن أنا هو الله ربي)) فهذا هو الأصل، وجميع ما قرئ به جيد بالغ، ولا أنكر القراءة بهذا لأن الحذف قد يقع في الكتاب كثيراً في الياءات والهمزات، فيقرأ بالحذف وبالتمام نحو قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾[القمر: ٦]؛ من قرأ ((الداعي)) فمصيب، ومن قرأ ((الداع)) فمصيب، وكذلك من قرأ ((لكنا))، ولكن أنا فهو مصيب، والأجود: اتباع القراء ولزوم الرواية، فإن القراءة سنة، وكلما كثرت الرواية في الحرف وكثرت به القراءة فهو المتبع، وما جاز في العربية ولم يقرأ به قارئ فلا تقرأن به

---

(١) هو: حميد بن ثور الهلالي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢٤/٨)، وفتح القدير (٤٠٩/٣)، وأغلاط العوام (٢١/١)، ولسان العرب (٢٨/١٣)، وتاج العروس (٧٩٦٢/١).

فإن القراءة به بدعة، وكل ما قلت فيه الرواية وضعف عند أهل العربية فهو داخل في الشذوذ، ولا ينبغي أن تقرأ به.

وقوله: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾؛ والجنة: البستان. ومعنى: ﴿وَلَوْلا﴾ هلا، وتأويل الكلام التوبيخ.

﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾؛ ﴿مَا﴾ في موضع رفع؛ المعنى: قلت: الأمر ما شاء الله. ويجوز أن تكون ((ما)) في موضع نصب على معنى الشرط والجزاء، ويكون الجواب مضمراً، ويكون التأويل أي شيء شاء الله كان، ويضمر الجواب كما أضمر جواب ((لو)) في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ﴾[الرعد: ٣١]؛ المعنى: لكان هذا القرآن.

وقوله: ﴿لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾؛ الاختيار النصب بغير تنوين على النفي كما قال لا ريب فيه، ويجوز لا قوة إلا بالله على الرفع بالابتداء، والخبر ((بالله))؛ المعنى: أنه لا يقوى أحد في ديدنه ولا في ملك يمينه إلا بالله، ولا يكون له إلا ما شاء الله.

وقوله: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَل مِنكَ﴾؛ ﴿أَقَل﴾ منصوب، وهو مفعول ثان بترني، و((أنا)) يصلح لشيئين، إن شئت كانت توكيداً للنون والياء، وإن شئت كانت فصلاً، كما تقول: كنت أنت وتقلب الكفين يفعله الناس كثيراً.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾؛ أي: حيطانها قائمة لا سقوف عليها، وقد تهدمت سقوفها فصارت في قرارها والعروش: السقوف، فصارت الحيطان كأنها على السقوف.

وقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ ﴿يَنصُرُونَهُ﴾ محمول على معنى ((فئة))؛ المعنى: ولم يكن له أقوام ينصرونه، ولو كان ينصره لجاز، كما قال: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[آل عمران: ١٣].

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾؛ وما كان هو أيضاً قادراً على نصر نفسه.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ الوَلاَيَةُ لِلَّهِ الحَقِّ﴾؛ وتقرأ ((الوِلاية)) بكسر الواو وفتحها ﴿لِلَّهِ الحَقِّ﴾، وتقرأ ((الحقُّ))؛ المعنى: في مثل تلك الحال بيان الولاية لله. أي: عند ذلك يتبين نصره، وولي الله: يتولى الله إياه. فمن قرأ ((الحقُّ)) بالرفع فهو نعت للولاية، ومن قرأ ((الحقِّ)) فهو بالجر فهو نعت لله -جل وعز-. ويجوز ((الحقَّ))، ولا أعلم أحداً قرأ بها. ونصبه على المصدر في التوكيد، كما تقول: هنالك الحق، أي: أَحَقُّ الحقَّ.

وقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾؛ و((عُقْباً))، ويجوز: ((وخير عُقْبى))، على وزن بشرى، وثواباً وعقباً منصوبان على التمييز.

ويجوز رفع ((أقل))، وقد قرأ بها عيسى بن عمر: ((إن ترني أنا أقل منك مالاً))، على إن ابتداء، وأقلُّ خبر الابتداء، والجملة في موضع المفعول الثاني لترني.

وقوله: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِن جَنَّتِكَ﴾؛ جائز أن يكون أراد في الدنيا، أو في الآخرة.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ وهذا موضع لطيف يحتاج أن يشرح وهو أن الحسبان في اللغة: هو الحساب، قال -تعالى-: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الرحمن: ٥]؛ المعنى: بحساب؛ فالمعنى في هذه الآية: أن يرسل عليها عذاب حسبان، وذلك الحسبان هو حساب ما كسبت يداك.

وقوله: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾؛ الصعيد: الطريق الذي لا نبات فيه، وكذلك الزلق.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾؛ معناه: غائراً، يقال: ماء غور، ومياه غور، وغور مصدر مثل عدل ورضي.

وقوله: ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾؛ أي: يغور فلا تقدر على أثر تطلبه من أجله.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾؛ أي: أحاط الله العذاب بثمره.

﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾؛ تأويله: أنه نجع في النبات حتى خالطه، فأخذ النبات زخرفه.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ والهشيم: النبات الجاف الذي تسقيه الريح.

﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾؛ ويقرأ: ((الريح))، وفي ((تذروه)) لغتان لا يقرأ بهما: ((تُذرِية)) بضم التاء وكسر الراء، و((تَذرية)) بفتح التاء.

أعلم الله -عز وجل- أن الحياة الدنيا زائلة، ودليل ذلك أن ما مضى منها بمنزلة ما لم يكن، وأعلم أن مثلهما هذا المثل.

وقوله: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾؛ أي: على الإنشاء، والإفناء مقتدراً.

فإن قال قائل: ((فالكلام كان الله))، فتأويله أن ما شاهدتم من قدرته ليس بحادث عنده، وأنه كذلك كان لم يزل. هذا مذهب سيبويه، وقال الحسن: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ أي: كان مقتدراً عليه قبل كونه، وقال بعضهم: ((كان)) من الله بمنزلة كائن ويكون. وقول الحسن في هذا حسن جميل ومذهب سيبويه والخليل مذهب النحويين

الحذاق كما وصفنا لأنهم يقولون: إنما خوطبت العرب بلغتها ونزل القرآن بما يعقلونه ويتخاطبون به، والعرب لا تعرف ((كان)) في معنى يكون، إلا أن يدخل على الحرف آلة تنقلها إلى معنى الاستقبال، وكذلك لا يعرف الماضي في معنى الحال.

فهذا شرح ما في القرآن من هذا الباب نحو قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾، وقد فسرناه قبل هذا الموضع.

وقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾؛ ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ هي الصلوات الخمس.

وقيل هي: ((سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)).

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ -والله أعلم- كل عمل صالح يبقي ثوابه، فالصلوات الخمس وتوحيد الله وتعظيمه داخل في الباقيات الصالحات، وكذلك الصدقات والصيام والجهاد وأعمال الخير والبر كلها.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾؛ ((يوم)) منصوب على معنى التلاوة والذكر.

المعنى: واذكر يوم نسير الجبال، ويجوز أن يكون نصبه على ((والباقيات الصالحات خير يوم يسير الجبال))، أي: خير في القيامة من الأعمال التي تبقي آثامها.

وقوله: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ معناه: ظاهرة، وقد سيرت جبالها، واجتثت أشجارها، وذهبت أبنيتها فبقيت ظاهرة، وقد ألقت ما فيها وتخلت.

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾؛ أي: لم نخلف أحداً منهم.

﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً﴾؛ معناه: أنهم كلهم ظاهرون لله، ترى جماعتهم كما يرى كل واحد منهم، لا يحجب واحد واحداً.

وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: بعثناكم.

وجاء في التفسير: أنهم يحشرون عراة غرلاً حفاة، معنى غُرْلا، جمع أَغْرَل وهو الأقلف.

وقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُم مَوْعِداً﴾؛ أي: بل زعمتم أن لن تبعثوا، لأن الله – جل ثناؤه–، وعدهم بالبعث.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ الكِتَابُ﴾؛ معناه: -والله أعلم- وضع كتاب كل امرئ بيمينه أو بشماله.

﴿فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾؛ كل من وقع في هلكة دعا بالويل.

﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾؛ أي: لا تاركاً صغيرة.

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾؛ أي: إنما يعاقبهم فيضع العقوبة موضعها في مجازاة الذنوب. وأجمع أهل اللغة أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه.

وقوله -تعالى-: ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾؛ قوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ دليل على أنه أمر بالسجود مع الملائكة.

وأكثر ما في التفسير: أن إبليس من غير الملائكة وقد ذكره الله -عز وجل- أنه كان من الجن بمنزلة آدم من الإنس، وقد قيل: إن الجن ضرب من الملائكة، كانوا خزان الأرض، وقيل: خزان الجنان.

فإن قال قائل: كيف استثني مع ذكر الملائكة، فقال ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾، فكيف وقع الاستثناء وليس هو من الأول؟

فالجواب في هذا: أنه أمر معهم بالسجود فاستثني من أنه لم يسجد، والدليل على ذلك أنك تقول: أمرت عبدي وإخوتي فأطاعوني إلا عبدي، وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٧٧]، ورب العالمين ليس كمثله شيء، وقد جرى ذكره في الاستثناء، وهو استثناء ليس من الأول. ولا يقدر أحد أن يعرف معنى الكلام غير هذا.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾؛ فيه ثلاثة أوجه، يجوز أن يكون معناه: خرج عن أمر ربه، يقال: فَسَقت الرطبة إذا خرجت عن قشرها، وقال قطرب: يجوز أن يكون معناه: فسق عن رد أمر ربه، ومذهب سيبويه والخليل وهو الحق عندنا أن معنى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أتاه الفسق لما أمر فعصى، فكان سبب فسقه أمر ربه، كما تقول: أطعمه عن جوع وكساه عن عري؛ المعنى: كان سبب فسقه الأمر بالسجود لما كان سبب الإطعام الجوع، وسبب الكسوة العري.

وقوله: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾؛ معناه: أنه بئس ما استبدل به الظالمون من رب العزة -جل وعز-، إبليس وقوله: ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: لم يكونوا موجودين إذ خلقت السماوات والأرض.

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُداً﴾؛ ويقرأ: ((وما كنت متَخذ المضلين)) بفتح التاء؛ المعنى في فتحها: ما كنت يا محمد لتأخذ المضلين أنصاراً، وضم التاء هي القراءة، وعليها المعنى.

يخبر الله -عز وجل- بقدرته وأنه لا يعتضد فيها ولا في نصرته بالمضلين والاعتضاد التقوي وطلب المعونة، يقال: اعتضدت بفلان، معناه: استعنت به.

و((عضداً)) فيه خمسة أوجه وجهان منها كثيران جيدان، وهما ((عَضُد)) بفتح العين وضم الضاد، و((عُضُد)) بضم العين والضاد، ويجوز ((عَضْداً، وعُضْداً))، بتسكين الضاد وضم العين وفتحها. وقد رويت ((عضِد)) بكسر الضاد ويجوز في ((عضِد)) بكسر الضاد ((عَضْداً)).

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾؛ أضافهم إليه على قولهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقاً﴾؛ جعلنا بينهم من العذاب ما يوبقهم، أي: يهلكهم، والموبق: المهلك، يقال: وبِقَ الرجل يَوْبَق، وبَقَا يَبِق، وبَائِق، وفيه لغة أخرى وبِق يَبِق وَبُوقاً، وهو وَابِق، والأول هو وَبِق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَرَأَى المُجْرِمُونَ النَّارَ﴾؛ القراءة ﴿وَرَأَى﴾، ويجوز ((وراء المجرمون)) مثل: وراع، كما قال كثير [من الطويل]:

وَكُلُّ خَليلٍ راءَني فَهوَ قائِلٌ مِن أَجلِكِ هَذا هامَةُ اليومِ أَو غَدِ(١)

قوله: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُوَاقِعُوهَا﴾؛ معناه: أيقنوا. وقد بينا ذلك.

﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾؛ أي: معدلا، قال أبو كبير [من الكامل]:

أَزُهَيرَ هَل عَن شَيبَةٍ مِن مَصرِفِ أَم لا خُلودَ لِباذِلٍ مُتَكَلِّفِ(٢)

---

(١) انظر: مفردات القرآن (٦٠٦/١)، والأغاني (١٤٠/١٥)، ولسان العرب (٦٢٤/١٢).

(٢) انظر: الكشاف (٧١٤/١)، والجمل في النحو (٢٦٥/١)، والمزهر في علوم اللغة (١٣٣/١)، ولسان العرب (٤١/٩)، وتاج العروس (٣٧٦٤/١).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا القُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ أي: من كل مثل يحتاجون إليه، أي: بيناه لهم.

وقوله: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾؛ معناه: كان الكافر، ويدل عليه قوله: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾[الكهف: ٥٦].

فإن قال قائل: وهل يجادل غير الإنسان؟

فالجواب في ذلك: أن أبليس قد جادل، وأن كل ما يعقل من الملائكة والجن يجادل، ولكن الإنسان أكثر هذه الأشياء جدلاً.

وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى﴾؛ موضع ((إذ)) نصب.

المعنى: وما منع الناس من الإيمان ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾؛ المعنى: إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين. وسنة الأولين أنهم عاينوا العذاب، فطلب المشركون أن قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[الأنفال: ٣٢].

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ العَذَابُ قُبُلاً﴾؛ ويقرأ: ((قِبَلا)) بكسر القاف وفتح الباء، ويجوز قبْلاً -بتسكين الباء- ولم يقرأ بها أحد.

وموضع ((أن)) في قوله: ﴿إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ رفع، وتأويل ﴿قُبُلاً﴾ معاينة، وتأويل ((قُبُلا)) جمع: قبيل؛ المعنى: أو يأتيهم العذاب أنواعاً. ويجوز أن يكون تأويل قُبُلاً بمعنى من قُبُل أي: مما يقابلهم.

وقوله: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾؛ هؤلاء قد أخبر الله عنهم أنهم من أهل الطبع فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾؛ ﴿أَكِنَّةً﴾ جمع: كنانة، وهو الغطاء، وهو مثل عنان وأعنة فأعلم الله -عز وجل- أن هؤلاء بأعيانهم لن يهتدوا أبداً.

وقوله: ﴿لَن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾؛ الموئل المنجا، يقال: وأَلَ يَئِل إذا نجا.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ القُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾؛ المعنى: وأهل تلك القرى أهلكناهم، يعنى به من أُهلك من الأمم الخالية، نحو عاد وثمود وقوم لوط ومن ذكر بالهلاك.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَوْعِداً﴾؛ أي: أجلًا، وفيها ثلاثة أوجه ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾.

وتأويل ((المهلك)) على ضربين؛ على المصدر، وعلى الوقت، معنى المصدر لإهلاكهم، معنى الوقت لوقت إهلاكهم وكل فعل ماض على أفعل فالمصدر منه

((مُفْعَل))، أو ((إِفْعَال))، واسم الزمان منه ((مُفْعَل))، وكذلك اسم المكان، تقول: أدخلته مُدخلاً، وهذا مَدخله أي: المكان الذي يدخل زيد منه، وهذا مدخله أي: وقت إدخاله.

ويجوز أن يقرأ ((لَمَهْلِكِهِم)) على أن يكون ((مهلك)) اسماً للزمان على معنى هَلَك يهلِك، وهذا زمن مهلكه مثل جلس يجلس، إذا أردت المكان أو الزمان، فإذا أردت المصدر قلت مهلَك بفتح اللام مثل مجلَس.

يقال: أتت الناقة على مضربها أي: على زمان ضِرابها، وتقول: جَلَس مجلَساً -بفتح اللام- ومثله: هَلَك مَهْلَكا أي: هُلكاً.

وموضع ﴿وَتِلْكَ القُرَى﴾ رفع بالابتداء، والقرى: صفة لها مبينة، و﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ خبر الابتداء. وجائز أن يكون موضع ﴿وَتِلْكَ القُرَى﴾ نصباً ويكون ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ مفسراً للناصب، ويكون المعنى: وأهلكنا تلك القرى أهلكناهم.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾؛ وإن شئت قلت بالإمالة والكسر، وهي لغة تميم وأهل الحجاز، يفتحون ويفخمون

. ويروى في التفسير أن فتاه ((يوشع)) بن نون.

﴿لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَيْنِ﴾؛ معنى ﴿لاَ أَبْرَحُ﴾ لا زال، ولو كان لا أزول كان محالاً، لأنه إذا لم يزل من مكانه لم يقطع أرضاً.

ومعنى ﴿لاَ أَبْرَحُ﴾ في معنى لا زال، موجود في كلام العرب، قال الشاعر:

وأَبرحُ ما أَدامَ الله قَومي بحمْدِ الله منتطِقاً مُجيدا[1]

وإنما سمى فتاه لأنه كان يخدمه، والدليل على ذلك قول موسى: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾؛ وقوله: ﴿حُقُباً﴾؛ الحقب: ثمانون سنة.

وكان مجمع البحرين الموضع الذي وعد فيه موسى بلقاء الخضر -عليه السلام-. وأحب الله -عز وجل- أن يعلم موسى وإن كان قد أوتي التوراة أنه قد أوتي غيره من العلم أيضاً ما ليس عنده، فوعد بلقاء الخضر.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾؛ يعنى به موسى ويوشع.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وكانت فيما روي سمكة مملوحة، وكانت آية لموسى في الموضع

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١١/١١)، وفتح القدير (٣/٤٢٤)، ومفردات القرآن (١/١٤٥٥)، وشرح ابن عقيل (١/٢٦٤)، وشرح كتاب الأمثال (١/٦٤)، والفائق (٢/٣٤٧).

الذي يلقى فيه الخضر.

﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾؛ أحيا الله السمكة حتى سربت في البحر، ((وسرباً)) منصوب على جهتين؛ على المفعول كقولك: اتخذت طريقي في السرب، واتخذت طريقي مكان كذا وكذا، فيكون مفعولاً ثانياً كقولك: اتخذت زيداً وكيلاً. ويجوز أن يكون ((سَرَباً)) مصدراً يدل عليه ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾.

فيكون المعنى: نسيا حوتهما فجعل الحوت طريقه في البحر بين كيف ذلك، فكأنه قال: سَرَب الحوت سَرَباً ومعنى نسيا حوتهما، كان النسيان من يوشع أن تقدمه، وكان النسيان من موسى أن يأمره فيه بشيء.

وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾؛ والصخرة موضع الموعد.

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾؛ وهذا قول يوشع لموسى، وحين قال موسى ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾، وكانت السمكة من عدة غذائهما، فقال: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾؛ كسر الهاء وضمها جائزان في ﴿أَنسَانِيهُ﴾.

﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ بدل من الهاء لاشتمال الذكر على الهاء في المعنى؛ والمعنى: وما أنساني أن أذكره إلا الشيطان.

﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً﴾؛ ﴿عَجَباً﴾ منصوب على وجهين؛ على قول يوشع: واتخذ الحوت سبيله في البحر عجباً، ويجوز أن يكون قال يوشع: اتخذ الحوت سبيله في البحر فأجابه موسى فقال: عجباً، وكأنه قال: أعجب عجباً، ثم قال: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾؛ الأكثر في الوقف ((نبغ)) على اتباع المصحف. ويعد ((نبغ)) آية ويجوز وهو أحسن في العربية ((وذلك ما كنا نبغي)) في الوقف. أما الوصل فالأحسن فيه ((نبغي)) بإثبات الياء، وهذا مذهب أبي عمرو، وهو أقوى في العربية.

ومعنى قول موسى -عليه السلام-: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾، أي: ما كنا نريد، لأنه وعد بالخضر في ذلك المكان الذي تتسرب فيه السمكة.

﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾؛ أي: رجعا في الطريق الذي سلكاه يقصان الأثر قصصاً، والقصص: اتباع الاثر.

﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾؛ يعنى به الخضر، وقيل: إنما سمي ((الخضر)) لأنه كان إذا صلى في مكان اخضر ما حوله.

وفيما فعله موسى وهو من جلة الأنبياء، وقد أوتي التوراة من طلبه العلم والرحلة في ذلك ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم وإن كان قد بلغ نهايته وأحاط بأكثر ما يدركه أهل زمانه، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾؛ و((رَشَداً))، والفعل نحو: ((الرُّشْد والرَّشَد)) كثير في العربية نحو البُخْل والبَخَل والعُجْم والعَجَم، والعُربُ والعَرَب.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾؛ هذا قول الخضر لموسى.

ثم أعلمه العلة في ترك الصبر فقال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾؛ أي: وكيف تصبر على ما ظاهره منكر، والأنبياء والصالحون لا يصبرون على ما يرونه منكراً.

﴿قال ستجداني إن شاء الله صابراً﴾؛ هذا قول موسى للخضر.

وقوله: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾؛ أي: إن أنكرته فلا تعجل بالمسألة إلى أن أبين لك الوجه فيه.

ونصب ﴿خُبْراً﴾ على المصدر لأن معنى ﴿مَا لَمْ تُحِطْ﴾ لم تخبره خبراً، ومثله: قول امرئ القيس [من الطويل]:

وَصِرنا إِلى الحُسنى وَرَقَّ كَلامُنا ... وَرُضتُ فَذَلَّت صَعبَةٌ أَيَّ إِذلالِ

لأن معنى رضت أذللت، وكذلك أحطت به في معنى: خبرته.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾؛ أي: خرقها الخضر.

﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾، و((ليغرق أهلها))، وكان خرقها مما يلي الماء، لأن التفسير جاء بأنه خرقها بأن قلع لوحين مما يلي الماء، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾؛ ومعنى ((إمراً)) شيئاً عظيماً من المنكر.

﴿قَالَ أَلَمْ أقل إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾؛ فلما رأى موسى أن الخرق لم يدخل منه الماء، وأنه يضر من في السفينة: ﴿قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾؛ ومعنى ((ترهقني)) تغشيني، أي: عاملني باليسر لا بالعسر.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ﴾؛ معناه: فقتله الخضر، ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾.

قالوا ((زكية)) بريئة، أي: لم ير ما يوجب، و((نكراً)) أقل من قوله ((إمراً)) لأن تغريق من في السفينة كان عنده أنكر من قتل نفس واحده.

وقد قيل: إن ((نكراً)) ههنا معناه: لقد جئت شَيْئاً أنكر من الأمر الأول.

و ﴿نُكْراً﴾ منصوب على ضربين:

أحدهما: معناه أتيت شَيْئاً نكراً، ويجوز أن يكون معناه: جئت بشيء نكر، فلما حذف الباء أفضى الفعل فنصب.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي: بعد هذه المسألة: ﴿فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾؛ ويقرأ: ((فلا تصحبني)) فإن معناه: فلا تكونن صاحبي، ومن قرأ: ((فلا تصاحبني)) فمعناه: إن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك، ومن قرأ ((تصحبني))، ففيها أربعة أوجه؛ فأجودها: فلا تتابعني على ذلك، يقال: قد أصحب المهر إذا انقاد، فيكون معناه: فلا تتابعني في شيء ألتمسه منك، ويجوز أن يكون معناه: فلا تصحبني أحداً ولا أعرف لهذا معنى لأن موسى لم يكن سأل الخضر أن يصحبه أحداً.

وقوله: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْراً﴾؛ ويقرأ: ((من لدني)) بتخفيف النون، لأن أصل لدن الإسكان، فإذا أضفتها إلى نفسك زدت نوناً ليعلم سكون النون الأولى، تقول: من لدن زيد، فتسكن النون ثم تضيف إلى نفسك، فتقول: من لدني كما تقول: عن زيد وعني.

ومن قال ((من لدني)) لم يجز أن يقول: عني ومني. بحذف النون، لأن ((لدن)) اسم غير متمكن، ((ومن وعن)) حرفان جاء لمعنى، ولدن مع ذلك أثقل من ((من)) و ((عن)) والدليل على أن الأسماء يجوز فيها حذف النون قولهم: قدني في معنى ((حسبي))، ويقولون: ((قد زَيْدٍ)) فيدخلون النون لما ذكرنه إذا أضيفت ويجوز: ((قدي)) بحذف النون لأن ((قد)) اسم غير متمكن، قال الشاعر فجاء باللغتين:

* قدني من نصر الخبيبين قدي *

فأما إسكانهم دال ((لدن)) فأسكنوها كما يقولون في ((عَضُد)): عَضْد، فيحذفون الضمة.

وقوله: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾؛ زعم سيبويه أن معنى مثل هذا التوكيد؛ والمعنى: هذا فراق بيننا أي: هذا فراق اتصالنا، قال: ومثل هذا في الكلام: أخزى الله الكاذب مني ومنك، فذكر بيني وبينك ثانية توكيد، وهذا لا يكون إلا بالواو ولا يجوز: ((هذا فراق بيني فبينك)) لأن معنى الواو الاجتماع، ومعنى الفاء أن يأتي الثاني في إثر الأول.

وقوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾؛ ((مساكين)) لا ينصرف لأنه جمع لا يكون على مثال الواحد، وكذلك كل جمع نحو: مساجد ومفاتيح وطوامير، ولا ينصرف كما ذكرنا. وقد بينا ذلك فيما تقدم في باب ما لا ينصرف.

وقوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾؛ كان يأخذ كل سفينة لا عيب فيها غصباً، فأما من كانت عائبة لم يعرض لها.

و﴿وَرَاءَهُم﴾: خلفهم هذا أجود الوجهين، ويجوز أن يكون: كان رجوعهم في طريقهم عليه ولم يكونوا يعلمون بخبره فأعلم الله الخضر خبره، وقيل: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم﴾ معناه: كان قدامهم. وهذا جائز في العربية، لأنه ما بين يديك وما قدامك إذا توارى عنك فقد صار وراءك، قال الشاعر [1] [من الطويل]:

أَلَيسَ وَرائي إِن تَراخَت مَنِيَّتي ... لُزومُ العَصا تُحنى عَلَيها الأَصابِعُ[2]

وقوله: ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾؛ ﴿يُرْهِقَهُمَا﴾ يحملهما على الرهق وهو الجهل، وقوله ﴿فَخَشِينَا﴾ من كلام الخضر.

وقال قوم: لا يجوز أن يكون فخشينا عن الله، وقالوا: دليلنا على أن فخشينا من كلام الخضر قوله ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً﴾ وهذا جائز أن يكون عن الله -عز وجل-: فخشينا، لأن الخشية من الله -عز وجل- معناه: الكراهة، ومعناه من الآدميين: الخوف.

وقوله: ﴿فَأَرَدْنَا﴾؛ بمعنى أراد الله -جل وعز- لأن لفظ الإخبار عن الله كذا أكثر من أن يحصى.

ومعنى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾؛ أي: أقرب عطفاً وأمس بالقرابة، والرَّحم والرُّحم في اللغة: العطف والرحمة قال الشاعر[3] [من مجزوء الوافر]:

وَكَيفَ بِظُلمِ جارِيَةٍ ... وَمِنها اللينُ وَالرحمُ[4]

---

(١) هو: لبيد بن ربيعة العامري.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٩/٢٩٨)، وروح المعاني (١٦/٩)، وزاد المسير (٤/٣٥٢)، والأغاني (١٥/٣٦٣)، ولسان العرب (١/١٩٣)، وغريب الحديث لابن قتيبة (١/١٦٧).

(٣) هو: الوليد بن زيد.

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١١/٣٦)، وزاد المسير (٥/١٨٠)، والأغاني (٧/١٠٢)، ولسان العرب (١٢/٢٣٠)، وتاج العروس (١/٧٧٢٦).

وقوله: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾، وتقرأ ((أن يُضيفُوهُما)). يقال: ضِفت الرجل نزلت عليه، وأَضَفْته وضَيَّفته، إذا أنزلته وقريته.

وقوله: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾؛ أي: فأقامه الخضر.

ومعنى ((جداراً يريد)) والإرادة إنما تكون في الحيوان المبين، والجدار لا يريد إرادة حقيقية، إلا أن هيئته في التهيؤ للسقوط قد ظهرت كما تظهر أفعال المريدين القاصدين، فوصف بالإرادة إذ الصورتان واحدة، وهذا كثير في الشعر واللغة، قال الراعي يصف الإبل [من الكامل]:

في مَهمَهٍ قَلِقَت بِهِ هاماتُها قَلَقَ الفُؤوسِ إذا أَرَدنَ نُصولا[1]

وقال الآخر:

يريد الرمحُ صدر أبي براءٍ ويرغبُ عن دماءِ بني عقيل[2]

ويقرأ: ((أن ينقض))، و((أن يَنْقَاضَّ))، فينقض يسقط بسرعة، ويَنْقَاضّ: ينشق طولاً. يقال: انقاضت سنة إذا انشقت طولاً.

وقوله: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾؛ ويروى: ((لتخذت)).

وذلك أنهما لما نزلا القرية لم يضيفهما أهلها، ولا أنزلوهما فقال موسى: لو شئت لأخذت أجرة إقامتك هذا الحائط، ويقرأ: ((لتخذت عليه أجراً))، يقال: تَخَذَ في اتخذ يتخذ، وأصل: تَخَذت أخذت وأصل اتخذت ائتخذت.

وقوله: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا﴾؛ قيل: كان الكنز علماً وقيل: كان الكنز مالاً، والمعروف في اللغة أن الكنز إذا أفرد فمعناه: المال المدفون والمدخر، فإذا لم يكن المال قيل: عنده كنز علم وله كنز فهم، والكنز: ههنا بالمال أشبه، لأن العلم لا يكاد يتعلم إلا بمعلم، والمال لا يحتاج أن ينتفع فيه بغيره.

وجائز أن يكون الكنز كان مالاً مكتوباً فيه علم لأنه قد روي أنه كان لوحاً من ذهب عليه مكتوب: ((لا إله إلا الله محمد رسول الله)) فهذا مال وعلم عظيم، وهو توحيد الله

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/٢٦١)، وتفسير القرطبي (١١/٢٣)، والكشاف (١/٧١٩)، وفقه اللغة (١/١٣٠٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/٢٦١)، وتفسير القرطبي (١١/٢٣)، وروح المعاني (١٦/٦)، وزاد المسير (٥/١٧٧)، والكشاف (١/٧١٩)، ومعاني القرآن (٤/٢٧٣)، ولسان العرب (٣/١٨٧).

-عز وجل- وإعلام أن محمداً مبعوث.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِن رَبِّكَ﴾؛ ﴿رَحْمَةً﴾ مصوب على وجهين؛ أحدهما: قوله: ((فأراد ربك))، وأردنا ما ذكرنا رحمة أي: للرحمة، أي: فعلنا ذلك رحمة كما تقول: أنقذتك من الهلكة رحمة بك. ويجوز أن يكون رحمة منصوباً على المصدر، لأن معنى ((﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ رحمهما الله بذلك. وجميع ما ذكر من قوله: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، ومن قوله ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا﴾، معناه: رحمهما الله رحمة.

وقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾؛ يدل على أنه فعله بوحي الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾؛ كانت اليهود سألت عن قصة ذي القرنين على جنس الامتحان.

﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً﴾؛ يقال: إنه سمي ذا القرنين لأنه كانت له ضفيرتان.

ويروى عن علي -عليه السلام- أنه قال سمي ذا القرنين لأنه ضرب على جانب رأسه الأيمن، وجانب رأسه الأيسر، أي: ضرب على قرني رأسه، ويجوز أن يكون على مذهب أهل اللغة أن يكون سمي ذا القرنين لأنه بلغ قطري الدنيا مشرق الشمس ومغربها.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾؛ ويقرأ: ﴿فَأَتَّبَعَ﴾ أي: آتيناه من كل شيء ما يبلغ به التمكن في أقطار الأرض.

﴿سَبَباً﴾ أي: علماً يوصله إلى حيث يريد، كما سخر الله -عز وجل- لسليمان الريح.

ومعنى ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾؛ والله أعلم أي: فاتبع سبباً من الأسباب التي أوتي.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾؛ ويقرأ: ﴿حَامِيَةٍ﴾ بالهمز فمن قرأ ((حمئة)) أراد في عين ذات حمأة، ويقال حمأت البئر إذا أخرجت حماتها، وأحماتها: إذا القيت فيها الحمأة وحَمِئت هي تَحْمَأ فهي حَمِئة إذا صارت فيها الحمأة، ومن قرأ ((حامية)) بغير همز أراد حارة، وقد تكون حارة ذات حمأة.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً﴾؛ أي: عند العين.

وقوله: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾؛ أباحه الله -عز وجل- هذين الحكمين كما أباح محمداً ﷺ الحكم بين أهل الكتاب أو الإعراض عنهم.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً﴾؛ أي: فسوف نعذبه بالقتل وعذاب الله إياه بالنار أنكر من عذاب القتل.

وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى﴾؛ وتقرأ ﴿جَزَاءُ الحُسْنَى﴾؛ المعنى: فله الحسنى جزاء، وجزاء مصدر موضوع في موضوع الحال.

المعنى: فله الحسنى مجزياً بها جزاء، ومن قرأ ﴿جَزَاءُ الحُسْنَى﴾، أضاف جزاء إلى الحسنى، وقد قرئ بهما جميعاً.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾؛ أي: نقول له قولا جميلاً.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾؛ أي: سبباً آخر مما يوصله إلى قطر من أقطار الأرض.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَل لَهُمْ مِن دُونِهَا سِتْراً﴾؛ أي: لم نجعل لهم شيئاً يظلهم من سقف ولا لباس.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ يجوز أن يكون وجدها تطلع على قوم كذلك القبيل الذين كانوا عند مغرب الشمس، وأن حكمهم حكم أولئك.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً﴾؛ أي: سبباً ثالثاً مما يبلغة قطراً من أقطار الأرض.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾، ويقرأ: ﴿بَيْنَ السُّدَّيْنِ﴾؛ وقيل: ما كان مسدوداً خلقة فهو سد، وما كان من عمل الناس فهو سد.

وقوله: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾؛ ويقرأ: ((يُفقهون))، فمعناه: لا يكادون يفهمون.

﴿قَالُوا يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾؛ وتقرأ بالهمز في يأجوج ومأجوج، ويقرأ: بغير همز، وهما اسمان أعجميان لا ينصرفان لأنهما معرفة.

وقال بعض أهل اللغة: من همز كأنه يجعلة من ((أجه الحر))، ومن قوله: ((ملح أجاج)). وأجه الحر: شدته وتوفده. ومن هذا قولهم: ((أججت النار)) ويكون التقدير في ياجوج ((يفعول))، وفي ماجوج ((مفعول))، وجائز أن يكون ترك الهمز على هذا؛ المعنى:، ويجوز أن يكون ((ماجوج)) فاعول، وكذلك ((ياجوج))، وهذا لو كان الاسمان عربيين لكان هذا اشتقاقهما، فأما الأعجمية فلا تشتق من العربية.

وقوله: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾؛ وتقرأ ((خراجاً)). فمن قرأ ((خرجاً))، فالخرج الفيء، والخراج الضريبة، وقيل: الجزية، والخراج عند النحويين الاسم لما يخرج من الفرائض في الأموال، والخرج المصدر.

وقوله -عز وجل-: ﴿عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَداً﴾؛ أي: تجعل بيننا وبين يأجوج ومأجوج.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾؛ ويجوز: ((ما مكنني)) بنونين، أي: الذي مكنني فيه ربي خير لي مما يجعلون لي من الخراج.

فمن قرأ ((مكني)) أدغم النون لاجتماع النونين، ومن قرأ ((مكنني)) بنونين أظهر النونين لأنهما من كلمتين. الأولى من فعل والثانية تدخل مع الاسم المضمر.

وقوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: بعمل تعملونه معي لا بمال.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾؛ والردم في اللغة: أكثر من السد، لأن الردم ما جعل بعضه على بعض يقال: ثوب مردم، إذا كان قد رقع فوق رقعه.

وقوله: ﴿آتُونِي زُبَرَ الحَدِيدِ﴾؛ أي: قطع الحديد، وواحد الزبر زبرة وهي القطعة العظيمة.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾؛ وتقرأ ((الصُدُفَيْنِ والصُدْفَيْنِ))، وهما ناحيتا الجبل.

وقوله: ﴿قَالَ انفُخُوا﴾؛ وهو أن آخذ قطع الحديد العظام وجعل بينهما الحطب والفحم ووضع عليها المنافيخ حتى إذا صارت كالنار، وهو قوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً﴾.

وقوله: ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾؛ المعنى: أعطوني قطراً وهو النحاس.

فصب النحاس المذاب على الحديد الذي قد صار كالزيت فاختلط ولصق بعضه حتى صار جبلا صلداً من حديد ونحاس. ويقال إنه بناحية أرمينية.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾؛ أي: ما قدروا أن يعلو لارتفاعه واملساسه وما استطاعوا أن ينقبوه.

وقوله: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ بغير تاء أصلها: استطاعوا بالتاء، ولكن التاء والطاء من مخرج واحد، فحذفت التاء لاجتماعهما ويخف اللفظ، ومن العرب من يقول: فما استاعوا بغير طاء، ولا تجوز القراءة بها. ومنهم من يقول: فما أسطاعوا بقطع الألف؛ المعنى: فما أطاعوا، فزادوا السين.

قال الخليل وسيبويه: زادوهما عوضاً من ذهاب حركة الواو، لأن الأصل في أطاع: أَطوَع.

فأما من قرأ ((فما اسطاعوا)) -بإدغام السين في الطاء- فلا حسن مخطئ. زعم ذلك النحويون، الخليل ويونس وسيبويه، وجميع من قال بقولهم. وحجتهم في ذلك أن السين ساكنة فإذا أدغمت التاء صارت طاء ساكنة، ولا يجمع بين ساكنين.

ومن قال: اطرح حركة التاء على السين فأقول: ((فما اسطاعوا)) فخطأ أيضاً، لأن سين استفعل لم تحرك قط.

وقوله: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَبِّي﴾؛ أي: هذا التمكين الذي أدركت به السد رحمة من ربي.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقاً﴾؛ وتقرأ ﴿دَكَّاءَ﴾، على فعلاء - يا هذا - والدكاء: والذكاء، كل ما انسبط من الأرض من مرتفع.

يعني أنه إذا كان يوم القيامة، أو في وقت خروج يأجوج ومأجوج صار هذا الجبل دكاً. والدليل على أن هذا الجبل يصير دكاً قوله: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾[الحاقة: ١٤].

وقوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾؛ ومعنى يموجون في الشيء: يخوضون فيه ويكثرون القول.

فجائز أن يكون يعني بـ ((يومئذ)) يوم القيامة، ويكون الدليل على ذلك ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾

ويجوز أن يكون ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: يوم انقضاء أمر السد وقوله ﴿يَمُوجُ﴾، ماجوا متعجبين من السد.

ومعنى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾؛ قال أهل اللغة: الصور جمع صورة. والذي جاء في التفسير: أن الصور قرن ينفخ فيه إسرافيل -والله أعلم-، إلا إن جملته أنه عند ذلك النفخ يكون بعث العباد ونشرهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾؛ تأويل ((عرضنا)) أظهرنا لهم جهنم حتى شاهدوها ورأوها.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾؛ جعل الله -عز وجل- على أبصارهم غشاوة بكفرهم.

﴿وَكَانُوا لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾؛ كانوا لعداوتهم للنبي ﷺ لا يقدرون أن يسمعوا ما يتلى عليهم، كما تقول للكاره لقولك ما تقدر أن تسمع كلامي.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾؛ تأويله: أفحسبوا أن ينفعهم اتخاذهم عبادي أولياء.

وقرئت -وهي جيدة- ((أَفَحَسْبُ الذين كفروا)). تأويله: أفيكفيهم أن يتخذوا العباد أولياء من دون الله.

ثم بين -عز وجل- جزاءهم فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾؛ يقال: لكل ما اتخذ ليمكث فيه: أعتدت لفلان كذا وكذا، أي: اتخذته عتاداً له.

و﴿نُزُلاً﴾ بمعنى منزلاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾؛ منصوب على التمييز لأنه إذ قال: ﴿بِالأَخْسَرِينَ﴾ دل على أنه كان منهم ما خسروه، فبين ذلك الخسران في أي: نوع وقع.

فأعلم -جل وعز- أنه لا ينفع عمل مع الكفر به شيئاً فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ كما قال -تعالى-: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ١].

و((الذين)) يصلح أن يكون جراً ورفعاً، فالجر نعت للأخسرين، والرفع على الاستئناف؛ والمعنى: هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾؛ وتقرأ: ((يَحْسِبون)).

﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾؛ أي: يظنون أنهم بصدهم عن النبي ﷺ أنهم يحسنون صنعاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾؛ اختلف الناس في تفسير الفردوس:

فقال قوم: الفردوس الأودية التي تنبت ضروباً من النبت، قالوا: الفردوس البستان، وقالوا: هو بالرومية منقول إلى لفظ العربية، والفردوس أيضاً - بالسريانية، كذا لفظه فردوس. ولم نجد في أشعار العرب إلا في بيت لحسان بن ثابت [من الطويل]:

لأَنَّ ثَوابَ اللهِ كُلَّ مُوَحِّدِ جِنانٌ مِنَ الفِردَوسِ فيها يُخَلَّدُ[1]

---

(١) انظر: شرح شذور الذهب (٥٢٩/١).

وحقيقته أنه البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين لأنه عند أهل كل لغة كذلك، ولهذا قال حسان بن ثابت: ((جنات من الفردوس))، وقولهم: إنه البستان يحقق هذا.

والجنة أيضاً في اللغة: البستان، إلا أن الجنة التي يدخلها المؤمنون فيها ما يكون في البساتين، ويدل عليه قوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ﴾[الزخرف: ٧١].

وقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ منصوب على الحال.

﴿لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾؛ أي: لا يردون عنها تحولا، يقال: قد حال في مكانه حولا، كما قالوا في المصادر صغر صغراً، وعظم عظماً، وعادني حبها عوداً. وقد قيل: أيضاً: إن الحوال الحيلة، فيكون على هذا المعنى:، لا يحتالون منزلاً غيرها.

وقوله -عز وجل-: ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾؛ منصوب على التمييز، وتقول: لي ملء هذا عسلاً، ومثل هذا ذهباً أي: مثله من الذهب.

وقد فسرنا نصب التمييز فيما سلف من الكتاب.

وقوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ﴾؛ فيها قولان: قال بعضهم معناه: فمن كان يخاف لقاء ربه، ومثله: ﴿ما لكم لا ترجون لله وقاراً﴾[نوح:١٣]، وقالوا: معناه: ما لكم لا تخافون لله عظمة.

وقد قيل: أيضاً فمن كان يرجو صلاح القلب عند ربه، فإذا رجاه خاف أيضاً عذاب ربه.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾؛ وتجوز ((فلِيعمل)) بكسر اللام، وهو الأصل، ولكنه يثقل في اللفظ، ولا يكاد يقرأ به، ولو ابتدئ بغير الفاء لكانت اللام مكسورة. تقول: لِيعمل زيد بخير، فلما خالطتها الفاء، وكان بعد اللام الياء ثقلت الكسرة مع الياء، وهي وحدها ثقيلة، ألا تراهم يقولون في ((فَخِذ: فَخْذ)).

* * *

سورة مريم[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقوله -عز وجل-: ﴿كهيعص﴾.

فيها في القراءة ثلاثة أوجه:

فتح الهاء والياء وكسرهما. ويقرأ الحسن بضم الهاء ((كهيعص))، وهي أقل اللغات. فأما الفتح فهو الأصل. تقول: ((ها. با. تا)) في حروف الهجاء، ومن العرب من يقول: ((هِا. يِا)) بالكسر. ومنهم من ينحو نحو الضم فيقول: ((هُا. يُا)) الضم. وحكى الخليل وسيبويه أن من العرب من يقول في الصلاة: الصلوة، فينحو نحو الضم، فأما من روي ضم الهاء مع الياء فشاذ، لأن إجماع الرواة عن الحسن ضم الهاء وحدها، وفي الرواية ضم الياء قليل عنه.

واختلف في التفسير ﴿كهيعص﴾ فقال أكثر أهل اللغة إنها حروف التهجي تدل على الابتداء بالسورة نحو ((الم، والر)).

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة مريم من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف التاسعة عشرة. عدد آياتها ثمان وتسعون. جاءت تسميتها مريم تخليدًا لتلك المعجزة الباهرة، في خلق إنسان بلا أب، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى -عليه السلام-.

غرض هذه السورة الكريمة تقرير التوحيد، وتنزيه الله جلّ وعلا عما لا يليق به، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، ومحور هذه السورة يدور حول التوحيد والإيمان بوجود الله ووحدانيته، وبيان منهج المهتدين، ومنهج الضالين.

عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئة بقصة نبي الله زكريا، ولكن الله قادر على كل شيء، يسمع دعاء الداعي إذا دعاه. وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب، تلك هي قصة مريم العذراء وإنجابها لطفل من غير أب، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة بميلاد عيسى من أم بلا أب، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلة أمام الأبصار، بعظمة الواحد القهّار. وتحدثت كذلك عن قصة إبراهيم مع أبيه ثم ذكرت بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام: إسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، ونوحًا، والهدف من ذلك إثبات وحدة الرسالة، وأن الرسل جميعًا جاؤوا لدعوة الناس إلى توحيد الله، ونبذ الشرك والأوثان. وتحدثت عن بعض مشاهد القيامة، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب. وختمت السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد، والشريك، والنظير، وردت على ضلالات المشركين بأنصع بيان، وأقوى برهان.

وقيل: إن تأويلها أنها حروف يدل كل واحد منها على صفة من صفات الله -عز وجل- فكاف يدل على كريم، و((ها)) يدل على هاد، و((يا)) من حكيم، و((عين)) يدل على عالم، و ((صاد)) يدل على صادق. وهذا أحسن ما جاء في هذه الحروف، وقد استقصينا ذلك في أول سورة البقرة.

والعين قالوا يدل على ((عليم)). وروي أن ﴿كهيعص﴾ اسم من اسماء الله -تعالى-. وروي أن علياً -عليه السلام- أقسم بكهيعص، أو قال: ((يا كهيعص)). والدعاء لا يدل على أنه اسم واحد، لأن الداعي إذا علم أن الدعاء بهذه الحروف يدل على صفات الله -جل وعز- فدعا بها. فكأنه قال: يا كافي يا هادي يا عالم يا صادق، فكأنه دعا بكهيعص لذكرها في القرآن وهو يدل على هذه الصفات، فإذا أقسم فقال: كهيعص، فكأنه قال: والكافي والهادي والعالم والحكيم والصادق.

وأسكنت هذه الحروف لأنها حروف تهيج النية فيها الوقف.

﴿ذِكْرُ رَحْمةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾؛ ﴿ذِكْرُ﴾ مرتفع بالمضمر؛ المعنى: هذا الذي نتلوه عليك ذكر رحمة ربك عبده بالرحمة، لأن ذكر الرحمن إياه لا يكون إلا بالله -عز وجل-.

والمعنى: ذكر ربك عبده بالرحمة. وزكريا: يقرأ على وجهين، بالقصر والمد، فأعلم الله -جل وعز- على لسان نبيه -عليه السلام- وصية زكريا ويحيى ليعلم أهل الكتاب أن محمداً - -عليه السلام- قد أوحي إليه، وأنزل عليه ذكر من مضى من الأنبياء وأنهم يجدون ذلك في كتبهم على ما ذكر ﷺ وهو لم يتل كتاباً ولا خطه بيمينه، وأنه لم يعلم ذلك إلا من قبل الله -تعالى- وكان إخباره بهذا وما أشبهه على هذه الصفة دليلاً على نبوته ﷺ.

وقال بعض أهل اللغة: إن قوله ﴿ذِكْرُ رَحْمةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ يرتفع بـ ﴿كهيعص﴾ وهذا محال لأن ((كهيعص)) ليس هو فيما أنبأنا الله -عز وجل- به عن زكريا، وقد بين في السورة ما فعله به وبشره به. ولم يجئ ولا شيء منه، وقد أجمع القائل لهذا القول وغيره أن رفعه بالإضمار ((هو)) الوجه.

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً﴾؛ دعا الله -عز وجل- سراً، وبين ما الذي سأل الله -عز وجل-، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العَظْمُ مِنِّي﴾؛ ومعنى ﴿وَهَنَ﴾ ضعف.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾؛ قيل: إن كان قد أتت في ذلك الوقت خمس وستون، وقيل: ستون سنة، وقيل: خمس وسبعون سنة، و((شيباً)) منصوب على التمييز.

المعنى: اشتعل الراس من الشيب، يقال: للشيب إذا كثر جداً: قد اشتعل رأس فلان.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً﴾؛ أي: كنت مستجاب الدعوة.

ويجوز أن يكون أراد: لم أكن بدعائك رب شقياً أي: من دعاك مخلصاً فقد وحدك وعبدك، فلم أكن بعبادتك شقياً.

وقوله: -عز وجل-: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ المَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾؛ بإسكان الياء: ﴿مِن وَرَائِي﴾ معناه: من بعدي، الموالي: واحدهم مولي، وهم بنو العم وعصبة الرجل، ومعناه: الذين يلونه في النسب كما أن معنى القرابة الذين يقربون منه في النسب.

وقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَدُنكَ وَلِياً﴾؛ أي: قد بلغت هذه السن وامرأتي عاقر، والعاقر من النساء: التي بها علة تمنع الولد فكذلك العاقر من الرجال، فليس يكون لي ولد إلا ((أبا)) فهبه لي، فإنك على كل شيء قدير.

وقوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾؛ ويقرأ: بالجزم ((يرثني ويرثْ من آل يعقوب)) على جواب الأمر ومن قرأ ((يرثني ويرثُ)) فعلى الولي، وقيل: يرثني مالي ويرث آل يعقوب النبوة.

وقال قوم لا يجوز أن يقول زكريا: إنه يخاف أن يورث المال لأن أمر الأنبياء والصالحين أنهم لا يخافون أن يرثهم أقرباؤهم ما جعله الله لهم.

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: ((إنا معاشر الأنبياء لانورث ما تركناه فهو صدقة)). فقالوا معناه: يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة.

وقوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً﴾ وقوله أيضاً ((ولياً)) يدل على أنه سأل ولداً ديناً، لأن غير الدين لا يكون ولياً للنبي -عليه السلام-.

وقوله: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾؛ ونَبْشُرك.

﴿بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَهُ مِن قَبْلُ سَمِياً﴾؛ أي: لم يسم أحد قبله بيحيى، كذا قال ابن عباس، وقيل: سمي بيحيى لأنه حيي بالعلم وبالحكمة التي أوتيها، وقيل: لم نجعل له من قبل سمياً، أي: نظيراً ومثلاً. كل ذلك قد جاء في التفسير.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً﴾؛ وتقرأ ((عِتياً))، وقد رويت: ((عسياً)) -بالسين- ولكن لا يجوز في القراءة لأنه بخلاف المصحف.

وكل شيء انتهى فقد عَتَا يَعْتُو عِتياً وعُتُواً وعُسُواً وعَسياً.

فأحب أن يعلم من أي جهة يكون له ولد، ومثل امرأته لا تلد ومثله لا يولد له.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾؛ معناه: -والله أعلم - الأمر كما قيل لك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾؛ معناه: ولم تك شَيْئاً موجوداً، أي: أوجدتك بعد أن لم تكن. أي: فخلق الولد لك كخلق آدم -عليه السلام-، وخلقك من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم.

﴿قال رب اجعل لي آية﴾؛ أي: علامة أعلم بها وقوع ما بشرت به.

﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِياً﴾؛ أي: تمنع الكلام وأنت سوي، فتعلم بذلك أن الله -جل وعلا- قد وهب لك الولد. و((سوياً)) منصوب على الحال.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِياً﴾؛ قيل: معنى ((أوحى إليهم)) أومأ إليهم ورمز.

وقيل: كتب لهم في الأرض بيده ((وبكرة وعشياً)) منصوبان على الوقت.

وقوله: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾؛ المعنى: فوهبنا له يحيى وقلنا له ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾، أي: بجد وعون من الله -جل وعز-.

﴿وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِياً * وَحَنَاناً مِن لَدُنَّا وَزَكَاةً﴾؛ أي: وآتيناه حناناً والحنان العطف والرحمة. قال الشاعر[1] [من الطويل]:

فقالت حَنانٌ ما أَتى بك هَهُنا؟ أَذُو نَسَبٍ أَمْ أَنْتَ بالحَيِّ عارِفُ[2]

أي: أمرنا حنان، أو عطف ورحمة.

المعنى: وآتيناه حناناً من لدنا وزكاة، والزكاة: التطهير.

﴿وَبَراً بِوَالِدَيْهِ﴾؛ أي: وجعلناه براً بوالديه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِياً﴾؛ ﴿انتَبَذَتْ﴾ تنحت. ويقال: نبذت الشيء إذا رميت به. ﴿مَكَاناً شَرْقِياً﴾ أي: نحو المشرق.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً﴾؛ قيل: إنها قصدت نحو مطلع الشمس، لأنها أرادت الغسل من الحيض.

---

(١) أنشده سيبويه.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٨٣/١١)، والجمل في النحو (١٧٤/١)، ولسان العرب (١٢٨/١٣).

﴿فَأَرْسَلْنَا إليها رُوحَنَا﴾؛ يعني به جبريل ﷺ.وقيل: الروح عيسى، لأنه روح من الله - عز وجل- قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾[النساء: ١٧١]؛ وقيل: الروح دخل من فيّ مريم.

ويدل على أن جبريل -عليه السلام- هو الروح قوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِياً * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياً * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِياً﴾؛ أكثر القراءة ﴿لأَهَبَ﴾، ورويت ((ليهب لك))، وكذلك قرأ أبو عمرو: ((لنهب لك غلاماً زكياً)).

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِياً﴾؛ تأويله: إني أعوذ بالله منك، فإن كنت تقياً فستتعظ بتعوذي بالله منك.

أما من قرأ ((ليهب بالياء))؛ فالمعنى: أرسلني ليهب، ومن قرأ لأهب فهو على الحكاية وحمل الحكاية على المعنى: على تأويل: قال أرسلت اليك لأهب لك.

وقوله: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِياً﴾؛ أي: لم يمسسني بشر على جهة تزويج، ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِياً﴾، أي: ولا قربت على غير حد التزويج.

﴿قَالَ كَذَلِكِ﴾؛ أي: الأمر على ما وصفت لك.

﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِياً﴾؛ أي: وكان أمراً سابقاً في علم الله -عز وجل- أن يقع.

وقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِياً﴾؛ ((انتبذت به)) تباعدت به. و﴿قَصِياً﴾ وقاصياً في معنى واحد، معناه: البعد.

وقوله: ﴿فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾؛ معناه: ألجأها، وهو من جئت وأجاءني غيري، وفي معناه: أشاءني غيري، وفي أمثال العرب: شر أجاءك إلى مخة عرقوب وبعضهم يقول: أشاءك. قال زهير [من الوافر]:

وَجارٍ سارَ مُعتَمِداً إِلَيكُم أَجاءَتهُ المَخافَةُ وَالرَّجاءُ[1]

واختلف في حمل عيسى -عليه السلام-، فقيل: إنها حملت به وولدته في وقتها، وقيل: إنه ولد في ثمانية أشهر، وتلك آية له لأنه لا يعرف أنه يعيش مولود ولد لثمانية أشهر غيره.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٢٣/٨)، وتفسير القرطبي (٨٧/١١)، وروح المعاني (٨١/١٦)، ومعاني القرآن (٣٢٠/٤)، ولسان العرب (٥١/١).

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ﴾ - يدل على مكث الحمل والله اعلم.

وقوله -جل وعز-: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾؛ معناه: إني لو خيرت قبل هذه الحال بين الموت أو الدفع إلى هذه الحال لاخترت الموت، وقد علمت -رضوان الله عليها- أنها لم يكن ينفعها أو تتمنى الموت قبل تلك الحال.

وقوله: ﴿وَكُنتُ نَسْياً منسِياً﴾؛ ويقرأ: ﴿نَسْياً﴾ -بفتح النون- وقيل: معنى ((نسياً)) حيضة ملقاة، وقيل: ﴿نِسْياً﴾ بالكسر في معنى منسية لا أعرف، والنسي في الكلام العرب الشيء المطروح لا يؤبه له، قال الشنفرى [من الطويل]:

كَأَنَّ لَها في الأَرضِ نِسياً تَقُصُّهُ عَلى أَمِّها وَإِن تُكَلِّمكَ تبلَّتِ[1]

وقوله: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾؛ وتقرأ ﴿مَن تَحْتِهَا﴾، وهي أكثر بالكسر في القراءة، ومن قرأ ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ عني عيسى -عليه السلام-.

ويكون المعنى: أي مناداة عيسى لها أن يبين الله لها الآية في عيسى، وأنه أعلمها أن الله -عز وجل- سيجعل لها في النخلة آية. ومن قرأ ((مَن تحتها)) - عنى به الملك.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِياً﴾؛ روي عن الحسن أنه قال -يعني عيسى- قال: كان والله سريا من الرجال، فعرف الحسن أن من العرب من يسمي النهر سرياً فرجع إلى هذا القول. ولا اختلاف بين أهل اللغة أن السري النهر بمنزلة الجدول، قال لبيد [من الكامل]

فَتَوَسَّطا عُرضَ السَرِيِّ وَصَدَّعا مَسجورَةً مُتَجاوِراً قُلامُها[2]

وقال ابن عباس: ((السري)) النهر وأنشد:

سَلْمٌ ترى الدَّالِيَّ منه أَزْوَرا إذا يَعُبُّ في السَّرِيِّ هَرْهَرا[3]

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِياً﴾؛ يروى أنه كان جذعاً من نخلة لا رأس عليه، فجعل الله -جل وعز- له رأساً وأنبت فيه رطباً، كان

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٢٣/٨)، ومفردات القرآن (١٤٣٩/١)، وأدب الكاتب (٣٨٢/١)، والأغاني (١٠/ ١٩٢)، ولسان العرب (١١/٢)، وتاج العروس (١٠٥٥/١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣٢٦/٨)، وتفسير القرطبي (٨٩/١١)، والكشاف (٧٢٩/١)، ولسان العرب (٧/ ١٦٥)، وتاج العروس (٤٦٥٥/١).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٨٩/١١)، والدر المنثور (٥٠٣/٥)، ولسان العرب (٢٦٠/٥)، وتاج العروس (١/ ٣٦٣٥).

ذلك في الشتاء.

فأما نصب ﴿رُطَباً﴾ فقال محمد بن يزيد هو مفعول به؛ المعنى: وهزي اليك بجذع النخلة رطباً تساقط عليك.

ويجوز: تَسَاقط عليك، ويجوز: يُسَاقِطْ عليك، ويجوز نُسَاقط عليك. بالنون ويجوز يَسَّاقطْ بالياء، ويجوز يَتَساقط عليك. ويجوز تُسَاقطُ عليك ونِسَاقطُ. ويساقطُ بالرفع ويروى عن البراء بن عازب.

فمن قرأ: يَسَّاقطْ عليك؛ فالمعنى: يتساقط فأدغمت التاء في السين ومن قرأ تُسَاقطُ؛ فالمعنى: تتساقط أيضاً. فأدغمت الياء في السين وأنث لأن لفظ النخلة مؤنث. ومن قرأ: تساقط بالتاء والتخفيف فإنه حذف التاء من تتساقط لاجتماع التاءين، ومن قرأ: يساقط إلى معنى يساقط الجذع عليك. ومن قرأ: نساقط بالنون؛ فالمعنى: أنا نحن نساقط عليك فنجعل لك بذلك آية.

والنحويون يقولون: إن ﴿رُطَباً﴾ منصوب على التمييز، إذا قلت يساقط أو يتساقط؛ فالمعنى: يتساقط الجذع رطباً، ومن قرأ تساقط؛ فالمعنى: تتساقط النخلة رطباً.

وقوله: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾؛ أي: فكلي من الرطب، واشربي من السري، وقري عيناً بعيسى. يقال: قررت به عيناً أقَر بفتح القاف في المستقبل. وقَررت في المكان أُقر -بكسر القاف- في المستقبل. وعيناً منصوب على التمييز.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً﴾، بغير ألف في ﴿تَرَيِنَّ﴾ ويجوز ((ترأين)) بألف ولم يقرأ بالألف أحد وهي جيدة بالغة لكنها لا تجوز في القراءة. وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾[طه: ٤٦] ويجوز وأرأى بالألف، ولا تقرأ بها، لأن القراءة سنة لا تخالف. والأجود: ((أرى))، وكذلك ﴿تَرَيِنَّ﴾ الأجود بغير همز، والتاء علامة التأنيث، والأصل ترأين، والياء حركت لالتقاء الساكنين. والنون الأولى من النون الشديدة. والياء. وكذلك تقول للمرأة: اخشين زيداً.

﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾؛ معنى ﴿صَوْماً﴾ صمتاً. يقال: نذرت النذر أَنذره وأُنذره، ونذرت بالقوم أنذر إذا علمت بهم فاستعددت لهم.

وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِياً﴾؛ أي: شَيْئاً عظيماً، ويقال فلان يفري الفرى إذا كان يعمل عملاً يبالغ فيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِياً﴾؛ اختلف في التفسير في: ((أخت هارون)) في هذا الموضع.

روينا في التفسير أن أهل الكتاب قالوا: كيف تقولون أنتم: مريم أخت هارون وبينهما ستمائة سنة، فقيل ذلك لرسول الله ﷺ فقال: ((إنهم كانوا يسمون بأسماء الأنبياء والصالحين))، أي: فكان أخو مريم يسمى هارون.

وقيل: إنهم عنوا بأخت هارون في الصلاح والدين.

ويروى أن هارون هذا كان رجلاً من قومها صالحاً، وأنه حضر جنازته أربعون ألفاً يسمى كل واحد منهم هارون.

والذي في هذا عن النبي ﷺ بين.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾؛ أي: لما خاطبوها أشارت إليه، بأن جعلوا الكلام معه، ودل على أنها أشارت إليه في الكلام قولهم ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِياً﴾؛ وفي هذا ثلاثة أوجه:

قال أبو عبيدة: إن معنى ((كان)) اللغو؛ المعنى: كيف نكلم من في المهد صبياً، لأن كل رجل قد كان في المهد صبياً، لكن المعنى: كيف نكلم من في المهد صبياً لا يفهم مثله، ولا ينطق لسانه بالكلم.

وقال قوم: إن ((كان)) في معنى وقع وحدث؛ المعنى: على قول هؤلاء: كيف نكلم صبياً قد خلق في المهد.

وأجود الأقوال أن يكون ((من)) في معنى الشرط والجزاء فيكون المعنى: من يكن في المهد صبياً - ويكون ((صبياً)) حالاً فكيف نكلمه. كما تقول: من كان لا يسمع ولا يعقل فكيف أخاطبه.

وروي أن عيسى -عليه السلام- لما أومأت إليه اتكأ على يساره وأشار بسبابته فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً﴾، أي: معلماً للخير.

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَياً﴾؛ ومعنى الزكاة ههنا: الطهارة ما دمت حياً. ((دُمت، ودِمت)) جميعاً.

﴿وَبَراً بِوَالِدَتِي﴾؛ ﴿وَبَراً﴾ عطف على ﴿مُبَارَكاً﴾؛ المعنى: وجعلني مباركاً وبراً بوالدتي.

﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وَلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَياً﴾؛ ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ﴾ فيه أوجه، فالسلام مصدر سَلَّمت سَلاماً، ومعناه: عموم العافية والسلامة، والسلام جمع سَلاَمة، والسلام: اسم من أسماء الله -جل وعز-، وسلام: مما ابتدئ به في النكرة، لأنه اسم يكثر استعماله. وتقول سلامٌ عليك والسلام عليك. وأسماء الأجناس يبتدأ بها، لأن فائدة نكرتها قريب من فائدة معرفتها. تقول: لبيك وخيرٌ بين يديك، وإن شئت قلت: والخير بين يديك، وتقول: السلام عليك أيها النبي، وسلامٌ عليك أيها النبي، إلا أنه لما جرى ذكر ((سلام)) قبل هذا الموضع بغير ألف ولام كان الأحسن أن يرد ثانية بالألف واللام، تقول: سلامٌ عليك أيها النبي، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وهذا قسم حسن، وإن شئت قلت سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: ذلك الذي قال ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِياً﴾ هو عيسى ابن مريم لا ما يقول النصارى من أنه ابن الله وأنه إله -جل الله وعز-.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَوْلُ الحَقِّ﴾؛ بالرفع ويجوز ﴿قَوْلَ الحَقِّ﴾ بالنصب، فمن رفع؛ فالمعنى: هو قول الحق ومن نصب؛ فالمعنى: أقول قول الحق.

﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكون.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾؛ ﴿مِن وَلَدٍ﴾ في موضع نصب؛ والمعنى: أن يتخذ ولداً، و((من)) مؤكدة. تدل على الواحد والجماعة لأن للقائل أن يقول: ما اتخذت فرساً يريد اتخذت أكثر من ذلك، وله أن يقول: ما اتخذت فرسين ولا أكثر يريد اتخذت فرساً واحداً، فإذا قال ما اتخذت من فرس فقد دل على نفي الواحد والجميع.

﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ معناه: تنزيهاً له من السوء.

وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ يعنى به يوم القيامة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾؛ المعنى: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة لأنهم شاهدوا من البعث وأمر الله -عز وجل- ما يسمع ويبصر بغير إعمال فكر وتروية.

وما يدعون إليه من طاعة الله - جل جلاله - في الدنيا يحتاجون فيه إلى فكر ونظر فضلوا عن ذلك في الدنيا وآثروا اللهو على الهدى، فقال الله -تعالى-: ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ اليَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ ﴿يَوْمَ الحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة.

روي في التفسير: أنه إذا كان يوم القيامة واستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار أتي بالموت في صورة كبش أملح فيعرض على أهل النار فيشرئبون إليه. فيقال: أتعرفون هذا، فيقولون: نعم، فيقال: هذا الموت، فيذبح وينادي بأهل النار، خلود لا موت بعده، وكذلك ينادي بأهل الجنة خلود لا موت بعده.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾؛ أي: هم في الدنيا في غفلة.

﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِياً﴾؛ أي: اذكر في الكتاب الذي أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخبره، الصديق: اسم للمبالغة في الصدق. ويقال لكل من صدق بتوحيد الله وأنبيائه وعمل بما يصدق به صديق، ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ﴾؛ الوقف عليه: ((يا أبه)) بالهاء، والعرب تقول في النداء يا أبه، ويا أمه ولا تقول: قال أبتي كذا ولا قالت أمتي كذا، وزعم الخليل وسيبويه أنه بمنزلة قولهم يا عمه ويا خاله، وأن أبه للمذكر والمؤنث، وكأنك تقول للمذكر أبه وللمؤنث. والدليل على أن للأم حظاً في الأبوة أنه يقال: أبوان، قال الله -عز وجل-: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾[النساء: ١١]؛ وزعم أنه بمنزلة قولهم: رجل ربعة، وغلام يفعة. وأن الهاء في ((أبه)) عوض من ياء الإضافة من: يا أبي ومن يا أمي ولم يقل يا أبتي ولا يا أمتي، ولذلك لم تقع الهاء في غير النداء، لأن حذف الياء يقع في النداء كثيراً، تقول: يا أب لا تفعل، ولا تقل: قال أب كذا وكذا. تريد قال أبي.

والمؤنث قد يوصف بالمذكر كقولهم: امرأة طالق وطاهر، ويقال ثلاثة أنفس، والنفس أنثى سمي بها المذكر وهذا تفسير مستقصى وقريب.

﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾؛ فمن فتح حذف الألف التي أبدلت من ياء الإضافة أراد ((يا أبتا)) فالألف بدل من ياء الإضافة إلا أن الواجب حذفها، إذ كانت بدلاً من ياء تحذف.

وقوله: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴾؛ يعني الصنم.

وقوله: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ يدل أنه كان قد أتاه الوحي.

ومعنى: ﴿صِرَاطاً سَوِياً﴾؛ أي: طريقاً مستقيماً.

وقوله -جل وعز-: ﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِياً﴾؛ معنى عبادة الشيطان -والله أعلم- طاعته فيما يسول من الكفر والمعاصي.

وقوله: ﴿لأَرْجُمَنَّكَ﴾؛ معناه: لأشتمنك، يقال: فلان يرمي فلاناً ويرجم فلاناً معناه: يشتمه، وكذلك قوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾[النور: ٤] معناه: يشتمونهن، وجائز أن يكون ((لأرجمنك)) لأقتلنك رجماً، والذي عليه التفسير أن الرجم ههنا الشتم.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِياً﴾؛ معناه: لطيفاً، يقال: قد تخفى فلان بفلان، وحفي فلان بفلان حفوه إذا بره وألطفه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِياً﴾؛ أي: أبقينا لهم ثناء حسناً، وكذلك قوله: ﴿وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾[الشعراء: ٨٤].

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً﴾؛ و((مخلِصاً)) يقرآن جميعاً.

والمخلَص -بفتح اللام-: الذي أخلصة الله -جل وعز-، أي: جعله مختاراً خالصاً من الدنس. والمخلِص بكسر اللام الذي وحد الله -عز وجل- وجعل نفسه خالصة في طاعة الله غير دنسة.

وقوله: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِياً﴾؛ معناه: مناجياً.

وجاء في التفسير: أن الله -عز وجل- قربه حتى سمع صريف القلم الذي كتبت به التوراة، ويجوز -والله أعلم- أن يكون مثل: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾[النساء: ١٦٤] أي: قربه في المنزلة حتى سمع مناجاة الله -عز وجل- وهي كلام الله.

وقوله عزو جل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِياً﴾؛ هارون لا ينصرف في المعرفة لأنه اسم أعجمي وهو معرفة.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ﴾؛ أهله جميع أمته، ومن كانت بينه وبينه قرابة أو من لم تكن وكذلك أهل كل نبي أمته.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِياً﴾؛ أصله: مرضواً، وهو جائز في اللغة غير جائز في القرآن لأنه مخالف للمصحف.

والخليل وسيبويه وجميع البصريين يقولون: فلان مرضو ومرضي وأرض مسنو ومسنية إذا سقيت بالسواني أو بالمطر، والأصل الواو إلا أنها قلبت عند الخليل لأنها

طرف قبلها واو ساكنة ليس بحاجز حصين، وكأنها مفعُل بضم العين ومفعُل من أدوات الواو يقلب إلى مفعُل، لأن الواو لا تكون طرفاً وقبلها متحرك في الأسماء.

وأما غير سيبويه والبصريين فلهم فيه قولان: قال بعضهم: لما كان الفعل منه: ((رضيت)) فانتقل من الواو إلى الياء، صار مرضياً. وقيل عن بعض العرب يقول في تثنية رضي رِضيّان ورِضَوان، فمن قال: رِضيان. لم يكن من قوله إلا مرضيّ، ومن قال رِضَوَان في التثنية جاز أن يقول فلان مرضو ومرضي.

وقوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً﴾؛ جاء في التفسير أيضاً: أنه رفع إلى السماء الرابعة.

وجاء في التفسير أيضاً: أنه سأل ملك الموت حتى سأل الله -جل وعز- أن يرفعه فأدخل النار ثم أخرج فأدخل الجنة فقيل له في الخروج فقال: قد قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾[مريم: ٧١]، وقال في أهل الجنة: ﴿وَمَا هُم مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[الحجر: ٤٨] فأقرهم الله -عز وجل- في الجنة.

وهذا الحجاج إنما هو في القرآن - والله اعلم.

وجائز أن يكون قد أعلم الله -عز وجل- إدريس ورود الخلق النار وأنهم مخلدون في الجنان قبل إنزاله القرآن، وجاء القرآن موافقاً ما علم إدريس.

وجاء في التفسير أنه رفع كما رفع عيسى.

وجائز أن يكون -والله أعلم- قوله: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً..﴾ أي: في النبوة والعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِياً﴾؛ قد بين الله سبحانه أن الأنبياء كانوا إذا سمعوا بآيات الله -عز وجل- سجدوا وبكوا من خشية الله، وبكياً: جمع باك مثل شاهد وشهود وقاعد وقعود، وسجداً: حال مقدرة.

المعنى: خروا مقدرين السجود لأن الإنسان في حال خروره لا يكون ساجداً.

وسجداً: منصوب على الحال. ومن قال: ((بكياً)) ههنا مصدر فقد أخطأ لأن ﴿سُجَّداً﴾ جمع ساجد ﴿وَبُكِياً﴾ عطف عليه، ويقال: بَكَى بُكاء وبُكياً.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ﴾؛ يقال: في الرداءة ((خلْف)) بإسكان اللام، تقول: خَلْف سوء، وفي الصلاح: خَلَف صدق، بفتح اللام، وقد

يقال: في الرداءة أيضاً: خَلَف -بفتح اللام- وفي الصلاح بإسكان اللام، والأجود القول الأول.

﴿أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾؛ جاء في التفسير: صلوها في غير وقتها.

وقيل: أضاعوها وتركوها البتة وهذا هو الأشبه، لأنه يدل على أنه يعنى به الكفار. ودليل ذلك قوله: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ﴾.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَياً﴾؛ أي: فسوف يلقون مجازاة الغي كما قال -عز وجل-: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾[الفرقان: ٦٨] أي: مجازاة الآثام.

وجاء في التفسير: أن ((غياً)) واد في جهنم، وقيل: نهر في جهنم، وهذا جائز أن يكون نهراً أعد للغاوين فسمي غياً.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ﴾؛ ((من)) في موضع نصب أي: فسوف يلقون العذاب إلا التائبين. وجائز أن يكون نصباً استثناءً من غير الأول، ويكون المعنى: لكن من تاب وآمن.

﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ﴾؛ ويقرأ: ((يُدْخَلون الجنة)).

وقوله -تعالى-: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾؛ يجوز الرفع والنصب، والرفع على معنى هي جنات عدن، والنصب على معنى يدخلون في جنات عدن. وعدن في معنى إقامة، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِياً﴾؛ مأتي مفعول من الإتيان، لأن كل ما وصل إليك فقد وصلت إليه وكل ما آتاك فقد أتيته، يقال: وصلت إلى خير فلان ووصل إلي خير فلان وأتيت خير فلان وأتاني خير فلان. فهذا على معنى أتيت خير فلان.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاماً﴾؛ اللغو: ما يلغي من الكلام ويؤثم فيه، ﴿سَلاماً﴾ اسم جامع للخير متضمن للسلامة؛ فالمعنى: أن أهل الجنة لا يسمعون إلا ما يسلمهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِياً﴾؛ قيل: ليس ثم[1] بكرة ولا عشي، ولكنهم خوطبوا بما يعقلون في الدنيا.

---

(١) أي ليس في الجنة أوقات الدنيا هذه.

فالمعنى: لهم رزقهم في مقدار فيها ما بين الغداة والعشي، فالذي يقسم في ذلك الوقت يكون مقدار ما يريدون في كل ساعة إلى أن يأتي الوقت الذي يتلوه.

وقوله -تعالى-: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾؛ يروى أن النبي ﷺ أبطأ عنه جبريل -عليه السلام- في الوحي، فقال -عليه السلام- وقد أتاه جبريل: ((ما زرتنا حتى اشتقناك))، فقال: ﴿ وما نزل إلا بأمر ربك﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾؛ ما بين أيدينا أمر الآخرة والثواب والعقاب، وما خلفنا جميع ما مضى من أمر الدنيا، وما بين ذلك ما يكون منا من هذا الوقت إلى يوم القيامة.

وجاء في التفسير: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ قيل: ما بين النفختين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً﴾؛ أي: قد علم الله -جل وعلا- ما كان وما يكون وما هو كائن، وحافظ لذلك -عز وجل-، لا ينسى منه شَيْئاً. وجائز أن يكون والله اعلم: ما نسيك ربك وإن تأخر عنك الوحي.

وقوله عز وجل: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: هو مالك لهما وعالم بهما وبما فيهما.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياً﴾؛ جاء في التفسير: هل تعلم له مثلاً، وجاء أيضاً: لم يسم بالرحمن إلا الله -عز وجل-.

وتأويله -والله أعلم- ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِياً﴾ يستحق أن يقال له: خالق وقادر وعالم بما كان وبما يكون، فذلك ليس إلا من صفة الله -تعالى-.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَياً﴾؛ يعنى بهذا الكافر الذي لا يؤمن بالغيب خاصة.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ﴾؛ ويقرأ: ((أولا يذَّكر)) بالتخفيف والتثقيل.

﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾؛ أعلم الله -عز وجل- أن إعادة الخلق مثل ابتداء خلقهم، وهذا كما قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ...﴾ الآية [يس: ٧٨] فكان الجواب ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[يس: ٧٩].

وقوله -تعالى-: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾؛ أي: فوربك لنبعثهم ولنحشرنهم مع الشياطين الذين أغووهم.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِياً﴾؛ و((جُثياً)) بالضم والكسر جميعاً، والمعنى جثواً على ركبهم، ولا يستطيعون القيام مما هم فيه وجثي جمع جَاثٍ وجُثي، مثل قاعد وقعود وبارك وبروك.

والأصل: ضم الجيم وجائز كسرها، اتباعاً لكسرة الياء، و﴿جِثِياً﴾ منصوب على الحال.

وقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِياً﴾؛ و ((عُتياً)) بالكسر والضم، ومعناه: لننزعن من كل أمة ومن كل فرقة الأعتى فالأعتى منهم، كأنهم يبدأ بتعذيب أشدهم عتياً ثم الذي يليه. فأما رفع ((أيهم)) فهو القراءة، ويجوز ((أيهم)) بالنصب حكاها سيبويه، وذكر سيبويه أن هارون الأعور القارئ قرأ بها. وفي رفعها ثلاثة أقوال:

قال سيبويه عن يونس عن قوله -جل وعز- ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ مغفلة لم تعمل شَيْئاً، فكان قول يونس: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ ثم استأنف فقال ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِياً﴾؛ وأما الخليل فحكى عنه سيبويه أنه على معنى الذين يقال: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِياً﴾ ومثله: عنده قول الشاعر:

وَلقَد أَبيتُ مِنَ الفُتَاةِ بِمَنْزِلٍ فَأَبيتُ لا حَرِجُ ولا مَحروُم

المعنى: فأبيت بمنزلة يقال له: لا هو حرج ولا هو محروم.

وقال سيبويه إن ((أيهم)) مبنية على الضم لأنها خالفت أخواتها، واستعمل معها حرف الابتداء، تقول: ((اضرب لأيهم أفضل)) يريد أيهم هو أفضل، فيحسن الاستعمال، كذلك يحذف ((هو))، ولا يحسن: ((اضرب من أفضل)) حتى تقول: ((من هو أفضل))، ولا يحسن ((كل ما أطيب)) حتى تقول: كل ما هو أطيب. فلما خالفت من وما والذي - لأنك لا تقول أيضاً: ((خذ الذي أفضل)) حتى تقول هو أفضل، قال فلما خالفت هذا الخلاف بنيت على الضم في الإضافة، والنصب حسن، وإن كنت قد حذفت ((هو)) لأن ((هو)) قد يجوز حذفها، وقد قرئت ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾[الأنعام: ١٥٤] وتفصيلاً على معنى الذي هو أحسن.

قال إسحاق: والذي أعتقده أن القول في هذا قول الخليل، وهو موافق للتفسير، لأن الخليل كان مذهبه أو تأويله في قوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾[مريم: ٦٩] الذي من أجل عتوه يقال: أي: هؤلاء أشد عتياً. فيستعمل ذلك في الأشد فالأشد، والله أعلم.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِياً﴾؛ و﴿صِلِياً﴾ - بالضم والكسر- على ما فسرنا، وصلياً منصوب على الحال.

أي: ثم لنحن أعلم بالذين هم أشد على الرحمن عتياً فهم أولى بها صلياً.

﴿وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِياً﴾؛ هذه آية كثر اختلاف التفسير فيها فقال كثير من الناس: إن الخلق جميعاً يردون النار فينجو المتقي ويترك الظالم وكلهم يدخلها، وقال بعضهم: قد علمنا الورود ولم نعلم الصدر.

وحجة من قال بهذا القول أنه جرى ذكر الكافرين، فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ ثم قال بعد: ﴿وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ فكأنه على نظم ذلك الكلام عام.

ودليل من قال بهذا القول أيضاً قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل وندخل الظالمين، وكان ((نذر)) و((نترك)) للشيء الذي قد حصل في مكانه.

وقال قوم: إن هذا إنما يعنى به المشركون خاصة، واحتجوا في هذا بأن بعضهم قرأ: ((وإن منهم إلا واردها)) ويكون على مذهب هؤلاء ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي: نخرج المتقين من جملة من ندخله النار.

وقال قوم: إن الخلق يردونها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً، ثم يخرج منها فيدخل الجنة فيعلم فضل النعمة لما يشاهد فيه أهل العذاب وما رأى فيه أهل النار.

وقال ابن مسعود والحسن وقتادة: إن ورودها ليس دخولها، وحجتهم في ذلك جيدة جداً من جهات: إحداهن: أن العرب تقول: وردت ماء كذا ولم تدخله، وقال الله -عز وجل-: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾[القصص: ٢٣] وتقول: إذا بلغت البلد ولم تدخله: قد وردت بلد كذا وكذا.

قال إسحاق: والحجة القاطعة في هذا القول ما قال الله -عز وجل-:

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾؛ فهذا -والله أعلم- دليل أن أهل الحسنى لا يدخلون النار، وفي اللغة: وردت بلد كذا وكذا إذا أشرفت عليه، دخلته أو لم تدخله، قال زهير [من الطويل]:

فَلَمّا وَرَدنَ الماءَ زُرقاً جِمامُهُ وَضَعنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ(١)

المعنى: بلغن إلى الماء، أي: أقمن عليه، فالورود ههنا بالإجماع ليس بدخول، فهذه الروايات في هذه الآية، والله اعلم.

وقوله: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِياً﴾؛ معناه: مجلساً.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً﴾؛ فيها أربعة أوجه:

((رِئْيَا)) بهمزة قبل الياء، والراء غير معجمة، و((رِيًّا)) بتشديد ياء مشددة، و((زِيًّا)) بالزاي معجمة، وقد قرئ بهذه الثلاثة الأوجه، ويجوز وجه رابع لم يقرأ به -بياء وبعدها همزة- وريئا.

فأما رئيا -بهمزة قبل الياء-؛ فالمعنى فيه هم أحسن أثاثاً أي: متاعاً ورئياً منظراً، من رأيت، ومن قرأ بغير همز فله تفسيران: على معنى الأول بطرح الهمزة وعلى معنى أن منظرهم مرتو من النعمة، كان النعيم بين فيهم، ومن قرأ ((زيا)) فمعناه: أن زيهم حسن يعني هيئتهم، قال الشاعر:

أشاقَتك الظعائنُ يومَ بانوا بذي الزِّيِّ الجميلِ من الأُثاثِ(٢)

ونصب: ﴿أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً﴾ على نية التفسير؛ المعنى: وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً منهم وأحسن زياً منهم. ومن قرأ: ((رِيئًا)) فهو بمعنى رئياً مقلوب لأن من العرب من يقول: قد رَاءَني زيد وتقول: قد رأني.

في هذا المعنى: قال الشاعر كثير [من الطويل]:

وَكُلُّ خَليلٍ راءَني فَهوَ قائِلٌ مِن أَجلِكِ هَذا هامَةُ اليومِ أَو غَدِ(٣)

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَداًّ﴾؛ هذا لفظ أمر في معنى الخبر، وتأويله: إن الله عز وجل جعل جزاء ضلالته أن يتركه فيها، ويمده فيها، كما قال -جل وعز-: ﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إلا لفظ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/٥٧٥)، وتفسير القرطبي (١١/١٢٤)، وفتح القدير (٣/٤٩٢)، وزاد المسير (٥/ ٢٥٦)، ومعاني القرآن (٤/٣٥٠)، والبيان والتبيين (١/٤٤٧)، ولسان العرب (٣/٤٥٦)، وتاج العروس (١/ ٢٣٣٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١١/١٣١)، وفتح القدير (٣/٤٩٦)، ولسان العرب (١٤/٢٩١).

(٣) مر ذكره.

الأمر يؤكد معنى الخبر كان لفظ الأمر يريد به المتكلم نفسه إلزاماً، كأنه يقول: أفعل ذلك وآمر نفسي به، فإذا قال قائل: من رآني فلأكرمه، فهو ألزم من قوله: أكرمه، كأنه قال: من زارني فأنا آمر نفسي بإكرامه وألزمها ذلك.

وقوله: ﴿إِمَّا العَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾؛ ((العذاب والساعة)) منصوبان على البدل من ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾.

المعنى: حتى إذا رأوا العذاب أو رأوا الساعة، فالعذاب ههنا ما وعدوا به من نصر المؤمنين عليهم فإنهم يعذبونهم قتلاً وأسراً. والساعة يعنى بها يوم القيامة وبما وعدوا به فيها من الخلود في النار.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً﴾؛ أي: فسيعلمون بالنصر، والقتل أنهم أضعف جنداً من جند النبي ﷺ والمسلمين ويعلمون بمكانهم من جهنم، ومكان المؤمنين من الجنة من هو شر مكاناً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾؛ قيل: بالناسخ والمنسوخ نحو ما كان من صوم رمضان من أنه كان يجوز لمن يقدر على الصوم أن يطعم مسكيناً ويفطر، فنسخ ذلك بإلزام الصوم، وجائز أن يكون: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ يجعل جزاءهم أن يزيدهم في يقينهم هدى كما أضل الله الفاسق بفسقه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً﴾؛ معناه: الأعمال الصالحة، وأولها توحيد الله وهو شهادة أن لا إله إلا الله.

وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾؛ ويقرأ: ((ووُلْداً))، فمن قرأ ((وُلداً)) بالضم فهو على وجهين على جمع: ((وُلْد))، يقال: ((وَلد ووُلد مثل أَسد وأُسد))، وجائز أن يكون الولد في معنى العَرَب والعُرب والعَجم والعُجم.

وقد جاء في التفسير: أنه يعنى به العاص بن وائل.

يروى أن خباباً قال: كنت قيناً في الجاهلية. والقين هو الذي يصلح الأسنة، والحداد يقال له: قين، قال وكان لي على العاص بن وائل دين فدفعني بقضائه وقال لا أدفعه إليك حتى تكفر بمحمد ﷺ فقال خباباً: لا أكفر بمحمد حتى تموت وتبعث، فقال: إذا مت ثم بعثت أعطيت مالا وولداً، وقضيتك مما أعطى، ويقول ذلك مستهزئاً فقال الله سبحانه: ﴿أَطَّلَعَ الغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾؛ أي: علم ذلك غيباً أم أعطى عهداً، وهو مثل الذي قال: ﴿وَلَئِن رُدِدتُّ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾[الكهف: ٣٦].

﴿كَلاَّ﴾؛ ردع وتنبيه، أي: هذا مما يرتدع منه، وينبه على وجه الضلالة فيه.

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾؛ أي: سنحفظ عليه.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً﴾؛ أي: نجعل المال والولد لغيره ونسلبه ذلك ويأتينا فرداً.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزاً﴾، أي: أعواناً.

وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً﴾؛ أي: يصيرون عليهم أعواناً.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزاً﴾؛ في قوله ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وجهان أحدهما: إنا خلينا الشياطين وإياهم، فلم نعصمهم من القبول منهم.

قال إسحاق: والوجه الثاني وهو المختار أنهم أرسلوا عليهم وقيضوا لهم بكفرهم كما قال -عز وجل-: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[الزخرف: ٣٦]؛ ومعنى ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزاً﴾ - تزعجهم حتى يركبوا المعاصي إزعاجاً فهو يدل على صحة الإرسال والتقييض، ومعنى الإرسال ههنا التسليط، يقال: قد أرسلت فلاناً على فلان إذا سلطته عليه، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ﴾.

فأعلم الله -عز وجل-: أن من اتبعه هو مسلط عليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾؛ معنى الوفد الركبان المكرمون.

﴿وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾؛ مشاة عطاشاً.

وقوله: ﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾؛ ((من)) جائز أن تكون في موضع رفع، وفي موضع نصب. فأما الرفع فعلى البدل من الواو والنون؛ والمعنى: لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً. والعهد توحيده والإيمان به.

والنصب على الاستثناء ليس من الأول على: لا يملك الشفاعة المجرمون.

ثم قال: ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾، على معنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً فإنه يملك الشفاعة.

وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِداً﴾؛ وتقرأ ((أَدَا)) -بالفتح- ومعناه: شَيْئاً عظيماً من الكفر، وفيها: لغة أخرى لا أعلم أنه قرئ بها، وهي: ((شيء آدٍ)) على وزن راد وماد، ومعناه كله: جئتم شَيْئاً عظيماً.

وقوله -جل وعز-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُداً﴾ أي: محبة في قلوب المؤمنين.

وقوله -جل وعز-: ﴿قَوْماً لُداً﴾؛ جمع ((ألد)) مثل أصم وصم، والألد: الشديد الخصومة.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ﴾؛ يقال: هل أحسست صاحبك أي: هل رأيته، وتقول: قد حسسهم -بغير ألف- إذا قتلهم.

وقوله: ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾؛ الركز: الصوت الخفي.

* * *

سورة طه[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

يقرأ ((طَه)) بفتح الطاء والهاء، وتقرأ ((طِه)) بكسرها - ويقرأ: ((طَهْ)) بفتح الطاء وإسكان الهاء، و((طَهِ)) بفتح الطاء وكسر الهاء.

واختلف في تفسيرها فقال أهل اللغة: هي من فواتح السور نحو: ((حم والم)) ويروى أن النبي ﷺ كان إذا صلى رفع رجلاً ووضع أخرى فأنزل الله -عز وجل-: ((طاها))، أي: طأ الأرض بقدميك جميعاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾؛ أي: لتصلي على إحدى رجليك فتشتد عليك، وقيل: ((طه)) لغة بالعجمية معناها يا رجل، فأما من فتح الطاء والهاء فلأن ما قبل الألف مفتوح، ومن كسر الطاء والهاء أَمَال إلى الكسر لأن الحرف مقصور، والمقصور تغلب عليه الإمالة إلى الكسر ومن قرأ ((طه)) بإسكان الهاء ففيها وجهان؛ أحدهما: أن يكون أصله ((طا)) بالهمزة فأبدلت منها الهاء كما قالوا في ((إياك: هياك)) وكما قالوا في ((أرقت الماء: هرقت)) وجائز أن يكون من ((وطي)) على ترك الهمزة، فيكون ((ط)) يا رجل - ثم أثبت فيها الهاء للوقف فقيل: ((طه)).

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة:** سورة طه من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف العشرون. عدد آياتها خمس وثلاثون ومائة آية. اختلف في تسميتها؛ فقيل من فواتح السُّور مثل حم والم، وقيل: كان النبي ﷺ إذا صلى رفع رجلاً ووضع أخرى فأنزل الله عزّ وجل: طاها، أي طأ الأرض بقدميك جميعًا. وقيل: طه لغة بالعجمية معناها يا رجل، وقيل: طه اسم من أسماء النبي ﷺ.

سورة طه تعالج أهداف السور المكية نفسها، وغرضها تركيز أصول الدين: التوحيد والنبوة والبعث والنشور. تبدأ هذه السورة وتختم خطابًا للرسول ﷺ، ببيان وظيفته وحدود تكاليفه.

والموضوعات التي تعالجها السورة بين مطلعها وختامها، عرض قصة موسى عليه السلام، من حلقات الرسالة إلى حلقة اتخاذ بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر، مفصلة مطولة؛ وبخاصة موقف المناجاة بين الله وكليمه موسى، وموقف الجدل بين موسى عليه السلام وفرعون، وموقف المباراة بين موسى والسحرة، وتتجلى في غضون القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه، واصطنعه لنفسه.

وتعرض قصة آدم سريعة قصيرة، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد خطيئته، وهدايته له. وترك البشر من أبنائه لما يختارون من هدى أو ضلال بعد التذكير والإنذار.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾؛ المعنى: أنزلناه تنزيلاً، والعلى جمع العليا، يقال: سماء عليا وسماوات على، مثل الكبرى والكبر.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾؛ الاختيار الرفع، ويجوز الخفض على البدل من ((من))؛ المعنى: تنزيلا من خالق الأرض والسماوات الرحمن، ثم أخبر بعد ذلك فقال: على العرش استوى، وقالوا معنى استوى استولى - والله أعلم. والذي يدل عليه استوى في اللغة على ما فعله من معنى الاستواء.

قوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾؛ الثرى في اللغة الندى، وما تحت الأرض ندى، وجاء في التفسير وما تحت الثرى ما تحت الأرض.

وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾؛ فالسر ما أكننته في نفسك، و((أخفى)) ما يكون من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله.

وقوله: ﴿لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾؛ يروى عن النبي ﷺ أنه قال: ((لله تسع وتسعون اسماً من أحصاها دخل الجنة)).

وتأويل ((من أحصاها دخل الجنة))، ومن حد الله وذكر هذه الأسماء الحسنى يريد بها توحيد الله وإعظامه دخل الجنة، وقد جاء: أنه من قال: ((لا إله إلا الله دخل الجنة))، فهذا لمن ذكر اسم الله موحداً له به فكيف بمن ذكر أسماءه كلها يريد بها توحيده والثناء عليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ﴾؛ القبس: ما أخذته في رأس عود من النار أو رأس فتيلة.

﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾: جاء في التفسير: أنه ﷺ ضل الطريق وجاء أنه ضل عن الماء فرجا أن يجد عند النار من يهديه الطريق أو يدله على الماء.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾؛ ويقرأ: ((أني أنا)) بفتح والكسر، فمن قرأ ((أني))؛ فالمعنى: نودي بأني أنا ربك، وموضع ((أني)) نصب، ومن قرأ ((إني أنا ربك)) بالكسر؛ فالمعنى: نودي يا موسى إني أنا ربك.

﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾؛ روي: أنه أمر بخلعهما لأنهما كانتا من جلد حمار ميت، وروي: أنه أمر بخلعهما ليطأ بقدميه الوادي المقدس، وروي: أنه قدس مرتين.

وقوله: ﴿طُوًى﴾؛ اسم الوادي، ويجوز فيه أربعة أوجه، طُو: بضم أوله، بغير تنوين وتنوين وبكسر أوله، بتنوين وبغير تنوين. فمن نونه اسم الوادي، وهو مذكر سمي بمذكر على فعل نحو: ((حطم وصرد)). ومن لم ينونه ترك صرفه من جهتين: إحداهما أن يكون معدولاً عن ((طاء)) فيصير مثل: عمر المعدول عن عامر.

والجهة الأخرى أن يكون اسماً للبقعة كما قال الله عز وجل: - ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾[القصص: ٣٠]؛ وإذا كسر ونون ((طوى)) فهو مثل: ((معى وضلع)) مصروف. ومن لم ينون جعله اسماً للبقعة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾؛ ويقرأ: ((وإِنَّا اخترناك))، فمن قرأ: ((وأنا اخترتك))؛ فالمعنى يؤدي بأنا اخترناك، ويجوز ((وإِنَّا اخترناك)) على وجهين: على الاستئناف وعلى معنى الحكاية لأنه معنى يؤدى قيل له: إنا اخترناك.

وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾؛ هذا على معنيين أحدهما: أقم الصلاة لأن تذكرني لأن الصلاة لا تكون إلا بذكر الله.

والمعنى الثاني هو الذي عليه الناس ومعناه: أقم الصلاة متى ذكرت أن عليك صلاة كنت في وقتها أو لم تكن، لأن الله -عز وجل- لا يؤاخذنا إن نسينا ما لم نتعمد الأشياء التي تشغل وتلهي عن الصلاة، ولو ذكر أن عليه صلاة في وقت طلوع الشمس أو عند مغيبها وجب أن يصليها. وقرئت ((للذكرى)) - معناه: في وقت ذكرك.

وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾؛ بضم الألف، وجاء في التفسير: أكاد أخفيها من نفسي، -والله أعلم- بحقيقة هذا التفسير، وقرئت ((أكاد أَخفيها)) -بفتح الألف- معناه: أكاد أظهرها، قال امرؤ القيس [من المتقارب]:

فَإِن تَدفُنوا الداءَ لا نُخفِهِ　　　وَإِن تَبعَثوا الحَربَ لا نَقعُدِ[1]

أي: إن تدفنوا الداء نظهره.

وهذه القراءة الثانية أبين في المعنى، لأن معنى أكاد أظهرها، أي: قد أخفيتها وكدت أظهرها.

وقوله: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾؛ معنى ﴿بِمَا تَسْعَى﴾ بما تعمل، ولتجزى متعلق بقوله: إن الساعة آتية لتجزى كل نفس بما تسعى، ويجوز أن يكون على﴿ أقم

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/٤٠١)، وتفسير القرطبي (١١/١٦٦).

الصلاة لذكري﴾ لتجزى كل نفس بما تسعى.

وقوله: ﴿فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لا يُؤْمِنُ بِهَا﴾؛ معناه: والله أعلم فلا يصدنك عن التصديق بها من لا يؤمن بها، أي: من لا يؤمن بأنها تكون.

وخطاب النبي ﷺ هو خطاب سائر أمته، ومعنى ((لا يصدنك عنها)): لا يصدنكم، قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[الطلاق: ١]؛ فنبه النبي ﷺ بالخطاب وخوطب هو وأمته بقوله: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾.

وقوله: ﴿فَتَرْدَى﴾؛ معناه: فتهلك، يقال: ردى يردى ردى، إذا هلك، وكذلك تردى إذا هلك في قوله -عز وجل-: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾[الليل: ١١].

قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾؛ ((تلك)) اسم مبهم يجري مجرى التي، ويوصل كما توصل التي.

المعنى: ما التي بيمينك يا موسى. وهذا الكلام لفظه لفظ الاستفهام ومجراه في الكلام مجرى ما يسأل عنه، ويجيب المخاطب بالإقرار به لتثبت عليه الحجة بعدما قد اعترف مستغنى بإقراره عن أن يجحد بعد وقوع الحجة، ومثله من الكلام أن يرى المخاطب ماء فتقول له ما هذا؟ فيقول: ماء، ثم تحيله بشيء من الصبغ فإن قال إنه لم يزل هكذا قلت له: ألست قد اعترفت بأنه ماء.

وقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾؛ وقرئ ((هي عصي)) بغير ألف، وأجودهما عصاي.

وعصي لغة هذيل والأصل في يا الإضافة أن يكسر ما قبلها، تقول: هذا حجري فتكسر الراء وهي في موضع ضم، وكذلك: رأيت حجري، فإذا جاءت بعد الألف المقصورة لم تكسرها. لأن الألف لا تحرك، وكذلك إذا جاءت بعد ألف التثنية في الرفع في قولك: هما غلاماي، وبعد ياء النصب في قولك، فجعلت هذيل بدلاً من كسرة الألف تغييرها إلى الياء، وليس أحد من النحويين إلا وقد حكى هذه اللغة، قال أبو ذؤيب.

سبقوا هوي وأعتقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع

وقوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾؛ جاء في التفسير: أخبط بها الشجر، واشتقاقه من إني أحيل الشيء إلى الهشاشة والإمكان.

وقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾؛ جاء في التفسير: حاجات أخرى، وكذلك هو في اللغة، وواحد المأرب مأْرَبة ومأرُبة. وجاءت ((أخرى)) على لفظ صفة الواحدة، لأن مأرب في معنى جماعة فكأنها جماعات من الحاجات أخرى، فلو جاءت كان صواباً.

قوله: ﴿سِيرَتَهَا الأُولَى﴾؛ معنى سيرتها طريقتها يعني هيئتها، تقول إذا كان القوم مشتبهين: هم على سيرة واحدة وطريقة واحدة، تريد أن هيئتهم واحدة وشبههم واحد، وإن كان أصل السيرة والطريقة أكثر ما يقع بالفعل، تقول: فلان على طريقة فلان وعلى سيرته أي: أفعاله تشبه أفعال فلان.

والمعنى: سنعيدها عصا كما كانت، وسيرتها منصوب على إسقاط الخافض، وأفضى الفعل إليها؛ المعنى: -والله أعلم- سنعيدها إلى سيرتها الأولى، فلما حذفت ((إلى)) أفضى الفعل -وهو سنعيدها- فنصب.

وقوله: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾؛ جناح الإنسان عضده إلى أصل إبطه.

وقوله: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾؛ ﴿آيَةً﴾ منصوبة لأنها في موضع الحال، وهي اسم في موضع الحال.

المعنى: -والله أعلم- تخرج بيضاء مبينة آية أخرى، ويجوز أن تكون ﴿آيَةً أُخْرَى﴾ منصوبة على معنى: آتيناك آية أخرى أو نؤتينك آية أخرى، لأنه لما قال: تخرج بيضاء كان في ذلك أنه يعطى آية أخرى، فلم يحتج إلى ذكر آتيناك لأن في الكلام دليلاً عليه. ويجوز آية أخرى بالرفع على إضمار: هذه آية أخرى.

وقوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾؛ جاء في التفسير: أنه كان في لسانه رتة، لأن امرأة فرعون جعلت على لسانه جمرة لأنه كان أخذ وهو صبي بلحية فرعون فهم به، وقال هذا عدو فأعلمته أنه صبي لا يعقل وأن دليلها على ذلك أنه التقم جمرة فدرأت عنه ما هم به فرعون فيه.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي﴾؛ يجوز أن يكون نصب هارون من جهتين أحدهما: أن يكون ((اجعل)) يتعدى إلى مفعولين فيكون المعنى: اجعل هارون أخي وزيري فتنصب ((وزيراً)) على أنه مفعول ثان، ويجوز أن يكون هارون بدلاً من قوله ((وزيراً)) ويكون المعنى: اجعل لي وزيراً من أهلي ثم أبدل هارون من وزير، والقول الأول أجود وأخي نعت لهارون.

وقوله: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾؛ يقرأ على ضربين على معنى اجعل أخي وزيراً، فإنك إن فعلت ذلك اشدد به أزري. ((اشدد)) على الإخبار عن النفس وأظهرت التضعيف لأنه جواب الأمر وأشركه في أمري، فيقرأ على هذا: هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري بقطع ألف أشدد وضم الألف من وأشركه، ومن قرأ: ((هارون أخي أَشدد به أزري * وأَشركه)) فعلى الدعاء؛ المعنى: اللهم اشدد به أزري وأشركه في أمري.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾؛ قد بين المرة على ما هي وهي قوله.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى * أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾؛ لأنه نجاه بهذا من القتل، لأن فرعون كان يذبح الأبناء.

وقوله -عز وجل-: ﴿ولتصنع على عيني﴾؛ قالوا معناه: ولتغذى.

ومعنى أزري، يقال: أزرت فلاناً على فلان إذا أعنته عليه وقويته، ومثله: ﴿فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾[الفتح: ٢٩]؛ فتأويله: أقوى به وأستعين به على أمري.

فأما الوزير في اللغة فاشتقاقه من الوزر، والوَزَر الجبل الذي يعتصم به لينجي من الهلكة، وكذلك وزير الخليفة معناه: الذي يعتمد عليه في أمره ويلتجئ إلى رأيه وقوله: ﴿كَلاَّ لاَ وَزَرَ﴾[القيامة: ١١] معناه: لا شيء يعتصم به من أمر الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً﴾؛ معناه: اختبرناك اختباراً.

وقوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾؛ قيل في التفسير: على موعد، وقيل: على قدر من تكليمي إياك.

﴿وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾؛ معناه: ولا تضعفا، يقال: ونيَ يَنِي ونْيَا ووَنْياً إذا ضعف، وقولك قد تَوَانَى فلان في هذا الأمر أي: قد فتر فيه وضعف.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾؛ ((لعل)) في اللغة ترج وطمع، تقول: لعلي أصير إلى خير، فمعناه: أرجو وأطمع أن أصير إلى خير، والله -عز وجل- خاطب العباد بما يعقلون.

وإنما تبعث الرسل وهي لا تعلم الغيب ولا تدري أيقبل منها أم لا، وهم يرجون ويطمعون أن يقبل منهم، ومعنى ((لعل)) متصور في أنفسهم، وعلى تصور ذلك تقوم الحجة، وليس علم الله بما سيكون تجب به الحجة على الآدميين، ولو كان كذلك لم يكن في الرسل فائدة.

فمعنى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾؛ هو الذي عليه بعث جميع الرسل.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى﴾؛ معنى يفرط علينا يبادر بعقوبتنا، يقال: قد فرط منه أمر أي: قد بدر منه أمر، وقد أفرط في الشيء إذا سقط فيه، وقد فرط في الشيء أي: قصر ومعناه كله التقدم في الشيء، لأن الفرط في اللغة المتقدم. ومنه قوله ﷺ: ((أنا فرطكم على الحوض)).

وقوله: ﴿وَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى﴾؛ ليس يعنى به التحية، وإنما معناه: أن من اتبع الهدى سلم من عذاب الله وسخطه والدليل على أنه ليس بسلام أنه ليس ابتداء لقاء وخطاب.

ومعنى ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾؛ ولم يقل: فأتياه فقالا له إنا رسولا ربك، لأن الكلام قد دل على ذلك فاستغنى عنه أن يقال فيه فأتياه فقالا، لأن قوله: ﴿قَالَ فَمَن رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ فيه دليل على أنهما أتياه فقالا له.

وقوله -عز وجل-:﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾؛ معناه: خلق كل شيء على الهيئة التي بها ينتفع، والتي هي أصلح الخلق له، ثم هداه لمعيشته، وقد قيل: ثم هداه لموضع ما يكون منه الولد.

والأول أبين في التفسير، وهذا جائز، لأنا نرى الذكر من الحيوان يأتي بالأنثى ولم ير ذكراً قد أتى أنثى قبله فألهمه الله -عز وجل- ذلك وهداه إلى المأتي. والقول الأول ينتظم هذا المعنى، لأنه إذا هداه لمصلحته فهذا داخل في المصلحة، والله أعلم.

وقوله -تعالى-: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى﴾؛ قال له موسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾؛ معناه: لا يضلها ولا ينساها، ولا يضله ربي ولا ينساه، يعنى به الكتاب، ومعنى ضللت الشيء وضللت بكسر اللام وفتحها أضله وأضله، إذا جعلته في مكان لم تدر أين هو، ويضل من أضللته، ومعنى أضللته أضعته، قال أبو إسحاق من قرأ بالفتح فمعناه لا يضل أي: لا يضل عن ربي. وإذا ضممت الياء فمعناه لا يوجد ربي ضالاً عنها.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى﴾؛ معناه: لذوي العقول، واحد النهى: نهية.

يقال: فلان ذو نهية، ومعناه: ذو عقل ينتهي به عن المقابح ويدخل به في المحاسن، وقال بعض أهل اللغة:

ذو النهية الذي ينتهي إلى رأيه وعقله، وهذا حسن أيضاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾؛ يعنى به الأرض، لأن الله -عز وجل- خلق آدم من تراب، وجرى الإضمار على قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾؛ متعلق بقوله: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ لأن المعنى: كمعنى الأول. لأن المعنى: ومنها نخرجكم بمنزلة منها خلقناكم، فكأنه قال -والله أعلم-: ومنها نخلقكم تارة أخرى، لأن إخراجهم وهم تراب بمنزلة خلق آدم من تراب.

وقوله: ﴿مَكَاناً سِوًى﴾؛ وتقرأ: ((سُوى)) بالضم ومعناه: منصفاً، أي: مكاناً يكون النصف فيما بيننا وبينك، وقد جاء في اللغة ((سواء)) في هذا المعنى: وتقول: هذا مكان سواء، أي: متوسط بين المكانين، ولكن لم يقرأ إلا بالقصر سِوى وسُوى.

وقوله -تعالى-: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾؛ وتقرأ ((يومَ الزينة))، فالرفع على خبر الابتداء.

والمعنى: وقت موعدكم يومُ الزينة، ومن قرأ يومَ فمنصوب على الظرف؛ المعنى: يقع يوم الزينة.

وقوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾؛ موضع ((أن)) رفع؛ المعنى: موعدكم حشر الناس ضحى، وتأويله: إذا رأيتم الناس قد حشروا ضحى. وقيل: يوم الزينة يوم عيد كان لهم، وقيل: إنه كان يوم عاشوراء.

ويجوز أن يكون في موضع خفض عطفاً على الزينة؛ المعنى: موعدكم يوم الزينة ويوم حشر الناس.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ لَهُم مُوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً﴾؛ ﴿وَيْلَكُمْ﴾ منصوب على أن إلزامهم الله ويلا، ويجوز أن يكون منصوباً على النداء كما قال -تعالى-: ﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾[هود: ٧٢] و﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢] .

وقوله: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾؛ ويقرأ: ((فيَسحِتكم)) بضم الياء وكسر الحاء، يقال: سحته، وأسحته إذا استأصله وأهلكه، قال الفرزدق [من الطويل]:

وَعَضُّ زَمانٍ يا اِبنَ مَروانَ لَم يَدَع ... مِنَ المالِ إِلا مُسحَتاً أَو مُجَرَّفُ[1]

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥٧٩/٤)، وتفسير القرطبي (١٩٤/١١)، ومعاني القرآن (٣٠٩/٢)، والإنصاف في مسائل الخلاف (١٨٨/١)، وصبح الأعشى (١٥٣/١٤)، ولسان العرب (٤١/٢)، وتاج العروس (١١٠٣/١).

معنى ((لم يدع)): لم يستقر، من الدعة من المال، وأكثر الرواية إلا مسحتاً، فهذا على أسحت فهو مسحت.

وقوله عز وجل: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾؛ يعنى به السحرة، قالوا بينهم إن غلبنا موسى آمنا به، وكان الأمر له.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنْ هَـٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾؛ يعنون موسى وهارون. وهذا الحرف من كتاب الله -عز وجل- مشكل على أهل اللغة، وقد كثر اختلافهم في تفسيره، ونحن نذكر جميع ما قاله النحويون ونخبر بما نظن أنه الصواب -والله أعلم-، وقبل شرح إعرابه نخبر بقراءة القراء فيه.

أما قراءة أهل المدينة والأئمة في القراءة فبتشديد ((إن))، والرفع في ((هذان)) وكذلك قرأ أهل العراق حمزة وعاصم في رواية أبي بكر بن عياش والمدنيون.

وروي عن عاصم: ((إنْ هذان)) بتخفيف ((إن)) ويصدق ما قرأه عاصم في هذه القراءة ما يروى عن أبي فإنه قرأ: ((ما هذان إلا ساحران))، وروي أيضاً عنه أنه قرأ: ((إن هذان إلا ساحران))، وروي عن الخليل أيضاً: ((إن هذان لساحران)) -بالتخفيف-. والإجماع أنه لم يكن أحد بالنحو أعلم من الخليل وقرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر: ((إن هذين لساحران))، بتشديد ((إن)) ونصب ((هذين)).

فهذه الرواية فيه.

فأما احتجاج النحويين فاحتجاج أبي عمرو في مخالفته المصحف في هذا أنه روي أنه من غلط الكاتب، وأن في الكتاب غلطاً ستقيمه العرب بألسنتها، ويروى ذلك عن عثمان بن عفان وعن عائشة - رحمهما الله.

وأما الاحتجاج في ((أن هذان)) بتشديد أن رفع ((هذان)) فحكى أبو عبيدة عن أبي الخطاب وهو رأس من رؤساء الرواة، وأنها لغة لكنانة، ويجعلون ألف الاثنين في الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد، ويقولون أتاني الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان، وهؤلاء ينشدون [من الطويل][1]:

(١) البيت للمتلمس الضبعي.

أطرَقَ إطراقَ الشُّجاعِ وَلو يَرَى مَساغاً لِنابَيهِ الشُّجاعُ لَصَمَّما[١]

وهؤلاء أيضاً يقولون: ضربته بين أذناه، ومن يشتري من الخفان وكذلك روي أهل الكوفة أنها لغة لبني الحارث بن كعب.

قال النحويون القدماء: ههنا هاء مضمرة؛ المعنى: إنه هذان لساحران.

وقالوا أيضاً إن معنى ((إن)) معنى ((نعم))؛ المعنى: نعم هذان لساحران، وينشدون [من مجزوء الكامل][٢]:

وَيَقُلنَ شَيبٌ قَد عَلا كَ وَقَد كَبِرتَ فَقُلتُ إنَّه[٣]

ويحتجون بأن هذه اللام أصلها ((أن)) تقع في الابتداء، وأن وقوعها في الخبر جائز، وينشدون في ذلك [من الرجز]:

خالي لأَنتَ ومَن جَريرٌ خالُه يَنَلِ العَلاءَ ويُكْرِمِ الأَخْوالا[٤]

وأنشدوا أيضاً [من الرجز][٥]:

أُمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ تَرْضَى مِنَ اللَّحْمِ بعَظْمِ الرَّقَبَهْ[٦]

قالوا: المعنى: لأنت خالي؛ والمعنى: لأم الحليس عجوز.

---

(١) انظر: الأغاني (٢٤/٢٤٧)، وثمار القلوب (١/٤٢٨)، ومجمع الأمثال (١/٤٣١)، ولسان العرب (١٢/ ٣٤٢).

(٢) البيت لعبيد الله بن الرقيات.

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٦/٢٣١)، وفتح القدير (٢/٩١)، وتفسير البغوي (١/٢٨٠)، وتفسير النسفي (٣/ ٥٩)، وزاد المسير (٥/٢٩٩)، والأصول في النحو (٢/٣٨٣)، والمفصل في صنعة الإعراب (١/٣٩٧)، وسر صناعة الإعراب (٢/٤٩٢)، واللمع في العربية (١/٤٣)، وحروف المعاني (١/٥٦)، ومغني اللبيب (١/٥٧)، والأغاني (١/٢٠)، ولسان العرب (٣/٩٧)، والقاموس المحيط (١/١٥١٩)، وتاج العروس (١/٧٩٦٠)، وغريب الحديث لابن قتيبة (١/٥٣٧).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١١/١٩٥)، وفتح القدير (٣/٦٣٠)، وسر صناعة الإعراب (١/٣٧٨)، وشرح ابن عقيل (١/٢٣٧)، ولسان العرب (١/٥١٠)، وتاج العروس (١/٦٤٦).

(٥) من رجز رؤبة بن العجاج.

(٦) انظر: تفسير الطبري (٨/٤٢٩)، وتفسير القرطبي (١١/١٩٥)، وأوضح المسالك (١/٢١٠)، والأصول في النحو (١/٢٧٤)، وسر صناعة الإعراب (١/٣٧٨)، وشرح ابن عقيل (١/٣٦٦)، ومغني اللبيب (١/٣٠٤)، وفقه اللغة (١/١٢٨٨)، ولسان العرب (١/٥١٠)، والقاموس المحيط (١/١٤٩٧)، وتاج العروس (١/٦٤٦).

وقال الفراء في هذا: إنهم زادوا فيها النون في التثنية وتركوا الألف على حالها في الرفع والنصب والجر كما فعلوا في الذي، فقالوا: الذين في الرفع والنصب والجر، فهذا جميع ما احتج به النحويون.

والذين عندي -والله أعلم- وكنت عرضته على عالمينا محمد بن يزيد وعلى إسماعيل بن إسحاق بن حماد بن زيد القاضي فقبلاه وذكر أنه أجود ما سمعاه في هذا، وهو ((أن)) قد وقعت موقع ((نعم)) وأن اللام وقعت موقعها، وأن المعنى: ((هذان لهما ساحران)).

والذي يلي هذه في الجودة مذهب بني كنانة في ترك ألف التثنية على هيئة واحدة، لأن حق الألف أن تدل على الاثنين، وكان حقها ألا تتغير كما لم تتغير ألف رحى وعضى، ولكن كان نقلها إلى الياء في النصب والخفض أبين وأفضل للتمييز بين المرفوع والمنصوب والمجرور.

فأما قراءة عيسى بن عمر وأبي عمرو بن العلاء فلا أجيزها لأنها خلاف المصحف، وكل ما وجدته إلى موافقة المصحف أقرب لم أجز مخالفته، لأن اتباعة سنة.

ما عليه أكثر القراء، ولكني أستحسن: ((إنْ هذان لساحران)) بتخفيف ((إن)) وفيه إمامان: عاصم والخليل، وموافقة أبي في المعنى: وإن خالفه اللفظ، ويستحسن أيضاً ((إن هذان)) بالتشديد، لأنه مذهب أكثر القراءة، وبه يقرأ وهو قوي في العربية.

قوله -تعالى-: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾؛ معناه: في قول النحويين بجماعتكم الأشراف. والمثلى تأنيث الأمثل، ومعنى الأمثل والمثلى معنى ((ذو الفضل)) الذي يستحق أن يقال فيه هذا أمثل قومه.

وفي التفسير: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ بأشرافكم، والعرب تقول للرجل الفاضل هذا طريقة قومه، ونظيرة قومه، ونظورة قومه. كل هذا للرجل الفاضل. وإنما تأويله: هذا الذي ينبغي أن يجعله قومه قدوة ويسلكوا طريقته.

والذي قال أيضاً: هذا نظورة قومه ونظيرة قومه، معناه: هذا الذي ينبغي أن ينظر إليه قومه وأن يتبعوه.

والذي عندي -والله أعلم- أن في الكلام محذوفاً يدل عليه ما بقي، إنما المعنى: يذهبا بأهل طريقتكم المثلى، كما قال الله عز وجل: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾[يوسف:

٨٢]، ومعناه: واسأل أهل القرية، وكذلك قول العرب: هذا طريقة قومه معناه: هذا صاحب طريقة قومه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾؛ تأويله: اخترتك لإقامة حجتي، وجعلتك بيني وبين خلقي حتى صرت في الخطاب عني والتبليغ عني بالمنزلة التي أكون بها لو خاطبتهم واحتججت عليهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾؛ وقرئت: ((فاجمعوا كيدكم))، فمن قرأ فأجمعوا بقطع الألف، فمعناه: ليكن عزمكم كلكم على الكيد مجمعاً عليه أي: لا تختلوا. ومن قرأ فاجمعوا فمعناه جيئوا بكل كيد تقدرون عليه، ولا تبقوا منه شَيْئاً.

وقوله: ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفاً﴾؛ معناه: ائتوا الموضع الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم، يقال: أتيت صفاً بمعنى أتيت المصلى، ويجوز أن يكون ((ثم ائتوا صفاً)) ثم ائتوا مصطفين مجتمعين ليكون أنظم لأموركم، وأشد لهيئتكم.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾؛ ومعنى ﴿مَنِ اسْتَعْلَى﴾ من علا بالغلبة.

وقوله عز وجل: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾؛ ولم يقل ههنا ((فألقوا)) فإذا حبالهم، لأنه قد جاء في موضع آخر، ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾[الشعراء: ٤٤]؛ ويجوز في عِصي عُصي، والكسر أكثر، والأصل الضم إلا أن الكسر يثقل بعد فلذلك اختير كسر العين.

ويروى في التفسير: أن السحرة كانوا يومئذ سبعين ألف ساحر معهم سبعون ألف حبل وسبعون ألف عصا، فأوحى الله إلى موسى حين خيل إليه من سحرهم أنها تسعى أن يلقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين فاغر فاه فابتلع جميع تلك الحبال.

وقرئت ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾؛ وموضع ((أن)) على هذه القراءة رفع؛ المعنى: يخيل إليه سعيها، ويقرأ: ((تخيل)) بالتاء، وموضع ((أن)) على هذه القراءة يجوز أن يكون نصباً، ويجوز أن يكون رفعاً، فأما النصب فعلى معنى يخيل إليه أنها ذات سعي، ويجوز أن يكون مرفوعاً على البدل على معنى يخيل إليه سعايتها، وأبدل أنها تسعى من المضمر في يخيل لاشتماله على المعنى، ويكون ((إليه)) الخبر على هذا التقدير.

ومثل ذلك ما حكاه سيبويه يقال: ما لي بهم علم أمرهم، أي: ما لي علم بأمرهم، ومثل ذلك من الشعر:

وذَكَرَتْ تَقْتَدْ بَرْدَ مَائها

المعنى: وذكرت برد ماء تقتد.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾؛ ويقرأ: ((كيد سِحْر))، ويجوز أنما صنعوا كيد ساحر، ويجوز كيد ساحر بنصب الدال. فمن قرأ ((أَنَّما)) نصب ((أنما)) على معنى ((تلقف)) ما صنعوا لأن ما صنعوا كيد ساحر، ولا أعلم أحداً قرأها هنا ((أنما)) والقراءة بالكسر، وهو أبلغ في المعنى.

فأما رفع ((كيد)) فعلى معنى أن الذي صنعوه كيد ساحر على خبر ((إن)) و((ما)) اسم، ومن قرأ ((كيد ساحر)) جعل ((ما)) تمنع ((إن)) العمل، وتسوغ للفعل أن يكون بعدها، وينتصب ((كيد ساحر)) بصنعوا، كما تقول: إنما ضربت زيداً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾؛ قالوا معناه: حيث كان، وقيل: معناه: حيث كان الساحر يجب أن يقتل، وكذلك مذهب أهل الفقه في السحرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾؛ وأصلها: خوفة، ولكن الواو قلبت ياء لانكسار ما قبلها.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾؛ و ((تلقف)) القراءة بالجزم جواب الأمر، ويجوز الرفع على معنى الحال، كأنه قال ألقها متلقفة، على حال متوقعة، ولم يقرأ بها، ولا ينبغي أن يقرأ بما لم تتقدم به قراءة.

وقوله -تعالى-: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً﴾؛ ﴿سُجَّداً﴾ منصوب على الحال، وهي أيضاً حال مقدرة، لأنهم خروا وليسوا ساجدين، إنما خروا مقدرين السجود.

وقوله: ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾؛ معناه: على جذوع النخل، ولكنه جاز أن تقع ((في)) ههنا لأنه في الجذع على جهة الطول، والجذع: مشتمل عليه فقد صار فيه، قال الشاعر(١):

وهُمْ صَلَبُوا العَبْدِيَّ في جِذْعِ نَخْلَةٍ فلا عَطَسَتْ شَيْبانُ إلاّ بِأَجْدَعا(٢)

قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾؛ ((أي)) رفعت لأنها وضعت موضع الاستفهام، ولا يعمل ما قبل ((أي)) فيها لأن ما قبلها خبر وهي استفهام، فلو عمل فيها لجاز أن يعمل فيما بعد الألف في قولك: قد علمت أزيد في الدار أم عمرو.

---

(١) هو: سويد بن أبي كاهل.

(٢) انظر: روح المعاني (١٦/٢٣١)، ولسان العرب (٣/٢٧٣).

وقوله: ﴿قَالُوا لَن نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾؛ موضع الذي خفض؛ المعنى: لن نؤثرك على الله، ويجوز أن يكون ((الذي)) خفضاً على القسم، ويكون المعنى: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والله، أي: نحلف بالله.

قوله: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾؛ أي: اصنع ما أنت صانع، قال أبو ذؤيب: [من الكامل]:

وَعَلَيهِما مَسرودَتانِ قَضاهُما داودُ أَو صَنَعُ السَوابِغِ تُبَّعُ[1]

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ القراءة بالنصب – الحياة الدنيا - ويجوز أنما تقضي هذه الحياة الدنيا بالرفع، وتأويله: أن الذي تقضيه متاع الحياة الدنيا، ولا أعلم أحداً قرأها بالرفع.

وقوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾؛ موضع ((ما)) نصب؛ المعنى: لتغفر لنا خطايانا وإكراهك إيانا على السحر، ويروى أن فرعون أكرههم على تعلم السحر.

ومعنى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾؛ أي: الله خير لنا منك وأبقى عذاباً لأنهم قالوا هذا له جواب قوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾؛ ويجوز: ((يَابِساً ويَبْسَاً))، بتسكين الباء، فمن قال: ((يَابَساً)) جعله نعتاً للطريق ومن قال: ((يَبْساً)) فإنه نعته بالمصدر؛ المعنى: طريقاً ذا يُبْس، يقال: يَبِس الشيء يَيْبَس ويَيْبِس يُبْسَاً ويَبِسَاً، ثلاث لغات في المصدر.

وقوله: ﴿لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى﴾؛ ويجوز: ((لا تخف دركاً ولا تخشى))، فمن قرأ لا تخاف؛ فالمعنى: لست تخاف دركاً، ومن قال: ((لا تخف دركاً)) فهو نهي عن أن يخاف، ومعناه: لا نخف أن يدركك فرعون ولا تخشى الغرق.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾؛ ويقرأ: ((فاتَّبعهم فرعون بجنوده))، فمن قرأ: ((فاتَّبعهم)) ففيه دليل أنه اتبعهم ومعه الجنود، ومن قرأ: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ فرعون بجنوده فمعناه ألحق جنوده بهم. وجائز أن يكون معهم على هذا اللفظ وجائز ألا يكون إلا أنه قد كان معهم.

﴿فَغَشِيَهُم مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾؛ اليم البحر؛ والمعنى: فغشيهم من اليم ما غرقهم.

---

(١) مر ذكره مراراً.

وقوله: ﴿وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾؛ ويقرأ: ((فيحُلَّ عليكم غضبي، ومن يحللْ عليه غضبي)). فمن قرأ: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ﴾ فمعناه فيجب عليكم، ومن قرأ ((فيحُلَّ عليكم)) فمعناه فينزل عليكم.

والقراءة: ((ومن يحلِل)) بكسر اللام أكثر.

﴿فَقَدْ هَوَى﴾؛ أي: هلك وصار إلى الهاوية، وهي قعر نار جهنم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾؛ أي: تاب من ذنبه، وآمن بربه وعمل بطاعته، ثم اهتدى، أي: ثم أقام على إيمانه.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي﴾؛ ﴿أُولاءِ﴾ مبني على الكسر، ﴿عَلَى أَثَرِي﴾ من صلة ﴿أُولاءِ﴾، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، كأنه قال: هم على أثري هؤلاء، والأجود أن يكون صلة، ورويت: ((أولاي على أثري)) ولا وجه لها، لأن الياء لا تكون بعد الألف آخرة إلا للإضافة نحو: ((هداي))، ولا أعلم أحداً من القراء المشهورين قرأ بها وذكرها الفراء، ولا وجه لها.

وقوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾؛ أي: ألقيناهم في فتنة ومحنة، واختبرناهم.

﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾؛ قال بعض أهل التفسير: السامري: عِلجٌ من أهل كرمان، والأكثر في التفسير أنه كان عظيماً من عظماء بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسامرة. وهم إلى هذه الغاية في الشام يعرفون بالسامريين.

وقوله -عز وجل-: ﴿غَضْبَانَ أَسِفاً﴾؛ أسف شديد الحزن مع غضبه.

وقوله: ﴿أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِن رَبِّكُمْ﴾؛ القراءة فيها بالكسر في حاء ((يحل)) على معنى: أنه يجب عليكم، فالضم يجوز فيها على معنى أن ينزل عليكم غضب من ربكم.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾؛ يجوز الضم والكسر والفتح في الميم: ((بمُلكنا، وبمَلكنا، وبمِلكنا)) فأصل الملك السلطان والقدرة، والملك ما حوته اليد، والملك المصدر. تقول: ملكت الشيء أَملكه مِلكاً.

وقيل في بعض التفسير: ما أخلفنا موعدك بأن ملكنا الصواب. وجائز أن يكون ما أخلفنا موعدك بسلطان كان لنا ولا قدرة.

ثم أخبروا سبب تأخرهم عنه فقالوا: ﴿وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾؛ ويقرأ: ((حمِّلنا أوزاراً))، بتشديد الميم وكسرها، يعنون بالأوزار حلياً كانوا أخذوها من آل فرعون حين قذفهم البحر فألقاهم على ساحله، فأخذوا الذهب و الفضة، وسميت أوزاراً لأن معناها الآثام، وجائز أن يكون سميت أوزاراً يعنون بها أثقالا، لأن الوزر في اللغة الحمل، و سمي الإثم وزراً لأن صاحبه قد حمل بها ثقلاً، قال الله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾[الشرح: ٢، ٣] فقالوا: حملنا حلياً فقذفناها في النار، وكذلك فعل السامري، أي: ألقى حُلياً كان معه.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾؛ واختلف في تفسير ((خواره)).

فقيل: إنه كان يخور كما يخور الثور من الحيوان، فإذا خار سجدوا له، وإذا عاد الخوار رفعوا من السجود، وقال بعضهم: إنما خار خورة واحدة، ودليله: ﴿أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا﴾.

وقال مجاهد: خواره حفيف الريح إذا دخلت جوفه. ويروى أن هارون -عليه السلام- مر بالسامري وهو يصنع العجل فقال له: ما تصنع. قال أصنع ما لا ينفع ولا يضر، وقال: ادع، فقال هارون اللهم أعطه ما يسأل كما يحب، فسأل الله -عز وجل- أن يجعل للعجل خواراً، والذي قاله مجاهد من أن خواره حفيف الريح فيه أسرع إلى القبول لأنه شيء ممكن.

والتفسير الآخر وهو: أنه خوار ممكن في محنة الله -عز وجل- أن امتحن القوم بذلك، ليس في خوار صفر ما يوجب عبادته، لأنهم قد رأوه معمولاً مصنوعاً، فعبادتهم إياه لو خار وتكلم كما يتكلم الآدمي لم تجب به عبادته.

فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾؛ قيل: إن السامري نسي ما كان عليه من الإيمان، لأنه نافق لما عبر البحر؛ المعنى: فترك ما كان عليه من الإيمان، وقيل: إن السامري قال لهم إن موسى -عليه السلام- أراد هذا العجل فنسي وترك الطريق الذي يصل إليه.

وقوله -جل وعز-: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً﴾؛ كما قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾[الأعراف: ١٤٨]، ويجوز أن لا يرجع بنصب بأن، والاختيار مع ((رأيت وعلمت وظننت)) أن لا يفعل، في معنى قد علمت أنه لا يفعل.

وقوله -جل وعز-: ﴿قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي﴾؛ ((يا ابن أم)) بفتح الميم، وإن شئت: ((يا ابنِ أمِ)) -بكسر الميم- وفتحت ((أمَّ)) والموضع موضع جر لأن ((ابن)) و((أم)) جعلا اسماً واحداً فبني ابن وأم على الفتح، ومن قال: ((يا ابن أم)) إضافة إلى نفسه. وفيها وجه ثالث ((يا ابن أمي لا تأخذ)) ولكنه لا يقرأ بها. ليست ثابتة الياء في المصحف. ومثل هذا من الشعر[1]:

يا ابنَ أُمِّي ويا شُقَيِّقَ نَفْسِي   أَنْتَ خَلَّيْتَنِي لِدَهْرٍ شَدِيدِ[2]

ولم يجئ هذا إلا في ابن أم، وابن عم، وذلك أنه يقال: لمن ليس بأخ لأم. ولا بأخ البتة: يا ابن أم، وكذلك يقال للأجنبي: يا ابن عم، فلما أزيل عن بابه بني على الفتح، وإن كان قد يقول القائل لأخيه من أمه أيضاً يا ابن أم، فإنما أدخل أخاه في جملة من يقول له: يا ابن أم.

وقد قيل في هارون إنه لم يكن أخا موسى لأمه -والله أعلم-.

قوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾؛ معنى ((ما خطبك)) ما أمرك الذي تخاطب به.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾؛ يقال: قد بصر الرجل يبصر إذا كان عليماً بالشيء، وأبصر يبصر إذا نظر، والتأويل: علمت بما لم يعلموا به، وكان رأى فرس جبريل -عليه السلام- فقبض قبضة من تراب حافر الفرس، يقال: قبضت قبضة، وقبصت قبصة -بالصاد غير معجمة- فالقبضة بجملة الكف، والقبصة بأطراف الأصابع. ويقرأ: بالصاد والضاد، فيه وجه آخر لم يقرأ به فيما علمت، ويجوز فَقَبصتُ قَبْصَة وقُبْصة، ولكن لا يجوز القراءة بها -إن كان لم يقرأ بها- فالقبضة قبض الشيء مرة واحدة، والقبصة: مقدار ما يقبص، ونظير هذا قوله -عز وجل-: ﴿إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾، وغرفة بيده.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾؛ ألقيتها في العجل لتخور.

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نفسي﴾؛ أي: زينت لي نفسي، ومثله: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾[محمد: ٢٥].

---

(١) قاله أبو زبيد الطائي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٦٤/٦)، وزاد المسير (٢٦٥/٣)، ولسان العرب (١٨١/١٠)، وتاج العروس (١/ ٦٤٠٥).

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الحَيَاةِ أَن تَقُولَ لاَ مِسَاسَ﴾؛ وأَنَّ لك، ويجوز: ((لا مساس وأَنَّ لك)) بفتح الميم وكسر السين الآخرة على وزن دَرَاكِ وتَراكِ.

والتأويل: أن موسى -عليه السلام- حرم مخالطة السامري؛ فالمعنى: أنك في الدنيا لا تخالط جزاء لفعلك، فمن قرأ ((لا مساسَ)) بفتح السين الأخيرة فهو منصوب على البدء به، ومن قال: ((لا مساسِ)) فهو مبني على الكسر، وهو نفي وقولك مِسَاس، أي: مِسَاس القوم تأمر بذلك، فإذا قلت لا مِسَاس فهو نفي ذلك، وبنيت مِسَاس على الكسر وأصلها الفتح لمكان الألف، ولكن مِسَاس ودَرَاك مؤنث، فاختير الكسر لالتقاء الساكنين لأنك تقول في المؤنث: فعلت يا امرأة، وأعطيتك يا امرأة.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَن تُخْلَفَهُ﴾؛ و((لن تُخْلِفه))، فمن قرأ: ((لَن تُخْلِفَهُ))؛ فالمعنى: يكافئك الله على ما فعلت في القيامة والله لا يخلف الميعاد، ومن قرأ: ((لن تُخْلَفه))؛ فالمعنى: أنك تبعث وتوافي يوم القيامة، لا تقدر على غير ذلك، ولن تخلفه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾؛ و((ظِلْت)) بفتح الظاء وكسرها، فمن فتح فالأصل فيها ((ظللت))، ولكن اللام حذفت لثقل التضعيف والكسر، وبقيت الظاء على فتحها، ومن قرأ ((ظِلت)) -بالكسر- حول كسرة اللام على الظاء، وقد يجوز في غير المكسور نحو: أحست. تريد أحسست، وقد حكيت همت بذلك، وتريد: هممت، ومعنى عاكف مقيم، وعاكف: منصوب خبر ظلت، وليس بمنصوب على الحال.

وقوله: ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾؛ ويقرأ: ((لَنُحَرِّقَنَّهُ)) أي: لنحرقنه بالنار، فإذا شدد؛ فالمعنى: نحرقه مرة بعد مرة وقرئت ((لَنَحْرُقَنَّهُ))، وتأويله: لنبردنه بالمبرد، يقال: حَرَقت أَحرِق أحرُق إذا بردت الشيء. ولم يقرأ ((لنحرِقَنّه))، ولو قرئت كانت جائزة.

وقوله -عز وجل- ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي اليَمِّ نَسْفاً﴾؛ اليم البحر، والنسف التذرية.

وقوله: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ حِمْلاً﴾؛ المعنى: ساء الوزر لهم يوم القيامة، و﴿حِمْلاً﴾ منصوب على التميز.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾؛ قد جرى تفسيره فيما مضى. وأكثر ما يذهب إليه أهل اللغة أن الصور جمع صورة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾؛ قيل: عَطاشاً وقيل: عمياً، يخرجون من قبورهم بصراء كما خلقوا أول مرة ويعمون في المحشر، وإنما قيل: زرقاً لأن

السواد يزرق إذا ذهبت نواظرهم ومن قال: عطاشا فجيد أيضاً، لأنهم من شدة العطش يتغير سواد أعينهم حتى يزرق.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً﴾؛ أصل الخفوت في اللغة السكون، والتخافت ههنا: السرار؛ فالمعنى: أنهم يتسارون بينهم.

وقوله عز وجل: ﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾؛ أي: أعلمهم عند نفسه بما يقول.

﴿إِن لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾ معناه: لبثتم إلا يوماً.

وقوله: ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً﴾؛ النسف التذرية. تصير الجبال كالهباء المنثور، تذري تذرية.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً﴾؛ القاع من الأرض المكان الذي يعلوه الماء، ويقال المكان الطيب والصفصف، المستوي من الأرض.

﴿لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلاَ أَمْتاً﴾؛ العوج في العصا والجبل ألا يكون مستوياً، والأمت أن يغلظ مكان ويدق مكان.

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ﴾؛ المعنى: لا عوج لهم عن دعائه، لا يقدرون أن لا يتبعوا.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾؛ الهمس في اللغة: الشيء الخفي، والهمس -ههنا- في التفسير صوت وطء الأقدام.

وقوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾؛ معنى عنت في اللغة: خضعت، يقال: عنا يَعْنُو إذا خضع، ومنه قيل: أخذت البلاد عنوة، إذا أخذت غلبة، وأخذت بخضوع من أهلها.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾؛ ما بين أيديهم من أمر القيامة، وجميع ما يكون، وما خلفهم ما قد وقع من أعمالهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾؛ الهضم النقص، يقال: فلان يهضمني حقي أي: ينقصني، وكذلك هذا شيء يهضم الطعام، أي: ينقص ثقلته.

وقوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾؛ ﴿فَنَسِيَ﴾ ههنا معناه: فترك، لأن الناسي لا يؤاخذ بنسيانه، وجاء في الحديث: ((لو وزن حلم بني آدم

مذ كان آدم إلى أن تقوم الساعة ما وفي حلم جميع من ولده وحزمهم بحلم آدم وحزمه ﷺ)).

وقال -عز وجل-: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾؛ وقوله -سبحانه-: ﴿وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾؛ يجوز ((وإنك)) بالكسر، و((أنك)) بالفتح، فإذا كسرت فعلى الاستئناف وعطف جملة كلام على جملة، وإذا فتحت فعلى معنى إن لك ((أن لا)) تظمأ فيها، فتنسق بأنك على ﴿أَلاَّ تَجُوعَ﴾؛ ويكون ((أنك)) على هذا القول في موضع نصب.

ويجوز أن يكون في موضع رفع، والعطف على اسم ((إن وأن))، لأن معنى إن زيداً قائم زيد قائم؛ فالمعنى: ذلك إنك لا تظمأ فيها، ومعنى ﴿لاَ تَظْمَأُ﴾ لا تعطش، يقال: ظمئ الرجل يظمأ ظمأ فهو ظمآن بمعنى عطشان ومعنى ﴿وَلاَ تَضْحَى﴾ ولا تصيبك الشمس، ولا يبرز يقال: ضحى الرجل يضحى إذا برز إلى الشمس، قال الشاعر(١) [من الطويل]:

رَأَت رَجُلاً أَمّا إِذا الشَمسُ عارَضَت فَيَضحى وَأَمّا بِالعَشِيِّ فَيَخصَرُ(٢)

ومعنى يخصر يصيبه الخصر وهو شدة البرد، وبلوغه الأطراف.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾؛ الضنك: أصله في اللغة الضيق والشدة.

ومعناه -والله أعلم- أن هذه المعيشة الضنك في نار جهنم. وأكثر ما جاء في التفسير أنه عذاب القبر.

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾؛ مثل ﴿وَنَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾، وقيل: أعمي عن حجته، وتأويله: أنه لا حجة له يهتدى إليها، لا أن له حجة، وأنه يعمى عنها. وما للناس على الله حجة بعد الرسل، ولله الحجة البالغة وقد بشر وأنذر ووعد وأوعد.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾؛ أي: لعل الوعيد يحدث لهم تذكر العذاب، فيزجرهم عن المعاصي وقيل: ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ أي: شرفاً.

وقوله عز وجل: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾؛ أي: من قبل أن يبين لك بيانه، ويقرأ: ((من قبل أن نقضي إليك وحيه)) بالنون، ويجوز ((من قبل أن

---

(١) هو: عمرو بن أبي ربيعة.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/٤٦٧)، والدر المنثور (٥/٦٠٥)، والأغاني (١/٨٢)، ولسان العرب (١٤/٤٧٤).

يقضى إليك وحيه))، أي: من قبل أن يقضي الله إليك وحيه، ولم تقرأ ((تقضي)) وقرئت: يقضى ونقضى بالياء والنون.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ أي: كذلك تترك في النار كما تركت آياتنا.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾؛ قرئت بالنون والياء، فمن قرأ بالنون فمعناه: أفلم نبين لهم بياناً يهتدون به، ومن قرأ ((أفلم يهد)) بالياء؛ فالمعنى: أفلم يبين لهم الأمر بإهلاك من قبلهم من القرون.

و((كم)) في موضع نصب بأهلكنا، وكانت قريش تتجر وترى مساكن عاد وثمود وبها علامات الإهلاك، فذلك قوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ ويجوز ((في مسكنهم))، أي: في موضع سكناهم ولم يقرأ بها، ويقرأ: ((يمشون في مساكنهم)) بالتشديد.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِي النُّهَى﴾؛ أي: لذوي العقول والمعرفة، يقال: فلان ذو نهية إذا كان له عقل ينتهي به عن المقابح.

وقوله: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً﴾؛ أي: لكان القتل الذي نالهم لازماً أبداً، ولكان العذاب لازماً لهم.

﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾؛ معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾؛ المعنى: لولا كلمة سبقت وأجل مسمى لكان لزاماً يعني بالأجل المسمى أن الله وعدهم العذاب يوم القيامة، وذلك قوله:

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾[القمر: ٤٦]؛ وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾؛ وذلك وقت الغداة والعشي.

﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾؛ الأناء: الساعات، وواحد الآناء: إنى وقد بيناه فيما مضى.

﴿فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾؛ وأطراف النهار الظهر والعصر.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾، ويقرأ: ((تُرضى)).

وقوله -تعالى-: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾؛ أي: رجالا منهم.

﴿زَهْرَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ و((زَهَرَة)) جميعاً بفتح الهاء وتسكينها، وزهرة: منصوب بمعنى ((متعنا)) لأن معناه: جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ أي: لنجعل ذلك فتنة لهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِن رَبِّهِ﴾؛ معناه: هلا يأتينا بآية من ربه وقد أتتهم البينات والآيات ولكنهم طلبوا أن يقترحوا ما يريدون من الآيات.

وقوله -تعالى-: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾؛ يجوز فيها يذل ويخزى.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾؛ ((من)) في موضع رفع، ولا يجوز أن يعمل فيها ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾، لأن معناه: معنى التسوية؛ المعنى: فستعلمون أصحاب الصراط السوي نحن أم هم، فلم يعمل فستعلمون لأن لفظ الكلام لفظه لفظ الاستفهام، ومعنى ﴿أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أصحاب الطريق المستقيم، ويجوز: من أصحاب الصراط السُّوَى ومن اهتدى.

﴿وَمَنِ اهْتَدَى﴾؛ أي: فسيعلمون من أصحاب الطريقة السوءَى ومن المهتدى.

* * *

سورة الأنبياء(١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾؛ معناه: اقتربت القيامة، ومثله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ القَمَرُ﴾[القمر:١]؛ والمعنى: -والله أعلم- اقترب للناس وقت حسابهم.

وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِن ذِكْرٍ مِن رَبِّهِم مُحْدَثٍ﴾؛ الخفض القراءة، ويجوز في غير القراءة ((محدثاً ومحدثٌ)). النصب على الحال، والرفع بإضمار ((هو)).

﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾؛ معطوف على معنى ﴿إلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾؛ معناه: استمعوه لاعبين لاهية قلوبهم، ويجوز أن يكون ﴿لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ منصوباً بقوله ﴿يَلْعَبُونَ﴾؛ ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ في ((أسروا)) قولان؛ أجودهما أن يكون ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ في موضع رفع بدلاً من الواو من ((أسروا)) ومبيناً عن معنى الواو؛ والمعنى: إلا استمعوه وهم يلعبون وأسروا النجوى، ثم بين من هم هؤلاء فكان بدلاً من الواو. ويجوز أن يكون رفعاً على الذم على معنى هم الذين ظلموا. ويجوز أن يكون في موضع نصب على معنى أعني الذين ظلموا.

وقوله: ﴿هَلْ هَذَا إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾؛ بين ما أسروه؛ والمعنى: قالوا سراً هل هذا إلا بشر مثلكم، يعنون النبي ﷺ أعلمهم الله عز وجل أنه يعلم القول في السماء والأرض،

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة الأنبياء من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف الحادية والعشرون. عدد آياتها اثنتا عشرة ومائة آية. وجاءت تسميتها الأنبياء لأن الله تعالى ذكر فيها جملة الأنبياء الكرام، في استعراض سريع يطول أحيانًا، ويقصر أحيانًا.

هذه السورة المكية تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة: الرسالة، والوحدانية، والبعث والجزاء. وتتحدث عن الساعة وشدائدها والقيامة وأهوالها، وعن قصص الأنبياء.

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة، وعن الحساب والجزاء، وقد شغلتهم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب. وتناولت السورة دلائل القدرة في الأنفس والآفاق، كما تناولت الحديث عن المكذبين، وهم يشهدون مصارع الغابرين، ولكنهم لا يعتبرون. ثم تتناول السورة قصص بعض الرسل، وتتحدث بإسهاب عن قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الوثنيين، وتتابع الحديث عن الرسل الكرام فتتحدث عن: إسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون، وزكريا، وعيسى، بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرضوا لها، وتختم ببيان رسالة سيّد المرسلين محمد بن عبد الله المرسل رحمة للعالمين.

وأطلع النبي ﷺ على قلبهم، وسرهم.

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ القَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾؛ وقرئت ((قل ربي يعلم القول))، و((قال ربي)).

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ﴾؛ أي: قالوا: الذي يأتي به النبي ﷺ أضغاث أحلام. وجاء في التفسير: أهاويل أحلام، والأضغاث في اللغة الأشياء المختلطة.

﴿بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾؛ أي: أخذوا ينقضون أقوالهم بعضها ببعض، فيقولون مرة: هذه أحلام، ومرة هذا شعر ومرة مفترى.

﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾؛ فاقترحوا الآيات التي لا يقع معها إمهال إذا كذب بها، فقال الله -عز وجل-:

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: ما آمن أهل قرية أتتهم هذه الآيات حتى أوجب الله استئصالهم وإهلاكهم بالعذاب، والله جعل موعد هذه الأمة القيامة، فقال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾[القمر: ٤٦] والله قد آتاهم الآيات التي تبينوا بها نبوة النبي ﷺ من القرآن الذي دعا أن يأتوا بسورة مثله، ومن انشقاق القمر، ومن قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[التوبة: ٣٣] فظهر أهل الإسلام حتى صاروا أكثر من كل فرقة فليس أهل ملة واحدة لهم كثرة أهل الإسلام، وأظهره الله أيضاً بالحجة القاطعة.

وقوله -تعالى-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾؛ أي: سلوا كل من يقر برسول الله ﷺ من أهل التوراة والإنجيل.

﴿إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إن كنتم لم تعلموا أن الرسل بشر. وهذا السؤال والله أعلم لمن كان مؤمناً من أهل هذه الكتب، لأن القبول يكون من أهل الصدق والثقة.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾؛ ﴿جَسَداً﴾ هو واحد ينبئ عن جماعة، أي: وما جعلناهم ذوي أجساد إلا ليأكلوا الطعام، وذلك أنهم قالوا: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ فأعلموا أن الرسل أجمعين يأكلون الطعام، وأنهم يموتون وهو قوله -تعالى-: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾.

وقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: فيه تذكرة لكم بما تلقونه من رحمة أو عذاب، كما قال -عز وجل-: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾[عبس: ١١]، وقد قيل: ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ فيه شرفكم.

وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾؛ ((كم)) في موضع نصب بقصمنا، ومعنى ﴿قَصَمْنَا﴾: أهلكنا، وأذهبنا، يقال: قصم الله عمر الكافر أي: أذهبه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾؛ أي: يهربون من العذاب.

﴿لاَ تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾؛ جاء في التفسير أنه قيل لهم ذلك على جهة الاستهزاء بهم، وقيل: لعلكم تسألون شَيْئاً مما أترفتم فيه، ويجوز لعلكم تسألون فتجيبون عما تشاهدون إذا رأيتم ما نزل بمساكنكم وما أترفتم فيه.

وقوله: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ ((ويل)) كلمة تقال لكل من وقع في هلكة، وكذلك يقولها كل من وقع في هلكة.

وقوله: ﴿فَمَا زَالَت تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾؛ أي: ما زالت الكلمة التي هي قولهم: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ دعواهم.

يجوز أن تكون ﴿تِلْكَ﴾ في موضع رفع اسم زالت و﴿دَعْوَاهُمْ﴾ في موضع نصب خبر زالت وجائز أن يكون ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ الاسم في موضع رفع، و﴿تِلْكَ﴾ في موضع نصب على الخبر لا اختلاف بين النحويين في الوجهين.

وقوله: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ اللهو في لغة حضر موت: الولد، وقيل: اللهو المرأة، وتأويله أن الولد لهو الدنيا، فلو أردنا أن نتخذ ذا لهو يلهى به، ومعنى، ﴿لاَّتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: لاصطفيناه مما نخلق.

﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ معناه: ما كنا فاعلين.

وكذلك جاء في التفسير. ويجوز أن يكون للشرط، أي: إن كنا ممن يفعل ذلك ولسنا ممن يفعله. والقول الأول قول المفسرين، والقول الثاني قول النحويين، وهم أجمعون يقولون القول الأول ويستجيدونه، لأن ((إن)) تكون في معنى النفي، إلا أن أكثر ما تأتي مع اللام تقول: إن كنت لصالحاً، ومعناه ما كنت إلا صالحاً.

وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾؛ يعنى بالحق القرآن على باطلهم ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ فيذهبه ذهاب الصغار والإذلال.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾؛ أي: ذاهب.

﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾؛ أي: مما تكذبون في وصفكم في قولكم إن لله ولداً.

وقوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ﴾؛ أي: هؤلاء الذين ذكرتم أنهم أولاد الله -عز وجل- عباد الله، وهم الملائكة.

وقوله: ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ أي: لا يعيون، يقال: حسر واستحسر إذا تعب وأعيا، فالملائكة لا يعيون.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾؛ أي: لا يشغلهم عن التسبيح رسالة، ومجرى التسبيح منهم كمجرى النفس منا، لا يشغلنا عن النفس شيء، فكذلك تسبيحهم دائم.

وقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾؛ و((يَنْشُرون))، فمن قرأ ﴿يُنشِرُونَ﴾ فمعناه أم اتخذوا آلهة يحيون الموتى، يقال: أنشر الله الموتى ونَشَروهم، ومن قرأ ((يَنشرون)) بفتح الياء، فمعناه: أم اتخذوا آلهة لا يموتون يحيون أبداً.

وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾؛ ﴿فِيهِمَا﴾ في السماء والأرض، و ((إلا)) في معنى ((غير))؛ المعنى: لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا، فـ((إلا)) صفة في معنى غير، فلذلك ارتفع ما بعدها على لفظ الذي قبلها قال الشاعر[1] [من الوافر]:

وَكُلِ أخ مفارقُه أَخوه لعمرُ أَبيك إِلا الفَرقَدَان[2]

المعنى: وكل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه.

وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ ((سبحان الله)) معناه: تنزيه من السوء، وقد فسرنا ذلك. وهذا تفسير عن النبي ﷺ.

وقوله: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾؛ أي: لا يسأل في القيامة عن حكمه في عباده، ويسأل عباده عن أعمالهم سؤال موبخ لمن يستحق التوبيخ، ومجازياً بالمغفرة لمن استحق ذلك، لأن الله -عز وجل- قد علم أعمال العباد، ولكن يسألهم إيجاباً للحجة عليهم، وهو قوله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾[الصافات: ٢٤]؛ أي: سؤال الحجة التي ذكرنا.

(١) هو: عمرو بن معدي كرب الزبيدي.

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٦٣/٤)، وتفسير القرطبي (٣٤١/٨)، وفتح القدير (٥٧٥/٣)، وتفسير البغوي (١/ ١٦٥)، وروح المعاني (١٩٢/١١)، وزاد المسير (١٦٢/٢)، وتفسير الثعالبي (١١٩/١)، والجمل في النحو (١٧٧/١)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٢٦٨/١)، ومغني اللبيب (١٠١/١)، والبيان والتبيين (١٢٨/١)، وشرح كتاب الأمثال (٢٥٧/١)، وكتاب جمهرة الأمثال (٢١/٢)، ومجمع الأمثال (٤٣٨/١)، ولسان العرب (٣٢٥/١٢)، وتاج العروس (٧٧٨١/١).

فأما قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾[الرحمن: ٣٩] فهذا معناه: لا يسأل عن ذنبه ليستعلم منه، لأن الله قد علم أعمالهم قبل وقوعها وحين وقوعها وبعد وقوعها. فهو عالم الغيب والشهادة.

وقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾؛ قد أبان الله الحجة عليهم في تثبيت توحيده وأن آلهتهم لا تغني عنهم شيئاً، ثم قيل لهم: هاتوا برهانكم بأن رسولاً من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلهاً غير الله، فهل في ذكر من معي وذكر من قبلي إلا توحيد الله -عز وجل-، وقد قرئت: هذا ذكر من معي وذكر من قبلي، ووجهها جيد، ومعناه: هذا ذكر مما أنزل علي مما هو معي، وذكر من قبلي.

قال إسحاق: يريد بقوله ((من معي)) أي: من الذي عندي، أو من الذي قبلي.

ثم بين فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾؛ و﴿نُوحِي إِلَيْهِ﴾ ويجوز: ((يوحى إليه)) ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾؛ يعني الملائكة وعيسى ابن مريم -عليه السلام-.

والذي في التفسير أنهم الملائكة، ولو قرئت: ((بل عباداً مكرمين)) لم يجز لمخالفة المصحف، وهي في العربية جائزة ويكون المعنى: بل اتخذ عباداً مكرمين، الرفع أجود وأحسن.

وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؛ قال ((كانتا)) السماوات يعبر عنها بلفظ الواحد، وأن السماوات كانتا سماء واحدة، وكذلك الأرضون كانت أرضاً واحدة؛ فالمعنى: أن السماوات كانتا سماء واحدة مُرْتَتَقَةٌ ليس فيها ماء، ففتق الله السماء فجعلها سبعاً وجعل الأرض سبع أرضين.

وجاء في التفسير أن السماء فتقت بالمطر والأرض بالنبات، ويدل على أنه يراد بفتقها كون المطر فيها قوله -عز وجل-: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾؛ وقيل: رتقاً ولم يقل رتقين، لأن الرتق مصدر؛ المعنى: كانتا ذواتي رتق فجعلتا ذواتي فتق. ودلهم بهذا على توحيده -جل وعز- ثم بكتهم فقال: ﴿أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾؛ المعنى: كراهة أن تميد بهم، قوم: معناه: إلا تميد بهم؛ والمعنى: كذلك، إلا أن ((لا)) تضمر والاسم المضاف يحذف، وكراهة أن تميد بهم يؤدي عن معنى إلا تميد بهم.

ومعنى تميد في اللغة: تدور، ويقال للذي يدار به إذا ركب البحر مائد، ومدي والرواسي تعني الجبال الثوابت.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً﴾؛ فِجاج جمع فَجّ، وهو: كل منخرق بين جبلين، وسبلاً: طرقاً.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾؛ حفظه الله من الوقوع على الأرض ((إلا بإذنه)) وقيل: محفوظاً، أي: محفوظاً بالكواكب كما قال -عز وجل-: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِن كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾[الصافات: ٦، ٧].

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾؛ معناه: وهم عن شمسها وقمرها ونجومها، وقد قرئت عن: ((أيتها))، وتأويله: أن الآية فيها في نفسها أعظم آية لأنها ممسكة بقدرته -عز وجل-، وقد يقال: للذي ينتظم علامات كثيرة آية، يراد به أنه بجملته دليل على توحيد الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾؛ قيل: يسبحون كما يقال لما يعقل، لأن هذه الأشياء وصفت بالفعل كما يوصف من يعقل، كما قالت العرب - في رواية جميع النحويين- أكلوني البراغيث لما وصفت بالأكل قيل: أكلوني، قال الشاعر[1] [من الطويل]:

شَرِبتُ بِها وَالديكُ يَدعو صَباحَهُ إِذا ما بَنُو نَعشٍ دَنوا فَتَصَوَّبوا[2]

وقوله -عز وجل-: ﴿أَفَإِن مِتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ﴾؛ يقرأ: ((مُت)) بضم الميم، و ((مِت)) بكسرها، وأكثر القراءة بالضم، وقد فسرنا ما في هذا الباب.

والفاء دخلت على ((إن)) جواب الجزاء، كما تدخل في قولك: إن زرتني فأنا أخوك، ودخلت الفاء على ((هم)) لأنها جواب ((إن)).

وقوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾؛ ((هذا)) على إضمار الحكاية؛ المعنى: وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً يقولون أهذا الذي يذكر آلهتكم؛ والمعنى: أهذا الذي يعيب آلهتكم يقال: فلان يذكر الناس أي: يغتابهم ويذكرهم بالعيوب، ويقال فلان يذكر الله، أي: يصفه بالعظمة ويثني عليه ويوحده. وإنما يحذف مع الذكر ما عقل معناه:، قال

---

(١) هو: النابغة الجعدي.

(٢) انظر: مغني اللبيب (١/٤٧٨).

الشاعر[١] [من الكامل]:

لا تَذْكُرِي فَرَسِي وما أَطْعَمْتُه فيَكون جِلْدُكِ مِثْلَ جِلْدِ الأَجْرَبِ[٢]

المعنى: لا تذكري فرسي وإحساني إليه فتعيبيني بإيثاري إياه عليك.

وقوله -عز وجل-: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ قال أهل اللغة: المعنى: خلقت العجلة من الإنسان، وحقيقته يدل عليها، ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾[الإسراء: ١١]، وإنما خوطبت العرب بما تعقل، والعرب تقول للذي يكثر الشيء خلقت منه، كما تقول: أنت من لعب، وخلقت من لعب، تريد المبالغة بوصفه باللعب.

وقوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ﴾؛ أي: حين لا يدفعون عن وجوههم النار، وجواب ((لو)) محذوف؛ المعنى: لعلموا صدق الوعد، لأنهم قالوا ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[النمل: ٧١].

وجعل الله -عز وجل- الساعة موعدهم ثم قال: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾.

﴿بَغْتَةً﴾: فجاءة وهم غافلون عنها، ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾: فتحيرهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾؛ معناه: -والله أعلم- من يحفظكم من بأس الرحمن، كما قال ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾[هود: ٦٣] أي: من عذاب الله.

وقوله: ﴿أَفَهُمُ الغَالِبُونَ﴾؛ أي: قد تبين لهم أنا ننقص الأرض من أطرافها، ولأن الغلبة لنا، وقد فسرنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها في سورة الرعد، أي: فالله الغالب وهم المغلوبون، أعني حزب الشيطان.

وقوله: ﴿وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾؛ ويجوز ولا تسمع الصم الدعاء، والصم ههنا المعرضون عما يتلى عليهم من ذكر الله فهم بمنزلة من لا يسمع كما قال الشاعر:

أصم عما ساءه سميع

وقوله -تعالى-: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾؛ أي: إن مسهم أدنى شيء من العذاب.

---

(١) خزر بن لوذان السدوسي.

(٢) انظر: لسان العرب (٤/٣٠٨)، وتاج العروس (١/٢٨٦٨).

﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ والويل ينادى به، وينادي به كل من وقع في هلكة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ ﴿الْقِسْطَ﴾ العدل؛ المعنى: ونضع الموازين ذوات القسط، وقسط مثل عدل مصدر يوصف به، وتقول ميزان قسط وميزانان قسط، وموازين قسط والميزان في القيامة.

جاء في التفسير: أن له لساناً وكفتين، وتمثل الأعمال بما يوزن، وجاء في التفسير أنه يوزن خاتمة العمل، فمن كانت خاتمة عمله خيراً جوزي بخير، ومن كانت خاتمة عمله شراً فجزاؤه الشر.

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾؛ نصب ﴿مِثْقَالَ﴾ على معنى وإن كان العمل مثقال حبة من خردل، ويقرأ: ((وإن كان مثقالُ حبة)) بالرفع على معنى وإن حصل للعبد مثقال حبة من خردل أتينا بها.

﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ معناه: جئنا بها، وقد قرئت: ((أتينا بها)) على معنى جازينا بها وأعطينا بها، وأتينا بها أحسن في القراءة وأقرب في أمل العفو.

﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾؛ منصوب على وجهين، على التمييز وعلى الحال، ودخلت الباء في ﴿وَكَفَى بِنَا﴾، لأنه خبر في معنى الأمر؛ المعنى: اكتفوا بالله حسيباً.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ جاء عن ابن عباس أنه يرى حذف الواو، وقال بعض النحويين معناه: ولقد أتينا موسى وهارون الفرقان ضياء، وعند البصريين أن الواو لا تزاد ولا تأتي إلا بمعنى العطف، وتفسير الفرقان التوراة التي فيها الفرق بين الحلال والحرام، و((ضياء)) ههنا مثل قوله: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[المائدة: ٤٦]؛ ويجوز وذكرى للمتقين.

وقوله: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾؛ المعنى: هذا القرآن ذكر مبارك.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: آتيناه هداه حدثاً، وهو مثل قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْس هُدَاهَا﴾.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾؛ ((إذ)) في موضع نصب؛ المعنى: أتيناه رشده في ذلك الوقت، ومعنى التماثيل ههنا الأصنام، ومعنى العكوف المقام على الشيء.

وقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾؛ معناه: -والله أعلم- ووالله لأكيدن، ولا تصلح التاء في القسم إلا في الله، تقول: وحق الله لأفعلن، ولا يجوز تحق الله لأفعلن، وتقول:

وحق زيد لأفعلن، والتاء بدل من الواو، ويجوز: وبالله لأكيدن أصنامكم، وقراءة أهل الأمصار: ((تالله))، ولا نعلم أحداً من أهل الأمصار قرأ بالباء، ومعناها صحيح جيد.

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً﴾؛ و((جِذاذاً)) تقرأ بالضم والكسر فمن قرأ: ((جِذاذاً)) فإنه بنيّة كل ما كسر وقطع على فعال نحو: الجذاذ والحطام والرفات، ومن قال: ((جُذاذا)) فهو جمع جذيذ وجذاذ نحو ثقيل وخفيف وخفاف. ويجوز جذاذاً على معنى القطاع والحصاد، ويجوز جذذ على معنى جَذَيذ وجُذُذ مثل جديد وجدد.

وقوله: ﴿إِلاَّ كَبِيراً لَهُمْ﴾ أي: كسر هذه الأصنام إلا أكبرها، وجائز أن يكون أكبرها عندهم في تعظيمهم إياه، ولا في الخلقة، ويجوز أن يكون أعظمها خلقة.

ومعنى: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾؛ أي: لعلهم باجتجاج إبراهيم عليهم به يرجعون فيعلمون وجوب الحجة عليهم.

قوله: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾؛ أي: يذكرهم بالعيب، وقالوا للأصنام يذكرهم لأنهم جعلوها في عبادتهم إياها بمنزلة ما يعقل.

وإبراهيم: يرتفع على وجهين؛ أحدهما: على معنى يقال له: هو إبراهيم، والمعروف به إبراهيم، وعلى النداء على معنى يقال له: يا إبراهيم.

﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾؛ أي: لعلهم يعرفونه بهذا القول فيشهدون عليه، فيكون ما ينزل به حجة عليه، وجائز أن يكون لعلهم يشهدون عقوبتنا إياه.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾؛ يعني الصنم العظيم.

﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾؛ قال بعضهم: إنما المعنى: بل فعله كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون.

وجاء في التفسير: أن إبراهيم نطق بثلاث كلمات على غير ما يوجبه لفظها لما في ذلك من الصلاح، وهي قوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[الصافات: ٨٩]، وقوله: ﴿فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: إن سارة أختي، والثلاث لهن وجه في الصدق بين، فسارة أخته في الذين، وقوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فيه غير وجه؛ أحدها: إني مغتم بضلالتكم حتى أنا كالسقيم، ووجه آخر: إني سقيم عندكم، وجائز أن يكون ناله في هذا الوقت مرض.

ووجه الآية ما قلناه في قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾؛ واحتج قوم بأن قول إبراهيم مثل قول يوسف لإخوته: ﴿أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُمْ

لَسَارِقُونَ﴾[يوسف: ٧٠] ولم يسرقوا الصاع، وهذا تأويله -والله أعلم- إنكم لسارقون يوسف.

وقوله: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ﴾؛ جاء في التفسير: أنه أدركت القوم حيرة.

ومعنى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾؛ أي: ثم نكسوا على رؤوسهم فقالوا لإبراهيم -عليه السلام-: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾، فقد اعترفوا بعجز ما يعبدونه عن النطق.

وقوله: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ يقرأ ((أف لكم)) بغير تنوين، و((أف)) بتنوين، ويجوز ((أف لكم، وأف لكم)) بالضم والتنوين وبترك التنوين، ويجوز ((أفَ لكم)) بالفتح. فأما الكسر بغير تنوين فلالتقاء الساكنين وهما الفاءان في قوله ((أف))، وإنما أصل الكلمة السكون لأنها بمنزلة الأصوات، وحذف التنوين لأنها معرفة لا يجب إعرابها، وتفسيرها ((النتن)) لكم ولما تعبدون فمن نون جعله نكرة بمنزلة ((نتناً لكم ولما تعبدون من دون الله))، وكسر لأن أصل التقاء الساكنين الكسر، ولأن أكثر الأصوات مبني على الكسر نحو قوله: ((غاق وجير وأمس وأيا)) ويجوز الفتح لالتقاء الساكنين لثقل التضعيف والكسر، ويجوز الضم لضمة الألف كما قالوا: رُدَّ يا هذا ورُدُ، ورِد بالكسر، ومن نون مع الضم فبمنزلة التنوين مع الكسر.

وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾؛ جاء في التفسير أنها من أرض الشام إلى العراق.

قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾؛ النافلة ههنا ولد الولد، يعنى به يعقوب خاصة.

وقوله: ﴿وَإِقَامَ الصَّلاةِ﴾؛ إقام: مفرد قليل في اللغة، تقول: أقمت إقامة، فأما أقام الصلاة فجائز لأن الإضافة عوض من الهاء.

وقوله: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾؛ ((لوطاً)) منصوب بفعل مضمر لأن قبله فعلاً فالمعنى: وأوحينا إليهم وآتينا لوطاً حكماً وعلماً، والنصب ههنا أحسن من الرفع لأن قبل أتينا فعلاً وقد ذكر بعض النحويين أنه منصوب على ((واذكر لوطاً)) وهذا جائز لأن ذكر إبراهيم قد جرى فحمل لوط على معنى واذكر.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ﴾؛ منصوب على واذكر، وكذلك قوله:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ﴾؛ على معنى واذكر داود وسليمان ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ النفش بالليل، والهمل بالنهار.

وجاء في التفسير: أن غنماً على عهد داود وسليمان مرت بحرث لقوم فأفسدته وروي أن الحرث كان حنطة، وروي: أنه كان كرماً، فأفسدت ذلك الحرث فحكم داود بدفع الغنم إلى أصحاب الكرم وحكم سليمان بأن يدفع الغنم إلى أصحاب الكرم فيأخذوا منافعها من ألبانها وأصوافها وعوارضها إلى أن يعود الكرم كهيئة وقت أفسد فإذا عاد الكرم إلى هيئته ردت الغنم إلى أربابها ويدفع الكرم إلى صاحب الكرم.

قال إسحاق: ويجوز أن تكون عوارضها من أحد وجهين، إما أن يكون جمع عريض وعرضان، وهو اسم للحمل، وأكثر ذلك في الجدي، ويجوز أن يكون بما يعرض من منافعها حتى يعود الكرم كما كان، وهذا -والله أعلم- يدل على أن سليمان علم أن قيمة ما أفسدت الغنم من الكرم بمقدار نفع الغنم.

قال الله -عز وجل-: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾؛ أي: فهمناه القضية، والحكومة، ﴿وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾؛ وقوله -عز وجل-: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾؛ ويجوز والطير، على العطف على ما في يسبحن، ولا أعلم أحداً قرأ بها.

﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ أي: وكنا نقدر على ما نريده، ونصب ((الطير)) من جهتين إحداهما على معنى سخرنا الطير، والأخرى على معنى يسبحن مع الطير.

وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِنْ بَأْسِكُمْ﴾؛ وقرئت لنحصنكم من بأسكم بالنون، ويجوز ليحصنكم بالياء، فمن قرأ بالياء أراد ليحصنكم هذا اللبوس، ويجوز على معنى ليحصنكم بالياء فمن قرأ بالياء أراد ليحصنكم هذا اللبوس، ويجوز على معنى ليحصنكم الله من بأسكم وهي مثل لنحصنكم بالنون ومن قرأ بالتاء أراد لتحصنكم الصنعة، فهذه الثلاثة الأوجة قد قرئ بهن، ويجوز فيها ثلاث لم يقرأ بهن، ولا ينبغي أن يقرأ بهن لأن القراءة سنة.

يجوز ((لنحصنكم)) بالنون والتشديد، ((ولتحصنكم)) بالتاء والتشديد، ((وليحصنكم)) بالياء مشددة الصاد في هذه الثلاث.

وعلم الله داود صنعة الدروع من الزرد، ولم تكن قبل داود -عليه السلام- فجمعت الخفة والتحصين، كذا روي.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾؛ وقرئت ((الرياح عاصفة، وقرئت الريح عاصفة)) برفع ((الريح)). فمن قرأ: الريح عاصفة. بالنصب فهي عطف على الجبال؛ والمعنى: وسخرنا مع داو الجبال، وسخرنا لسليمان الريح، وعاصفة: منصوب على الحال ومن قرأ الريح رفع كما تقول: لزيد المال، وهذا داخل في معنى التسخير، لأنه إذا قال ﴿تجري بأمره إلى الأرض﴾ ففي الكلام دليل على أن الله -جل ثناؤه- سخرها له.

وقوله: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾؛ يجوز أن يكون موضع ((من)) نصباً عطفاً على الريح، ويجوز أن يكون ((من)) في موضع رفع من جهتين؛ إحداهما: العطف على الريح؛ المعنى: ولسيلمان الريح وله من يغوصون من الشياطين، ويجوز أن يكون رفعاً بالابتداء، ويكون ((له)) الخبر.

وقوله: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ﴾؛ معناه: سوى ذلك، أي: سوى الغوص.

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾؛ كان الله يحفظهم من أن يفسدون ما عملوا.

وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾؛ ((أيوب)) منصوب على معنى واذكر أيوب.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ﴾؛ أكثر التفاسير أن الله -جل ثناؤه- أحيا من مات من بنيه وبناته ورزقه مثلهم من الولد، وقيل: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَعَهُمْ﴾ آتيناه في الآخرة.

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الكِفْلِ﴾؛ هذا كله منصوب على ((واذكر)).ويقال إن ذا الكفل سمي بهذا الاسم لأنه تكفل بأمر نبي في أمته فقام بما يجب فيهم وفيه، ويقال: إنه تكفل بعمل رجل صالح فقام به.

والكفل في اللغة: الكساء الذي وراء الرحل على عجز البعير، وقيل: الكفل أيضاً النصيب، قال الله عز وجل: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ﴾[الحديد: ٢٨].

وقوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَهَبَ مُغَاضِباً﴾؛ ((ذا النون)) يونس، والنون السمكة؛ والمعنى: واذكر ذا النون، ويروى أنه ذهب مغاضباً قومه، وقيل: إنه ذهب مغاضباً ملكاً من الملوك.

﴿فَظَنَّ أَن لَن نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ظن أن لن نقدر عليه ما قدرناه من كونه في بطن الحوت، ويقدر بمعنى يقدر.

وقد جاء هذا في التفسير وقد روي عن الحسن أنه قال: عبد أَبَق من ربه، وتأويل قول الحسن أنه هرب من عذاب ربه، لأن يونس ظن أن الهرب ينجيه من الله -عز وجل- ولا من قدره.

وقوله: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ﴾؛ ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ وجهان، أحدهما: يعنى به ظلمة الليل وظلمة البحر.

وظلمة بطن الحوت، ويجوز أن يكون ((نادى في الظلمات)) أن يكون أكثر دعائه وندائه كان في ظلمات الليل.

والأجود التفسير الأول؛ لأنه في بطن الحوت لا أحسبه كان يفصل بين ظلمة الليل وظلمة غيره ولكنه أول ما صادف ظلمة الليل ثم ظلمة البحر ثم ظلمة بطن الحوت. وجائز أن يكون الظلمات اتفقت في وقت واحد، فتكون ظلمة بطن الحوت في الليل والبحر نهاية في الشدة.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ الذي في المصحف بنون واحدة كتبت، لأن النون الثانية تخفى مع الجيم، فأما ما روي عن عاصم بنون واحدة فلحن لا وجه له، لأن ما لا يسمى فاعله لا يكون بغير فاعل.

وقد قال بعضهم: نجى النجاء المؤمنين، وهذا خطأ باجتماع النحويين كلهم، ولا يجوز: ضرب زيداً، تريد ضرب الضرب زيداً، لأنك إذا قلت: ضرب زيد فقد علم أنه الذي ضربه ضرب، فلا فائدة في إضماره واقامته مع الفاعل. ورواية أبي بكر بن عياش في قوله ((نجي المؤمنين)) يخالف قراءة أبي عمرو ننجي بنونين.

وقوله: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾؛ يروى أنها كانت عقيماً فجعلها الله -عز وجل- ولوداً، ويروى: أنه كان في خلقها سوء فأصلح الله ذلك وحسن خلقها.

وقوله: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾؛ وقرئت: ((رغْباً ورهْباً))، فالرغب والرهب مصدران، ويجوز: رُغْباً ورُهْباً، ولا أعلم أحداً قرأ بهما، أعني الرُّغب والرُّهب في هذا الموضع. والرُّغب والرَّغَب مثل البُخْل والبَخَل، والرُّشد والرَّشَد.

وقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ ((التي)) في موضع نصب.

المعنى: واذكر التي أحصنت فرجها. ويروى في بعض التفسير أنه يعني جيبها.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾؛ لو قيل: آيتين لصلح، ولكن لما كان شأنهما واحداً، وكان الآية فيهما جميعاً معناها آية واحدة، وهي ولادة من غير فحل جاز أن يقول: آية.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾؛ أمتكم رفع خبر هذه؛ المعنى: إن هذه أمتكم في حال اجتماعها على الحق، فإذا افترقت فليس من خالف الحق داخلاً فيها، ويقرأ: ((أمة واحدة))، على أنه خبر بعد التوكيد، قيل: إن أمتكم كلها أمة واحدة.

وقوله: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾؛ المعنى: أن الله أعلمهم أن أمر الحجة واحد وأنهم تفرقوا، لأن تقطيعهم أمرهم بينهم تفرقة.

وقوله: ﴿فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾؛ كفران: مصدر مثل الغفران والشكران، والعرب تقول: غفرانك لا كفرانك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ قرئت: ((حِرْمٌ وحَرَام))، هاتان أكثر القراءة، وقد قرئت: ((حَرَمَ على قرية، وحَرِم على قرية)).

وجاء في التفسير: حرم في معنى ختم، وجاء أيضاً عن ابن عباس أنه قال: حتم عليهم إلا يرجعوا إلى دنياهم، وجاء عنه وعن قتادة: أنهم لا يرجعون إلى توبة، وعند أهل اللغة حرم وحرام في معنى واحد مثل حل وحلال. وظاهر: ((حرام عليهم أنهم لا يرجعون)) يحتاج إلى أن يبين ولا أعلم أحداً من أهل اللغة ولا من أهل التفسير بينه.

وهو -والله أعلم- أنه لما قال: ﴿فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أعلمنا أن الله -عزو جل- قد حرم قبول أعمال الكافرين وبين ذلك بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[محمد: ١]؛ فالمعنى: حرام على قرية أهلكناها أن نتقبل منهم عملاً لأنهم لا يرجعون، أي: لا يتوبون، وحَرِم وحَرُم في معنى حرام، إلا أن حراماً اسم، وحَرِم وحَرُم فعل.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾؛ بهمز وغير همز، وهما قبيلتان من خلق الله.و

يروى أن الناس عشرة أجزاء تسعة منهم يأجوج ومأجوج، وهما اسمان أعجميان، واشتقاق مثلهما من كلام العرب يخرج من أججت النار، ومن النار الأجاج وهو أشد وهو الشديد الملوحة، المحرق من ملوحته.

وقوله: ﴿وَهُم مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾؛ ورويت أيضاً من كل جدث ينسلون، - بالجيم والثاء - والأجود في هذا الحرف ((حدب ينسلون)) بالحاء، والحدب: كل أَكمةٍ، وينسلون يسرعون.

وقوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ﴾؛ قال بعضهم: معنى الواو الطرح. والجواب عند البصريين قوله: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ وههنا قول محذوف؛ المعنى: حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

وجاء في التفسير: أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾؛ قرئت على ثلاثة أوجه، ((حَصَب جهنم، وحَطَب جهنم، وحَضَب)) - بالضاد معجمة - فمن قرأ: حَصَب. فمعناها: كل ما يرمى به في جهنم. ومن قال: حَطَب. فمعناه: ما توقد به جهنم كما قال -عز وجل-: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[التحريم: ٦]، ومن قال: حَضَب. -بالضاد معجمة- فمعناه: ما تهيج به النار وتذكى به، والحضب: الحية.

وقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾؛ وللكتاب، ويقرأ: ((السجل بتخفيف اللام، فمن خفف أسكن الجيم.

وجاء في التفسير: أن السجل الصحيفة التي فيها الكتاب، وقيل: إن السجل ملك. وقيل: إن السجل بلغة الجيش الرجل، وعن أبي الجوزاء: أن السجل كاتب كان النبي ﷺ وتمام الكلام ((للكتب)).

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾؛ مستأنف؛ المعنى: نبعث الخلق كما بدأناهم، أي: قدرتنا على الإعادة كقدرتنا على الابتداء، ويجوز: ((يوم تُطْوَى السماء كطي السجل))، ويجوز: ((يوم يَطْوِي السماء كطي السجل))، ولم يقرأ ((يَطْوِي))، وقرئت ((نَطْوِي وتُطْوَي)) بالنون والتاء.

وقوله: ﴿وَعْداً عَلَيْنَا﴾؛ ((وعداً)) منصوب على المصدر، لأن قوله ((نعيده)) بمعنى وعدنا هذا وعداً وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ أي: قادرين على فعل ما نشاء.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾؛ الزبور: جميع الكتب التوراة، والإنجيل، والفرقان. ((زبور))، لأن الزبور والكتاب بمعنى واحد. ويقال زَبَرت وكَتَبت بمعنى واحد.

والمعنى: ولقد كتبنا في الكتب من بعد ذكرنا في السماء ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

قيل في التفسير: أنها أرض الجنه، ودليل هذا القول قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[المؤمنون: ١٠، ١١]؛ وقيل: إن الأرض ههنا يعني بها أرض الدنيا، وهذا القول أشبه كما قال الله -عز وجل-: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[الجمعة: ١] والأرض إذا ذكرت فهي دليله على الأرض التي نعرفها، ودليل هذا القول أيضاً: قوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ

الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾[الأعراف: ١٣٧]؛ وهذه الآية من أجل شواهد الفقهاء أن الأرض ليس مجراها مجرى سائر ما يعمر.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾؛ الأجود ((أنما)) بفتح ((أن))، وهي القراءة، ولو قرئت إنما لجاز، لأن معنى ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ ((يقال لي)) ولكن القراءة الفتح لا غير.

وقوله: ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾؛ ﴿آذَنتُكُمْ﴾ أعلمتكم بما يوحى إلي لتستووا في الإيمان به.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾؛ أي: وما أدري ما آذنتكم به فتنة لكم أي: اختبار لكم.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾؛ ويقرأ: ((قُلْ رب احكم بالحق))، ويجوز وقد قرئ به: ((قال رَبِيَّ احكم بالحق))، وكان من مضى من الرسل يقولون: ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق، ومعناه: احكم.

فأمر الله -عز وجل- نبيه أن يقول: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾؛ وقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾؛ أي: على ما تكذبون.

* * *

سورة الحج (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾.

يا أيها: نداء مبهم مفرد، وها للتنبيه، وهو مبني على الضم، والناس رفع تبع لـ ((يا أيها))، والنحويون لا يجيزون إلا رفع الناس ههنا. والمازني أجاز النصب في يا أيها الرجل أقبل، كما تقول: يا زيد الظريف والظريف، وهذا غلط من المازني، لأن زيداً يجوز الوقف والاقتصار عليه دون الظريف ((ويا أيها)) ليس بكلام، وإنما القصد الناس، فكأنه بمنزلة: ((يا ناس اتقوا ربكم)).

وجاء في التفسير: أن كل شيء جاء في كتاب الله من ((يا أيها الناس)) فمكي، وما كان فيه من ((يا أيها الذين آمنوا)) فمدني.

وقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾؛ قيل: إن هذه الزلزلة في الدنيا وأن يكون بعدها طلوع الشمس من مغربها، وقيل: إنها الزلزلة التي تكون مع الساعة.

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة**: سورة الحج إحدى سور القرآن الكريم المدنية. ترتيبها في المصحف الشريف الثانية والعشرون. عدد آياتها ثمان وسبعون آية. جاءت تسميتها الحج تخليدًا لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام، حين انتهى من بناء البيت العتيق، ونادى الناس لحج بيت الله الحرام.

سورة الحج تتناول جوانب التشريع شأنها شأن سائر السور المدنية التي تعنى بأمور التشريع، ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها جو السور المكية، فموضوع الإيمان، والتوحيد والإنذار والتخويف، وموضوع البعث والجزاء، ومشاهد القيامة، وأهوالها هو البارز في السورة الكريمة. إلى جانب الموضوعات التشريعية، من الإذن بالقتال، وأحكام الهَدْي، والأمر بالجهاد في سبيل الله.

ابتدأت السورة الكريمة بمطلع مخيف، ترتجف له القلوب وتطيش لهوله العقول، ذلكم هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة.

ومن أهوال الساعة إلى أدلة البعث والنشور، تنتقل السورة لتقيم الأدلة والبراهين على البعث بعد الفناء، ثم الانتقال إلى دار الجزاء، لينال الإنسان جزاءه إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر. وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة حيث يكون الأبرار في دار النعيم، والفجار في دار الجحيم. ثم انتقلت السورة للحديث عن الحكمة من الإذن بقتال الكفار، وتناولت الحديث عن القرى المدمرة بسبب ظلم أهلها وطغيانهم، وذلك لبيان سنة الله في الدعوات، وتطميناً للمسلمين بالعاقبة التي تنتظر الصابرين. وختمت السورة إذ ضربت مثلاً لعبادة المشركين للأصنام، وبينت أن هذه المعبودات أعجز وأحقر من أن تخلق ذبابة فضلاً عن أن تخلق إنسانًا سميعًا بصيرًا، ودعت إلى اتباع ملة الخليل إبراهيم، كهف الإيمان، وركن التوحيد.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾؛ ويجوز ((تُذْهِل كل مرضعة))، ومعنى ((تذهل)) تحير، وتترك كل مرضعة قد ذهلت عما أرضعت، ومرضعة جار على المفعل على ما أرضعت، ويقال: امرأة مُرْضع أي: ذات رُضاع، أرضعت ولدها أو أرضعت غيره، والقصد قصد مُلْبِن أي: ذات لبون ولبن.

وقوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾؛ وقرئت: ((ويُرى الناس سكرى))، واسم الفاعل مضمر في ((ترى)).

المعنى: ترى أنت أيها الإنسان الناس، ومن قرأ: تُرى الناس سكرى، كان بمنزلة وترى أنت الناس سكرى. وفيه وجه آخر ما قرئ به وهو ويُرَى الناس سكرى، فيكون الناس اسم يرى، ووجه آخر لم يقرأ به: ويَرَى الناس سَكرى؛ المعنى: ويرى الإنسان الناس سكرى.

ويقرأ: ((وترى الناس سَكْرَى وما هم بسَكْرَى، وترى الناس سُكارَى وما هم بسُكَارى)).

ويجوز: ((وترى الناس سَكَارى وما هم بسَكَارى)) والقراءة الكثيرة: وترى الناس سَكْرَى وما هم بسَكْرَى، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ أيضاً.

والتفسير: أنك تراهم سكارى ومن العذاب والخوف، وما هم بسكارى من الشراب ويدل عليه: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾؛ أي: يتبع ما يسول له الشيطان، ومريد ومارد معناه: أنه قد مرد في الشر.

وتأويل المرود: أن تبلغ الغاية التي يخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف، وجائز أن يستعمل ذلك في غير الشيطان، فتقول: قد تمرد هذا السيئ أي: قد جاوز حد مثله، وأصله في اللغة: املساس الشيء، ومن ذلك قولك للإنسان: أمرد إذا لم يكن في وجهه شعر، ويقال للصخرة مرداء إذا كانت ملساء.

وقوله -عز وجل-: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾؛ ﴿أَنَّهُ﴾ في موضع رفع.

﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾، عطف عليه، وموضعه رفع أيضاً، والفاء الأجود فيها أن تكون في معنى الجزاء، وجائز كسر إن مع الفاء، ويكون جزاء لا غير.

والتأويل: ((كتب عليه)) أي: على الشيطان إضلال متوليه وهدايتهم إلى عذاب السعير، وحقيقة ((أن)) الثانية أنها مكررة مع الأولى على جهة التوكيد لأن المعنى: كتب عليه أنه من تولاه أضله.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ﴾؛ ويقرأ: ((من البعث)) بفتح العين، والريب الشك، فأما البعث بفتح العين فذكر جميع الكوفيين أن كل ما كان ثانيه حرفاً من حروف الحلق، وكان مسكناً مفتوح الأول جاز فيه فتح المسكن نحو نعل ونعل، وشعر وشعر، ونهر ونهر، ونخل ونخل.

فأما البصريون فيزعمون أن ما جاء من هذا فيه اللغتان تكلم به على ما جاء. وما كان لم يسمع لم يجز فيه التحريك نحو وعد، لأنك لا تقول: لك على وعد، أي: على وعدة، ولا في هذا الأمر وَهَنٌ في معنى وَهْنُ، وهذا بابه مثل: ((رَكٍ، ورَكَكٍ، وقدْر، وقدَرٍ، وقصّ الشاة وقصصها)) فلا فرق بين هذه حروف الحلق وغيرها.

وقيل للذين جحدوا البعث وهو المشركون: إن كنتم في شك من أن الله يبعث الموتى فتدبروا أمر خلقكم وابتدائكم فإنكم لا تجدون في القدرة فرقاً بين ابتداء الخلق أو إعادته، وإحياء الموتى.

ثم بين لهم ابتداء خلقهم، فأعلمهم أنهم خلقوا من تراب، وهو خلق آدم -عليه السلام-، ثم خلق ولده من نطفة، ثم من علقة ثم من مضغة، وأعلمهم أحوال خلقهم.

ويروى أن الإنسان يكون في البطن نطفة أربعين يوماً ثم مضغة أربعين يوماً، ثم يبعث الله ملكاً فينفخ فيه الروح.

ومعنى: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ وصف الخلق أن منهم من يتمم مضغته فتخلق له الأعضاء التي تكمل آلات الإنسان، ومنهم من لايتمم الله خلقه.

قوله: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ أي: ذكرنا أحوال خلق الإنسان، ووجه آخر هو: خلقناكم هذا الخلق لنبين لكم.

﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾؛ لا يجوز فيها إلا الرفع، ولا يجوز أن يكون معناه: فعلنا ذلك لنقر في الأرحام، وأن الله -عز وجل- لم يخلق الأنام لما يقر في الأرحام، وإنما خلقهم ليدلهم على رشدهم وصلاحهم.

وقوله -عز جل-: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾؛ في معنى أطفال، ودل عليه ذكر الجماعة، وكأن طفلاً يدل على معنى ويخرج كل واحد منكم طفلاً.

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾؛ وقد فسرنا الأشد، وتأويله: الكمال في القوة والتمييز، وموبين الثلاثين إلى الأربعين.

وقوله: ﴿وَمِنكُم مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ﴾؛ ﴿أَرْذَلِ العُمُرِ﴾: هو الذي يخرف فيه الإنسان من الكبر حتى لا يعقل، وبين ذلك بقوله: ﴿لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾.

ثم دلهم على إحيائه الموتى بإحيائه الأرض فقال: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾؛ يعني: جافة ذات تراب.

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ وتقرأ: ((وربأت)).

فاهتزازها تحركها عند وقوع الماء بها وإنباتها، ومن قرأ: ﴿وَرَبَتْ﴾ فهو من: ((ربا يربو)) إذا زاد على أي الجهات، وقرأ ((وربأت)) بالهمز فمعناه: ارتفعت.

﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: من كل صنف حسن من النبات.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى﴾؛ المعنى: الأمر ذلك، أي: الأمر ما وصف لكم وبين لكم بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فالأجود أن يكون موضع: ﴿ذَلِكَ﴾ رفعاً، يجوز أن يكون نصباً على معنى: فعل الله ذلك بأنه هو الحق وأنه يحيي الموتى.

وقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾؛ و﴿لِيَضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾.

و﴿ثَانِيَ﴾ منصوب على الحال، ومعناه التنوين ومعناه: ثانياً عطفه.

وجاء في التفسير أن معناه: لاوياً عنقه، وهذا يوصف به، فالمعنى: ومن الناس من يجادل في الله بغير علم متكبراً.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ يقال: هذا العاب بما قدمت يداك.

وموضع ﴿ذَلِكَ﴾ رفع بالابتداء، وخبره: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾، وموضع ((أن)) خفض؛ المعنى: ذلك بما قدمت يداك وبأن الله ليس بظلام للعبيد ولو قرئت: ((إن)) بالكسر لجاز.

ويجوز أن يكون موضع ((أن)) الرفع على معنى: أن الله ليس بظلام للعبيد.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ﴾؛ جاء في التفسير: على شك، وحقيقته: أنه يعبد الله على حرف الطريقة في الدين لا يدخل فيه دخول متمكن.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾؛ أي: إن أصابه خصب وكثر ماله وماشيته اطمأن بما أصابه ورضي بدينه.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾؛ اختبار بجدب وقلة مال.

﴿انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾؛ رجع عن دينه إلى الكفر وعبادة الأوثان.

وقوله: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ﴾؛ يعني: يدعو الوثن الذي لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر.

وقوله: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾؛ فقال: ولا يضره، وقال: ﴿ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ معناه: الضرر بعبادته أقرب من النفع.

فإن قال قائل: كيف يقال: أقرب من نفعه ولا نفع من قبله البتة، فالعرب تقول: لما لا يكون: هذا بعيد، والدليل لى ذلك قوله -تعالى-: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[ق: ٣].

وقد اختلف الناس في تفسير اللام، وفي ﴿يَدْعُو﴾ بأي شيء هي معلقة ونحن نفسر جميع ما قالوه وما أغفلوه مما هو بين من جميع ما قالوا -إن شاء الله-.

قال البصريون والكوفيون: اللام معناها التأخير، المعنى: يدعو من لضره أقرب من نفعه ولم يشبعوا الشرح، ولا قالوا من أين جاز أن تكون اللام في غير موضعها، وشرح ذلك أن اللام لليمين والتوكيد، فحقها أن تكون في أول الك لام فقدمت لتجعل في حقها، وإن كان أصلها أن تكون في ((لضره)) كما أن لام ((إن)) حقها أن تكون في الابتداء، فلما لم يجز أن تلي ((إن)) جعلت في الخبر في مثل قو لك: ((إن زيداً لقائم)) ولا يجوز: ((إن لزيداً قائم)) فإذا أمكن أن يكون ذلك في الاسم كان ذلك أجود في الكلام، تقول: إن في لك لآية، فهذا قول.

وقالوا أيضاً: أن يدعو معها هاء مضمرة، وأن ﴿ذَلِكَ﴾ في موضع رفع، و﴿يَدْعُو﴾ في موضع الحال، المعنى: ذلك هو الضلال البعيد يدعوه، المعنى في حال دعائه إياه، ويكون ﴿لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء، وخبره ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾؛ وفيه وجه آخر ثالث، ويكون يدعو في معنى: ((يقول))، يكون ((من)) في موضع رفع وخبره محذوف، ويكون المعنى: يقول لمن ضره أقرب من نفعه هو مولاي، ومثله: يدعو في معنى يقول في قول عنترة [من الكامل]:

يَدعونَ عَنتَرَ وَالرِّماحُ كَأَنَّها   أَشطانُ بِئرٍ في لَبانِ الأَدهَمِ[1]

---

(١) تفسير القرطبي (٢٠/١٢)، وفتح القدير (٦٣٠/٣)، ومعاني القرآن (٣٨٥/٤)، وسر صناعة الإعراب =

ويجوز أن يكون ((يدعو)) في معنى ((يسمى)) كما قال ابن أحمر [من البسيط]:

أَهوى لَها مِشقَصاً حَشراً فَشَبرَقَها وَكُنتُ أَدعو قَذاها الإِثمِدَ القَرِدا[1]

ووجه هذا القول الذي قبله.

وفيها وجه رابع وهو الذي أغفله الناس، أن ((ذلك)) في موضع نصب بوقوع يدعو عليه، ويكون ((ذلك)) في تأويل الذي، ويكون المعنى: الذي هو الضلال البعيد يدعو، ويكون لمن ضره أقرب من نفعة مستأنفاً، وهذا مثل قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾، على معنى وما التي بيمينك يا موسى، ومثله: قول الشاعر[2] [من الطويل]:

عَدَس ما لِعَبّادٍ عَلَيكِ إِمارَةٌ نَجَوتِ وَهَذا تَحمِلينَ طَليقُ[3]

وقوله -عز وجل-: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾؛ هذه الهاء لمحمد ﷺ، أي: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً حتى يظهره على الدين كله فليمت غيظاً، وهو تفسير قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾؛ السبب الحبل، والسماء السقف أي: فليشدد حبلاً في سقفه.

﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾؛ أي: ليمد الحبل حتى ينقطع فيموت مختنقاً.

﴿هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾؛ أي: هل يذهبن كيده غيظه. قرئت: ثم لِيقطع، وثم لْيقطع، بكسر اللام وجزمها.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ يفصل الله بين هذه الفرق الخمس وبين المؤمنين.

= (٤٠٣/١)، ومغني اللبيب (٥٤٠/١)، والأغاني (٢٥٤/٩)، ولسان العرب (٦٠٧/٤)، وتاج العروس (٣٢٥١/١).

(١) انظر: تفسير الطبري (٣٨٤/٨)، والمزهر في علوم اللغة (٢٩٠/٢)، ولسان العرب (٣٧١/١٥).

(٢) هو: يزيد بن مفرغ الحميري.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤٠٥/٨)، وتفسير القرطبي (٤٦٠/١)، والجمل في النحو (١٨٠/١)، وأوضح المسالك (٩١/٤)، والإنصاف في مسائل الخلاف (٧١٧/٢)، واللباب علل البناء والإعراب (١٢٠/٢)، والمفصل في صنعة الإعراب (١٩٠/١)، وأدب الكاتب (٣٢١/١)، والأغاني (٢٧٩/١٨)، ولسان العرب (٦/ ٤٦)، وتاج العروس (٤٠١٢/١).

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِن نَارٍ﴾، والمؤمنون يدخلون الجنه وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾؛ وخبر ((أن)) الأولى جملة الكلام مع ((إن)) الثانية. وقد زعم قوم أن قولك: إن زيداً أنه قائم رديء وأن هذه الآية إنما صلحت في الذي. ولا فرق بين الذي وغيره في باب ((إن))، إن قلت: إن زيداً أنه قائم كان جيداً ومثله: قول الشاعر:

* إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنَّ اللَّهَ سَرْبَلَه(١)*

وليس بين البصريين خلاف في أن ((إن)) تدخل على كل ابتداء وخبر، تقول إن زيداً هو قائم وإن زيداً أنه قائم.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ﴾؛ والسجود ههنا: الخضوع لله -عز وجل-، وهي طاعة ممن خلق الله من الحيوان والموات.

والدليل على أنه سجود طاعة قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ﴾؛ وهذا أجود الوجوه أن يكون تسجد مطيعة لله -عز وجل-، كما قال الله -تعالى-: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت: ١١]؛ وكما قال: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا﴾ يعني الحجارة ﴿لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[البقرة: ٧٤]، فالخشية لا تكون إلا لما أعطاه الله مما يختبر به خشيته.

وقال قوم: السجود من هذه الأشياء التي هي موات ومن الحيوان الذي لا يعقل إنما هو أثر الصنعة فيها والخضوع الذي يدل على أنها مخلوقه، واحتجوا في ذلك بقول الشاعر(٢):

بِجَيْشٍ تَضَلُّ البُلْقُ في حَجَراتِهِ تَرَى الأُكْمَ فِيه سُجَّداً لِلْحَوافِرِ(٣)

أي: قد خشعت من وطء الحوافر عليها، وذلك القول الذي قالوه لأن السجود الذي هو طاعة عندهم إنما يكون ممن يعقل، والذي يكسر هذا ما وصف الله -عز وجل- من أن

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/٢٢٠)، وتفسير القرطبي (١٢/٢٤)، وروح المعاني (١٧/١٣٠)، والكشاف (١/٧٩٨)، ولسان العرب (١٢/١٦٣).

(٢) هو: زيد الخيل.

(٣) انظر: زاد المسير (٤/٤٥٣)، والأغاني (١٧/٢٥٨)، وديوان الحماسة (١/٢٥٦).

من الحجارة لما يهبط من خشية الله، والخشية والخوف ما عقلناه إلا للآدميين، وقد أعلمنا الله -عز وجل- أن من الحجارة ما يخشاه، وأعلمناه أنه سخر مع داود الجبال والطير تسبح معه، فلو كان تسبيح الجبال والطير أثر الصنعة ما قيل: ((سخرنا)) ولا قيل: مع داود الجبال لأن أثر الصنعة يتبين مع داود وغيره، فهو سجود طاعة لا محالة، وكذلك التسبيح في الجبال والطير، ولكنا لا نعلم تسبيحها إلا أن يجيئا في الحديث كيف تسبيح ذلك. وقال الله -عز وجل- ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤].

وقوله -عز وجل-: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾؛ الخصمان المؤمنون والكافرون.

جاء في التفسير: أن اليهود قالوا للمسلمين ديننا أقدم من دينكم وكتابنا أقدم من كتابكم، فأجابهم المسلمون بأنا آمنا بما أنزل إلينا وأنزل إليكم وآمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وأنتم كفرتم ببعض الرسل فظهرت حجة المسلمين على الكافرين. وقيل: اختصموا وقد قال خصمان لأنهما جمعان.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾؛ وجاء في التفسير أن الثياب التي من نار هي نحاس قد أذيب.

قوله عز وجل: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾؛ يغلي به ما في بطونهم حتى يخرج من أدبارهم، فهذا لأحد الخصمين، وقال في الخصم الذين هم مؤمنون: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً﴾.

و﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ يقرأن جميعاً، فمن قرأ ﴿وَلُؤْلُؤاً﴾ فعلى معنى يحلون فيها أساور من ذهب ويحلون لؤلؤاً، ومن قرأ: ((ولؤلؤٍ)) أراد ومن لؤلؤ. وجائز أن يكون أساور من ذهب ولؤلؤ، فيكون ذلك فيها خلطاً من الصنفين ويقرأ: ((يَحْلُون فيها)) على معنى قولك حَلَى يَحْلَى إذا صار ذا حلي.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ لفظ يصدون لفظ مستقبل عطف به على لفظ الماضي، لأن معنى الذين كفروا الذين هم كافرون، فكأنه قال: إن الكافرين والصادين.

وخبر ((إن)) فيه قولان؛ أحدهما: أن يكون محذوفاً فيكون المعنى: إن الذين هذه صفتهم هلكوا وجائز أن يكون -وهو الوجه- الخبر ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فيكون المعنى: إن الكافرين والملحدين في المسجد الحرام نذقهم من عذاب أليم.

وقوله -تعالى-: ﴿سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾؛ القراءة الرفع في سواء، ورفعه من جهتين؛ أحدهما: أن يكون وقف التمام هو ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾، كما قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ٩٦]؛ ويكون ﴿سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ على الابتداء والخبر، ويجوز أن يكون على: جعلناه سواء العاكف فيه، فيرتفع سواء على الابتداء، ويكون الخبر ههنا العاكف فيه، أعني خبر ﴿سَوَاءً العَاكِفُ﴾ ويكون خبر ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ الجملة.

وتفسير قوله: ﴿سَوَاءً العَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أنه يستوي في سكنى مكة المقيم بها والنازع إليها من أي بلد كان، وقيل: سواء في تفضيله وإقامة المناسك العاكف المقيم بالحرم والنازع إليه.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾؛ قيل: الإلحاد فيه الشرك بالله، وقيل: كل ظالم فيه ملحد، وجاء عن عمر أن احتكار الطعام بمكة إلحاد.

وقال أهل اللغة إن معنى الباء الطرح؛ المعنى: ومن يرد فيه إلحاداً بظلم، وأنشدوا قول الشاعر [١] [من البسيط]:

هُنَّ الحَرائِرُ لا رَبّاتَ أَحمِرَةٍ ... سودُ المَحاجِرِ لا يَقرَأنَ بِالسُّوَرِ [٢]

المعنى: عندهم لا يقرأن السور، وأنشدوا [من الطويل] [٣]:

بِوادٍ يمان يُنبِتُ السِّدرَ صَدرُهُ ... وأَسفَلُهُ بِالمَرخِ وَالشَّبُهانِ [٤]

أي: وينبت أسفله المرخ والشبهان. والذي يذهب إليه أصحابنا أن الباء ليست بملغاة؛ المعنى عندهم: ومن إرادته فيه بأن يلحد بظلم وهو مثل قوله [٥] [من الطويل]:

---

(١) هو: الراعي النميري.

(٢) انظر: فتح القدير (٦٨٥/٣)، ومعاني القرآن (٤٥٢/٤)، وأدب الكاتب (٤١٦/١)، والأغاني (١٥٥/٢٤)، ولسان العرب (١٢٨/١).

(٣) البيت ليعلى الأحول الأزدي.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٣٣٠/٨)، والأغاني (١٥٣/٢٢).

(٥) قائله المتوكل الليثي.

أُريدُ لأنسى ذِكرها فكأنَّما تمثّلُ لي لَيلى بِكُلِّ سَبيلِ[(١)]

المعنى: أريد، وإرادتي لهذا.

ومعنى الإلحاد في اللغة: العدول عن القصد.

وقوله عزوجل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾؛ جعلنا مكان البيت مبوأ لإبراهيم، والمبوأ: المنزل؛ فالمعنى: أن الله أعلم إبراهيم مكان البيت، وكان البيت في أيام الطوفان رفع إلى السماء حين غرق الله الأرض وما عليها فشرف بيته بأن أخرجه عن جملة ما غرق. ويروى أن البيت كان من ياقوتة حمراء.

وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ﴾؛ قيل: المعنى: طهره من الشرك. والقائمون ههنا المصلون.

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾؛ روي أن أذان إبراهيم بالحج إن وقف في المقام فقال: أيها الناس أجيبوا يا عباد الله أطيعوا الله يا عباد الله اتقوا الله فوقرت في قلب كل مؤمن ومؤمنة وأسمع ما بين السماء والأرض وأجابه من في الأصلاب ممن كتب له الحج، فكل من حج فهو ممن أجاب إبراهيم، ويروى أن أذانه بالحج كان: ((يا أيها الناس كتب عليكم الحج)).

وقوله -تعالى-: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾؛ ﴿رِجَالاً﴾ جمع راجل مثل صاحب وصحاب، وقائم وقيام: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾، أي: يأتوك رجالاً وركباناً. وقال يأتين على معنى الإبل؛ المعنى: وعلى كل بعيد ضامر يأتي من كل فج عميق، وعميق بعيد، قال رؤية [من الرجز]:

* وقاتِمِ الأَعْماقِ خاوِي المُخْتَرَقْ[(٢)]*

الأعماق: الأقعار، ومن هذا قيل: هذه بئر ((عميقة))، أي: بعيدة القرار.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٤٣/٥)، وفتح القدير (٢٨٠/١)، وروح المعاني (٨٢/٦)، ومعاني القرآن (٤/ ٣٩٥)، وكتاب اللامات (١٣٨/١)، ومغني اللبيب (٢٨٥/١)، والأغاني (٢٦٢/٤)، ولسان العرب (١٨٧/٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨١/٨)، وتفسير ابن كثير (٥٧/٣)، وتفسير القرطبي (٣٧/١٢)، ومعاني القرآن (٤/ ٣٩٩)، والأصول في النحو (٣٨٩/٢)، والخصائص (٢٦٤/١)، وسر صناعة الإعراب (٤٩٣/٢)، وشرح ابن عقيل (٢٠/١)، ومغني اللبيب (٤٤٨/١)، والأغاني (٣٦٣/٢٠)، والمزهر في علوم اللغة (١٨٨/١)، وفقه اللغة (١٢٩٦/١)، ولسان العرب (٧٨٣/١)، وتاج العروس (١٠٢٩/١).

وقوله -تعالى-: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾؛ أي: ليشهدوا ما ندبهم الله إليه مما فيه النفع لهم في آخرتهم.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾؛ يعنى به يوم النحر والأيام التي بعده ينحر فيها لأن الذكر ههنا يدل على التسمية على ما ينحر لقوله: ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُم مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾؛ ﴿الْبَائِسَ﴾ الذي قد ناله بؤس، والبؤس شدة الفقر، يقال: قد بَؤُس، وبَأس إذا صار ذا بؤس.

وقوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ ليس بأمر لازم، ومن شاء أكل من أضحيته ومن شاء لم يأكل، وإنما هو إباحة كما قال: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة: ٢] ، فإنما قال فاصطادوا، لأنه كان قد حظر عليهم الصيد وهم محرمون، فأباحهم الصيد.

وكذلك هذا الأمر ههنا إباحة بعد حظرهم على أنفسهم أكل الأضاحي، لأن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا لم يستحلوا أن يأكلوا من نسكهم شيئاً، فأعلم الله -عز وجل- أن ذلك جائز.

وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾؛ قرئت ((ثم لِيقضوا)) بكسر اللام، وكذلك قرأ أبو عمرو، والقراءة بالتسكين مع ((ثم)) كثيرة.

والتفث: في التفسير جاء، وأهل اللغة لا يعرفون إلا من التفسير، قالوا التفث: الأخذ من الشارب وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والأخذ من الشعر، كأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال.

قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛ قيل: في ((العتيق)) أقوال:

قال الحسن: هو البيت القديم، ودليل الحسن على ذلك قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾[آل عمران: ٩٦]؛ وقيل: إن البيت العتيق الذي عتق من الغرق أيام الطوفان، ودليل هذا القول: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾[الحج: ٢٦]، فهذا دليل البيت رفع وبقي مكانه.

وأكثر ما جاء في التفسير أنه أمن الجبابرة، فلم يغلب عليه جبار، وقيل: إنه سمي العتيق لأنه لم يدعه أحد من الناس. وقيل: إنما سمي العتيق لأنه لم يقصده جبار إلا أهلكه الله، يقال: أعتقت المملوك فهو معتق وعتيق.

وكل ما مر في تفسير العتيق فجائز حسن -والله أعلم بحقيقة ذلك- وهذه الآية تدل على أن الطواف يوم النحر فرض.

وقولة: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾؛ وحرمات الله: الحج والعمرة وسائر المناسك، وكل ما فرض الله فهو من حرمات الله، والحرمة: ما وجب القيام به وحرم تركه والتفريط فيه. وموضع ﴿ذَلِكَ﴾ رفع؛ المعنى: الأمر ذلك.

وقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾؛ ((ما)) في موضع نصب أي: إلا ما يتلى عليكم من الميتة والدم والمنخنقة والموقوذة وسائر ما تلي تحريمه.

وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾؛ ((من)) ههنا التخليص جنس من أجناس؛ المعنى: فاجتنبوا الرجس الذي هو وثن.

وقوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾؛ الزور الكذب، وقيل: ههنا الشرك بالله، وقيل: أيضاً شهادة الزور، وهذا كله جائز.

والآية تدل -والله أعلم- على أنهم نهوا أن يحرموا ما حرم أصحاب الأوثان نحو قولهم: ((ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا))، ونحو: نحرهم البحيرة والسائبة، فأعلمهم الله أن الأنعام محللة إلا ما حرم الله منها، ونهاهم الله عن قول الزور أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ليفتروا على الله كذباً.

وقوله: ﴿حُنَفَاء لِلَّهِ﴾؛ منصوب على الحال، وتأويله مسلمين لا يميلون إلى دين غير الإسلام وقوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾؛ ويقرأ: ((فتَخْطَفُهُ الطير وفَتَخِطِّفُهُ)). وقرأ الحسن: ((فتِخِطِّفه)) بكسر التاء والخاء والطاء. فمن قرأ: ((فتَخْطَفُهُ)) بالتخفيف فهو من خطف يخطف، والخطف: الأخذ بسرعة، ومن قرأ فتخطفه -بكسر الطاء والتشديد- فالأصل فتختطفه فأدغم التاء في الطاء وألقى حركة التاء على الخاء ففتحها، ومن قال بكسر الخاء والطاء، كسر الخاء لسكونها وسكون الطاء، ومن كسر التاء والخاء والطاء -وهي قراءة الحسن- فهو على أن الأصل تختطفه.

وهذا مثل ضربه الله للكافر في بعده عن الحق، أعلم الله أن بعد من أشرك به من الحق كبعد من خر من السماء فذهبت به الطير أو هوت به الريح في مكان سحيق أي: بعيد.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾؛ شعائر الله: المعالم التي ندب إليها وأمر بالقيام بها، واحدتها شعيرة فالصفا والمروة من شعائر الله، والذي يعنى به هنا البدن.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛ يعني أن لكم في البدن، قيل: إن تعلموها، وتسموها هدياً إلى بيتي منافع، فإذا أشعرتموها، والإشعار أن يشق في السنام حتى يدنى ويعلق عليها نعلاً ليعلم أنها بدنة، فأكثر الناس لا يرى الانتفاع بها إذا جعلت بدنة، لا بلبنها ولا بوبرها ولا بظهرها، يقول لا يعطي لبنها ووبرها وظهرها أحداً لأنها بدنة فلا ينتفع بها غير أهل الله إلا عند الضرورة المخوف معها الموت.

وبعضهم يقول: إن له أن ينتفع بها فيركبها المعيي وينتفع بمنفعها إلى وقت محلها مكان نحرها، والحجة في ذلك أن النبي ﷺ مر برجل يسوق بدنة فأمره ﷺ بركوبها، فقال إنها بدنة فأمره الثانية وأمره الثالثة، وقال له في الثالثة: ((اركبها ويحك))، فهذا ويجوز أن النبي ﷺ رآه مضطراً في ركوبها من شدة الإعياء.

وجائز على ظاهر الحديث أن يكون ركوبها جائزاً. ومن أجاز ركوبها والانتفاع بها يقول: ليس له أن يهزلها وينضيها لأنها بدنة.

وقوله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾؛ وتقرأ ((مِنْسَكاً))، والمنسك في هذا الموضع يدل على معنى النحر فكأنه قال جعلنا لكل أمة أن تتقرب بأن تذبح الذبائح لله، ويدل على ذلك قوله -تعالى- ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾؛ المعنى: ليذكروا اسم الله على نحر ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وقال بعضهم: المنسك الموضع الذي يجب تعهده، وذلك جائز.

ومن قال ((منسك)) فمعناه مكان نَسَك مثل مَجلس مكان جلوس. ومن قال منسك فهو بمعنى المصدر نحو النُسك والنُسوك.

وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾؛ أي: لا ينبغي أن تذكروا على ذبائحكم إلا الله وحده.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾؛ قيل: المخبتون المتواضعون، وقيل: المخبتون المطمئنون بالإيمان بالله -عز وجل-، وقيل: المخبتون الذين لا يظلمون وإن ظلموا لم ينتصروا. وكل ذلك جائز واشتقاقه من الخبت من الأرض وهي المكان المنخفض منها، فكل مخبت متواضع.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾؛ القراءة الخفض وإسقاط التنوين، والخفض على الإضافة، ويجوز: ((المقيمين الصلاة))، إلا أنه بخلاف المصحف. ويجوز أيضاً على بعد ((والمقيمي الصلاة))، على حذف النون ونصب الصلاة لطول الاسم، وأنشد سيبويه [من المنسرح]:

وَالحافِظو عَورَةِ العَشيرَةِ لا يَأتيهُمُ مِن وَرائِهِم وَكَفُ(١)

وزعم أنه شاذ.

وقوله -تعالى-: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾؛ النصب أحسن لأن قبله فعلاً؛ المعنى: وجعلنا البدن، فنصب بفعل مضمر الذي ظهر يفسره. وإن شئت رفعت على الاستئناف. والبدن بتسكين الدال وضمها.وبدن وبدن، وبدن مثل قوله ثمرة وثمر. وإنما سميت بدنه لأنها تبدن، أي: تسمن.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾؛ ﴿صَوَافَّ﴾ منصوبة على الحال، ولكنها لا تنون لأنها لا تنصرف، أي: قد صفت قوائمها، أي: فاذكروا اسم الله عليها في حال نحرها. والبعير ينحر قائماً، وهذه الآية تدل على ذلك، وتقرأ: صوافن، والصافن الذي يقوم على ثلاث، فالبعير إذا أرادوا نحره تعقل إحدي يديه فهو صافن، والجمع صوافن يا هذا، وقرئت صوافي بالياء وبالفتح بغير تنوين وتفسيرة خوالص - أي: خالصة لله -عز وجل-، وتشركوا في التسمية على نحرها أحداً.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾؛ أي: إذا سقطت إلى الأرض.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾؛ بتشديد الراء، ويجوز والمعتري بالياء، ويقال: وَجَبَ الْحَائط يَجِب وَجْبَة إذا سقطت، ووجب القلب يجب وَجْباً ووَجيباً إذا تحرك من فزع، ووجب البيع يجب وجُوباً وجِبَة، والمستقبل في ذلك كله يجب.

وقيل: في القانع الذي يقنع بما تعطيه، وقيل: الذي يقنع باليسير. وقيل: وهو مذهب أهل اللغة السائل، يقال: قَنَع الرجل قَنُوعاً إذا سأل فهو قَانِع، وأنشدوا للشماخ [من الوافر].

---

(١) انظر: إصلاح المنطق (٦٣/١)، وتاج العروس (٦١٧٠/١).

لَمالُ المَرءِ يُصلِحُهُ فَيُغني مَفاقِرَهُ أَعَفُّ مِنَ القُنوعِ[(١)]

أي: أعف من السؤال، وقنع قناعة إذا رضي فهو قنع، والمعتر: الذي يعتريك فيطلب ما عندك، سألك إذ سئلت عن السؤال وكذلك المعتري.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا﴾؛ وقرئت: ((لن تَنالَ الله لحومها)) بالتاء، فمن قرأ بالياء فلجمع اللحوم، ومن قرأ بالتاء فلجماعة اللحوم، وكانوا إذا ذبحوا لطخوا البيت بالدم، فأعلم الله -عز وجل- أن الذي يصل إليه تقواه وطاعته فيما يأمر به.

﴿وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾؛ وتناله التقوى منكم -بالياء والتاء- فمن أنث فللفظ التقوى، ومن ذكر فلأن معنى التقوى والتقى واحد.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ و ((يَدْفَع عن الذين آمنوا)). وهذا يدل على النصر من عنده، أي: فإذا دفعتم، أي: فإذا هذا، وخالفتم الجاهلية فيما تفعلونه في نحرهم، وإشراكهم بالله، فإن الله يدفع عن حزبه.

وقوله: ﴿كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾؛ ﴿خَوَّانٍ﴾ فعال من الخيانة، أي: من ذكر اسم غير الله وتقرب إلى الأصنام بذبيحته فهو خوان كفور.

والبدن قيل: إنها الإبل خاصة، وقيل: إنها الإبل والبقر، ولا أعلم أحداً قال: إن الشاء داخلة فيها، فأما من قال إنها الإبل والبقر فهم أكبر فقهاء الأمصار، ولكن الاستعمال في السياقة إلى البيت الإبل فلذلك قال من قال إنها الإبل.

وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾؛ ويقرأ: ((أَذِن للذين يُقَاتَلون))، ويقرأ: ((أَذِن للذين يُقَاتَلون ويُقَاتِلون))؛ والمعنى: أذن للذين يقاتلون أن يقاتلوا. ويروى أنها أول آية نزلت في القتال.

﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾؛ أي: أذن لهم أن يقاتلوا بسبب ما ظلموا.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾؛ وعدهم الله النصر، ولا يجوز أن يقرأ و ((أن الله)) بفتح ((أن))، ولا بين أهل اللغة خلاف في أن هذا لا يجوز لأن ((أن)) إذا كانت معها اللام لم تفتح أبداً.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/١٥٢)، وتفسير ابن كثير (٣/٢٩٨)، وتفسير القرطبي (١٢/٥٩)، وفتح القدير (٣/٦٤٩)، وزاد المسير (٥/٤٣٤)، ومفردات القرآن (١/١٢١٦)، وشرح كتاب الأمثال (١/٢٩٠)، ومجمع الأمثال (١/٢٤٤)، ولسان العرب (٥/٦٠)، وتاج العروس (١/٣٣٥٣)، والفائق (١/٢٩٧).

وقوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا﴾؛ ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع جر؛ المعنى: ((أذن للذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)).

((أن)) في موضع جر؛ المعنى: أخرجوا بلا حق، إلا بقولهم ربنا الله أي: لم يخرجوا إلا بأن وحدوا الله، لا أخرجتهم عبدة الأوثان لتوحيدهم.

وقوله: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾؛ المعنى: ولولا أن دفع الله بعض الناس ببعض لهدمت صوامع، وتقرأ ((لَهُدِمت))، وهي صوامع الرهبان.

﴿وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾؛ والبيع: بيع النصارى، والصلوات: كنائس اليهود، وهي بالعبرانية ((صلوتا))، وقرئت: ((صلاة ومساجد))، وقيل: إنها موضع صلوات الصابئين، وتأويل هذا: لولا أن الله -عز وجل- دفع بعض الناس ببعض لهدم في شريعة كل نبي المكان الذي كان يصلي فيه، فكان لولا الدفع في زمن موسى -عليه السلام- الكنائس التي كان يصلى فيها في شريعته، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد.

وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ﴾؛ أي: من أقام شريعة من شرائعه، نصر على إقامة ذلك، إلا أنه لا يقام في شريعة نبي إلا ما أتى به ذلك النبي ينتهي عما نهى عنه.

وقوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ﴾؛ ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب على تفسير ((مَن))؛ المعنى: ولينصرن الله من ينصره ثم بين صفة ناصريه فقال:

﴿الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾؛ فصفة حزب الله الذين يوحدونه، إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما واجبان كوجوب الصلاة والزكاة أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

﴿فَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾؛ ويقرأ: ((أهلكتها))؛ المعنى: فكيف كان نكير أي: ثم أخذتهم فأبلغت أبلغ الإنكار. فأهلكت قرى كثيرة، لأن معنى فكأين من قرية معنى فكم من قرية، ومعنى: كم من قرية عدد كثير من القرى.

ويجوز كأين بتشديد الياء، ويجوز: ((كائن من قرية))، وهو عند البصريين في معنى العدد الكبير، وتقول: وكائن من رجل جاءني معناه: العدد الكثير من الرجال.

﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾؛ والعرش: السقوف؛ فالمعنى: أنها قد خربت وخلت فصارت على سقوفها كما قال في موضع آخر: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾[الحجر: ٧٤]، يقال: خَوَت الدار والمدينة خُوَاء، ممدود، فهي خَاوِية، وخَوِيت المرأة وخَوَى الإنسان إذا خَلا من الطعام خَوىً، مقصور فهو خَوٍ.

وقوله: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾؛ أكثر ما جاء في مشيد من التفسير مجصص، والشيد: الجص والكلس أيضاً شيد، وقيل: مشيد محصن مرتفع، والمشيد إذا قيل: مجصص فهو مرتفع في قدره وإن لم يرتفع في سمكة، وأصل الشيد الجص والنورة، وكل ما بني بهما أو بأحدهما فهو مشيد.

وقوله: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾؛ القلب لا يكون إلا في الصدر.

ولكن جرى على التوكيد كما قال -عز وجل- ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾[آل عمران: ١٦٧]، وكما قال: ﴿وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[الأنعام: ٣٨]، وكما قرأ بعضهم: ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾[ص: ٢٣]؛ فالتوكيد جار في الكلام مبالغ في الإفهام.

وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ قيل: إن يوماً من أيام عذابهم كألف سنة، ويدل على ذلك الحديث الذي يروى: ((أن الفقراء يدخلون قبل الأغنياء بنصف يوم)).

وجاء في حديث آخر تفسير هذا القول بخمسمائة عام.

فهذا يدل على أن اليوم من أيام القيامة ألف سنة، والذي تدل عليه الآية -والله أعلم- أنهم استعجلوا فعلم الله -عز وجل- أنه لا يفوته شيء، وأن يوماً عنده وألف سنة في قدرته واحد، وأن الاستعجال في ميعادهم لا فرق فيه بين وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره في القدرة إلا أن الله -جل ثناؤه- تفضل بالإمهال، وغفر بالتوبة، فالتأخير الفرق بينه وبين التقديم تفضل الله عز وجل بالنظرة.

ثم أعلم -عز وجل- أنه قد أخذ قوماً بعد الإملاء والتأخير عقوبة ليزدادوا إثماً فقال بعد قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، وبعد تمام الآية ﴿وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾؛ المعنى: ثم أخذتها بالعذاب، واستغنى عن ذكر العذاب لتقدم ذكره في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾؛ أي: ظانين أنهم يعجزوننا لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون، وأنه لا جنة ولا نار، وقيل في التفسير مُعَاجزين مُعَاندين، وليس بخارج من القول الأول، وقرئت ((مُعْجِزين))، وتأويلها: أنهم كانوا يعجزون من اتبع النبي ﷺ ويثبطونهم عنه.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾؛ معنى إذا تمنى إذا تلا، ألقى الشيطان في تلاوته، فذلك محنة من الله - عز وجل - وله أن يمتحن بما شاء، فألقى الشيطان على لسان النبي ﷺ شَيْئاً من صفة الأصنام فافتتن بذلك أهل الشقاق والنفاق ومن في قلبه مرض فقال الله -عز وجل-: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.

ثم أعلم أنهم ظالمون، وأنهم في شقاق دائم، والشقاق: غاية العداوة فقال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.

ثم أعلم أن هؤلاء لا يتوبون فقال: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في شك منه.

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: مفاجأة.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾؛ أصل العقم، والعقم في الولادة، يقال: هذه امرأة عقيم، كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾[الذاريات: ٢٩]، وكذلك رجل عقيم إذا كان لا يولد.

قال الشاعر:

عُقِيمَ النِّساءُ فما يَلِدْنَ شَبِيهَهُ إِنَّ النِّساء بِمِثْلِهِ عُقْمُ

والريح العقيم: التي لا تأتي بسحاب يمطر، وإنما تأتي بالعذاب، واليوم العقيم: هو الذي لا يأتي فيه فيوم القيامة عقيم على الكفار كما قال الله - عزوجل -: ﴿عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾؛ وليس هو على المؤمنين الذين أدخلوا في رحمة الله كذلك.

وأنشد بعض أهل اللغة في قوله تمنى في معنى ((تلا)) قول الشاعر[١]:

تمنى كتاب الله في الليل خاليا تمني داود الزبور على رسل

أي: تلا كتاب الله مترسلاً فيه كما تلا داود الزبور مترسلاً فيه.

---

(١) هو: حسان بن ثابت.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾؛ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع؛ المعنى: الأمر ذلك، أي: الأمر ما قصصنا عليكم.

قوله: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾؛ الأول لم يكن عقوبة، وإنما العقوبة الجزاء، ولكنه سمي عقوبة لأن الفعل الذي هو عقوبة كان جزاء فسمي الأول الذي جوزي عليه عقوبة لاستواء الفعلين في جنس الكروه. كما قال عزوجل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى: ٤٠]؛ فالأول سيئة والمجازاة عليها حسنة من حسنات المجازي عليها إلا أنها سميت سيئة بأنها وقعت إساءة بالمفعول به، لأنه فعل به ما يسوء وكذلك قوله ﴿مُسْتَهْزِءُونَ * ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[البقرة: ١٤، ١٥]، جعل مجازاتهم باستهزائهم مسمى بلفظ فعلهم لأنه جزاء فعلهم.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾؛ وقرئت: ((مُخْضَرَة)).

ذكر الله -جل ثناؤه- ما يدل على توحيده من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وذكر أنزاله الماء ينبت وذكر تسخير الفلك في البحر وإمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، فدل أنه الواحد الذي خلق الخلق وأتى بما لا يمكن البشر أن يأتوا بمثله.

ثم ذكر جهل المشركين في عبادتهم الأصنام، فقال عزوجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾؛ أي: ما لم ينزل به حجة وما ليس لهم به علم.

ثم ضرب لهم مثل ما يعبدون، وأنه لا ينفع ولا يضر، وأما القراءة: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ لا غير قال سيبويه: سألت الخليل عن قوله -تعالى-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فقال هذا واجب ومعناه التنبيه كأنه قال: أتسمع أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا، وقال غيره مثل قوله. قال: مجاز هذا الكلام مجاز الخبر كأنه قال: الله ينزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة، وأنشدوا [من الطويل]:

أَلَم تَسأَلِ الرَبعَ الخَلاءَ فَيَنطِقُ   وَهَل تُخبِرَنكَ اليَومَ بَيداءَ سَملَقُ[١]

قال الخليل: المعنى: فهو مما ينطق، وأما من قرأ مُخْضَرَة فهو على معنى ذات خضرة مثل مُبقلة ذات بقل، ومُشبعة ذات شبع، ولا يجوز ((مَخضرَة)) بفتح الميم وتشديد الراء، لأن مفعلة ليس في الكلام ولا معنى له.

---

(١) انظر: الأغاني (١٥٤/٨).

وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي﴾؛ الفلك بالنصب نسق على ((ما))؛ المعنى: وسخر لكم الفلك، ويكون تجري حالاً، أي: وسخر لكم الفلك في حال جريها، ويقرأ: ((والفلكُ تجري في البحر بأمره)) فيكون الفلك مرفوعاً بالابتداء، وتجري هو الخبر؛ المعنى: معنى التسخير لأن جريها بأمره هو التخسير.

وقوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾؛ على معنى كراهة أن تقع على الأرض، وموضع ((أن)) نصب بـ((يمسك))، وهي مفعول؛ المعنى: لكراهة أن تقع.

وقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً﴾؛ ومنسكاً، وقد تقدم الشرح في هذا.

وقوله: ﴿فَلاَ يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾؛ أي: لا يجادلنك فيه، ومعناه: لا تنازعنهم، والدليل على أن المعنى: لا يجادلنك ولا تجادلنهم قوله: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ هذا قبل القتال.

فإن قال قائل: فهم جادلوه فلم قال: ((فلا ينازعك في الأمر)) وهم قد نازعوه؟

فالمعنى: أنه نهى له ﷺ عن منازعتهم كما يقول: لا يخاصمنك فلان في هذا أبداً، وهذا جائز في الفعل الذي لا يكون إلا من اثنين لأن المجادلة والمخاصمة لا تتم إلا باثنين، فإذا قلت لا يجادلنك فلان فهو بمنزلة لا تجادلنه، ولا يجوز هذا في قوله: لا يضربنك فلان، وأنت تريد لا تضربه. ولكن قلت: لا يضاربنك فلان لكان كقولك: لا تضارين فلاناً.

ويقرأ: ((فلا ينزعنك في الأمر)): معناه: لا يغلبنك في المنازعة فيه، يقال: نازعني فلان فنَزَعته وعَازَّني فَعَزَزْته، أنزعه وأغلبه؛ المعنى: فلا يغلبنك في الأمر.

وقوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾؛ أي: يكادون يبطشون بسطوة على النبي ﷺ وأصحابه، والذين يتلون عليهم القرآن.

وقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ﴾؛ القراءة بالرفع وهي أثبت في النحو من الجر والنصب والخفض، والنصب جائز، أما من رفع فعلى معنى هو النار، وهي النار، كأنهم قالوا: ما هذا الذي هو شر فقيل: النار. ومن قال النار بالجر، فعلى البدل من شر، ومن قال النار بالنصب، فهو على معنى أعني: النار، وعلى معنى: أنبئكم بشر من ذلكم كأنه قال أعرفكم شراً من ذلكم النار.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾؛ لأنهم عبدوا من دون الله ما لا يسمع ولايبصر وما لم ينزل به حجة، فأعلمهم الله -عز وجل- الجواب فيما جعلوه الله

مثلاً، وجعلوه نيراً، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾؛ يعني الأصنام، وكل من دعا من دون الله إلهاً لا إله إلا الله وحده.

وقوله: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾؛ أعلم الله -جل ثناؤه- أنه الخالق، ودل على وحدانيته بجميع ما خلق.

ثم أعلم أن الذين عبدوا من دونه لا يقدرون على خلق واحد قليل ضعيف خلقه، ولا على استنقاذ تافه حقير منه. ثم قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾؛ أي: ما عظموه حق عظمته.

ثم أعلم بعد ذكره ضعف قوة المعبودين قوته فقال: ﴿إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

وقوله: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾؛ يجوز ضعف، وضعف الطالب والمطلوب، أي: فهم يضعفون عن أن يخلقوا ذباباً، وعن أن يستنقذوا من الذباب شيئاً مع ضعف الذباب.

وقوله عزوجل: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾؛ اصطفى الله من الملائكة جبريل ومكائيل وإسرافيل وملك الموت واصطفى من الناس النبيين والمرسلين، صلى الله عليهم أجمعين.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾؛ أي: اقصدوا بركوعكم وسجودكم الله وحده.

﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾؛ والخير كل ما أمر الله به.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ هذا ليس بشك، ولكن معناه: لتروا أن تكونوا على فلاح، كما قال لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[طه: ٤٣، ٤٤]، أي: اذهبا على رجائكما، كما يرجو النبي ممن يبعث إليه، والله -عز وجل- من وراء العلم بما يؤول إليه أمر فرعون إلا أن الحجة لا تقوم إلا بعد الإبانة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾؛ قيل: إنه بمنزلة قوله: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[آل عمران: ١٠٢]، وإن نسخها: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن: ١٦].

وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾: معناه: اختاركم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ أي: من ضيق، جعل الله على من لم يستطع الشيء الذي يثقل في وقت، ما هو أخف منه، فجعل للصائم الإفطار في السفر، وبقصر الصلاة للمصلي إذا لم يطق القيام أن يصلي قاعداً، وإن لم يطق القعود أن يومىء

إيماء وجعل للرجل ان يتزوج أربعاً، وجعل له جميع ما ملكته يمينه. فوسع الله -عز وجل- على خلقه.

وقوله: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ معناه: اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم. وجائز أن يكون منصوباً بقوله: اعبدوا ربكم وافعلوا الخير فعل أبيكم إبراهيم.

وقوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾؛ ((هو)) راجعة إلى الله -عز وجل-.

المعنى: الله سماكم المسلمين من قبل أن ينزل القرآن، وفي هذا القرآن سماكم المسلمين. وجائز أن يكون إبراهيم -عليه السلام- سماكم المسلمين من قبل، ﴿وَفِي هَذَا﴾، أي: حكم إبراهيم أن كل من آمن بمحمد موحد لله فقد سماه إبراهيم مسلماً.

وقوله: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ يروى أن الله سبحانه أعطى هذه الأمة ثلاثة لم يعطها إلا الأنبياء، جعلت شهيدة على سائر الأمم، والشهادة لكل نبي على أمته. وأن يقال: للنبي -عليه السلام-: اذهب ولا حرج عليك، وقال الله لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾، وأنه قال لكل نبي سل تعطه، وقال لهذه الأمة: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠].

سورة المؤمنون(١)

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ومن السورة التي يذكر فيها المؤمنون.

قوله -تعالى-: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: قد نالوا البقاء الدائم في الخير ، ومن قرأ: ﴿قَدْ أُفْلِحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كان معناه: قد أُصيروا إلى الفلاح.

ويروى عن كعب الأحبار: أن الله -عز وجل- لم يخلق بيده ، فقال لجنة عدن: تكلمي فقالت: ((قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)) لما رأت فيها من الكرامة لأهلها.

والمؤمنونﷺ: المصدقون بما أتى من عند الله ، وبأنه واحد لا شريك له ، وأن محمد ﷺنبيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾؛ أصل ((الخشوع)) في اللغة: الخضوع والتواضع، ودليل ذلك قوله: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾[طه: ١٠٨].

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة المؤمنون من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف الثالثة والعشرون. عدد آياتها ثماني عشرة ومائة آية. وجاءت تسميتها المؤمنون إشادة بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم.

سورة المؤمنون من السور المكية تناولت أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث، شأنها في ذلك شأن سائر السور المكية.

عرضت السورة الكريمة لدلائل القدرة والوحدانية مصوّرة في هذا الكون العجيب في الإنسان والحيوان والنبات ثم في إبداع الخلق، وفي الآيات الكونية المنبثة فيما يشاهده الناس في العالم المنظور من أنواع النخيل والأعناب، والزيتون والرمان، والفواكه والثمار والسفن الماخرة عباب البحار، وغير ذلك من آيات. ثم عرضت السورة لقصص بعض الأنبياء تسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين فذكرت قصة نوح، ثم قصة هود، ثم قصة موسى، ثم قصة مريم البتول وولدها عيسى، ثم عرضت لكفار مكة وعنادهم ومكابرتهم للحق بعد ظهوره. وتحدثت السورة عن الأهوال والشدائد التي يلقاها الكفار وقت الاحتضار، وهم في سكرات الموت، وقد تمنوا العودة إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل. وختمت السورة بالحديث عن يوم القيامة حيث ينقسم الناس إلى سعداء وأشقياء، وينقطع الحسب والنسب فلا ينفع عندها إلا الإيمان والعمل الصالح، وسجلت المحاورة بين الملك الجبار وبين أهل النار وهم يصطرخون فيها فلا يغاثون ولا يجابون.

وقال الحسن وقتادة: خاشعون خائفون.

وروى عن النبي ﷺ أنه كان إذا وقف في صلاته رفع بصره نحو السماء ، فلما نزلت﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ جعل نظره موضع سجوده.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾:

اللغو : كل لَعِب وهزل، وكل معصية فمُطرحة مُلْقَاة، وهم الذين قد شغلهم الجد فيما أمرهم الله به عن اللغو.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾؛ معنى ﴿فَاعِلُونَ﴾ مؤتون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾؛ أي: يحفظون فروجهم عن المعاصي.

﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾:

موضع ((ما)) خفض ودخلت ((على)) ههنا لأن المعنى: إنهم يلامون في إطلاق ما حظر عليهم ، إلا على أزواجهم فإنهم لا يلامون على ما أحل لهم من تزوج أربع ، ومن ملك اليمين؛ والمعنى: إنهم يلامون على ما سوى أزواجهم وملك أيمانهم.

﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾؛ أي: فمن طلب ما بعد ذلك.

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ﴾. ومعنى ﴿العَادُونَ﴾: الجائرون الظالمون الذين قد تعدوا في الظلم .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ﴾؛ وقرأ: ((لأمانتهم)) واحداً وجمعاً.

﴿وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾؛ أي: يقومون على حفظ أمانتهم وعهدهم ، يرعون ذلك.

وأصل الرعي في اللغة: القيام على إصلاح ما يتولاه الراعي من كل شيء ، تقول: ((الإمام يرعى رعيته ، والقيم بالغنم يرعى غنمه ، وفلان يرعى ما بينه وبين فلان)) ، أي: يقوم على إصلاح ما بينه وبينه.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾؛ و ((صلواتهم)) يقرأن جميعاً.

﴿يُحَافِظُونَ﴾؛معناه: يصلونها لوقتها ، والمحافظة على الصلوات أن تصلي في أوقاتها ﷺ، فأما الترك فداخل في باب الخروج عن الدين ، والذين وصفوا بالمحافظة هم الذين يرعون أوقاتها.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الوَارِثُونَ﴾؛ أي: من وصف بما جرى من الإيمان والعمل بما يلزم المؤمن أولئك هم الوارثون.

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ﴾.

روي أن الله -جل ثناؤه- جعل لكم بيتاً في الجنة وبيتاً في النار ، فمن عَمِل عَمَل أهل النار وَرِث بيته من الجنة من عَمِل عَمَل أهل الجنة ، ومن عَمِل عَمَل أهل الجنة وَرِث بيته من النار من عَمِل عَمَل أهل النار.

و((الفردوس)) أصله رومي أعرب وهو البستان ، كذلك جاء في التفسير ، وقد قيل: إن الفردوس يعرفه العرب ويسمى الموضع الذي فيه كرم: ((فردوساً)).

قال أبو إسحاق: روينا عن أحمد بن حنبل -رحمه الله- في كتابه ((كتاب التفسير)) ، وهو ما أجازه لي عبد الله ابنه عنه أن الله --عز وجل-- ، بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل جبالها المسك الأذفر.

وروينا عن غيره أن الله -جل ثناؤه- كنس جنة الفردوس بيده ، وبناها لبنة من ذهب مصفى ولبنة من مسك مُذَرَّى ، وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان.

قوله -تعالى- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ﴾؛ ((سلالة)): فعالة. فخلق الله آدم -عليه السلام- من طين.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾؛على هذا القول يعني ولد آدم. وقيل: ﴿مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ﴾ ، من مني آدمﷺ.

وسلالة: القليل فيما ينسل ، وكل مبني على ((فعالة)) ، يراد به القليل. فمن ذلك: ((الفُضَالة والنُّخَالة والقُلامَة)) فعلى هذا قياسه.

وقوله: ﴿فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً﴾ وتقرأ على أربعة أوجه:

أحدها: ما ذكرنا ، وتقرأ ﴿فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العَظْمَ لَحْماً﴾؛ وتقرأ ﴿فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عَظْماً فَكَسَوْنَا العَظْمَ لَحْماً﴾ ، والتوحيد والجمع ههنا جائزان ، لأنه يعلم أن الإنسان ذو عظام ، فإذا ذكر على التوحيد فلأنه يدل على الجمع ، ولأنه معه اللحم ، ولفظه لفظ الواحد. فقد علم أن العظم يراد بها العظام. وقد يجوز من التوحيد إذا كان في الكلام دليل على الجمع ، ما هو أشد من هذا قال الشاعر [من الرجز]:

حَلْقِكُم عَظْمٌ وقَدْ شَجِينَا

يريد: في حلوقكم عظام.

وقوله -عز وجل- ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾؛ فيه ثلاثة أقوال:

قيل: جعل ذكراً أو أنثى ، وقيل: نفخ فيه الروح ، وقيل: أنبت عليه الشعر.

ويروى أن عمر كان عند رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية ، فقال عمر: ((فَتَبَارَكَ اللهُ أحسن الخَالِقِينَ)) ، فقال ﷺ لعمر: ((إن الله قد ختم بها الآية)).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ويجوز: ((لمائتون)) ، ويجوز: ﴿لَمَيْتُونَ﴾. وأجودها ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ ، وعليها القراءة وجاءت: ((مائتون)) لأنها لما يستقبل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ ، يعنى به سبع سماوات ، فكل واحدة طريقة.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ، أي: لم نكن لنغفل عن حفظهن ، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾[الأنبياء: ٣٢]؛ وجائز أن يكون ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أي: إنا لِحفظنا إِيَّاهم خَلَقْنَا هذا الخلق.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾.

ويروى: ((أن أربعة أنهار من الجنة ، دجلة والفرات وسيحان وجيحان)) ومعنى: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ جعلناه ثابتاً فيها لا يزول.

وقوله ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾.

﴿وَشَجَرَةً﴾ منصوب ، عطف على قوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أي: وأنشأنا لكم به شجرة.

ويقرأ ﴿مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ بفتح السين ، وبكسر السين.

و((الطور)): الجبل ، وقيل: إن سيناء حجارة ، وهو -والله أعلم- اسم لمكان.

فمن قال ﴿سَيْنَاءَ﴾: فهو على وصف صحراء ، لا ينصرف ، ومن قال ((سِيناء ((بكسر السين ، فليس في الكلام على وزن ((فعلاء)) على أن الألف للتأنيث ، لأنه ليس في الكلام ما فيه ألف التأنيث على وزن ((فعلاء)) ، وفي الكلام نحو ((علباء)) منصرف ، إلا أن سيناء ههنا اسم للبقعة فلا ينصرف.

قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾؛ يقال: نبت الشجر وأنبت في معنى واحد ، قال زهير [من الطويل]:

رأيت ذَوي الحاجاتِ حَولَ بُيوتِهِم قَطيناً بِها حَتّى إِذا نَبَتَ البَقلُ

ومعنى ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ أي: تنبت وفيها دهن ومعها دهن كما تقول: ((جاءني زيد بالسيف))، تريد: جاءني ومعه السيف.

وقوله -تعالى-: ﴿وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾؛ يعني بها الزيتون.

قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾:

﴿جِنَّةٌ﴾ في معنى جنون، والجنة: اسم للجن.

وقوله: ﴿وَقُل رَبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُبارَكاً﴾؛ تقرأ: ﴿مُنزَلاً﴾ و((مَنْزِلاً)) جميعاً ، فالمنزل: اسم لكل ما نزلت فيه ، والمُنزل: المصدر بمعنى الإنزال ، يقول: ((أنزلته إنزالاً ومُنزلاً)) ويجوز ((مَنزلاً)) ، ولم يقرأ به ، فلا تقرأن بها ، على معنى: نزلت نُزولاً ومَنزلاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُراباً وَعِظَاماً أَنَّكُم مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾.

وهذا جواب الملأ من قوم ثمود فأما ﴿أَنَّكُمْ﴾ الأولى: فموضعها نصب على معنى: أيعدكم بأنكم إذا متم ، وموضع ((أن)) الثانية عند قوم كموضع الأولى ، وإنما ذكرت توكيداً؛ فالمعنى على هذا القول: أيعدكم أنكم تخرجون إذا متم ، فلما بَعُد ما بيّن ((أن)) الأولى والثانية بقوله: ﴿إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُراباً وَعِظَاماً﴾ أعيد ذكر ((أن)) كما قال -عز وجل-: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾[التوبة: ٦٣]؛ المعنى: فله نار جهنم ، هذا على مذهب سيبويه.

وفيها قولان آخران أجودهما: أن تكون ((أن)) الثانية وما عملت فيه في موضع رفع ويكون المعنى: أيعدكم أنّكم إخراجكم إذا متم. فيكون ﴿أَنَّكُم مُخْرَجُونَ﴾ في معنى: ((إخراجكم)) ، كأنه قيل: أيعدكم أنكم إخراجكم وقت موتكم وبعد موتكم ، ويكون العامل في ((إذا)): ((إخراجكم)) على أن ((إذا)) ظرف ؛ والمعنى: أنكم يكون إخراجكم إذا متم.

الثالث أن يكون ((إذا)) العامل فيها ﴿مِتُّمْ﴾ فيكون المعنى: إنكم متى متم يقع إخراجكم ، فيكون خبر ((إن)) مضمراً ، والقولان الأولان جيدان.

ويجوز: ((أيعدكم إنكم إذا متم أنكم مخرجون)) ولم يقرأ بها فلا تقرأن بها. ويكون المعنى في ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾: ويقول لكم؛ ولكنها لا تجوز في القراءة لأن القراءة سنة.

وقوله: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾؛ يقرأ بفتح التاء وبكسر التاء ، ويجوز ﴿هَيْهَاتٌ هَيْهَاتٌ﴾ بالتنوين .

ويجوز: ((هيهاتاً هيهاتاً)) ، فأما الفتح والكسر ، بغير تنوين فالكثيرتان في القراءة ، وذكرهما القراء والنحويون ، وقد قرئت بالكسر والتنوين ، فأما التنوين والفتح فلا أعلم أحداً قرأ بهما فلا تقرأن بها.

فأما الفتح فالوقف فيه بالهاء ، تقول: ((هَيْهاتْ هَيْهاتْ)) إذا فتحت ووقفت بعد الفتح، فإذا فتحت ووقفت على التاء سواء عليك كنت تنون في الأصل أو كنت ممن لا ينون.

فمن فتحها -وموضعها الرفع- وتأويلها: البعد لما توعدون ، فلأنها بمنزلة الأصوات، وليست مشتقة من فعل فبنيت: ((هَيْهاتْ)) كما بنيت: ((ذي وذيه)). فإذا كسرت جعلتها جمعاً وبنيتها على الكسر ، قال سيبويه: هي بمنزلة: ((علقاه))[1] يعني في تأنيثها.

ومن جعلها جمعاً فهي بمنزلة قول العرب: ((استأصل الله عَرْقَاتِهم وعَرْقَاتَهُم))، فالذي يقول: ((عرقاتِهم)) - بالكسر ، وجعلها جمعاً وواحدها كأنه: ((عِرقه وعِرق))، وواحد ((هَيْهَاتَ)) على هذا اللفظ وإن لم يكن حاله واحداً: ((هَيْهةٌ)) ، فإن هذا تقديره وأن لم تنطق به.

وأما ((عَرْقَات)) فقد تكلم بواحدها ، يقال: ((عَرِق وعَرْقاة وعَرْقَةٌ وعَرْقَانٌ)) ، وإنما كسرت في الجمع لأن تاء الفتح في الجمع كسر تقول: ((مررت بالهندات)) ، وكذلك: ((رأيت الهندات)).

ويقال: ((أَيْهات)) في معنى ((هَيْهَاتَ)) ، ويقال: ((هَيْهَاتَ ما قلت)) ، و((هَيْهَاتَ لما قلت)) ، فمن قال: ((هَيْهَاتَ ما قلت)) فمعناه البعد ما قلت ، ومن قال: ((هَيْهَاتَ لما قلت)) فمعناه: البعد لقولك وأنشدوا [من الطويل]:

فَأَيهاتَ أَيهاتَ العَقيقُ وَمَن بِهِ ... وَأَيهاتَ وَصلٌ بِالعَقيقِ تُواصِلُه[2]

فأنا من نون ﴿هَيْهَاتَ﴾ فجعلها نكره ، ويكون المعنى: بعد لما توعدون.

وقوله -تعالى-:﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ معناه: عن قليل ، و((ما)) زائدة بمعنى التوكيد ، كأن معناه: عن قليل ليصبحن نادمين حقاً.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾؛الغثاء : الهالك والبالي من ورق الشجر الذي إذا جرى

---

(١) اسم شجرة تدوم خضرتها ذات أفنان طوال.

(٢) هو : لجرير.

السيل رأيته مخالطاً زبده.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾؛ ويقرأ ((تترى)) غير منونة بالكسر ، ولم يقرأ به فلا تقرأن به.

من قرأ بالتنوين فمعناه: ((وتراً)) فأبدل التاء من الواو كما قالوا: ((تولج)) وهو من ((وَلَج)) ، وأصله: ((وولج)) وكما قال الشاعر.

فَإِنْ يَكُنْ أَمْسِ البِلَى تَيْقُورِي

أي: ((ويقوري)) ، وهو: ((فيعول)) من: ((الوقار)) ، وكما قالوا: ((تجاه)) وإنما هو: ((وجاه)) من: ((المواجهة)).

ومن قال: ((تترى)) بغير تنوين فإنما جعلها من: ((فعلى)) بألف التأنيث فلم ينون ، ومعنى: ((تترى)) من المواترة.

وقال الأصمعي: معنى: ((واترت الخبر)) أتبعت بعضه بعضاً ، وبين الخبرين هنية.

وقال غيره: ((المواترة)): المتابعة ، وأصل كل هذا من: ((الوِتر)) ، وهو: ((الفرد)) وهو أن جعلت كل واحد بعد صاحبه فرداً فرداً.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾؛ ولم يقل: ((آيتين)) لأن المعنى: فيها آية واحدة، ولو قيل: ((آيتين)) لجاز لأنهما قد كان في كل واحد منهما ما لم يكن في ذكر ولا أنثى ، من أن مريم ولدت من غير فحل ، ولأن عيسى روح الله ألقاه إلى مريم ولم يكن هذا في ولد قط.

وقوله: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾:

في ﴿رَبْوَةٍ﴾ ثلاث لغات: ((رَبْوة ، ورِبْوة ، ورُبْوة)) وفيها وجهان آخران ، رَبَاوة ورِبَاوة. وهو عند أهل اللغة المكان المرتفع.

وجاء في التفسير: أنه يعني بـ﴿رَبْوَةٍ﴾ هنا بيت المقدس ، وأنه كبد الأرض ، وأنه أقرب الأرض إلى السماء.

وقيل: يعنى به دمشق ، وقيل: فلسطين والرَّحْلَة ، وكل ذلك قد جاء في التفسير.

وقوله -عز وجل-: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾؛ أي: ذات مستقر.

و ﴿وَمَعِينٍ﴾ ماء جار من العيون.

وقال بعضهم: يجوز أن يكون ((فعيلاً)) من: ((المعن)) ، مشتقاً من: ((الماعون)). وهذا بعيد لأن المعن في اللغة: الشيء القليل ، والماعون: هو الزكاة وهو: ((فاعول)) من المعن ، وإنما سميت الزكاة بالشيء القليل ، لأنه يؤخذ من المال ربع عشرة ، فهو قليل من كثير ، قال الراعي [من الكامل]:

قَومٌ عَلى الإسلام لَمّا يمنَعوا مَاعُونَهُم وَيُضَيِّعوا التَّهليلا

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾؛ أي: كلوا من الحلال ، وكل مأكول حلال مستطاب فهو داخل في هذا.

وإنما خوطب بهذا رسول الله ﷺ فقيل: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ وتضمن هذا الخطاب أن الرسل جميعاً كذا أمروا.

وروى أن عيسى -عليه السلام- كان يأكل من غزل أمه ، وأطيب الطيبات الغنائم.

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ أي: فاتقون لهذا.

وقد فسرنا في سورة الأنبياء كل ما يجوز في نظير هذه الآية.

وجملة تأويلها: أن دينكم دين واحد ، وهو الإسلام.

وأعلم الله -عز وجل- أن قوماً جعلوا دينهم أدياناً فقال: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً﴾؛ويقرأ: ((زُبَراً)).

فمن قرأ ﴿زُبُراً﴾ فتأويله: جعلوا دينهم كتباً مختلفة ، جمع: ((زَبُور وزُبُر)) ، ومن قرأ ((زُبَراً)) أراد قطعاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾؛ ويجوز: ((في غمراتهم)) ومعناه: في عمايتهم وحيرتهم.

ومعنى: ﴿حَتَّى حِينٍ﴾؛ أي: إلى حين يأتيهم ما به من العذاب.

وقوله -تعالى-: ﴿أَيَحْسَبُونَ أنما نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ﴾ بالنون وبالياء ، و((يُسَارَعُ)) على ما لم يسم فاعله.

وتأويله: أيحسبون أن إمداد الله لهم بالمال والبنين مجازاة لهم ، وإنما هو استدراج من الله لهم.

و ((ما)) في معنى: ((الذي))؛ المعنى: أيحسبون أن الذي نمدهم به من مال وبنين. والخبر معه محذوف؛ المعنى: نسارع لهم به في الخيرات ، أي: أيحسبون إمداد ما نسارع لهم به.

فأما من قرأ ((يُسَارِعُ)) فعلى وجهين:

أحدهما: لا يحتاج إلى إضمار؛ المعنى: أيحسبون أن إمدادنا لهم يسارع لهم في الخيرات.

ويجوز أن يكون على معنى: يُسَارِع الله لهم به في الخيرات ، فيكون مثل ﴿نُسَارِعُ﴾.

ومن قرأ: ﴿يُسَارَعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَاتِ﴾ يكون على معنى: يُسَارَع الإمداد لهم في الخيرات ، وعلى معنى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخَيْرَاتِ﴾ ، فيكون ﴿يُسَارَعُ﴾ مقام ما لم يسم لهم ، ويكون مضمراً معه به كما قلنا.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ إِنَّهم إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾؛ ويقرأ: ((يُؤْتُونَ مَا أَتَوْا)) بالقصر وكلاهما جيد بالغ.

فمن قرأ ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ فإن معناه: يعطون ما أعطوا وهم يخافون ألا يتقبل منهم ، قلوبهم خائفة لأنهم إلى ربهم راجعون ، أي: لأنهم يوقنون بأنهم راجعون إلى الله -عز وجل-.

ومن قرأ ((يُؤْتُونَ مَا أَتَوْا)) أي: يعملون من الخيرات ما يعلمون وقلوبهم خائفة ، يخافون أن يكونوا مع اجتهادهم مقصرين.

﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾؛ وجائز: ((يسرعون في الخيرات)) ، ومعناه معنى يسارعون ، يقال: ((أسرعت ، وسَارعت)) في معنى واحد، إلا أن ((سَارعت)) أبلغ من ((أسرعت)).

وقوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾؛ فيه وجهان:

أحدهما؛ معناه: إليها سابقون ، كما قال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[الزلزلة: ٥] ، أي: أوحى إليها.

ويجوز: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ أي: من أجل اكتسابها ، كما تقول: ((أنا أكرم فلاناً لك))، أي: من أجلك.

وقوله: ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾؛ ويجوز: ((ولا يكلف نفساً إلا وسعها)) ، ولم يقرأ بها ولو قرئ بها لكانت النون أجود لقوله -عز وجل-: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ .

وقوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾؛ يجوز أن يكون ((هذا)) إشارة إلى ما وصف من أعمال البر في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُشْفِقُونَ﴾ إلى قوله ﴿يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ﴾؛ أي: قلوب هؤلاء في عماية من هذا.

ويجوز أن يكون ((هذا)) إشارة إلى الكتاب؛ المعنى: بل قلوبهم في غمرة من الكتاب الذي ينطق بالحق ، وأعمالهم محصاة فيه.

قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾:

أخبر الله -عز وجل- بما سيكون فيهم ، فأعلم إنهم سيعملون أعمالاً تباعد من الله غير الأعمال التي ذكروا بها.

وقوله -عز وجل-: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أي: يضجون، والعذاب الذي أخذوا به السيف ، يقال: ((جَأَر يَجْأَر جُؤْراً)) ، إذا ضج.

وقوله: ﴿تَنكِصُونَ﴾ أي: ترجعون .

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾؛ منصوب على الحال.

وقوله ﴿بِهِ﴾ أي: بالبيت الحرام ، يقولون: البيت لنا.

وقوله: ﴿سَامِراً﴾؛ بمعنى ((سُمَّاراً)) ويجوز: ((سُمَّاراً)).

والسُّامر : الجماعة الذين يتحدثون ليلاً، وإنما سموا: ((سُمَّاراً)) من السمر ، وهو ظل القمر ، وكذلك: ((السُّمْرَة)) مشتقة من هذا.

وقوله: ﴿تَهجُرُونَ﴾؛ أي: تهجرون القرآن ، ويجوز ﴿تَهْجُرُونَ﴾: تهذون.

وقرئت: ﴿تُهْجِرُونَ﴾ أي: تقولون الهجر ، وقيل: كانوا يسبون النبي ﷺ.

ويجوز أن تكون الهاء للكتاب ، ويكون المعنى: ﴿فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ مستكبرين بالكتاب ، أي: يحدث لكم بتلاوته عليكم استكباراً ، ويجوز ﴿تَنكُصُونَ﴾ ، ولا أعلم أحداً قرأ بها.

وقوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾:

جاء في التفسير: أن ﴿الحَقُّ﴾ هو الله -عز وجل- ، ويجوز أن يكون ﴿الحَقُّ﴾ الأول في قوله: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ التنزيل ، أي: بالتنزيل الذي هو الحق ، ويكون

تأويل: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: لو كان التنزيل بما يحبون لفسدت السماوات والأرض.

وقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾؛ أي: بما فيه فخرهم وشرفهم ، ويجوز أن يكون ﴿بِذِكْرِهِمْ﴾ أي: بالذكر الذي فيه حظاً لهم لو اتبعوه.

وقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾؛ أي: أم تسألهم به أجراً ، ويقرأ ﴿خِرَاجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ ، ويجوز: ((خَرَاجاً فَخَرْج رَبِّكَ خَيْرٌ)).

وقوله: ﴿لَنَاكِبُونَ﴾؛ معناه لعادلون عن القصد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾؛ أي: ما تواضعوا ، والذي أخذوا به: ((الجوع)).

﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾؛ قيل: السيف والقتل.

﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ المبلس: الساكن المتحير.

﴿قُل لِمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾:

هذه ﴿لِلَّهِ﴾ لا اختلاف بين القراء فيها ، ولو قرئت ((اللَّهُ)) لكان جيداً.

فأما اللتان بعدها فالقراءة فيهما: ((سيقولون الله ولِلَّهِ)). فمن قرأ: ((سيقولون الله)) فهو على جواب السؤال ، إذا قال: ﴿مَن رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ﴾ ، فالجواب: ((الله)) ، وهي قراءة أهل البصرة ، ومن قرأ: ((لِلَّهِ)) فجيد أيضاً.

لو قيل: ((من صاحب هذه الدار)) فأجيب زيد لكان هذا جواباً على لفظ السؤال. ولو قلت في جواب ((من صاحب هذه الدار)): ((لزيد)) ، جاز ، لأن معنى ((من صاحب هذه الدار)) لمن هذه الدار.

وقوله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: هو يجير من عذابه ولا يجير عليه أحد من عذابه. وكذلك هو يجير من خلقه ولا يجير عليه أحد.

وقوله: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾.

معنى ﴿تُسْحَرُونَ﴾ ، و((تؤفكون)) تصرفون عن القصد والحق.

وقوله تعالى: ﴿إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ أي: طلب بعضهم مغالبة بعض.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾؛ معناه: تنزيه الله وتبرئته من السوء ومن أن يكون إله غيره تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وقوله: ﴿قُل رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلاَ تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ الفاء جواب الشرط شرط الجزاء ، وهو اعتراض بين الشرط والجزاء.

المعنى: إما تريني ما يوعدون فلا تجعلني يا رب في القوم الظالمين ، أي: إن نزلت بهم النقمة يا رب فاجعلني خارجاً عنهم ، ويجوز ((فلا تجعَلَنِي)) ، ولم يقرأ بها.

وقوله: ﴿وَقُل رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾؛ واحد ((الهمزات)) همزة ، وهو مس الشيطان ، ويجوز أن يكون نزغات الشيطان ، ونَزْغُ الشيطان وسوسته حتى يُشْغَل عن أمر الله تعالى.

وقوله: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾؛ ويجوز: ((وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن تَحْضُرُونِ)) ولم يقرأ بها فلا تقرأن بها.

ويجوز: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾)) ، ويجوز: ((ربيْ)) ، فهذه أربعة أوجه ، ولا ينبغي أن يقرأ إلا بواحد ، وهو الذي عليه الناس: ﴿رَبِّ﴾ رب بكسر الباء وحذف الياء، والياء حذفت للنداء.

والمعنى: وأعوذ بك يا رب؛ من قال: ((ربُّ)) بالضم فعلى معنى: يا أيها الرب ، ومن قال: ((ربيْ)) فعلى الأصل ، كما قال: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[الزمر: ١٦].

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾؛ يعني به الذين ذكروا قبل هذا الموضع ودفعوا البعث.

فأعلم أنه إذا حضر أحدهم الموت ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

وقوله: ﴿ارْجِعُونِ﴾ وهو يريد الله -عز وجل- وحده ، فجاء الخطاب في المسألة على لفظ الإخبار ، لأن الله -عز وجل- قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾[ق: ٤٣] ، وهو وحده يحيي ويميت. وهذا لفظ تعرفه العرب للجليل الشأن يخبر عن نفسه بما يخبر الجماعة ، فكذلك جاء الخطاب في ﴿ارْجِعُونِ﴾.

وقوله: ﴿كَلاَّ﴾: ردع وتنبيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

﴿يَوْمِ﴾ مضاف إلى ﴿يُبْعَثُونَ﴾ لأن أسماء الزمان تضاف إلى الأفعال.

والبرزخ في اللغة: الحاجز ، وهو ههنا ما بين موت الميت وبعثه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

قيل: هذا في النفخة الأولى ، ويجوز أن يكون بعد النفخة الثانية ، قال -عز وجل-: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر: ٦٨].

وقال أهل اللغة -كثير منهم-: ((الصور: جمع صورة)) ، والذي جاء في اللغة: جمع: ((صُورة: صُوَر)) ، وكذلك جاء في القرآن: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ ، ولم يقرأ أحد: ((فأحسن صُوْرَكُم)) ، ولو كان أيضاً جمع ((صورة)) لقال أيضاً: ((ثم نفخ فيها أخرى)) ، لأنك تقول: ((هذه صور)) ، ولا تقول: ((هذا صور)) إلا على ضعف فهو على ما جاء في التفسير.

فأما قوله: ﴿وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾؛ وقال في موضع آخر: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧].

فيقول القائل: كيف جاء ﴿وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾، وجاء ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ، فإن يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة ، ففيه أزمنة وأحوال.

وإنما قيل: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ كما تقول: ((نحن اليوم نفعل كذا وكذا)) ، وليس تريد به في يومك إنما تريد نحن في هذا الزمان ، ((فيوم)) تقع للقطعة من الزمان.

وأما ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾[الرحمن: ٣٩]؛ فلا يسأل عن ذنبه ليستفهم ، فيسألون سؤال توبيخ لا سؤال استفهام كما قال: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[التكوير: ٨، ٩] ، وإنما تسأل لتوبيخ من قتلها.

وكذلك قوله: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[المائدة: ١١٦]؛ فما يسأل عنه يوم القيامة تقرير وتوبيخ ، والله -عز وجل- قد عَلِم ما كان ، وأحصى كبير ذلك وصغيره.

وقوله: ﴿تَلْفَحُ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾؛ يلفح وينفح في معنى واحد ، إلا أن اللفح أعظم تأثيراً.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾؛ والكالح : الذي قد تشمرت شفته عن أسنانه ، نحو ما ترى من رؤوس الغنم إذا مستها النار فبرزت الأسنان وتشمرت الشفاه.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾؛ وتقرأ: ((شقاوتنا))؛ والمعنى: واحد.

﴿وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾ أقروا بذلك.

وقوله: ﴿قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾؛ معنى ﴿اخْسَؤُوا﴾ تباعدوا تباعد سُخْط.

يقال: ((خَسَأْتُ الكلب أَخْسَؤُهُ)) إذا زجرته ليتباعد.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِياً﴾؛ الأجود إدغام ((الدال)) في ((التاء)) لقرب المخرجين ، وإن شئت أظهرت ، لأن ((الدال)) من كلمة و((التاء)) من كلمة ، و ((الدال)) بينها وبين ((التاء)) في المخرج شيء من التباعد ، وليست ((الذال)) من ((التاء)) بمنزلة ((الدال)) من ((التاء)) ، و((التاء والطاء)) من مكان واحد ، وهي من أصول الثنايا العُلاَ وطرف اللسان ، و((الذال)) من أطراف الثنايا العُلا ودُوَيْنَ طرف اللسان.

وقوله ﴿سِخْرِياً﴾؛ يقرأ بالضم والكسر جيد ، إلا أنهم قالوا: إن بعض أهل اللغة قال: ما كان من الاستهزاء فهو بالكسر ، وما كان من جهة التسخير فهو بالضم ، وكلاهما عند سيبويه والخليل واحد ، والكسر لإتباع الكسر أحسن.

وقوله: ﴿إِنِي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهم هُمُ الْفَائِزُونَ﴾؛ الكسر أجود لأن الكسر على معنى: إني جزيتهم بما صبروا.

ثم أخبر فقال: ﴿إنهم هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ والفتح جيد بالغ ، على معنى: ﴿إِنِي جَزَيْتُهُمْ﴾ لأنهم هم الفائزون.

وفيه وجه آخر: يكون المعنى: جزيتهم الفوز ، لأن معنى ﴿إِنَّهم هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فوزهم ، فيكون المعنى: جزيتهم فوزهم.

وقوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾.

﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بقوله: ﴿لَبِثْتُمْ﴾ ، و﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ منصوب بـ﴿كَمْ﴾ ، ويجوز ﴿كَم لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ﴾ مشدد التاء ، وكذلك يجوز في الجواب.

﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أو بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولُبِثْنَا.

وقوله: ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾؛ أي: فاسأل الملائكة الذين يحفظون عدد ما لبثنا.

﴿قَالَ إِن لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ معناه: ما لبثتم إلا قليلاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ و((تَرْجِعُون)).

وقوله: ﴿فإنما حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾؛ التأويل: حسابه عند ربه فإنه لا يفلح الكافرون.

والمعنى: الذي له عند ربه أنه لا يفلح ، وجائز أنه لا يفلح الكافرون بفتح ((أن)) ، ويجوز أن يكون فإنما حسابه عند ربه فيجازيه عليه كما قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[الغاشية: ٢٦].

* * *

سورة النور[1]

مدنية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل- ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ القراءة الرفع ، وقرأ عيسى بن عمر ﴿سُورَةً﴾ بالنصب.

فأما الرفع فعلى إضمار: هذة سوره أنزلناها ، ورفعها بالابتداء قبيح لأنها نكرة.

و﴿أَنزَلْنَاهَا﴾ صفة لها ، والنصب على وجهين على معنى: أنزلنا سورة كما تقول: زيداً ضربته، وعلى معنى: اتل سورة أنزلناها.

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾؛ بتخفيف الراء ويقرأ بالتشديد في الراء ، فمن قرأ بالتخفيف فمعناه: ألزمناكم العمل بما فيها ، ومن قرأ بالتشديد فعلى وجهين؛ أحدهما على معنى التكثير ، على معنى: إنا فرضنا فيها فروضاً كثيرة ، وعلى معنى: بينا وفصلنا ما فيها من الحلال والحرام.

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة النور: من سور القرآن الكريم المدنية، ترتيبها في المصحف الشريف الرابعة والعشرون.

عدد آياتها أربع وستون آية. جاءت تسميتها النور لما فيها من إشعاعات النور الرباني، بتشريع الأحكام والآداب، والفضائل الإنسانية التي هي قبس من نور الله على عباده، وفيض من فيوض رحمته وجوده.

هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تتناول الأحكام التشريعية، وتُعنَى بأمور التشريع، والتوجيه والأخلاق، وتهتم بالقضايا العامة، والخاصة التي ينبغي أن يُربى عليها المسلمون أفرادًا وجماعات، وقد اشتملت أحكامًا وتوجيهات تتعلق بالأسرة، التي هي النواة الأولى لبناء المجتمع الأكبر.

وضّحت السورة الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة: كالاستئذان عند دخول البيوت، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء الأجنبيات، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة من العفاف والستر، والنزاهة والطهر، والاستقامة على شريعة الله. وذكرت السورة الحدود الشرعية التي فرضها الله كحد الزنى، وحدّ القذف، وحد اللعان، وكل هذه الحدود إنما شرعت تطهيرًا للمجتمع من الفساد والفوضى، واختلاط الأنساب، والانحلال الخلقي، وحفظًا للأمة من عوامل التردي في بؤرة الإباحية والفساد. وصفوة القول فإن هذه السورة الكريمة عالجت ناحية من أخطر النواحي الاجتماعية هي مسألة الأسرة، وما يحفها من مخاطر، وما يعترض طريقها من عقبات ومشاكل، تؤدي بها إلى الانهيار ثم الدمار، بالإضافة إلى ما فيها من توجيهات.

وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.

القراءة بالرفع ، وقرأ عيسى بن عمر بالنصب ﴿الزَّانِيَةَ وَالزَّانِيَ﴾ بفتح الهاء.

وزعم الخليل وسيبويه أن النصب المختار ، وزعم سيبويه أن القراءة الرفع ، وزعم غيرهم من البصريين والكوفيين أن الاختيار الرفع ، وكذا هو عندي ، لأن الرفع كالإجماع في القراءة ، وهو أقوى في العربية لأن معناها معنى من زنا فَاجْلِدُوه ، فتأويله: الابتداء.

وقال سيبويه والخليل: إن الرفع على معنى: ((وفيما فرضنا عليكم الزانية والزاني)) بالرفع أو ((الزانية والزاني فيما فرض عليكم)) ، والدليل على أن الاختيار الرفع قوله -عز وجل- ﴿وَالَّلذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾[النساء: ١٦] ، وإنما اختار الخليل وسيبويه النصب لأنه أمر ، وأن الأمر بالفعل أولى ، والنصب جائز على معنى: ((اجلدوا الزانية والزاني)).

والإجماع أن الجلد على غير المحصنين، يجلد غير المحصن وغير المحصنة مائة جلدة وينفى مع الجلد في قول كثير من الفقهاء ، يجلد مائة ويغرب عاماً ، فأما أهل العراق فيجلدونه مائة.

وقوله ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ وتقرأ: ((رآفة في دين الله)) على وزن: ((رعافة)) ، وتقرأ: ((يآخذكم)) بالياء ورافة مثل: ((السامة)) مثل: ((سئمت سآمة)) ، ومثله: كآبة ، فـ((فعالة)) من أسماء المصادر ، وسآمة على قياس: ((كلالة)).

و ((فَعَالَة)) في الخصال مثل القباحة ، والملاحة، والفخامة ، وهذا يكثر جداً.

ومعنى ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ لا ترحموهما فتسقطوا عنهما ما أمر الله به من الحد ، وقيل: يبالغ في جلدهما.

وقوله -تعالى- ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ القراءة إسكان اللام ويجوز كسرها.

واختلف الناس في ((الطائفة)) فقال بعضهم: الواحد فما فوقه طائفة. وقال آخرون: لا تكون ((الطائفة)) أقل من اثنين. وقال بعضهم: ((ثلاثة)). وقال بعضهم: ((أربعة)). وقال بعضهم: ((عشرة)) ، فأما من قال واحد فهو على غير ما عند أهل اللغة ، لأن ((الطائفة)) في معنى الجماعة وأقل الجماعة اثنان، وأقل ما يجب في ((الطائفة)) عندي: اثنان، والذي سينبغي أن يتحرى في شهادة عذاب الزاني أن يكونوا جماعة لأن الأغلب على ((الطائفة)) الجماعة.

وقوله: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾؛ ويجوز: الزاني لا ينكح إلا زانية ، والزانية لا ينكحها إلا زان يقرأ بها.

وتأويل: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً﴾ على معنى لا يتزوج ، وكذلك الزانية لا يتزوجها إلا زان.

وقال قوم: إن معنى النكاح ههنا الوطء ، فالمعنى عندهم: الزاني لا يطأ إلا زانية والزانية لا يطؤها إلا زان. وهذا القول يبعد ، لأنه لا يعرف شيء من ذكر النكاح في كتاب الله إلا على معنى التزوج ، قال الله سبحانه: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[النور: ٣٢] ، فهذا تزوج لا شك فيه ، وقال الله -عزّ وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾[الأحزاب: ٤٩].

فأعلم -عزّ وجل- أن عقد التزوج يسمى النكاح.

وأكثر التفسير أن هذه الآية نزلت في قوم المسلمين فقراء كانوا بالمدينة ، فهمّوا بأن يتزوجوا ببغايا كن بالمدينة يزنين ، ويأخذن الأجرة ، فأرادوا التزوج بهن لِيَعُلْنَهم ، فأنزل -عزّ وجل- تحريم ذلك ، وقيل: إنهم أرادوا أن يسامحوهن ، فأعلموا أن ذلك حرام.

ويروى أن الحسن قال: إن الزاني إذا أقيم عليه الحد لا يزوج إلا بامرأة أقيم عليها الحد مثله ، وكذلك المرأة إذا أقيم عليها الحد عنده لا تتزوج إلا برجل مثلها.

وقال بعضهم: الآية منسوخة نسخها قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ﴾ وأكثر القول إن المعنى ههنا على التزوج.

ويجوز ﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ بمعنى: وحرم الله ذلك على المؤمنين ، ولم يقرأ بها.

وهذا لفظه لفظ خبر ، ومعناه الأمر ، ولو كان على ما قال من قال: إنه الوطء لما كان في الكلام فائدة ، لأن القائل إذا قال: الزانية لا تزني إلا بزان ، والزاني لا يزني إلا بزانية، فليس فيه فائدة إلا على جهة التغليظ في الأمر ، كما تقول للرجل الذي قد عرفته بالكذب: ((هذا كذاب)) ، تريد تغليظ أمره. فعلى ما فيه الفائدة وما توجبه اللغة أن المعنى معنى التزويج.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾؛ معنى ﴿يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: بالزنا لكنه لم يقل الزنا ، لأن فيما تقدم من ذكر الزانية والزاني دليلاً على أن المعنى ذلك.

وموضع ﴿وَالَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء. وعلى قراءة عيسى بن عمر ، يجب أن يكون موضع ((الذين يرمون المحصنات)) نصباً على معنى: اجلدوا الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، وعلى اختيار سيبويه والخليل.

والمحصنات ههنا: اللواتي أحصن فروجهن بالعفة.

وقوله: ﴿وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ اختلف الناس في قبول شهادة القاذف:

فقال بعضهم: إذا تاب من قذفه قبلت شهادته.

ويروى: أن عمر بن الخطاب قبل شهادة قاذفين ، وقال لأبي بكرة: إن تبت قبلت شهادتك. وتوبته أن يرجع عن القذف. وهذا مذهب أكثر الفقهاء ، وأما أهل العراق فيقولون شهادته غير مقبولة لقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً﴾ قالوا: وقوله: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قالوا: هذا الاستثناء من قوله: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ ، فاستثنيى التائبون من الفاسقين.

وقال من زعم أن شهادته مقبولة أن الاستثناء من قوله: ﴿وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ قالوا: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ﴾ صفة لهم.

وأجمعوا أن من قذف وهو كافر ثم أسلم وتاب ، وكان بعد إسلامه عدلاً قبلت شهادته وإن كان قاذفاً ، والقياس قبول شهادة القاذف إن أتاب ، والله -عز وجل- يقول في الشهادات: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾[البقرة: ٢٨٢] ، فليس والقاذف بأشد جرماً من الكافر ، فحقه أنه إذا تاب وأصلح قبلت شهادته ، كما أن الكافر إذا أسلم وأصلح قبلت شهادته.

فإن قال قائل: فما الفائدة في قوله ﴿أَبَداً﴾؟

قيل: الفائدة أن ((الأبد)) لكل إنسان مقدار مدته في حياته ، ومقدار مدته فيما يتصل بقصته. فيقول: الكافر لا يقبل منه شيء أبداً فمعناه: ما دام كافراً فلا يقبل منه شيء ، وكذلك إذا قلت القاذف لا تقبل منه شهادة أبداً ، فمعناه: ما دام قاذفاً ، فإذا زال عنه الكفر فقد زال أبده ، وكذلك القاذف إذا زال عنه القذف فقد زال عنه أبده ولا فرق بين هذا وذلك.

وتقرأ ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ﴾ بالتنوين.

﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ ، فأربعة مخفوضة منونة من جهتين:

أحداهما: على معنى: ثم لم يحضروا أربعة شهداء ، وعلى نصب الحال مع النكرة؛ ثم لم يأتوا حال الشهادة.

فأما ﴿إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ فيجوز أن يكون في موضع جر على البدل من الهاء والميم ، على معنى: ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً الذين تابوا ، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الاستثناء على قوله: ﴿وَأُولَـئِكَ هُـمُ الفَاسِـقُونَ﴾ ، ﴿إلاَّ الَّـذِينَ تَابُـوا﴾ وإذا استثنوا من الفاسقين أيضاً، فقد وجب قبول شهادتهم لأنهم قد زال عنهم اسم الفسق.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُـمْ وَلَـمْ يَكُن لَهُـمْ شُـهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ﴾؛ معناه: والذين يرمون أزواجهم بالزنا.

وقوله: ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾؛ ويقرأ ﴿أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾ بالنصب.

فمن قرأ ﴿أَرْبَعُ﴾ بالرفع فعلى خبر الابتداء ، المعنى: فشهادة أحدهم التي تدرأ حد القاذف أربع ، والدليل على ذلك قوله -عزّ وجل-: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ﴾.

ومن نصب ((أربعاً)) فالمعنى: فعليهم أن يشهد أحدهم أربع شهادات ، وعلى معنى: فالذي يدرأ عنها العذاب أن يشهد أحدهم أربع شهادات بالله.

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ﴾؛ ويجوز: ((والخامسةَ أن لعنة الله عليه)) ، وكذلك: ((والخامسةُ أن غضب الله عليها)) ، و ((الخامسةَ)) جميعاً.

فمن قال: ((والخامسةَ)) فعلى معنى: ويشهد الخامسةَ.

فإذا قذف القاذف امرأته فشهادته أن يقول: ((أشهد بالله أني لمن الصادقين فيما قذفتها به)) ، أو يقول: ((أحلف بالله أني لمن الصادقين فيما قذفتها به)) أربع مرات ، ويقول في الخامسة: ((لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين)) ، وكذلك تقول المرأة: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما قذفني به)) أربع مرات ، وتقول في الخامسةَ: ((وعلي غضب الله إن كان من الصادقين)) وهذا هو اللعان.

فإذا تلاعنا فرق بينهما واعتدت عدة المطلقة من وقتها ذلك ، فإذا فعلا ذلك لم يتزوجها أبداً في قول أكثر الفقهاء من أهل الحجاز وبعض الكوفيين يتابعهم وهو أبو يوسف ، والقياس ما عليه أهل الحجاز ، لأن القاذف قذفها بالزنا فهو لا ينبغي له أن يتزوج بزانية ، وليس يظهر لهذا توبة ، واللعان لا يكون إلا بحاكم من حكام المسلمين ﷺ

وقوله تعالى﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ ههنا جواب ((لولا)) متروك؛ والمعنى: -والله أعلم- ولولا فضل الله عليكم لنال الكاذب لما ذكرنا عذاب عظيم ، ويدل علبه ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ﴾:

معنى ((الإفك)) ههنا الكذب ، وقد سمي بعضهم في الآثار ولم يسمَّوا في القرآن ، فممن سُمِّي حسان بن ثابت. ومسطح بن أثاثة ، عبد الله بن أبي ، ومن النساء: حمنة بنت جحش.

﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَراً لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

وقيل: ﴿لَكُم﴾ والتي قصدت عائشة -رحمها الله- فقيل: ﴿لَكُم﴾ يعنى به هي ومن بسببها[1] من النبي ﷺ وأبي بكر -رحمه الله-.

وقوله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾؛ ويقرأ: ((كُبْره منهم)).

﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ فمن قرأ: ﴿كِبْرَهُ﴾ فمعناه: من تولى الإثم في ذلك ، ومن قرأ: ((كُبْرَه)) أراد معظمه.

ويروى أن حسان بن ثابت دخل على عائشة فقيل لها: أتدخلين هذا الذي قال الله -عز وجل- فيه: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقالت: أوليس قد ذهب بصره.

ويروى أنه أنشدها قوله في بيته [من الطويل]:

حَصانٌ رَزانٌ مَا تُزَنُّ بِرَيبَةٍ   وَتُصبِحُ غَرثى مِن لُحومِ الغَوافِلِ

فقالت له: لكنك لست كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾؛ بتخفيف ((أن)) ورفع ﴿غَضَبَ﴾ على معنى: أنه غضب الله عليها.

ويجوز: ((أن غضبَ الله عليها)) ، وههنا ((هاء)) مضمرة ، و((أن)) مخففة من الثقيلة؛ المعنى: أنه غَضِبَ الله عليها ، وأنه غَضَبُ الله عليها ، قال الشاعر[2] [من البسيط]:

فِي فِتيَةٍ كَسُيوفِ الهِندِ قَد عَلِموا   أَنَّ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلِ

---

(١) أي: صلة بها.

(٢) وهو: الأعشى.

وجاء في التفسير في قوله: ﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَراً لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾:

أنه يعنى به عائشة وصفوان بن المعطل ، ويجوز ﴿لَكُم﴾ في معنى ((لكما)) والذي فسرناه أولاً يتضمن أمر عائشة وصفوان والنبي ﷺ وكل من بينه وبين عائشة سبب ، ويجوز أن يكون لكل من رمي بسبب.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلا إذ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً﴾:

معناه: هلا إذ سمعتموه ، لأن المعنى: ظن المؤمنون بأنفسهم ، في موضع الكناية عنهم وعن بعضهم ، وكذلك يقال للقوم الذين يقتل بعضهم بعضاً إنهم يقتلون أنفسهم.

﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ ، أي: كذب بين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُو الفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾؛ وقرئت: ((ولا يَتَأَلَّ أولو الفضل منكم والسعة)) ، ومعنى ((تَأْتَلِي)) تحلف ، وكذلك ((يَتَأَلَّى)) يحلف.

ومعنى ﴿أَن يُؤْتُوا﴾: أن لا يؤتوا ﴿أُولِي القُرْبَى﴾.

المعنى: ولا يحلف أولو الفضل منكم والسعة أن لا يعطوا ﴿أُولِي القُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ﴾.

ونزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق ، وكان حلف أن لا يُفْضِل على مسطح بن أثاثَة ، وكان ابن خالته بسبب سبه عائشة فلما نزلت: ﴿أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾؛ قال أبو بكر: بلى ، وأعاد الإفضال على مسطح وعلى من حلف أن لا يفضل عليه وكفرَّ عن يمينه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاتِ المُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾:

قيل: إنه يعنى به أزواج النبي ﷺ ، وقيل: إن الأصل فيه أمر عائشة ، ثم صار لكل من رمى المؤمنات.

ولم يقل ههنا ((والمؤمنين)) استغناء بأنه إذا رمى المؤمنة فلا بد أن يرمي معها مؤمناً، فاستغنى عن ذكر المؤمنين ، لأنه قد جرى ذكر المؤمنين والمؤمنات ، ودل ذكره المؤمنات على المؤمنين ، كما قال: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾[النحل: ٨١] ولم يقل وتقيكم البرد ، لأن ما كان في الحر وقى من البرد ، فاستغنى عن ذكر أحدهما بالآخر.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ﴾؛ ويقرأ ((الحقُّ)).

فمن قرأ ﴿الحَقَّ﴾ فالحق من صفة الله -عز وجل- ، فالمعنى: يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم ، ومن قرأ دينهم ((الحقُّ)) ، فالحق من صفة الدين ، والدين ههنا الجزاء ؛ المعنى: يومئذ يوفيهم الله جزاءهم الحق ، أي: جزاءهم الواجب.

وقوله -جل وعز-: ﴿الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾:

فيها وجهان؛ المعنى: الكلمات الخبيثات للخبيثين من الرجال ، والرجال الخبيثون للكلمات الخبيثات ، أي: لا يتكلم بالخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء ، ولا يتكلم بالطيبات إلا الطيب من الرجال والنساء ، ويجوز أن يكون معنى هذه ((الكلمات الخبيثات)) إنما تلصق بالخبيثين من الرجال والخبيثات من النساء ، فأما الطاهرات الطيبات فلا يلصق بهن شيء.

وقيل: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، وكذلك الطيبات من النساء للطيبين من الرجال.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: عائشة وصفوان بن المعطل ، وكذلك كل من قذف من المؤمنين والمؤمنات مبرءون مما يقول أهل الخبث القاذفون.

﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: للذين قذفوا ورموا مغفرة ورزق كريم ، وللقاذفين اللعنة في الدنيا والآخرة وعذاب عظيم.

وقوله: ﴿إذ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾؛ معناه: إذ يلقيه بعضكم إلى بعض.

وقرأت عائشة رحمها الله: ((إذ تُليقُونَه بألسنتكم)) ، ومعناه: إذ تسرعون بالكذب ، يقال: وَلَقَ يَلِقُ إذا أسرع في الكذب وغيره ، قال الشاعر[1] [من الرجز]:

جاءَت بِهِ عَنسٌ مِنَ الشامِ تَلِق

أي: تسرع.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾؛ يقرأ بالضم والكسر، ولكن الضم أكثر ، فمن ضم فعلى أصل الجمع ، يجمع: ((بيت وبيوت)) مثل: ((قلب وقلوب وفلس وفلوس)) ، ومن قرأ بالكسر فإنما كسر للياء التي بعد الباء ، وذلك عند البصريين رديء جداً لأنه ليس في كلام العرب ((فِعول)) بكسر الفاء.

(١) هو : الشماخ الذبياني.

وقوله: ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾:

معنى ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ في اللغة: تستأذنوا ، وكذلك هو في التفسير ، والاستئذان الاستعلام ، تقول: ((آذنته بكذا آنست منه كذا وكذا)) علمت منه ، وكذلك ، ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِنْهُمْ رُشْداً﴾[النساء: ٦] أي: علمتم.

فمعنى ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ حتى تستعلموا أيريد أهلها أن يدخلوا أم لا ، والدليل على أنه الإذن قوله: ﴿فَإِن لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾؛ أي: ليس عليكم جناح أن تدخلوا هذه بغير إذن.

وجاء في التفسير: أنه يعنى بها الخانات ، ويقال للخان: ((فندق وفنتق)) -بالدال والتاء -، وإنما قيل: ليس عليكم جناح أن تدخلوا هذه البيوت ، لأنه حظر أن تدخل البيوت التي ليست لهم إلا بأذن ، فأعلموا أن دخول هذه المواضع المباحة نحو: ((الخانات وحوانيت التجارة)) التي تباع فيها الأشياء ويبيح أهلها دخولها جائز.

وقيل: إنه يعنى بها الخرابات التي يدخلها الرجل لبول أو غائط.

ويكون معنى: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾: بمعنى إمتاع مُتفرَّجُون فيها مما بكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾؛ أي: لا يبدين زينتهن الباطنة ، نحو الْمِخْنَقة والخُلخال والدُّملج والسوار. والتي تظهر الثياب والوجه.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾؛ كانت المرأة ربما اجتازت وفي رجلها الخلخال ، وربما كان فيها الخلاخل فإذا ضربت برجلها علم أنها ذات خلخال وزينة ، وهذا يحرك من الشهوة فنهى عنه ، كما أُمرن إلا يبدين ، لأن استماع صوته بمنزلة إبدائه.

وقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾؛ قرئت: ((من عبيدكم)) ، وكلاهما جائز.

وهذا لازم في الأيامى؛ والمعنى: وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن أردن تحصنا.

ومعنى ﴿وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾؛ أي: لا تكرهوهن على البغاء البتة وليس المعنى: لا تكرهوهن إن أردن تحصنا ، وان لم يردن فليس لنا

أن نكرههن.

وقوله: ﴿أن يكونوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾؛ فحث الله -عز وجل- على النكاح وأعلم أنه سبب لنفي الفقر.

ويروى عن عمرو رحمه الله أنه قال: عجب لامرئ كيف لا يرغب في الباءة والله يقول: ﴿أن يكونوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾:

معنى ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ ، قيل: إن علمتم أداء ما يفارق عليه ، أي: علمتم إنهم يكتبون ما يؤدونه.

ومعنى ((المكاتبة)) أن يكاتب الرجل عبده أو أمته على أن يفارقه أنه إذا أدى إليه كذا وكذا من المال في كذا وكذا من النجوم ، فالعبد حر إذا أدى جميع ما عليه ، وولاؤه لمولاه الذي كاتبه ، لأن مولاه جاد عليه بالكسب الذي هو في الأصل لمولاه.

وقوله: ﴿وَآتُوهُم مِن مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾:

هذا -عند أكثر الفقهاء- على الندب؛ للمولي أن يعطيه شيئاً مما يفارقه عليه ، أو من ماله ما يستعين به على قضاء نجومه ، وله ألا يفعل ، وكذلك له أن يكاتبه إذا طلب المكاتبة.

ومخرج هذا الأمر مخرج الإباحة فيه ، لأن العبد المملوك لا مال له ، ولا يقدر على شيء ، فأباح الله لهم أن يُقدِروه.

ويروى عن عمر أنه كاتب عبداً له يكنى: ((أبا أمية)) ، وهو أول عبد كوتب في الإسلام ، فأتاه بأول نجم فدفعه إليه عمر ، وقال له استعن به على مكاتبتك ، فقال: لو أخرته إلى آخر نجم ، فقال: ((أخاف إلا أدراك ذلك)).

وقوله: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾؛ وذلك أنه لا يحلُّ أن ترى المشركات ما يحل أن تراه المؤمنات من المؤمنات ، يعني بنسائهن نساء المؤمنات ، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[التوبة: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ﴾.

﴿غَيْرِ﴾ صفة للتابعين دليل على قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ ، معناه: أيضاً غير أولي الإربة من الرجال.

والمعنى: لا يبدين زينتهن لمماليكهن ولا لِتَابِعِهن إلا أن يكونوا غير أولي إربة ، والإربة: الحاجة ، ومعناه ههنا: غير ذي الحاجات إلى النساء.

فأما خفض ﴿غَيْرِ﴾ فصفة للتابعين ، وإن كانت ((غير)) توصف بها النكرة ، فإن التابعين ههنا ليس بمقصود إلى قوم بأعيانهم ، إنما معناه: لكل تابع غير أولي إربة.

ويجوز ﴿غَيْرِ﴾ بنصب ((غيرَ)) على ضربين:

أحدهما: الاستثناء؛ المعنى: لا يبدين زينتهن إلا للتابعين إلا أولي الإربة ، فلا يبدين زينتهن لهم ، ويجوز أن يكون منصوباً على الحال ، فيكون المعنى: والتابعين لا مُرِيدين النساء أي: في هذه الحال.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾:

ويقرأ ﴿عَوْرَاتِ﴾ بالفتح الواو ، لأن فعله يجمع على: ((فعَلات)) بفتح العين ، نحو قولك: ((جِفنة وجفَنات ، وصَحْفَة وصَحَفَات)) فإذا كان نحو قولك: ((لَوْزة وجَوْزة وعَوْرة)) ، فالأكثر أن تسكن ، وكذلك قوله: ((بَيْضات)) ، لثقل الحركة مع الواو والياء.

ومن العرب من يلزم الأصل والقياس في هذا فيقول: ((جَوَازات وبَيَضات)) ، وعلى هذا قرئ عَوَرات.

ومعنى ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ ، لم يبلغوا أن يطيقوا النساء كما تقول: قد ظهر فلان على فلان إذا قوي عليه.

ويجوز أن يكون ﴿لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ لم يدروا ما قباحة عورات النساء من غيرها.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾؛ يقرأ بالفتح والكسر.

فمن قرأ ﴿مُبَيَّنَاتٍ﴾ بالفتح؛ فالمعنى: أنه ليس فيها لَبس ، ومن قرأ بالكسر؛ فالمعنى: أنها تبين لكم الحلال من الحرام.

ثم أعلم -عز وجل- أنه قد بيّن جميع أمر السماء ، وأمر الأرض بياناً نيراً لا غاية بعد نوره فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾؛ أي: مدبر أمرهما بحكمة بالغة وحجة نيرة.

ثم مَثَّل مَثَل نورة ذلك في القلوب بأبين النور الذي لم يدرك بالأبصار فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾؛ فنوره يجوز أن يكون ما ذكرناه من تدبيره.

وجائز أن يكون كتابه الذي بيّن به فقال ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[المائدة: ١٥].

وجائز أن يكون النبي ﷺ هو النور الذي قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ لأن النبي ﷺ هو المرشد والمبين والناقل عن الله ما هو نَيّر بَيّن.

وقل: ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾ وهي الكَوَّة ، وقيل: إنهاء بلغة الحبش.

و((المشكاة)) من كلام العرب ، ومثلها وأن كانت لغير الكوة ((الشكوة)) وهي معروفة وهي الدقيق الصغير أو ما يعمل مثله.

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾؛ والمصباح: السراج.

فقال: ﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ لأن النور في الزجاج ، وضوء النَّار أبين منه في كل شيء ، يزيد في الزجاج.

ثم وصف الزجاجة فقال: ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾؛ و﴿دُرِّيٌّ﴾ ، منسوب إلى أنه كالدُّر ، في صفائه وحسنه.

وقرئت ((دِريٌ ودَري)) بالكسر والفتح ، وقد رويت بالهمز. والنحويون أجمعون لا يعرفون الوجه فيه ، لأنه ليس في كلام العرب شيء على ((فعيل)) ، ولكن الكسر جيد بالهمز ، يكون على وزن ((فعيل)) ، ويكون من النجوم الدَّرَارِي التي تَدَر.

أي: ينحط ويسير متدافعاً ، ويجوز أن بسكون ﴿دُرِّيٌّ﴾ بغير همز مخففاً من هذا.

قال أبو إسحاق: ولا يجوز أن يضم الدال ويهمز ، لأنه ليس في الكلام ((فعيل ((، ومثال ﴿دُرِّيٌّ﴾: ((فُعْلِي)) منسوب إلى الدُّر ، ومن كسر الدال قال: ((دِري)) فكان له أن يهمز ولا يهمز، فمن همز أخذه من: ((دَرَأَ يَدْرَأُ الكوكب)) إذا تدافع منقضاً فتضاعف ضوءه ، يقال: ((تدارأ الرجلان)) إذا تدافعا ، ويكون وزنه على أصلها ، ووزنه أيضاً ((فعيل)) كما كان وهو مهموز.

وقوله: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ ويقرأ ﴿تُوقَدُ﴾ بالتاء.

فمن قرأ بالياء عني به المصباح ، وهو مذكر ، ومن قرأ بالتاء عني به الزجاجة. ويجوز في ﴿الزَّجَاجَة﴾ بفتح الزاي ، وفيها وجهان آخران قرئ بهما ((توقَدَ)) بفتح الدال وضمها وتشديد القاف فيهما جميعاً ، فمن قرأ ((توقَّدُ)) ، فالمعنى: تتوقد الزجاجة ، ومن قرأ ((توقَدَ)) فتحه لأنه فعل ماض ، ويكون المعنى: المصباح في الزجاجة توقدَ المصباح.

وقوله: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ وليس شيء في الشجر يورق غصنه من أوله إلى آخره مثل الزيتون والرمان ، قال الشاعر[١] [من الخفيف]:

بورِكَ المَيّتُ الغَريبُ كَما بو ... رِكَ نَضرُ الرَّيحانِ وَالزَّيتُونُ

قوله -عز وجل-: ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ أكثر أهل التفسير: أنها ليست مما تطلع عليه الشمس ، في وقت شروقها فقط أو عند الغروب ، أي: ليس يسترها في وقت من النهار شئ ، أي: فهي شرقية غربية ، أي: تصيبها الشمس بالغداة والعشى فهو أنضر لها وأجود لزيتها وزيتونها.

وقال الحسن: إن تأويل قوله: ﴿لا شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ أنها ليست من شجر الدنيا ، أي: هي من شجر الجنة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾.

جاء في التفسير: ان تبنى وقال الحسن: تأويل ﴿أَن تُرْفَعَ﴾ أن تعظم.

و﴿فِي﴾ من صلة قوله: ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾؛ المعنى: كمشكاة في بيوت؛ أي: في مسجد.

وقال الحسن: يعنى به بيت المقدس.

ويجوز أن تكون ﴿فِي﴾ متصلة بـ﴿يُسَبِّحُ﴾ ويكون فيها تكريراً على التوكيد فيكون المعنى: يسبح لله رجال في بيوت أذن الله لأن ترفع.

وتقرأ ﴿يُسَبحُ لَهُ فِيهَا﴾ فيكون رفع ﴿رِجَالٌ﴾ ههنا على تفسير ما لم يسم فاعله ، فيكون المعنى: على أنه لما قال: ﴿يُسَبحُ لَهُ فِيهَا﴾ كأنه قيل: من يسبح الله؟ فقيل: يُسَبِّحُ رجالٌ كما قال الشاعر[٢] [من الطويل]:

لِيَبكِ يَزيدَ ضارِعٌ لِخُصومَةٍ ... وَمُختَبِطٌ مِمّا تُطيحُ الطَّوائِحُ

﴿وَالآصَالِ﴾: واحدها: ((أصل)) ، وهي: العشايا ومعنى: ﴿لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ أي: لا يشغلهم أمر عن ذلك.

ويروى أن ابن مسعود رأى قوماً من أهل السوق ، وقد نُودي بالصلاة فتركوا بياعاتهم، ونهضوا إلى الصلاة، فقال هؤلاء منه الذين قال الله -عز وجل- فيهم: ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

---

(١) هو: أبو طالب.

(٢) هو: لبيد بن ربيعة العامري.

وقوله: ﴿وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾؛ الكلام أقمت الصلاة إقامة ، وأصلها أقمت إقواماً ، ولكن قلبت الواو أيضاً فاجتمعت ألفان ، فحذفت أحداهما لالتقاء الساكنين ، فبقى أقمت الصلاة إقامة وأدخلت الهاء عوضاً من المحذوف ، وقامت الإضافة ههنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة. وهذا إجماع من النحويين.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾؛ ويجوز: ((تَقلَّب فيه القلوب والأبصار)) ، في غير القرآن ولا يجوز في القرآن ((تَقلَّب)) لأن القراءة سنة لا تخالف وإن جاز في العربية ذلك.

ومعنى ((تَقلَّب)) ، أي: تتقلب ، أي: ترجف وتجف من الجزع والخوف ، ومعناه أن من كان قلبه موقناً بالبعث والقيامة ازداد بصيرة ، ورأى ما يحبه مما وعد به ، ومن كان قلبه على غير ذلك رأى ما يوقن معه بأمر القيامة والبعث ، فعلم ذلك بقلبه وشاهده ببصره، فذلك تقلب القلوب والأبصار.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾؛ والقيعة: جمع قاع ، مثل: جار وجيرة ، والقيعة والقاع ما انبسط من الأرض ولم يكن فيه نبات ، فالذي يسير فيه يرى كأن فيه ماء يجري. وذلك هو السراب ، والآل مثل السراب إلا أنه يرتفع وقت الضحى كالماء بين السماء والأرض.

﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾؛ يجوز: ((يَحْسِبُه ويَحْسَبُه)) ، ويجوز: ((الظمآن والظمانُ)) على تخفيف الهمزة ، وهو الشديد العطش ، يقال: ظمئ الرجل يظمأ فهو ظمآن ، مثل عطش يعطش عطشاً فهو عطشان.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾؛ أي: حتى إذا جاء إلى السراب وإلى موضعه رأى أرضاً لا ماء فيها.

فأعلم الله -عزّ وجل- أن الكافر يظن عمله قد نفعه عند الله ، ظنه كظن الذي يظن أن السراب ماء ، وأن عمله قد حبط وذهب.

وضرب الله هذا المثل للكافر فقال: إن أعمال الكفار كهذا السراب.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾... الآية.

لأنه -عزّ وجل- وصف نوره الذي هو للمؤمنين ، وأعلم أن قلوب المؤمنين وأعمالهم بمنزله النور الذي وصفه ،وأنهم يجدونه عند الله يجازيهم عليه بالجنة ، وأن

أعمال الكافرين وإن مثلت بما يوجد فمثله كمثل السراب ، وإن مثلت ، بما يرى فهي كهذه الظلمات التي وصف في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾... الآية.

وقوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾؛ معناه: لم يرها ولم يكد.

وقال بعضهم: يراها من بعد إن كان لا يراها من شدة الظلمة ، والقول الأول أشبه بهذا المعنى ، لأن في دون هذه الظلمات لا يرى الكف.

وقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ﴾؛ أي: من لم يهده الله إلى الإسلام لم يهتد.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾؛ ويجوز ((والطيرَ)) على معنى يسبح له الخلق مع الطير ولم يقرأ بها.

وقوله: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾؛ معناه: كل قد علم الله صلاته وتسبيحه ، والصلاة للناس ، والتسبيح لغير الناس ، ويجوز أن يكون ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ كل شيء قد علم صلاة نفسه وتسبيحها ، ويجوز أن يكون كل إنسان قد علم صلاة الله ، وكل شيء قد علم تسبيح الله.

والأجود أن يكون كل قد علم الله صلاته وتسبيحه ودليل ذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً﴾؛ معنى: ﴿يُزْجِي﴾ يسوق.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾؛ أي: يجعل القطع المتفرقة من السحاب قطعة واحدة.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾؛ أي: يجعل بعض السحاب يركب بعضاً.

﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾؛ الودق: المطر ، ويقرأ: ((من خلله)) ، وخلاله: أعم وأجود في القراءة.

وخلال: جمع خَلَل وخِلال ، مثل: جبل جبال ، ويجوز أن السحاب جمع سحابة ويكون ﴿بَيْنَهُ﴾؛ أي: بين جمعيه ، ويجوز أن السحاب واحداً إلا أنه قال ﴿بَيْنَهُ﴾ لكثرته ، ولا يجوز أن تقول: ((جلست بين زيد)) حتى تقول: ((وعمرو)) ، وتقول: ((ما زلت أدور بين الكوفة)) اسم يتضمن أمكنة كثيرة ، فكأنك تقول: ((ما زلت أدور بين طرق الكوفة)).

وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾؛ ويجوز ﴿وَيُنْزِلُ﴾ بالتخفيف.

ومعنى ﴿مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ من جبال بَرَدٍ فيها كما تقول: هذا خاتم في يدي من حديد ، المعنى: هذا خاتم حديد في يدي.

ويجوز-والله أعلم- أن يكون معنى ﴿مِن جِبَالٍ﴾ من مقدار جبال من بردٍ كما تقول: ((عند فلان جبال مال)) تريد مقار جبال من كثرته.

قوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾؛ وقرأ أبو جعفر المدني: ((يُذْهِب بالأبصار)) ، ولم يقرأ بها غيره ، ووجهها في العربية ضعيف ، لأن كلام العرب: ذهبت به وأذهبته. وتلك جائزة أيضاً أعني الضم في الياء في يذهب. ومعنى ﴿سَنَا بَرْقِهِ﴾ ضوء برقه، وقرئت: ((سنا بُرقِهِ يذهب بالأبصار)) ، على جمع بُرقه بُرق ، والفرق بين بُرقه بالضم وبَرقه بالفتح أن البرق المقدار من البرق ، والبرقه أن يبرق الشيء مرة واحدة كما تقول: غرفت غَرفة واحدة. والغُرفة مقدار ما يعرف ، وكذلك اللُقمة واللَّقمة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ﴾؛ ويقرأ ، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَاءٍ﴾، فدابة اسم لكل حيوان مميز وغيره.

فلما كان لما يعقل ولما يعقل قال: ﴿فَمِنْهُم﴾ ولو كان لما لا يعقل لقيل فمنها أو منهن ثم قال: ﴿مَن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾.

فقال ((من)) ، وأصل ((من)) لما يعقل ، لأنه لما خلط الجماعة فقيل: ﴿فَمِنْهُم﴾ جعلت العبارة بـ((من)).

وقيل: ﴿يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾: لأن كل سائر كان له رجلان أو أربع أو لم تكن له قوائم، ويقال له: ماش وقد مشى ، ويقال لكل مستمر: ماش ، وإن لم يكن من الحيوان حتى يقال: قد مشى. هذا الأمر.

﴿مِن مَاءٍ﴾ ، وإنما قيل من ماء كما قال الله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[الأنبياء: ٣٠].

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِن يَكُن لَهُمُ الحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾؛ جاء في التفسير: مسرعين.

والإذعان في اللغة: الإسراع مع الطاعة ، تقول: قد أذعن لي بحقي ، معناه: قد طاوعني لما كنت ألتمسه منه ، وصار يسرع إليه.

وقوله: ﴿قُل لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾؛ تأويله: طاعة معروفة أمثل من قسمكم لما لا تصدقون فيه.

والخبر مضمر ، وهو ((أمثل)) وحذفت لأن في الكلام دليلاً عليه ، لأنه قال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ ، والله -عزّ وجل- وراء ما في قلوبهم فقال: ﴿قُل لا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ويجوز ﴿طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ على معنى أطيعوا طاعة معروفة ، لأنهم أقسموا إن أمروا أن يطيعون فقيل أطيعوا طاعة معروفة ، ولا أعلم أحداً قرأ بها ، فإن لم ترو فلا تقرأ بها وهذا يعنى به المنافقون.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

وإنما جاءت اللام لأن ((وعدته بكذا أو بكذا ووعدته لأكرمنه)) بمنزلة ((قلت)) ، لأن الوعد لا ينعقد إلا بقول.

ومعنى ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾؛ أي: ليجعلهم يخلفون من بعدهم من المؤمنين فاستخلف الذين من قبلهم ، وقرئت: ((كما استُخْلِف الذين من قبلهم)).

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾؛ يعنى به الإسلام.

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً﴾؛ وقرئت: ((وليُبْدِلَنَّهم)).

وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ ؛ يجوز أن يكن مستأنفاً ، ويجوز في موضع الحال وعد الله المؤمنين في حال عبادتهم وإخلاصهم لله -عزّ وجل- ليفعلن بهم ، ويجوز أن يكون استئنافاً على طريق الثناء عليهم وتثبيتاً كأنه قال: يعبدني المؤمنين لا يشركون بي شيئاً.

وقوله: ﴿لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾؛ القراءة بالتاء على معنى: لا تحسبن يا محمد الكافرين معجزين؛ أي: قدرة الله محيطة بهم وقرئت: لا يحسبن على حذف المفعول الأول : ((يحسبن)) على معنى لا يحسبن الذين كفروا إياهم معجزين في الأرض ، كما تقول: ((زيد حسبه)) فإنما تريد حسب نفسه قائماً وكأنه لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين ، وهذا في باب: ((ظننت)) ، تطرح فيه النفس يقال: ظننتني أفعل ، ولا يقال: ظننت نفسي أفعل ، ولا يجوز ضربتني ، استغنى عنها بضربت نفسي.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ﴾؛ فأمر الله -عزّ وجل- بالاستئذان في الأوقات التي يتخلى فيها ويتكشفون.

وبينها فقال ﴿مِن قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشَاءِ﴾؛ يعنى به العتمة عشاء الآخرة.

فأعلم أنها عورات فقال: ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ على معنى هي ثلاث لكم، وقرئت: ((ثلاث عوَرَات لكم)) والإسكان أكثر لثقل الحركة والواو. تقول: ((طَلْحة وطَلَحات، وجَمْرة وجَمَرات)) ويجوز في: ((لوزة لَوَزات)) بحركة الواو، والأجود: ((لَوْزات))، ويجوز: ((ثلاثَ عورات)) بالنصب، على معنى ليستأذنوكم ثلاث عورات،؛ أي: في أوقات ثلاث عورات.

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾؛ أي: ليس عليكم جناح ولا عليهم في أن يستأذنوا بعد أن يمضي كل وقت من هذه.

وقوله تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾؛ على معنى هم طوافون عليكم.

وقوله: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾؛ على معنى يطوف بعضكم على بعض.

وقوله: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾؛ فالبالغ يستأذن في كل الأوقات، والطفل والمملوك يستأذن في الثلاث العورات.

وقوله: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾؛ القواعد: جمع قاعدة، وهي التي قعدت عن الزواج.

﴿اللاَّتِي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً﴾؛ أي: لا يردنه، ولا يرجونه، وقيل أيضاً: اللاتي قد قعدن عن الحيض.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾؛ قال ابن مسعود: أن يضعن الملحفة والرداء.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾؛ أي: أن لا يضعن الرداء والملحقة خير لهن من أن يضعنه.

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ﴾؛ الحرج في اللغة: الضيق، ومعناه في الدين الإثم.

وجاء في التفسير: أن أهل المدينة قبل أن يبعث النبي ﷺ كانوا لا يواكلون هؤلاء فقيل: إنهم كانوا يفعلون ذلك خوفاً من تمكن الأصحاء في الطعام، وقلة تمكن هؤلاء، فقيل لهم: ليس في مؤاكلتهم حرج.

وقيل: إنهم كانوا يفعلون ذلك تقززاً.

وقيل أيضاً: إنهم كانوا إذا خرجوا مع رسول الله ﷺ خلفوا هؤلاء فكانوا يتحوبون أن يأكلوا مما يحفظونه فأعلموا أنه ليس عليهم جناح.

وقيل أيضاً: إنه كان قوم يدعونهم إلى طعامهم فربما صاروا إلى منازلهم فلم يجدوا فيها طعاماً فيمضون بهم إلى آبائهم.

وجميع ما ذكروا جيد بالغ إلا ما ذكروا من ترك المؤاكلة تقززا فإني لا أدرى كيف هو.

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾؛ معنى ﴿أَشْتَاتاً﴾ متفرقين متوجدين.

ونصب ﴿جَمِيعاً﴾ على الحال.

ويروى أن حياً من العرب كان الرجل منهم لا يأكل وحده، وهم حي من كنانة، يمكث الرجل يومه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئاً، وربما كانت معه الإبل الحفل، وهي التى ملأ أحلافها اللبن فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه، فأعلم الله -عزّ وجل- أن الرجل منهم إن أكل وحده فلا إثم عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾؛ معناه: فليسلم بعضكم على بعض، فالسلام قد أمر الله به.

وقيل أيضاً: إذا دخلتم بيوتاً وكانت خالية فليقل الداخل: ((السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)).

وقوله -عزّ وجل-: ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾؛ معناه: النصب على المصدر، لأن قوله: ﴿فَسَلِّمُوا﴾؛ معناه: تحيوا، ويحيي بعضكم بعضاً، تحية من عند الله.

فأعلم الله -عزّ وجل- أن السلام مبارك طيب.

وقوله: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾.

قال بعضهم كان ذلك في الجمعة، فهو -والله أعلم- أن الله -عزّ وجل- أمر المؤمنين إذا كانوا مع نبيه فيما يُحتاج فيه إلى الجماعة، نحو الحرب للعدو، أو ما يحضرونه مما يُحتاج إلى الجمع فيه، لم يذهبوا حتى يستأذنوه، وكذلك ينبغي أن يكونوا مع أئمتهم لا يخالفونهم ولا يرجعون عنه في جمع من جموعهم إلا بإذنهم، وللإمام أن

يأذن ، وله أن لا يأذن ، على قدر ما يرى من الحظ في ذلك لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فجعل المشيئة إليه في الإذن.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾؛ أي: استغفر لهم بخروجهم عن الجماعة إذا رأيت أن لهم عذراً.

وقوله: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضاً﴾ ؛ أي: لا تقولوا: يا محمد كما يقول أحدكم لصاحبه ، ولكن قولوا: يا رسول الله ويا نبي الله بتبجيل وتوفير وخفض صوت.

أعلمهم الله -عزّ وجل- فضل النبي -عليه السلام- على سائر البرية في المخاطبة.

وقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذاً﴾؛ أظهرت الواو في لواذا على معنى لاوذت لواذاً ، ومعنى لواذا ههنا الخلاف؛ أي: يخالفون خلافاً ، ودليل ذلك قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ فأما مصدر: لُذْتُ فقولك: لُذْتُ به لِيَاذاً.

سورة الفرقان(١)

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾.

﴿تَبَارَكَ﴾ معناه: تفاعل من البركة ، كذلك يقول أهل اللغة ، وكذلك روي عن ابن عباس ، ومعنى البركة الكثرة في كل ذي خير. والفرقان: القرآن ، يسمى فرقاناً لأنه فرق به بين الحق والباطل.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾؛ النذير: المخوف من عذاب الله ، وكل من خوف فقد أنذر قال الله -عزّ وجل- ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى﴾[الليل: ١٤].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾؛ خلق الله الحيوان وقدر له ما يصلحه ويقيمه ،

---

(١)مقدمة للسورة الكريمة: سورة الفرقان من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف الخامسة والعشرون. عدد آياتها سبع وسبعون آية. جاءت تسميتها الفُرْقَان لأنّ الله تعالى ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد، وكان النعمة الكبرى على الإنسانية، لأنه النور الساطع والضياء المبين الذي فرق الله به بين الحق والباطل، والنور والظلام، والكفر والإيمان، ولهذا حق أن يطلق عليه الفُرْقَان.

هذه السورة تُعنى بشؤون العقيدة، وتدفع شبهات المشركين حول رسالة محمد ﷺ ، وحول القرآن العظيم، ويدور محورها حول إثبات صدق القرآن، وصحة الرسالة المحمدية، وفيها بعض القصص للعظة والاعتبار.

ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الذي تفنن المشركون بالطعن فيه، والتكذيب بآياته. فزعموا أنه أساطير مرة، وأنه من اختلاق محمد بمعاونة بعض أهل الكتاب مرة أخرى، وزعموا أنه سحر مبين مرة ثالثة، فردّ الله تعالى عليهم هذه المزاعم الكاذبة والأوهام الباطلة، وأقام الأدلة والبراهين على أنه تنزيل رب العالمين. ثم تناولت السورة أمر الرسالة وموقف المشركين المعاندين حيث اقترحوا أن يكون الرسول ملكًا، وإن سلّموا ببشرية الرسول فالرسالة تكون في ذوي الجاه والثراء، وقد ردّ الله تعالى شبهتهم بالبرهان القاطع، والحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل. ثم ذكرت السورة فريقًا من المشركين عرفوا الحق وأقرّوا به ثم انتكسوا إلى الضلال وسمّى الله من فعل ذلك بالظالم.

وفي ثنايا السورة ذُكِر بعض الأنبياء إجمالاً، وجاء الحديث عن أقوامهم المكذبين وماحل بهم من النكال والدمار، كقوم نوح وعاد وثمود، وأصحاب الرس وقوم لوط. كما تحدثت السورة عن دلائل قدرة الله ووحدانيته وعن عجائب صنعه.

وقدر جميع ذلك لخلقه بحكمه وتقدير.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾؛ الإفك: الكذب.

﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾؛ يعنون اليهود.

﴿فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾؛ والزور: الكذب.

ونصب ﴿ظُلْماً وَزُوراً﴾ على: فقد جاؤوا بظلم وزور ، فلما سقطت الباء أفضى الفعل فنصب.

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ خبر ابتداء محذوف ، المعنى: وقالوا: الذي كتابه أساطير الأولين ، معناه: مما سطره الأولون ، وواحد الأساطير: أسطورة ، كما تقول أحدوثة وأحاديث.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾؛ الأصيل: العَشِي.

وقوله ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾؛ ((ما)) منفصلة من اللام؛ المعنى: أي شي لهذا الرسول في حال أكله الطعام ومشيه في الأسواق ، التمسوا أن يكون الرسول على غير بِيْنَة الآدميين ، والواجب أن يكون الرسول إلى الآدميين آدمياً ليكون أقرب إلى الفهم عنه.

وقوله: ﴿لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾؛ طلبوا أن يكون في النبوة شركة ، وأن يكون الشريك ملكاً ، والله -عزّ وجل- يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾[الأنعام: ٩]؛ أي: لم يكن ليفهمهم حتى يكون رجلاً.

ومعنى ﴿لَوْلا﴾: هلا الاستفهام ، والنصب يكون على الجواب بالفاء للاستفهام.

﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾؛ وإن شئت: ((أو يكون له جنة)) ، ولا يجوز النصب في ((يكون له)) ، لأن ((يكون)) عطف على استفهام؛ المعنى : لولا أنزل إليه ملك أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة.

والجنة: البستان فأعلم الله -عزّ وجل- أنه لو شاء ذلك وخيراً منه لفعله ، فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَكَ قُصُوراً﴾.

أي: لو شاء لفعل أكثر مما قالوا ، وقد عرض الله -عزّ وجل- على النبي أمر الدنيا فزهد وآثر أمر الآخرة.

فأما ﴿وَيَجْعَل﴾ فبالجزم ، المعنى: إن يشأ يجعل لك جنات ، ويجعل لك قصوراً ، ومن رفع فعلى الاستئناف ، المعنى: وسيجعل لك قصوراً ،؛ أي: سيعطيك الله في الآخرة أكثر مما قالوا.

وقوله: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ و﴿يَاكُلُ مِنْهَا﴾.

وقوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾؛ أي: سمعوا لها غليان تغيظ.

وقوله ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾؛ في معنى هلاكاً ونصبه على المصدر كأنهم قالوا: ثبرنا ثبوراً.

﴿لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾؛ أي: هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة.

وقيل: ﴿ثُبُوراً كَثِيراً﴾ لأن ﴿ثُبُوراً﴾ مصدر فهو للقليل والكثير على لفظ الواحد ، كما تقول: ((ضربته ضرباً كثيراً ، وضربته واحداً)) تريد ضربته ضرباً واحداً.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾؛ إن قال قائل: كيف يقال: الجنة خير من النار ، وليس في النار خير البتة ؟

وإنما يقع التفضيل فيما دخل في صنف واحد ، فالجنة والنار قد دخلا في باب المنازل في صنف واحد ، فلذلك قيل: أذلك خير أم جنة الخلد كما قال الله -عزّ وجل-: ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَراً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾[الفرقان: ٢٤].

وقوله -عزّ وجل-: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْئُولاً﴾؛ مسؤول. ذلك قول الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾[غافر: ٨].

وقوله: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ لما سئلت الملائكة فقيل: ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾[الفرقان: ١٧].

وجائز أن يكون الخطاب لعيسى والعزير ، وقرأ أبو جعفر المدني وحده: ((قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء)) ، بضم النون على ما لم يسم فاعله ، وهذه القراءة عند أكثر النحويين خطأ ، وإنما كانت خطأ لأن من إنما يدخل في هذا الباب في الأسماء إذا كانت مفعولة أولاً ، ولا تدخل على مفعول الحال ، تقول ما اتخذت من أحد ولياً ، ولا يجوز: ما اتخذت أحداً من ولي ، لأن ((من)) إنما دخلت لأنها تنفي واحداً في معنى جميع ، تقول: ((ما من أحد قائماً ، وما من رجل محباً لما يضره)) ، ولا يجوز: ((ما رجل من محب ما يضره)) ولا وجه لهذه القراءة.

إلا أن الفراء أجازها على ضعف، وزعم أنه يجعل ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ هو الاسم ويجعل الخبر ما في ((نتخذ)) كأنه يجعل على القلب، ولا وجه عندنا لهذا البتة، لو جاز هذا لجاز في ﴿فَمَا مِنكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾: ((ما أحد عنه حاجزين)). وهذا خطأ لا وجه له فاعرفه، فإن معرفة الخطأ فيه أمثل من القراءة، والقراء كلهم يخالفون هذا منه، ومن الغلط في قراءة الحسن: ((وما تنزلت به الشياطون)).

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا قَوْماً بُوراً﴾؛ قيل في التفسير: هلكى.

والبائر في اللغة: الفاسد والذي لا خير فيه، وكذلك أرض بائرة متروكة من أن يزرع فيها.

وتقرأ ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بالياء والتاء، فمن قرأ بما ﴿تَقُولُونَ﴾ بالتاء؛ فالمعنى: فقد كذبوكم بقولهم: إنهم آلهة، ومن قرأ بالياء؛ فالمعنى: فقد كذبوكم بقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً﴾؛ أي: ما تستطيعون أن تصرفوا عن أنفسهم ما يحلقهم من العذاب. ولا ان ينصروا أنفسهم.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾؛ هذا احتجاج عليهم في قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾.

فقيل لهم: كذلك كان من خلا من الرسل يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، فكيف يكون محمد ﷺ بدعاً من الرسل.

فأما دخول ((أنهم)) بعد ((إلا)) فهو على تأويل: ما أرسلنا رسلاً إلا هم يأكلون الطعام، وإلا أنهم ليأكلون الطعام، وحذفت ((رسلا)) لأن ((من)) في وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ دليل على ما حذف منه، فأما مثل ((اللام)) بعد ((إلا)) فقول الشاعر:

مَا أَنْطَانِي ولا سَأَلْتُهمَا إِلا وَإِني لَحَاجِزٌ كَرَمِي

يريد أعطاني.

وزعم بعض النحويين أن ((من)) بعد ((إلا)) محذوفة، كان المعنى عنده: إلا "من ليأكلون الطعام. وهذا خطأ بيّن لأن ((من)) صلتها: ((أنهم ليأكلون)) فلا يجوز حذف الموصول وتبقية الصلة.

وقوله: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾؛ فيه قولان:

قيل: كان الرجل الشريف ربما أراد الإسلام فعلم أن من دونه في الشرف قد أسلم قبلة فيمتنع من الإسلام ، لئلا يقال: أسلم قبله من هو دونه.

وقيل: كان الفقير يقول: لم لم أجعل بمنزلة الغنى ، ويقول ذو البلاء: لم لم أجعل بمنزلة المعافى ، نحو الأعمى والزَّمن ومن أشبه هؤلاء.

أي: أتصبرون على البلاء فقد عرفتم ما وعد الصابرون.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا المَلائِكَةُ﴾، معنى ﴿لَوْلا﴾ هلا.

﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُواً كَبِيراً﴾؛ فأعلم الله -عزّ وجل- أن الذين لا يوقنون بالبعث ، ولا يرجون الثواب على الأعمال عند لقاء الله طلبوا من الآيات ما لم يأت أمة من الأمم.

فأعلم الله -عز وجل- إنهم قد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ، ويجوز: ((عثواً كبيراً)) بالثاء.

والعتو في اللغه : المجاوزة في القدر في الظلم.

وأعلم الله -عز وجل- أن الوقت الذي يرون فيه الملائكة هو يوم القيامة ، وأن الله قد حرمهم البشرى في ذلك الوقت فقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ المَلائِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ منصوب على وجهين:

أحدهما: على معنى: لا بشرى تكون للمجرمين يوم يرون الملائكة ، و((يومئذ)) هو مؤكد ((ليوم يرون الملائكة)) ، ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله: ﴿لاَ بُشْرَى﴾ لأن ما اتصل بـ((لا)) لا يعمل فيما قبلها ، ولكن لما قيل: ﴿لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ بيّن في أي يوم ذلك ، فكأنه قيل: يجمعون البشرى يوم يرون الملائكة ، وهو يوم القيامة.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾ وقرئت ((حُجراً)) بضم الحاء؛ والمعنى: وتقول الملائكة حجراً محجوراً ، أي: حراماً محرماً عليهم البشرى.

وأصل الحَجْر في اللغة: ما حَجَرت عليه أي: ما مَنَعت من أن يوصل إليه ، وكل ما منعت منه فقد حَجَرت عليه ، وكذلك حَجَر القضاة على الأيتام إنما هو منعهم إياهم عن التصرف في أموالهم، وكذلك الحجرة التي ينزلها الناس هو ما حوطوا عليه.

ويجوز أن يكون ((يوم)) منصوباً على معنى: اذكر يوم يرون الملائكة.

ثم أخبر فقال: ﴿لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ، والمجرمون الذين اجترموا الذنوب ، وهم في هذا الموضع الذين اجترموا الكفر بالله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾:

معنى ((قدمنا)) عمدنا وقصدنا كما تقول: قام فلان يشتم فلاناً ، تريد قصد إلى شتم فلان ، ولا تريد قام من القيام على الرجلين.

﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾؛ ((الهباء)) ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس بالغبار.

وتأويله: أن الله -عز وجل- أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور.

ثم أعلم الله -عز وجل- فضل أهل الجنة على أهل النار على أهل النار فقال: ﴿أصحاب الجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَراً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾.

والمقيل: المقام وقت القائلة ، وقيل: النوم نصف النهار ، وجاء في التفسير: أن أهل الجنة يصيرون إلى أهليهم في الجنة وقت نصف النهار.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾: ويقرأ: ((تشّقق)) بتشديد الشين؛ والمعنى: تتشقق.

﴿وَنُزِّلَ المَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾:

جاء في التفسير: انه تتشقق سماء سماء وتنزل الملائكة إلى الأرض ، وهو قوله ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفاً صَفاً﴾[الفجر: ٢٢].

وقوله -عز وجل-: ﴿المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾:

﴿الحَقُّ﴾ صفة الملك ، ومعناه: أن الملك الذي هو الملك حقاً ملك الرحمن يوم القيامة ، كما قال الله -عز وجل-: ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ﴾[غافر: ١٦] لأن الملك الزائد كأنه ليس بملك.

ويجوز: ((الْملكُ يَوْمَئِذٍ الحَقَّ لِلرَّحْمَنِ)) ولم يقرأ بها فلا تقرأن بها ، ويكون النصب على وجهين: أحدهما على معنى الملك يومئذ للرحمن أحق ذلك الحق ، وعلى أعني الحق.

وقوله -تعالى-: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾:

يروى أن عقبة بن أبي معيط هو الظالم ههنا ، وأنه يأكل يده ندماً ثم يعود ، وأنه كان عزم على الإسلام فبلغ ذلك أمية بن خلف فقال له أمية: ((وجهي من وجهك حرام إن أسلمت ، إن كلمتك أبداً)) ، فامتنع عقبة من الإسلام لقول أميه فإذا كان يوم القيامة أكل يده ندماً وتمنى إن آمن واتخذ مع النبي -عليه السلام- طريقاً إلى الجنة.

وهو قوله: ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذ جَاءَنِي﴾.

وقد قيل أيضاً: في ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً﴾ ، أي: لم أتخذ فلاناً خليلاً ، وتصديق هذا القول ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ ولا يمتنع أن يكون قبوله من أمية من عمل الشيطان وأعوانه.

ويجوز ((اتخذت)) بتبين الذال ، وبإدغامها في التاء ، والإدغام أكثر وأجود.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ جعلوه بمنزلة الهجر.

والهجر : ما لا ينتفع به من القول ، وكانوا يقولون: إن النبي -عليه السلام- يهجر ، ويجوز أن يكون متروكاً ، أي: جعلوه مهجوراً لا يستمعونه ولا يتفهمونه.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾:

﴿عَدُواً﴾ لفظه لفظ واحد ، ويجوز أن يكون في معنى الجماعة والواحد كما قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ٧٧] فيجوز أن يكون في معنى ((أعداء)).

وقد جاء في التفسير: أن عدو النبي -عليه السلام- أبو جهل بن هشام.

وقوله: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾:

﴿هَادِياً وَنَصِيراً﴾ منصوبان على وجهين:

أحدهما: الحال؛ المعنى: وكفى ربك في حال الهداية والنصر ، والوجة الثاني أن يكون منصوبا على التميز على معنى كفى ربك من الهداة والنُّصَّار.

وقوله -تعالى-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾:

معناه: هلا نزل عليه القرآن في وقت واحد ، وكان بين أول نزول القرآن وآخره عشرون سنة، فقالوا: لِمَ لَمْ ينزل جملة واحدة كما أنزلت التوراة. فأعلم الله -عز وجل- أن

إنزاله متفرقاً ليثبت في قلب النبي -عليه السلام- فقال: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي: أنزلناه كذلك متفرقاً.

لأن معنى قولهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ يدل على معنى لِمَ نزل عليه القرآن متفرقاً ، فأعلموا لِمَ ذلك ، أي: للتثبيت.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾؛ أي: نزلناه على الترتيل ، وهو ضد العجلة ، وهو التَّمَكُّث.

وقوله: ﴿إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ معناه: ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالذي هو الحق وأحسن تفسيراً من مثلهم ، إلا أن ((من)) حذفت لأن في الكلام دليلاً عليها ، لو قلت: رأيت زيداً وعمراً فكان عمرو أحسن وجهاً ، كان الكلام فيه دليل على أنك تريد من زيد.

وقوله -عز وجل-: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾:

﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء ثان ، و﴿شَرٌّ﴾ خبر ، ﴿أُولَئِكَ﴾ و﴿أُولَئِكَ﴾ مع ﴿شَرٌّ﴾ خبر ﴿الَّذِينَ﴾.

وجاء في التفسير: أن الناس يحشرون يوم القيامة على ثلاثة أصناف ، صنف على الدوآب وصنف على أرجلهم وصنف على وجوههم ، قيل: يا رسول الله؛ كيف يمشون على وجوههم ، فقال النبي -عليه السلام-: ((الذي مشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم)).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾:

الوزير في اللغة: الذي يرجع إليه ويتحصن برأيه ، والوزير: ما يلتجأ إليه ويعتصم به ، ومنه قوله: ﴿كَلاَّ لاَ وَزَرَ﴾[القيامة: ١١] أي: لا ملجأ يوم القيامة ولا منجا إلا لمن رحم الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً﴾ يعني به فرعون وقومه ، والذين مسخوا قردة وخنازير.

وقوله: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ يدل هذا اللفظ أن قوم نوح قد كذبوا غير نوح أيضاً لقوله: ﴿الرُّسُلَ﴾ ، ويجوز أن يكون ﴿الرُّسُلَ﴾ يعني به نوح وحده ، لأن من كذب بنبي فقد كذب بجميع الأنبياء ، لأن مخالف للأنبياء ، لأن الأنبياء يؤمنون بالله وبجميع رسله ، ويجوز أن يكون يعنى به الواحد ، ويذكر لفظ الجنس كما يقول الرجل

للرجل ينفق الدرهم الواحد: ((أنت ممن ينفق الدراهم)) ، أي: ممن نفقته من هذا الجنس، و((فلان يركب الدوآب)) وإن لم يركب إلا واحدة.

وقوله: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ منصوبون على معنى: وأغرقنا قوم نوح ، وعاداً وثموداً وأصحاب الرس؛ نصب عطف على الهاء والميم ، التي في قوله: ﴿جَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾. ويجوز أن يكون معطوفاً على معنى ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾.

والرس: بئر ، يروى إنهم قوم كذبوا بنبيهم ورموه في بئر ، أي: دسوه فيها ، ويروى أن الرس قرية باليمامة يقال لها: ((ملح)) ، ويروى أن الرس: ديار لطائفة من ثمود.

وقوله: ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾؛ يروى أن القرن مدته سبعون سنة.

وقوله: ﴿وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ﴾؛ ((كلا)) منصوب بفعل مضمر الذي ظهر تفسيره.

المعنى: وانذرنا كلا ضربنا له الأمثال.

التتبير: التدمير والهلاك ، وكل شيء كسرته وفتته فقد تبرته ، ومن هذا قيل لمكسر الزجاج: التبر ، وكذلك تبر الذهب.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾:

﴿أَتَوْا﴾ أي: مشركو مكة ، يعنى به قرية قوم لوط التي أمر الله عليها الحجارة.

فأعلم الله -عز وجل- أن الذي جراهم على التكذيب ، وأنهم لم يبالوا بما شاهدوا من التعذيب في الدنيا إنهم كانوا لا يصدقون بالبعث فقال: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً﴾ قيل: لا يخافون ما وعد به من العذاب بعد البعث.

والذي عند أهل اللغة أن الرجاء ليس على معنى الخوف ، هذا مذهب من يرفع الأضداد ، وهو عندي الحق.

المعنى: بل كانوا لا يرجون ثواب من عمل خيراً بعد البعث فركبوا المعاصي.

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾؛ المعنى: يقولون: أهذا الذي بعث الله إلينا رسولاً.

وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾:

يروى أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر ، فإذا مر بحجر أحسن منه ترك الأول وعبد الثاني ، وقيل: أيضاً ﴿مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: أطاع هواه وركبه فلم يبال عاقبة ذلك.

وقوله: ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾: أي: حفيظاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ معناه: ما هم إلا كالأنعام في قلة التميز فيما جعل دليلاً لهم من الآيات والبرهان.

قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ لأن: الأنعام تسبح بحمد الله وتسجد له ، وهم كما قال الله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[البقرة: ٧٤].

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾:

﴿الظِّلَّ﴾ من وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس.

﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾؛ أي: ثابتاً دائماً لا يزول.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ فالشمس دليل على الظل ، وهي تنسخ الظل.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً﴾ قيل: حفياً ، ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تعلم ، وهذا من رؤية القلب.

ويجوز أن يكون ههنا من رؤية العين ، ويكون المعنى: ألم تر كيف مد الظل ربك ، والأجود أن يكون بمعنى: ألم تعلم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾فيها ستة أوجه: ((نَشراً)) بفتح النون ، و((نُشراً)) بضمها ، و((نُشُر)) بضم النون والشين ، ويجوز ((بشرى)) مؤنث بالياء على وزن: ((فُعْلَى)) ، و((بشرَى)) بالتنوين والياء ، و﴿بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ فهذه ستة أوجه منها أربعة يقرأ بها.

فأما ((نَشراً)) فمعناه: إحياء؛ ينشر السحاب الذي به المطر ، الذي فيه حياة كل شيء ، ومن قرأ ((نُشراً)) فهو جمع: ((نُشور ونُشر)) مثل: ((رسول ورسل)) ، ومن قرأ بالإسكان أسكن الشين استخفافاً ، فهذه ثلاثة أوجه في النون.

فأما الباء فمن نون بالباء وضمها وتسكين الشين ، فإنما هو بتسكين العين من قولك: ((بشْراً)) ، وإذا لم ينونها فألفها للتانيث.

ومن قرأ ((بُشراً)) بالتنوين فهو جمع: يقال: ((ريح بَشُور)) ، كما قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[الروم: ٤٦] أي: تبشر بالغيث. فمن قرأ ((بُشراً)) بالضم فهو على أصل الجمع. ومن قرأ ((بشرى)) بغير تنوين فهو بمعنى بشارة.

وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ كل ما أنزل من السماء أو خرج من بحر أو أذيب من ثلج أو برد فهو طهور ، قال -عليه السلام- في البحر: ((**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**)).

وقوله: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ ولو كان ميتة لجاز وقيل: ((ميْتاً)) ولفظ البلدة مؤنث ، لأن معنى البلد والبلدة واحد.

وقوله: ﴿وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾.

((أناسي)) جمع: ((إنسي)) مثل: ((كرسي وكراسي)) ويجوز أن يكون جمع: ((إنسان)) ، وتكون الياء بدلاً من النون ، الأصل: ((أناسين)) بالنون ، مثل: ((سراحين)).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: صرفنا المطر بينهم ليذكروا ، أي: ليتفكروا في نعم الله عليهم فيه ، ويحمدوه على ذلك.

﴿فَأَبَى أَكْثَر النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ وهم الذين يقولون: مطرنا بنوء كذا ، أي: بسقوط كوكب كذا ، كما يقول المنجمون فجعلهم الله بذلك كافرين.

وقوله: ﴿فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ ويجوز: ((كثيراً)) ، والقراءة بالباء.

ومعنى ﴿بِهِ﴾ أي: بالحق ، أي: بالقرآن الذي أنزل إليك وهو الحق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ البَحْرَيْنِ﴾:

معنى ﴿مَرَجَ﴾ خلي بينهما ، تقول: مرجت الدابة وأمرجتها إذا خليتها ترعى ، والمرج من هذا سمي ، ويقال: ((مرجت عهودهم وأماناتهم)) إذا اختلطت ، يروى ذلك عن النبي -عليه السلام-.

وقوله: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾؛ ﴿فُرَاتٌ﴾ صفة لـ﴿عَذْبٌ﴾ ، والفرات: أشد المياه عذوبه.

والمعنى: هذا عذب أشد الماء عذوبة.

﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ والأجاج صفة للملح؛ المعنى: وهذا ملح أشد الملوحة.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً﴾ البرزخ: الحاجز ، فهما في مرائي العين مختلطان وفي قدرة الله -عز وجل- منفصلان لا يختلط إحداهما بالآخر.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً﴾؛ فالأصهار من النسب من يجوز لهم التزويج ، والنسب الذي ليس يصهر من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ إلى ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ﴾[النساء: ٢٣].

وقوله: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ معنى ((الظهير)) المعين ، لأنه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية الله ، لأن عبادتهم للأصنام معاونة للشيطان.

وقوله -عز وجل-: ﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً﴾ ، ويجوز ((الرحمنِ فاسأل)).

فمن قال: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ فهو رفع من جهتين؛ إحداهما: على البدل مما في قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ ، ثم بين بقوله ﴿الرَّحْمَنُ﴾.

ويجوز أن يكون ابتداء ، و ﴿فَاسْأَلْ بِهِ﴾ الخبر؛ والمعنى: فاسأل عنه خبيراً، ومن قال ((الرحمنِ)) ، فهو على معنى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ ((الرحمنِ)) صفة للحي.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾؛ وتقرأ ((يأمرنا)) ، والرحمن اسم من أسماء الله المذكور في الكتب الأول ، ولم يكونوا يعرفونه من أسماء الله فقيل لهم: إنه من أسماء الله ، ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[الإسراء: ١١٠].

ومعناه عند أهل اللغة: ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة ، لأن ((فعلان)) بناء من أبنية المبالغة ، تقول: ((رجل عطشان وريان)) إذا كان في النهاية في الري والعطش ، وكذلك: ((فرحان وجذلان وخزيان ،)) وإذا كان في غاية الفرح أو في نهاية الخزي.

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾:

((البروج)): قيل: هي الكواكب العظام ، والبرج: تباعد بين الحاجبين ، وكل ظاهر مرتفع فقد برج ، وإنما قيل لها لظهورها وتباينها وارتفاعها.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾ ويقرأ ((سُرُجاً)) ، ويجوز ((سُرْجا)) بتسكين الراء ، مثل رُسُل ورُسْل.

فمن قرأ ﴿سِرَاجاً﴾ عني الشمس كما قال -تعالى-: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً﴾[نوح: ١٦] ، ومن قرأ ((سُرُجاً)) أراد الشمس والكواكب العظام معها.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ ويقرأ: ((لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذْكُرَ)).

قال الحسن: ((من فاته عمله من التذكر والشكر كان له في الليل مستعتب ، ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب)).

وقال أهل اللغة: ﴿خِلْفَةً﴾ يجيء هذا في أثر هذا ، وأنشدوا قول زهير [من الطويل]:

بِها العَينُ وَالأَرآمُ يَمشينَ خِلفَةً وَأَطلاؤُها يَنهَضنَ مِن كُلِّ مَجثِمِ

وجاء أيضاً في التفسير: ﴿خِلْفَةً﴾ مختلفان كما قال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً﴾[آل عمران: ١٩٠، ١٩١] الآية.

وقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾ أي: يمشون بسكينة ووقار وحلم.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ أي: نتسلم منكم سلاماً لا نجاهلكم ، كأنهم قالوا تسلماً منكم.

و((عباد)) مرفوع بالابتداء ، والأحسن أن يكون خبر الابتداء ههنا ما في آخر السورة من قوله: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ كأنه قال: وعباد الرحمن الذين هذه صفتهم كلها إلى قوله - ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾.

ويجوز أن يكون قوله ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ رفعاً بالابتداء ، وخبره ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾.

وقوله -تعالى-: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾؛ الغرام في اللغة: أشد العذاب ، قال الشاعر[1] [من المتقارب]:

وَيَومُ النِسارِ وَيَومُ الجِفا رِكانا عَذاباً وَكانا غَراما

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً﴾ كل من أدركه الليل فقد بات يبيت، نام أو لم ينم ، يقال: ((بات فلان البارحة قلقاً)) ، وإنما المبيت إدراك الليل.

(١) هو: الطرماح.

وقوله -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾:

﴿يَقْتُرُوا﴾ بضم الياء وكسر التاء وبفتح الياء وضم التاء ، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ ولا أعلم احد قرأ بها ، أعني بتشديد التاء.

والذي جاء في التفسير: أنه الإسراف النفقة في معصية الله ، وأنه لا إسراف في الإنفاق فيما قرب إلى الله -عز وجل- ، وكل ما أُنفق في معصية الله ، فإسراف ، لأن الإسراف مجاوزة الحد والقصد.

وجاء في التفسير أيضاً: أن الإسراف ما يقول الناس فيه فلان مسرف ، والحق في هذا ما أدب الله -عز وجل- به نبيه -عليه السلام- فقال ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾[الإسراء: ٢٩].

وقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾:

﴿يَلْقَ﴾ جزم على الجزاء ، وتأويل المجازاة على الشيء ، قال أبو عمرو الشيباني: يقال قد لقي إثام ذلك أي: جزاء ذلك ، وسيبويه والخليل يذهبان إلى أن معناه: يلقي جزاء الآثام ، قال سيبويه: جُزِمَت.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ﴾ ، لأن مضاعفة العذاب لُقِي الآثام كما قال الشاعر[1] [من الطويل]:

مَتى تَأتِنا تُلمِم بِنا في دِيارِنا تَجِد حَطباً جَزلاً وَناراً تَأَجَّجا

لأن الإتيان هو الإلمام ، فجزم ((تلمم)) لأنه بمعنى تأتي.

وقرأ الحسن وحدة ((يُضَعَّفُ له العذاب)) ، وهو جيد بالغ ، تقول: ((ضاعفت الشيء وضعفته)) ، وقراء عاصم: ﴿يُضَاعَفُ لَهُ العَذَابُ﴾ بالرفع على تأويل تفسير: ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾ ، كأن قائلا قال: ((ما لقي الآثم؟)) ، فقيل: يضاعف للآثم العذب.

وقوله: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ ، ليس أن السيئة بعينها تصير حسنة ، ولكن التأويل أن السيئة تمحي بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة ، والكافر يحبط الله عمله ويثبت الله عليه السيئات.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ قيل: الزور الشرك بالله.

---

(١) هو: عبيد الله الجعفي.

وجاء أيضاً: إنهم لا يشهدون أعياد النصارى ، والذي جاء في الزور أنه الشرك بالله ، فأما النهي عن شهادة الزور في كتاب الله فقوله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء: ٣٦].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾ تأويله: أعرضوا عنه ، كما قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾[القصص: ٥٥].

وتأويل ﴿مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ مروا بجميع ما ينبغي ان يلغى ، ومعنى ((يلغى)) يطرح.

وجاء في التفسير: إنهم إذا أرادوا ذكر النكاح كنوا عنه ، وقال بعضهم: هو ذكر الرفث؛ والمعنى: واحد.

وجاء أيضاً: إنهم لا يجالسون أهل اللغو وهم أهل المعاصي ، ولا يمالئونهم عليها ، أي: يعاونوهم عليها.

وجاء أيضاً في ﴿لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ مجالس الغناء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بآيات رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُماً وَعُمْيَاناً﴾ تأويله: إذا تليت عليهم خروا سجداً وبكياً ، سامعين مبصرين لما أمروا به ونهوا عنه.

ودليل ذلك قوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِياً﴾[مريم: ٥٨] ، ومثل هذا من الشعر قوله[1]:

بِأَيْدي رجالٍ لَمْ يَشيموا سُيوفَهُم ولم يُكْثِروا القتلى بها يوم سُلَّتِ

تأويله: بأيدي رجال شاموا سيوفهم وقد كثرت القتلى ، ومعنى ((يشيموا سيوفهم)) يغمدوا سيوفهم ، فالتأويل: الذين إذا ذكروا بآيات ربهم خروا ساجدين مطيعين.

وقوله -عز وجل-: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾:

ويقرأ ﴿وَذُرِّيَاتِنَا﴾ سألوا ان يلحق الله بهم ذريتهم في الجنة ، وأن يجعل أهلهم تقر بهم أعينهم.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾ أي: واجعلنا ممن يهتدي به المتقون ، ويهتدي بالمتقين.

وقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: لولا توحيدكم إياه.

---

(١) من شعر الفرزدق.

وجاء في التفسير: ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ﴾ ما يفعل بكم ، وتأويل ﴿مَا يَعْبَأُ بِكُمْ﴾ أي: أي وزن يكون لكم عنده ، كما تقول: ((ما عبأت بفلان)) أي: ما كان له عندي وزن ولا قدر. وأصل العبء في اللغة: الثقل ، ومن ذلك: ((عبأت المتاع)) جعلت بعضه على بعض.

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾:

جاء في التفسير عن جماعة: أنه يعني به يوم بدر ، وجاء: أنه لزوم بين القتلى لزاماً ، وقرئت ((لَزَاماً)).

وتأويله -والله أعلم- فسوف يكون تكذيبكم لزاما يلزمكم ، فلا تعطون التوبة وتلزمكم العقوبة ، فيدخل في هذا يوم بدر ، وغيره مما يلزمهم من العذاب.

وقال أبو عبيدة: ﴿لِزَاماً﴾ فيصلاً ، وهو قريب مما قلنا ، إلا أن القول الأول أجرح. وأنشد أبو عبيدة لصخرٍ أخي الهذلي:

فإمَّا يَنْجُوَا من حَتْفِ أَرْضٍ فقد لَقِيا حُتوفَهما لِزاما

وتأويل هذا: أن الحتف إذا كان مقدراً فهو لازم ، وإن نجا من حتف في مكان لحقه في مكان آخر لازماً له ، ومن قرأ ((لَزَاماً)) بفتح اللام فهو على مصدر: ((لَزِمَ لَزَاماً)).

* * *

سورة الشعراء[1]

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -تعالى-: ﴿طسم﴾ قرئت بإدغام النون في الميم ووصل بعض الحروف ببعض، وقرئت ((طسين ميم)) بتبيين النون ، والوقف على النون.

ويجوز -ولا أعلم أحداً قرأه ((طسميما)) على أن يجعل ((طسم)) اسماً للسورة بمنزلة: ((خمسة عشر)) ، ولا تجوز القراءة به.

وقوله عز وجل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: على معنى أنهم وعدوا بالقرآن على لسان موسى فكان المعنى: هذه آيات الكتاب الذي وعدتم به على لسان موسى ، وعلى معنى: هذه آيات الكتاب المبين.

وقد فسرنا ذلك في أول سورة البقرة في قوله: ﴿الم * ذَلِكَ الكِتَابُ﴾.

وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾:

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة الشعراء من سور القرآن الكريم المكية . ترتيبها في المصحف الشريف السادسة والعشرون. عدد آياتها سبع وعشرون ومائتا آية. وجاءت تسميتها الشعراء لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء، وذلك للردّ على المشركين في زعمهم أنّ محمدًا كان شاعرًا، وأن ما جاء به من قبيل الشعر، فردّ عليهم في هذه السورة.

الشعراء من السور المكية، عالجت أصول الدين من: التوحيد والرسالة، والبعث، شأنها شأن سائر السور المكية، التي تهتم بجانب العقيدة وأصول الإيمان.

ابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هداية للخلق، وبلسمًا شافيًا لأمراض الإنسانية، وذكر موقف المشركين منه بتكذيبهم إياه، وطلبهم معجزة أخرى عنادًا واستكبارًا. ثم تحدثت عن طائفة من الرسل الكرام، فبدأت بقصة موسى مع فرعون الطاغية الجبار، وما جرى من المحاورة والمداورة بينهما في شأن الإله جلّ وعلا، وما أيّد الله به موسى من الحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل، وانتهت ببيان العظة والعبرة من الفارق الهائل بين الإيمان والطغيان. ثم تحدثت السورة عن المتقين والغاوين، والسعداء والأشقياء، ومصير كل من الفريقين. وبعد متابعة السورة لذكر قصص الأنبياء: نوح، وهود، وصالح، ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وبينت سنة الله في معاملة المكذبين لرسله، عادت للتنويه بشأن الكتاب العزيز تفخيمًا لشأنه. ثم ختمت بالرد على افتراء المشركين، في زعمهم أن القرآن من تنزيل الشياطين.

قال أبو عبيدة: معناه: مهلك نفسك ، وقيل: قاتل نفسك ، وهذا كقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾[الكهف: ٦].

وموضع ((أن)) النصب مفعول له؛ المعنى: فلعلك قاتل نفسك لتركهم الإيمان ، فأعلمه الله سبحانه أنه لو أراد أن ينزل ما يضطرهم إلى الطاعة لقدر على ذلك إلا أنه -عز وجل- تعبدهم بما يستوجبون به الثواب مع الإيمان ، وأنزل لهم من الآيات ما يتبين به لمن قصده إلى الحق ، فأما لو أنزل على كل من عَنَد عن الحق عذاب في وقت عنوده لخضع مضطراً ، وآمن إيمان من لا يجد مذهباً عن الإيمان.

وقوله -تعالى-: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾:

معناه: فتظل أعناقهم ، لأن الجزاء يقع فيه لفظ الماضي في معنى المستقبل تقول: ((إن تأتني أكرمتك)) ، معناه: أكرمك ، و((إن آتيتني وأحسنت)) معناه: وتحسن وتجمل.

وقال ﴿خَاضِعِينَ﴾ وذكر الأعناق لأن معنى خضوع الأعناق هو خضوع أصحاب الأعناق.

ولما لم يكن الخضوع إلا لخضوع الأعناق جاز أن يعبر عن المضاف إليه كما قال الشاعر[1] [من الوافر]:

رَأَت مَرَّ السِنينَ أَخَذنَ مِنّي كَما أَخَذَ السَّرارُ مِنَ الهِلالِ

لما كانت السنون لا تكون إلا بِمَرٍّ أخبر عن السنين ، وإن كان أضاف إليها المرور ، ومثل ذلك أيضاً قول الشاعر[2] [من الطويل]:

رُوَيداً كَما اهتَزَّت رِماحٌ تَسَفَّهَت أَعالِيَها مَرُّ الرِّياحِ النَّواسِمِ

كأنه قال: ((تسفهتها الرياح)) ، لما كانت الرياح لا تكون إلا بالمرور.

وجاء في التفسير: ﴿أَعْنَاقُهُمْ﴾ يعنى به كبراؤهم ورؤساؤهم ، وجاء في اللغة ((أعناقهم)) جماعاتهم ، يقال: ((جاء لي عنق من الناس)) أي: جماعة ، وذكر بعضهم وجهاً آخر ، قالوا: فظلت أعناقهم لها خاضعين هم وأضمرُ«هم» ، وأنشد [من الوافر][3]:

تَرَى أَربَاقَهُم مُتَقلِدِيهَا إِذَا صَدِئَ الحدِيدُ عَلى الحُمَاتِ

(١) وهو: جرير.

(٢) هو: ذو الرمة.

(٣) والبيت للفرزدق.

وهذا لا يجوز في القرآن ، وهو بدل الغلط يجوز في الشعر ، كأنه قال: يرى أرباقهم يرى متقلديها ، كأنه قال: يرى قوماً متقلدين أرباقهم ، فلو كان على حذف ((هم)) لكان مما يجوز في الشعر أيضاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾: ﴿أَنْبَاءُ﴾ أخبار.

المعنى: فسيعلمون نبأ ذلك في القيامة ، وجائز أن يعجل لهم بعض ذلك في الدنيا نحو ما نالهم يوم بدر.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ معنى ﴿زَوْجٍ﴾ نوع، ومعنى ﴿كَرِيمٍ﴾ محمود فيما يحتاج إليه.

المعنى: من كل زوج نافع لا يقدر على إنباته وإنشائه إلا رب العالمين.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ دليلا على أن الله -عز وجل- واحد وأن المخلوقات آيات تدل على أن الخالق واحد ليس كمثله شيء.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُؤْمِنِينَ﴾ معناه: وما كان أكثرهم يؤمن ، أي: يعلم الله أن أكثرهم لا يؤمنون أبداً كما قال: ﴿وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أي: لستم تعبدون ما أعبد الآن ﴿وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[الكافرون: ٤، ٥] فيما يستقبل ، وكقوله في قصة نوح -عليه السلام-: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾[هود: ٣٦] ، فأعلمه أن أكثرهم لا يؤمنون.

وقوله: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ موضع ((إذ)) نصب على معنى: واتل هذه القصة فيما تتلو ، ودليل ذلك قوله عطفاً على هذه القصة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾؛ بالنصب والرفع ، فمن رفع فعطف على: ﴿أَخَافُ﴾ ، على معنى ((إني أخاف ويضيق صدري)) ، ومن نصب فعطف على ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ، ((وأن يضيق صدري وأن لا ينطق لساني)) ، والرفع أكثر في القراءة.

وقوله -تعالى-: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ أي: ليعينني ويؤازرني على أمري ، وحذف لأن في الكلام دليلاً عليه.

قوله -تعالى-: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾؛ يعني بالذنب الرجل الذي وكزه فقضى عليه ، إني أخاف أن يقتلوني بقتلي إياه.

﴿قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾؛ ﴿كَلاَّ﴾ ردع وزجر عن الإقامة على هذا الظن ، كأنه قال: ارتدع عن هذا الظن وثق بالله.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾؛ معناه: إنا رِسَالَة رب العالمين، أي: ذوو رسالة رب العالمين ، قال الشاعر[1] [من الطويل]:

لَقَد كَذِبَ الواشونَ ما فُهتُ عِندَهُم بِسُوءٍ وَلا أَرسَلْتُهُم بِرَسُولِ

وقوله سبحانه: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ موضع ((أن)) نصب.

المعنى: أرسلنا لترسل أي: لأن ترسل معنا بني إسرائيل.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً﴾ أي: مولوداً حين ولدت.

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾؛ ويجوز ﴿مِنْ عُمْرِكَ﴾ بإسكان الميم ، ويجوز ﴿مِنْ عَمْرِكَ﴾ بفتح العين.

يقال: هو العُمُر والعُمْر والعَمْر في عمر الإنسان ، فأما في القسم فلا يجوز إلا ((لعَمْر الله)) لا غير بفتح العين ، ذكر سيبويه والخليل وجميع البصريين أن القسم مفتوح لا غير ،

فاعتد فرعون على موسى بأنه رباه وليداً منذ ولد إلى أن كبر.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾؛ قرأ الشعبي ((فِعلتك)) بكسر الفاء ، والفتح أجود وأكثره، لأنه يريد قتلت النفس قتلتك على مذهب المرة الواحدة.

وقرأ الشعبي على معنى: وقتلت القتلة التي عرفتها ، لأنه قتله بوكزة ، يقال: ((جَلَست جَلْسة)) تريد مرة واحدة ، و((جَلَست جِلْسة)) بالكسر تريد هيئة الجلوس.

﴿وأنت مِنَ الكَافِرِينَ﴾فيه وجهان:

أحدهما: من الكافرين لنعمتي ، والآخر: وأنت من الكافرين بقتلك الذي قتلت.

فنفى موسى -عليه السلام- الكفر واعترف بأن فعله ذلك جهل فقال: ﴿فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: من الجاهلين ، وقد قرئت: ((وأنا من الجاهلين)).

وقوله -عز وجل-: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً﴾ يعني التوراة التي فيها حكم الله.

وقوله -تعالى-: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أخرجه المفسرون على وجهه الإنكار أن تكون تلك نعمة ، كأنه قال: فأية نعمة لك علي في أن عبدت بني

---

(١) هو : كثير عزة.

إسرائيل ، واللفظ لفظ خبر ، والمعنى: يخرج على ما قالوا على أن لفظه لفظ الخبر وفيه تبكيت للمخاطب كأنه قال له: هذه نعمة إن اتخذت بني إسرائيل عبيداً على جهة التبكيت لفرعون ، واللفظ يوجب أن موسى -عليه السلام- قال: هذه نعمة لأنك اتخذت بني إسرائيل عبيداً ولم تتخذني عبداً.

ويقال: عبدت الرجل ، وأعبدته اتخذته عبداً. وموضع ((أن)) رفع علي البدل من ﴿نِعْمَةٌ﴾ ، وكأنه قال: وتلك نعمة تعبدك بني إسرائيل وتركك إياي غير عبد.

ويجوز أن يكون ((أن)) في موضع نصب؛ المعنى: إنما صارت نعمة علي لأن عبدت بني إسرائيل. أي: لو لم تفعل ما فعلت لكفلني أهلي ولم يلقوني في اليم ، فإنما صارت نعمة بما فعلت من البلاء.

وقال الشاعر[1] في ((أعبدت اتخذت عبداً)):

حَتَّامَ يَعْبِدُني قَوْمي وقَدْ كَثُرت ... فيهِمْ أَباعِرُ ما شاؤوا وعِبْدانُ

وقوله -عز وجل- ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ﴾ فأجابه موسى -عليه السلام- بما هو دليل على الله -عز وجل- بما خلق مما يعجز المخلوقون عن أن يأتوا بمثله فقال:

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُوقِنِينَ﴾ فتحير فرعون ، ولم يَرْدُدْ جواباً ينقض به هذا القول.

فقال لمن حوله[2]:﴿أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾ فزاده موسى في البيان فقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ فلم يجبه أيضاً ، فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ فقال موسى زيادة في الإبانة: ﴿قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فلم يجبه في هذه الأشياء بنقض لحجته.

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ﴾ فزاده في البيان واحتج بما شاهده هو والملأ ومن حوله:

﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ والثعبان الكبير من الحيات.

---

(١) هو: الفرزدق.

(٢) وهذا ما ورد في الآية: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ﴾.

فإن قال قائل: فكيف جاء ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ وفي موضع آخر ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾[النمل: ١٠] ، والجان الصغير من الحيات.

فالجواب: في هذا مما يدل على عظم الآية ، وذلك أن خَلْقها خَلْق الثعبان ، واهتزازها وحركتها وخفتها كاهتزاز الجان وخفته.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾: نزع يده من جيبه فأخرجها بيضاء نُورِياً من غير سوء ، أي: من غير برص.

فلم يكن عنده دفع لما شاهده إلا أن قال: إن هذا سحر فقال للملإ حوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾

فجعل الآية المعجزة سحراً ، ثم استكان وخضع للذين هم من أتباعه فقال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾.

بكسر الهاء وضمها وبالياء والواو ((ارجهي)) ، و((ارجهو وأخاه)).

﴿وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ فمعنى ((أرجه)) أخره ، وجاء في التفسير: احبسه وأخاه ، والمعنى واحد.

وتأويله: أخره عن وقتك هذا وأخر استتمام مناظرته إلى أن يجتمع لك السحرة.

وقوله: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ فغنيٌّ عن أن يقول: ((فبعث فجمع السحرة))[1].

وقوله: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: لكم مع أجركم وجزائكم على غلبتكم موسى، إن غلبتموه مع الفائدة القربى والزلفى عندي.

ويقرأ: ((أئن لنا لأجراً)) على جهة الاستفهام ، ويجوز: ((إن لنا لأجراً)) على غير الاستفهام ، وعلى جهة الثقة منهم به ، قالوا: إن لنا لأجراً ، أي: إنك ممن يحبنا ويجازينا.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾؛ أي: مما جمعوا من كيدهم وعصيهم.

وروي عنهم أنهم كانوا اثني عشر ساحراً ، فنصر موسى -عليه السلام-.

وأكثر ما كان السحر وأغلبه على أهل ذلك الدهر ، وكانت آيته آية باهرة من جهتين:

---

(١) مراده: أي: استغنى على أن يقول ذلك.

إحداهما: أنه أتي بما يعجز عنه المخلوقون ، والثانية: أن السحرة ، وعددهم هذا العدد ألقوا ساجدين.

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فسلموا الأمر لله وتبين لهم ما لا يدفع.

وكذلك بعث النبي -عليه السلام- أشعر ما كانت العرب وأخطب ما كانت وأبلغ ما كانت، فدعاهم إلى الإيمان بالله مع الآيات التي أتى بها النبي -عليه السلام- وبالقرآن الذي دعاهم إلى أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا عن الإتيان بسورة مثله.

ويروى أيضاً أن السحرة كانوا تسعة عشر ألفاً.

وقوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ اللام دخلت على ((سوف)) بمعنى التوكيد ، ولم يجز الكوفيون: ((إن زيد لسوف يقوم)) ، وقد جاء دخول اللام على ((سوف)) ، وذلك أن اللام مؤكدة.

وقوله -عز وجل-: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلافٍ﴾؛ وروي في التفسير: أن أول من قطَّع وصَلَّب فرعون.

﴿قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾؛ أي: لا ضرر علينا فيما ينالنا في الدنيا مع أملنا للمغفرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بفتح ((أن)) أي: لأن كنا أول المؤمنين.

وزعم الفراء: أنهم كانوا أول مؤمني أهل دهرهم ، ولا أحسبه عرف الرواية في التفسير أن الذين كانوا مع موسى -عليه السلام- ستمائة ألف ، وقيل: ستمائة ألف وسبعون ألفاً.

وإنما معنى ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أول من آمن في هذه الحال عند ظهور آية موسى حين ألقوا حبالهم وعصيهم واجتهدوا في سحرهم ، ويقال: لا ضير ولا ضَوْرَ ، في معنى: ((لا ضُرّ ولا ضَرر)).

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ ، يقال: ((أسرَى يَسْرِي)) إذا سَارَ ليلاً ، و((سَرَى يسري)) قيل: هو في معنى: ((أسرى يسري)) أيضاً.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أي: أرسل من جمع له الجيش ، معناه: فجمع جمعه ، فقال:

﴿إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ والشرذمة: في كلام العرب القليل.

يروى أن هؤلاء الذين سماهم ((شرذمة)) كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً ، وكانت مقدمة فرعون سبعمائة ألف، كل رجل منهم على حصان ، وعلى رأسه بيضة ، فاسْتَقَلَّ من مع موسى -عليه السلام- عند كثرة جمعه.

وقال ﴿قَلِيلُونَ﴾ فجمع ((قليلاً)) كما يقال: هؤلاء واحدون فيجمع الواحد ، كما قال الكميت [من الوافر]:

فَقَد رَجَعُوا كحيٍّ وَاحِدِينَا

وقوله ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾؛ يقال: ((قد غاظني فلان)) ، ومن قال: ((أغاظني)) فقد لحن.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ ويقرأ: ((حذرون)).

وجاء في التفسير: أن معنى ﴿حَاذِرُونَ﴾، مؤدون أي: ذوو أداة ، أي: ذوو سلاح والسلاح أداة الحرب ، فالحَاذِر: المستعد ، والحَذِر: المتيقظ.

وقوله -تعالى-: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُشْرِقِينَ﴾ أي: في وقت شروق الشمس.

يقال: ((أشرقنا)) أي: دخلنا في وقت طلوع الشمس ، ويقال: ((شرقت الشمس)) إذا طلعت ، و((أشرقت)) إذا اضاءت وصَفَت ، و((أشرقنا نحن)) دخلنا في الشروق.

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الجَمْعَانِ﴾ أي: لما وافق جمع موسى جمع فرعون وكان أصحاب موسى قد خرجوا ليلاً ، فقال أصحاب موسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ أي: سيدركنا جمع فرعون هذا الكثير ، ولا طاقة لنا بهم.

﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي: قال موسى ﴿كَلاَّ﴾ أي: ارتدعوا ، وازدجروا فليس يدركوننا.

وقوله -عز وجل-: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ البَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ أي: كل جزء تفرق منه ﴿كَالطَّوْدِ العَظِيمِ﴾ أي: كالجبل العظيم.

وقوله: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ﴾ أي: قربنا ثَمَّ الآخرين من الغرق ، وهم أصحاب فرعون.

وقال أبو عبيدة: ((أزلفنا)) جمعنا ثم الآخرين ، قال: ومن ذلك سميت ((مزدلفة)) جمعاً ، وكلا القولين حسن جميل ، لأن جمعهم تقريب بعضهم من بعض ، وأصل ((الزلفى)) في الكلام العرب القربى.

قوله -تعالى-: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ معناه: خبر إبراهيم.

وقوله: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ معناه: مقيمين على عبادتها.

وقوله: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ إن شئت بنيت الذال ، وإن شئت أدغمتها في التاء فجعلتها تاء فقلت ((إتدعون)) ، وهو أجود في العربية لقرب الذال من التاء ، ويجوز إذ دعون ، ولم يقرأ بها كما قال مدكر ، واصله مذتكر.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قال النحويون: إنه استثناء ليس من الأول ، أي: لكن رب العالمين ، ويجوز أن يكونوا عبدوا مع الأصنام وغيرهم ، فقال لهم: إن جميع من عبدتم عدو لي إلا رب العالمين ، لأنهم سووا آلهتهم بالله فأعلمهم أنه قد تبرأ مما يعبدون إلا الله فإنه لم يتبرأ من عبادته.

وقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾:

جاء في التفسير: أن خطيئته قوله: إن سارة أختي ، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ﴾[الأنبياء: ٦٣]، وقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[الصافات: ٨٩].

وقد بينا معنى قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ ، ومعنى ﴿خَطِيئَتِي﴾ أن الأنبياء بشر ، وقد يجوز أن يقع عليهم الخطيئة ، إلا أنهم -صلوات الله عليهم- لا تكون منهم الكبيرة لأنهم معصومون مختارون على العالمين كل نبي هو أفضل من عَالَم أهل دهره كلهم.

قوله: ﴿وَاجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ معناه: اجعل لي ثناء حسناً باقياً إلى آخر الدهر.

وقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ معناه: قربت ، وتأويله: أنه قرب دخولهم إياها ، ونظرهم إليها.

قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ أي: أظهرت للضالين ، والغاوي : الضال.

وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا﴾ أي: في الجحيم.

ومعنى ((كبكبوا)) طرح بعضهم على بعض ، وقال أهل اللغة معناه: هُوِّرُوا ، وحقيقة ذلك في اللغة: تكرير الانكباب كأنه إذا ألقي ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فيها يستجير بالله منها.

وقوله: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ العَالَمِينَ﴾:

معناه: والله ما كنا إلا في ضلال مبين حيث سويناكم بالله -عز وجل- فأعظمناكم وعبدناكم كما يعبد الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِينَ﴾ دخلت التاء وقوم نوح مذكر لأن المعنى: كذبت جماعة قوم نوح ، وقال ﴿المُرْسَلِينَ﴾ ويجوز أن يكونوا كذبوا نوحاً وحده، ومن كذب رسولاً واحداً من رسل الله فقد كذب الجماعة وخالفها ، لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل ، وجائز أن يكون كذبت جميع الرسل.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ وقيل: أخوهم لأنه منهم ، وكل رسول يأتي بلسان قومه ليوضح لهم الحجة ويكون أبين لهم.

وقوله: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ ويقرأ: ((وأتباعك الأرذلون)) ، وهي في العربية جيدة قوية لأن واو الحال تصحب الأسماء أكثر في العربية لأنك تقول: ((جئتك وأصحابك الزيدون)) ، ويجوز: و((صحبك الزيدون)) ، والأكثر: ((جئتك وقد صحبك الزيدون)).

وقيل: في قوله: ﴿الأَرْذَلُونَ﴾: نسبوهم إلى الحياكة والحجامة ، والصناعات لا تضر في باب الديانات.

وقوله: ﴿مِنَ المَرْجُومِينَ﴾: أي: بالحجارة.

وقوله: ﴿فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ واحدها: ((فَلَك)) وجمعها ((فُلْك)).

وزعم سيبويه أنه بمنزلة: ((أسد وأُسْد)) ، وقياس ((فَعْل)) قياس: ((فُعَل)) ، ألا ترى أنك تقول: ((قُفْل وأقفال وجَمَل وأَجْمال)) ، وكذلك ((أَسَد وأُسْد وآسَاد)) ، ((وفَلَك وفُلْك وأَفْلاك)) في الجمع.

و﴿المَشْحُونِ﴾ المملوء ، يقال: شحنته أي: ملأته.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾؛ يقرأ: ((رِيع ورَيع)) بكسر الراء وفتحها ، وهو في اللغة: الموضع المرتفع من الأرض ، ومن ذلك: ((كم ريع أرضك)) ، أي: كم ارتفاع أرضك.

جاء في التفسير: ﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾ كل فج ، والفج: الطريق المنفرج في الجبل ، وجاء أيضاً بكل طريق ، وقوله ﴿آيَةً﴾: علامة.

وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ واحد المصانع: ((مصنعة ومصنع)) ، وهي التي تتخذ للماء ، وقيل: مبان.

ومعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: لأن تخلدون ، أي: وتتخذون مباني للخلود لا تتفكرون في الموت.

وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾:

جاء في التفسير: أن بطشهم كان بالسوط والسيف ، وإنما أنكر ذلك عليهم لأنه ظلم، فأما في الحق فالبطش بالسوط والسيف جائز.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾

الهضيم: الداخل بعضه في بعض ، وهو فيما قيل: إن رطبه بغير نوى ، وقيل: الهضيم الذي يتهشم تهشماً ، والهضيم في اللغة: الضامر الداخل بعضه في بعض من هذا.

وقوله: ﴿فَارِهِينَ﴾؛ جاء في التفسير: آشرين ، وجاء في التفسير: مرحين.

وقرئت ﴿فَرِهِينَ﴾ ، ومعنى ﴿فَارِهِينَ﴾ حاذقين ، و﴿فَرِهِينَ﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي: ممن له سحر ، والسَّحَر الرئة ، أي: إنما أنت بشر مثلنا، وجائز أن يكون ﴿مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ من المفعلين من السحر أي: ممن قد سحر مرة بعد مرة.

وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ ، ويقرأ ﴿خَلْقُ الأَوَّلِينَ﴾.

فمن قرأ ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ بضم الخاء فمعناه: عادة الأولين ، ومن قرأ ﴿خَلْقُ﴾ بفتح الخاء ، فمعناه: اختلاقهم وكذبهم.

وفي ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ﴾ وجه آخر ، أي: خلقنا كما خلق من كان قبلنا ، نحيا كما حيوا، ونموت كما ماتوا ولا نبعث ، لأنهم أنكروا البعث.

وقوله: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً﴾ معناه: احكم بيني وبينهم حكماً ، والقاضي يسمي الفتاح من هذا.

قوله -عز وجل-: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ ﴿الأَيْكَةِ﴾ الشجر الملتف ، ويقال: ((أيكة وأيك)) مثل: ((أجمة وأجم)) ، والفصل بين واحده وجمعه الهاء.

ويقال في التفسير: إن أصحاب الأيكة هؤلاء كانوا أصحاب شجر ملتف ، ويقال: إن شجرهم هو الدوم ، والدوم هو شجر المقل ، وأكثر القراء على إثبات الألف واللام في الأيكة ، وكذلك يقرأ أبو عمرو وأكثر القراء ، وقرأ أهل المدينة: ((أصحاب ليكة)) مفتوحاً اللام ، فإذا وقف على ((أصحاب)) ، قال: ((ليكة المرسلين)) ، وكذلك هي في هذه السورة بغير ألف في المصحف ، وكذلك أيضاً في سورة ((ص)) بغير ألف وفي سائر القرآن بألف.

ويجوز وهو حسن جداً: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ بغير ألف في الخط على الكسر ، على أن الأصل الأيكة فألقيت الهمزة فقيل: ((ليكة)) ، والعرب تقول: ((الأحمر جاءني)) ، وتقول إذا ألقت الهمزة: ((لحمر جاءني)) بفتح اللام ، وإثبات ألف الوصل ، ويقولون أيضاً: ((لاحمر جاءني)) يريدون الأحمر ، وإثبات الألف واللام فيهما في سائر القرآن يدل على أن حذف الهمزة منها التي هي ألف الوصل بمنزلة قولهم: ((لاحمر)).

قال أبو إسحاق: أعني أن القراءة بجر: ((ليكة)) ، وأنت تريد: ((الأيكة)) واللام ، أجود من أن تجعلها: ((ليكة)) ، وأنت لا تقدر الألف واللام وتفتحها لأنها لا تنصرف ، لأن ((ليكة)) لا تعرف وإنما هي ((أيكة)) للواحد ، و((أيك)) للجمع ، فأجود القراءة فيها الكسر ، وإسقاط الهمزة لموافقة المصحف، وأهل المدينة يفتحون على ما جاء في التفسير: أن اسم المدينة التي كانت للذين أرسل إليهم شعيب -عليه السلام- ((ليكة))، وكان أبو عبيدة القاسم بن سلام يختار ذلك لموافقتها الكتاب مع ما جاء في التفسير ، كأنها تسمى المدينة: ((الأيكة)) ، وتسمى الغيضَةُ التي تضم هذا الشجر: ((الأيكة)) ، والكسر جيد على ما وصفنا ، ولا أعلمه إلا قد قرئ به.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾؛ ﴿الظُّلَّةِ﴾ سحاب أظلتهم ، فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها مما نالهم من حر ذلك اليوم ، ثم أطبقت عليهم فكان من أعظم يوم في الدنيا عذاباً.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ ولو كان في غير القرآن لجاز: ((عظيماً)) ، والجر أجود كما جاء به القرآن.

وقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِنْ أَزْوَاجِكُم﴾؛ وقرأ ابن مسعود: ((ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم)) ، يعني به الفروج ، وعلى ذلك التفسير.

وذلك أن قوم لوط كانوا يعدلون في النساء عن الفروج إلى الأدبار ، فأعلم الله -عز وجل- أنهم بفعلهم هذا عادون. و((عادون)): ظالمون غاية الظلم.

ويروى أن ابن عمر سئل عن ((التَّحميض)) ، فقال: أو يفعل ذلك المسلمون ، والتَّحميض فعل قوم لوط بالنساء والرجال ، ومن أجاز هذا في النساء فمخطئ خطأ عظيماً.

وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِنَ الْقَالِينَ﴾؛ والقالي : التارك للشيء الكاره له غاية الكراهة.

وقوله: ﴿إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغَابِرِينَ﴾؛ جاء في التفسير: في الباقين في العذاب.

والغابر في اللغة: الباقي ، وأنشدوا للعجاج [من الرجز]:

فَما وَنى مُحَمَّدٌ مُذ أَن غَفَر لَهُ الإِلَهُ ما مَضى وَما غَبَر

وأنشدوا للعجاج(١) [من السريع]:

لا تَكسَعِ الشَّولَ بِأَغبارِها إِنَّكَ لا تَدري مَنِ الناتِجُ

أغبارها ما بقي من اللبن في أخلاف الناقة.

وقوله -عز وجل-: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ﴾؛ ويقرأ: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ﴾.

المعنى: نزل الله به الروح الأمين ، والروح الأمين: جبريل -عليه السلام-.

وقوله: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾. معناه: نزل عليك فوعاه قلبك وثبت فلا تنساه أبداً ولا شيئاً منه ، كما قال -عز وجل-: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى﴾[الأعلى: ٦].

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾. تأويله -والله أعلم- أن ذكر محمد -عليه السلام- وذكر القرآن في زبر الأولين ، والزُّبر: الكتب ، زَبُور وزُبُر مثل قولك: ((رَسُول ورُسُل))

(١) هو ليس للعجاج وإنما للحارث بن حلزة على ما وجدناه في المراجع . انظر: اللسان ((غبر)) ، ومعاني القرآن للفراء (٢/٢٨٢)، وتفسير القرطبي (٣/١٣٣) وعلى هذا فنسبته للعجاج فيها نظر.

كما قال الله -عز وجل-: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾[الأعراف: ١٥٧].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ﴾؛ عطف على الكاف والميم.

المعنى: اتقوا الذي خلقكم وخلق الجبلة الأولين ، ويقرأ ﴿وَالْجُبُلَّةَ﴾ بضم الجيم والباء ، ويجوز: ((والجُبلة الأولين والجِبْلة الأولين)) ، فأما الأوليان فالقراءة بهما ، وهاتان جائزتان.

قوله: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ و((كسْفا)) يقرأ جميعاً.

فمن قرأ ﴿كِسْفاً﴾ بإسكان السين فمعناه: جانباً ، ومن قرأ: ﴿كِسَفاً﴾ فتأويله: قطعاً من السماء جمع: ((كِسفة وكِسَف)) ، مثل: ((كِسرة وكِسَر)).

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ إذا قلت ﴿يَكُن﴾ فالاختيار نصب ((الآية))، ويكون ﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ اسم ((كان)) ويكون ﴿آيَةً﴾ خبر ((كان)).

المعنى: أو لم يكن علم علماء بني إسرائيل أن النبي -عليه السلام- حق وأن نبوته حق آية؟ أي: علامة موضحة ، لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل وجدوا ذكر النبي -عليه السلام- ﴿مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾[الأعراف: ١٥٧] كما قال الله -عز وجل-.

ومن قرأ: ((أو لم تكن لهم آية)) بالتاء جعل ﴿آيَةً﴾ هي الاسم ، و﴿أَن يَعْلَمَهُ﴾ خبر ((يكن)) ، ويجوز أيضاً: ((أو لم تكن لهم آية)) بالتاء ونصب ﴿آيَةً﴾ كما قال -عز وجل-: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾[الأنعام: ٢٣] ، ومثله قول لبيد [من الكامل]:

فَمَضى وَقَدَّمَها وَكانَت عادَةً مِنهُ إِذا هِيَ عَرَّدَت إِقدامُها

فنصب ((عادة)) وقد أنث ((كانت)) وهي للإقدام ، لأن الاسم والخبر في كان لشيء واحد وقد جاوز الفعل لفظ التأنيث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ﴾.

﴿الأَعْجَمِينَ﴾ جمع: ((أعجم)) ، والأنثى: ((عجماء)) ، والأعجم: الذي لا يفصح ، وكذلك الأعجمي ، فأما العجمي فالذي من جنس العجم ، أفصح أو لم يفصح.

وقوله -عز وجل-: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: سلكنا تكذيبهم به في قلوبهم ، جعل الله -عز وجل- مجازاتهم أن طبع على قلوبهم وسلك فيها الشرك.

﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾؛ أخبر -عز وجل- أنه بما سلك في قلوبهم الشرك منعهم من الإيمان به.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾: معنى ﴿بَغْتَةً﴾ فجاءة.

وقوله: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَى﴾.

﴿ذِكْرَى﴾ يكون نصباً ويكون رفعاً إلا أن الإعراب لا يظهر فيها لأن آخرها ألف مقصورة ، فمن نصب فعلى المصدر ودل عليه الإنذار لأن قوله: ﴿إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ﴾ معناه: إلا لها مذكرون ذكرى ، ويجوز أن تكون في موضع رفع على معنى: إنذارنا ذكرى ، على خبر الابتداء ، ويجوز: ((ذكرا وما كنا ظالمين)) ، منون ولا أعلم أحداً قرأ بها ، فلا تقرأن بها إلا أن تثبت بها رواية صحيحة.

يقال: ((ذَكَّرته ذِكْرى)) بألف التأنيث و((ذَكَرته ذِكْراً وتَذْكِيراً وتَذْكِرَة وذَكْراً)) ، و((هو مني على ذِكْر)) لا غير.

وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾.

قرأ الحسن: ((الشياطون)) ، وهو غلط عند النحويين، ومخالفة عند القراء للمصحف. فليس يجوز في قراءة ولا عند النحويين، ولو كان يجوز في النحو، والمصحف على خلافه لم تجز عندي القراءة به.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾؛ لما رموا بالنجوم منعوا من السمع.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾.

يروى في التفسير: أنه لما نزلت هذه الآية نادى النبي ﷺ: ((يا بني عبد المطلب ، يا بني هاشم ، يا بني عبد مناف يا عباس عم النبي يا صفية عمة رسول الله ، إني لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلوني من مالي ما شئتم)).

ويروى أيضاً: أنه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا ، ونادى الأقرب فالأقرب فخذاً فخذاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ تأويله: ألن جناحك.

أمر النبي ﷺ بإلانة الجانب مع ما وصفه الله به من لين الخلق وتعظيم خلقه في اللين وجميل الأخلاق ، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

وقوله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أي: المصلين.

وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾؛ ثم أنبأ فقال: ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾.

لأنه -عز وجل- قال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ ثم قال ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ و﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ كالمتصل بهذا.

ثم أعلم أن الشياطين تنزلت على كل أفاك أثيم ، أي: على كل كذاب ، لأنها كانت تأتي مسيلمة الكذاب وغيره من الكهنة فيلقون إليهم ويزيدون أولئك كذباً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ﴾؛ ويجوز: ((يتبعهم)) بالتشديد والتخفيف.

و((الغاوون)) الشياطين في التفسير ، وقيل: أيضاً الغاوون من الناس ، فإذا هجا الشاعر بما لا يجوز ، هوى ذلك قوم وأحبوه ، وهم الغاوون ، وكذلك إن مدح ممدوحاً بما ليس فيه:أحب ذلك قوم وتابعوه فهم الغاوون.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾.

ليس يعنى به أودية الأرض ، إنما هو مثل لقولهم وشعرهم ، كما تقول في الكلام: ((أنا لك في واد وأنت لي في واد)) ، وليس يريد أنك في واد من الأرض ، إنما يريد أنك في واد من النفع كبير وأنت لي في صفّ.

والمعنى: إنهم يغلون في الذم والمدح ، ويكذبون. ويمدح الشاعر الرجل بما ليس فيه ، وكذلك الذم فيسبون ، فذلك قوله: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ﴾ وهذا دليل على تكذيبهم في قولهم.

ثم استثنى -عز وجل- الشعراء الذين مدحوا رسول الله ﷺ وردوا هجاء من هجاه وهجا المسلمين فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾؛ أي: لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله -عز وجل- ولم يجعلوه همتهم ، إنما ناضلوا عن النبي ﷺ بأيديهم وألسنتهم ، فهجوا من يستحق الهجاء وأحق الخلق بالهجاء من كذب رسول الله ﷺ وهجاه فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾.

وجاء في التفسير: أن الذين عنوا بـ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عبد الله بن رواحة الأنصاري وكعب بن مالك وحسان بن ثابت الأنصاري.

وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾؛ يعني: إنهم ينقلبون إلى نار جهنم يخلدون فيها.

و((أي:)) منصوبة بقوله: ﴿يَنقَلِبُونَ﴾، لا بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾، لأن ((أي)) وسائر الاستفهام لا يعمل فيها ما قبلها.

* * *

سورة النمل[1]

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طس﴾؛ قال ابن عباس ﴿طس﴾ اسم من أسماء الله -تعالى- أقسم به.

وقال قتادة: إنه اسم من أسماء القرآن.

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ القُرآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾؛ معنى ﴿تِلْكَ﴾ إنهم كانوا وعدوا بالقرآن في كتبهم ، فقيل لهم هذه ((تلك الآيات)) التي وعدتم بها ، وقد فسرنا ما في هذا في أول سورة البقرة.

و((كتاب)): مخفوض على معنى: تلك آيات القرآن آيات كتاب مبين ، ويجوز: وكتاب مبين ، ولا أعلم أحداً قرأ بها ، ويكون المعنى: تلك آيات القرآن وذلك كتاب مبين.

وقوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يجوز أن يكون ((هدى)) في موضع نصب على الحال ،؛ المعنى: تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة.

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة النمل من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف السابعة والعشرون. عدد آياتها ثلاث وتسعون آية. جاءت تسميتها النمل لأن الله تعالى ذكر فيها قصة النملة، التي وعظت بني جنسها، وذكّرت ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده، ففهم نبي الله كلامها، وتبسم من قولها، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام.

اهتمت السورة الكريمة بالحديث عن أصول العقيدة، وهي إحدى ثلاث سور نزلت متتالية، ووضعت في المصحف متتالية وهي: الشعراء، والنمل، والقصص.

تناولت السورة الكريمة القرآن العظيم، معجزة محمد الكبرى، وحجته البالغة إلى يوم الدين، فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم، ثم تحدثت عن قصص الأنبياء موجزة مرة، ومسهبة مرة أخرى. فذكرت قصة موسى، وقصة داود وولده سليمان، وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة، وما خصهما به من الفضل الكبير بالجمع بين النبوة، والملك الواسع؛ فذكرت قصة سليمان مع ملكة سبأ وقومها، وكيف أنها أذعنت في نهاية الأمر لله رب العالمين. وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان، والملوك، فقد اتخذ سليمان المُلْك وسيلة للدعوة إلى الله. كما ذكرت السورة قصة صالح، وقصة لوط وما نال قومهما من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم. وتناولت السورة الكريمة أيضًا الأدلة والبراهين على وجود الله، ووحدانيته من آثار مخلوقاته، وبدائع صنعه، وساقت بعض الأهوال والمشاهد الرهيبة.

ويجوز أن يكون في موضع رفع من جهتين؛ إحداهما: على إضمار هو هدى وبشرى، وإن شئت على البدل من ﴿آيَاتُ﴾ على معنى: تلك هدى وبشرى.

وفي الرفع وجه ثالث حسن ، على أن يكون خبراً بعد خبر ، وهما جميعاً خبر لـ﴿تِلْكَ﴾ على معنى قولهم: ((هو حلو حامض)) أي: قد جمع الطعمين ، فيكون خبر ﴿تِلْكَ﴾: ﴿آيَاتُ﴾ وخبرها: ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ ، فتجمع أنها آيات وأنها هادية مبشرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: جعلنا جزاءهم على كفرهم لأن زينا لهم ما هم فيه.

﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتحيرون ، قال العجاج [من الرجز]:

*أَعْمَى الهُدَى بِالجاهِلِينَ العُمَّهِ *

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: يلقى إليك القرآن وحياً من عند الله أنزله بعلمه وحكمته.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ موضع ﴿إِذْ﴾ نصب.

المعنى: اذكر إذ قال موسى لأهله ، أي: اذكر قصة موسى.

ومعنى ﴿آنَسْتُ نَاراً﴾ رأيت ناراً.

وقوله -عز وجل- ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ يقرأ بالتنوين وبالإضافة ، فمن نون جعل ((قبس)) من صفة شهاب ، وكل أبيض ذي نور فهو شهاب.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾:

جاء في التفسير: إنهم كانوا في شتاء ، فلذلك احتاجوا إلى الاصطلاء.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي: فلما جاء موسى النار.

﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فموضع ((أن)) إن شئت كان نصباً وإن شئت كان رفعاً.

فمن حكم عليها بالنصب فالمعنى: نودي موسى بأنه بورك من في النار ، واسم ((ما)) لم يسم فاعله مضمر في ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ﴾.

وجاء في التفسير: إن ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ ههنا نور الله -عز وجل- ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قيل: الملائكة وقيل: نور الله.

وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ معناه: تنزيه الله تبارك وتعالى عن السوء ، كذلك جاء عن النبي عليه السلام وكذا فسره أهل اللغة.

وقوله: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ أي: تتحرك كما تتحرك الجان حركة خفيفة ، وكانت في صورة الثعبان وهو العظيم من الحيات.

﴿وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾:

جاء في التفسير: ((لم يعقب)) لم يلتفت ، وجاء أيضاً: ((لم يرجع)) ، وأهل اللغة يقولون: لم يرجع ، يقال: قد عَقَّب فلان إذا رجع يقاتل بعد أن ولى ، قال لبيد [من الكامل]:

حَتّى تَهَجَّرَ في الرَواحِ وَهاجَهُ طَلَبُ المُعَقِّبِ حَقَّهُ المَظلومُ

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾؛ معناه: لا يخاف عندي المرسلون.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ﴾؛ ((إلا)) استثناء ليس من الأول.

والمعنى -والله أعلم-: لكن من ظلم ثم تاب من المرسلين وغيرهم ، وذلك قوله: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.

المعنى: ادخل يدك في جيبك وأخرجها تخرج بيضاء من غير سوء.

جاء في التفسير: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ من غير برص ، وجاء أيضاً: أنه كانت عليه مدرعة صوف بغير كمين.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾: ((في)) من صلة قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ ، ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ﴾؛ فالتأويل: وأظهر هاتين الآيتين في تسع آيات ، وتأويله: من بين آيات.

وجاء في التفسير: أن التسع كون يده بيضاء من غير سوء ، وكون العصا حية وما أصاب آل فرعون من الجدب في بواديهم ، ونقص الثمار من مزارعهم ، وإرسال الجراد عليهم ، والقمل والضفادع ، والدم والطوفان. فهذه تسع آيات.

ومثل قوله: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ ومعناه: من تسعِ قولهم: ((خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان))؛ المعنى: منها فحلان.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي: واضحة ، ويجوز ((مُبْصَرة)) ، ومعناها: مبينة تبصر وترى.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُواً﴾؛ المعنى: جحدوا بها ظلماً وعلواً ، أي: ترفعا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى -عليه السلام- ، فجحدوا بها وهم يعلمون أنها من عند الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾: جاء في التفسير: أنه ورثه نبوته وملكه.

وروي: أنه كان لداود تسعة عشر ولداً فورثه سليمان من بينهم النبوة والملك.

وقوله: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾:

وجاء في التفسير: أنه البلبل[1] منها ، وأحسبه -والله أعلم - ما ألهم الله الطير مما يسبحه به ، كما قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾[الأنبياء: ٧٩].

وقول: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾؛ المعنى: أوتينا من كل شيء يجوز أن يؤتاه الأنبياء والناس.

وكذلك قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كل شيء يؤتاه مثلها ، وعلى هذا جرى كلام الناس ، يقول القائل: قد قصد فلاناً كل أحد في حاجته؛ المعنى: قصده كثير من الناس.

وقوله -تعالى-: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾؛ في اللغة: ﴿يُوزَعُونَ﴾ يكفون.

وجاء في التفسير: يكف أولهم ويحبس أولهم على آخرهم.

---

(١) ورد في المطبوعة : ((أنه البله منها)) وعلق المحقق بقوله: ((كذا في الأصل وليست واضحة المعنى)) وهو قصور منه ، حيث أن الكلمة وردت بعد قول الزجاج : ((جاء في التفسير أنه ...)) فالبحث عند المفسرين سيحل الإشكال إذا صحفت الكلمة في الأصل، وقد ورد في التفسير بعد البحث : أن الطائر المقصود هو ((البلبل)) وكل ما يطير مثله، فكان سليمان يفهم صوته الحسن ويفسر لأتباعه ما يقوله.

وقد روي عنه ذلك على ما جاء في التفاسير فقد قال أبو السعود (٢٧٦/٦) عند تفسير الآية : {مَنطِقَ الطَّيْرِ} هو: ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه ، ويحكى أنه مر على ((بلبل)) في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه أتدرون ما يقول ؟ قالوا : الله ونبيه أعلم ، قال: يقول : ((إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء ...)) إلى آخر ما ورد. وانظر أيضاً : روح المعاني (١٧١/١٩)، وتفسير البغوي (٣/ ٤٠٩).

﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾:

يروى أن وادي النمل هذا كان بالشام ، وأن نمل سليمان -عليه السلام- كان مثل الذباب.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ جاء لفظ: ﴿ادْخُلُوا﴾ كلفظ ما يعقل ، يقال للناس: ادخلوا وكذلك للملائكة والجن ، وكذلك: ((دَخَلُوا)) ، فإذا ذكرت النمل قلت: ((قد دخلن ودخلت)) ، وكذلك سائر ما لا يعقل ، إلا أن النمل ههنا أجري مجرى الآدميين حين نطق كما ينطق الآدميون.

﴿لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ ويقرأ: ((لا تُحْطِمَنَّكُمْ سليمان)) ، و ((لا يُحطِمَنَّكُم)) جائزة.

وقوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِن قَوْلِهَا﴾ لأن أكثر ضحك الأنبياء عليهم السلام التبسم.

و﴿ضَاحِكاً﴾ منصوب ، حال مؤكدة ، لأن ((تبسم)) بمعنى ضحك.

﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛ معنى ﴿أَوْزِعْنِي﴾ ألهمني.

وتأويله في اللغة: كُفَّنِي عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك ، أي: كُفَّنِي عما يباعد منك، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾؛ بفتح الياء وإسكانها في ﴿مَا لِيَ﴾ ، والفتح أجود ، وقد فسرنا ذلك.

وقوله: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ، معناه: بل كان الغائبين.

وجاء في التفسير: أن سليمان -عليه السلام- تفقد الهدهد لأنه كان مهندس الماء ، وكان سليمان -عليه السلام- ، إذا نزل بفلاة من الأرض عرف مقدار مسافة الماء من الهدهد.

وقيل: إن الهدهد يرى الماء في الأرض كلما يرى الماء في الزجاجة.

وقوله -عز وجل-: ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ﴾:

روي أن عذاب سليمان كان للطير أن ينتف ريش جناح الطائر ويلقى في الشمس.

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: ليأتيني بحجة في غيبته.

وقوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ويقرأ: ((فَمَكُث)) بضم الكاف وفتحها ، أي: غير وقت بعيد.

وقوله: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾؛ المعنى: فجاء الهدهد فسأله سليمان عن غيبته ، فقال أحطت بما لم تحط به ، وحذف هذا لأن الكلام دليلاً عليه.

ومعنى ﴿أَحَطتُ﴾: علمت شيئاً من جميع جهاته ، تقول: أحطت بهذا علماً ، أي: علمته كله لم يبق علي منه شيء.

وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ يقرأ بالصرف والتنوين ، ويقرأ ﴿مِن سَبَأَ﴾ بفتح ﴿سَبَأَ﴾ وحذف التنوين ، فأما من لم يصرف فيجعله اسم رجل واحد ، وذكر آخرون أن الاسم إذا لم يدر ما هو لم يصرف ، وأحد هذين القولين خطأ لأن الأسماء حقها الصرف ، فإذا لم يعلم الاسم مذكر هو أم للمؤنث فحقه الصرف حتى يعلم أنه لا ينصرف ، لأن أصل الأسماء الصرف ، وكل ما لا ينصرف فهو يُصرف في الشعر.

وأما الذين قالوا أن ((سبأ)) اسم رجل فغلط أيضاً لأن ((سبأ)) هي مدينة تعرف بمأرب من اليمن بينها وبين صنعاء ثلاثة أيام ، قال الشاعر[1] [من المنسرح]:

مِن سَبَأَ الحاضِرينَ مأرِبَ إذ يَبنونَ مِن دونِ سَيلِهِ العَرِما

فمن لم يصرف لأنه اسم مدينة ، ومن صرفه -والصرف فيه أكثر في القراءة- فلأنه يكون اسما للبلد فيكون مذكراً سمي به مذكر فإن صحت فيه رواية ، فإنما هو أن المدينه سميت باسم رجل.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ﴾؛ معناه: وأوتيت من كل شيء تعطاه الملوك ويؤتاه الناس.

والعرش: سرير عظيم.

وقوله: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ويقرأ: ((أَلاَ يسجدوا)) ، فمن قرأ بالتشديد ، فالمعنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم ألا يسجدوا، أي: فصدهم لئلا يسجدوا لله.

وموضع ((أن)) نصب بقوله: ((فصدهم)) ، ويجوز أن يكون موضعها جراً وأن حذفت اللام.

ومن قرأ بالتخفيف فـ((ألا)) لابتداء الكلام والتنبيه ، والوقوف عليه ((ألا يا)) ثم يستأنف فيقول: ((اسجدوا لله)).

---

(١) هو: أمية بن أبي الصلت.

ومن قرأ بالتخفيف فهو موضع سجدة من القرآن ، ومن قرأ: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا﴾ بالتشديد فليس بموضع سجدة ، ومثل قوله: ﴿أَلاَ يَسْجُدُوا﴾ بالتخفيف قول ذي الرمة [من الطويل].

أَلاَ يا اِسلَمِي يا دارَ مَيّ على البِلَى ... وَلا زالَ مُنهَلاً بِجَرعائِكِ القَطرُ

وقال الأخطل [من الطويل]:

أَلا يا اِسلَمي يا هِندُ هِندَ بَني بَدرِ ... وَإِن كانَ حَيّانا عِدً آخِرَ الدَهرِ

وقال العجاج [من الرجز]:

يَا دارَ سَلْمَى يا اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِي ... بِسَمْسَمٍ وَعَنْ يَمِينِ سَمْسَمِ

وإنما أكثرنا الشاهد في هذا الحرف كما فعل من قبلنا ، وإنما فعلوا ذلك لقلة اعتياد العامة لدخول ((يا)) إلا في النداء ، لا تكاد العامه تقول: ((يا قَدْ قَدِم زيد ، ولا ((يا اذهب بسلام)).

وقوله: ﴿لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ كل ما خبأته فهو خبء.

وجاء في التفسير: أن الخبء ههنا القطر من السماء والنبات من الأرض.

ويجوز وهو الوجه أن يكون الخبء كل ما غاب ، فيكون المعنى: يعلم الغيب في السماوات والأرض ، ودليل هذا قوله -تعالى-: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

وفي قوله -تعالى-: ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ خمسة أوجه:

((فألقهي إليهم)) باثبات الياء ، وهو أكثر القراءة ، ويجوز ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ بحذف الياء وإثبات الكسرة ، لأن أصله: ((فألقيه إليهم)) ، فحذفت الياء للجزم ، أعني ياء ((ألقيه)) ، ويجوز: ((فألقهو إليهم)) بإثبات الواو ، ويجوز: ((فألقه إليهم)) بالضم وحذف الواو ، وقد قريء ﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ بإسكان الهاء.

فأما إثبات الياء فهو أجودها: ((فألقهي)) ، فإن الياء التي تسقط للجزم قد سقطت قبل الهاء ، لأن الأصل: ((فألقيه إليهم)) ، ومن حذف الياء وترك الكسرة بعد الهاء فلأنه كان إذا أثبت الياء في قولك: ((أنا ألقيه إليهم)) كان الاختيار حذف الياء التي بعد الهاء. وقد شرحنا ذلك في قوله: ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾[آل عمران: ٧٥] شرحاً كافياً.

ومن قرأ: ((فألقهو إليهم)) رده إلى أصله ، والأصل: إثبات الواو مع هاء الإضمار ، تقول: ((ألقيتهو إليك)).

ومعنى قولنا: ((الواو والياء)) أعني في اللفظ ووصل الكلام ، فإذا وقفت بهاء ، وإذا كتبت كتبت بهاء.

ومن قرأ بحذف الواو وإثبات الضمة فذلك مثل حذف الياء وإثبات الكسرة ، ومن أسكن الهاء فغالط ، لأن لهاء ليست بمجزومة ولها وجه من القياس ، وهو أنه يجري الهاء في الوصل على حالها في الوقف ، وأكثر ما يقع هذا في الشعر أن تحذف هذه الهاء وتُبقي كسرة.

قال الشاعر[1] [من الطويل]:

فَإن يَكُ غَثّاً أَو سَميناً فَإِنَّني سَأَجعَلُ عَينَيهِ لِنَفسِهِ مَقنَعا

وقوله -تعالى-: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ فيه قولان:

قال بعضهم: معناه: التقديم والتأخير ، معناه: اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم ، وقال هذا لأن رجوعه من عندهم والتولي عنهم بعد أن ينظر ما الجواب، وهذا حسن ، والتقديم والتأخير كثير في الكلام.

وقالوا معنى ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تول عنهم مستتراً من حيث لا يرونك ، فانظر ماذا يردون من الجواب.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ فمضى الهدهد فألقى الكتاب إليهم فسمعها تقول: ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ﴾ فحذف هذا لأن في الكلام دليلاً عليه.

ومعنى ﴿كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ حسن ما فيه ، ثم بينت ما فيه فقالت: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فهذا ما كان الكتاب ، وكتب الأنبياء -صلوات الله عليهم- جارية على الإيجاز والاختصار.

وقد روي أن الكتاب كان: ((من عبد الله سليمان إلى بلقيس بنت سراحيل)) ، وإنما كتب الناس من عبد الله احتذاء بسليمان.

ومعنى ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ﴾: ألا ترفعوا علي وإن كنتم ملوكاً.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ أي: بينوا لي ما أعمل ، والملأ وجوه القوم ، الذين هم مُلاَءٌ بما يحتاج إليه.

﴿قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾:

---

(١) هو: مالك بن حريم الهمذاني.

ويروى أنه كان معها ألف قِيل، -والقَيْلُ: الملك- ومع كل قيل ألف رجل ، وقيل: مائة ألف رجل ، وأكثر الرواية مائة ألف رجل.

وقوله: ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ بكسر النون ، ولا يجوز فتح النون لأن أصله: ((حتى تشهدونني)) فحذفت النون الأولى للنصب ، وبقيت النون والياء للاسم ، وحذفت الياء لأن الكسرة تدل عليها ، ولأنه آخر الآية ، ومن فتح النون فلاحن ، لأن النون إذا فتحت فهي نون الرفع ، وليس هذا من التي ترفع فيه ((حتى)).

ويجوز: ((أَنه من سليمان وأَنه بسم الله الرحمن الرحيم)) ، بفتح الألف فيكون موضع: ((أن)) الرفع على معنى: ألقي إلي أنه سليمان.

ويجوز أن تكون ((أن)) في موضع نصب على معنى: ((كتاب كريم لأنه من سليمان ولأنه بسم الله الرحمن الرحيم.

فأما ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ﴾ فيجوز أن يكون ((أن)) في موضع رفع وفي موضع نصب ، فالنصب على معنى كتاب بأن إلا تعلوا علي أي: كتب بترك العلو ، ويجوز على معنى: ألقي إلي ألا تعلوا علي.

وفيها وجه آخر حسن على معنى: ((قال: لا تعلوا علي)).

وفسر سيبويه والخليل أن ((أن)) في هذا الموضع في تأويل ((أي)) على معنى ((أي: لا تعلوا علي)) ، ومثله من كتاب الله -عز وجل-: ﴿وَانطَلَقَ المَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾[ص: ٦] ، وتأويل ((أي)) ههنا تأويل القول والتفسير ، كما تقول: ((فعل فلان كذا وكذا أي: إني جواد)) ، كأنك قلت: ((يقول: إني جواد)).

وقوله: ﴿قَالَتْ إِنَّ المُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ معناه: إذا دخلوها عنوة عن قتال وغلبة.

﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ هو من قول الله -عز وجل- -والله أعلم- لأنها هي قد ذكرت إنهم يفسدون فليس في تكرير هذا منها فائدة.

وقوله: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾:

جاء في التفسير: إنها أهدت سليمان لبنة ذهب في حرير ، وقيل: لبن ذهب في حرير، فأمر سليمان بلبنة ذهب فطرحت تحت الدواب ، حيث تبول عليها الدواب وتروث ، فصغر في أعينهم ما جاؤوا به إلى سليمان.

وقد ذكر: أن الهدية قد كانت غير هذا ، إلا أن قول سليمان: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ مما يدل على أن الهدية كانت مالاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ حرف الجر مع ((ما)) في الاستفهام تحذف معها الألف من ((ما)) لأنهما كالشيء الواحد ، وليفصل بين الخبر والاستفهام ، تقول: ((قد رغبت فيما عندك)) ، فتثبت الألف ، وتقول: ((فيم نظرت يا هذا)) فتحذف الألف.

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾؛ معناه: فلما جاء رسولها سليمان ، ويجوز أن يكون فلما جاء بِرُّها سليمان إلا أن قوله: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ مخاطبة للرسول.

وقوله تعالى: ﴿لاَّ قِبَلَ لَهَم﴾؛ معناه: لا يقدرون على مقاومة جنودها.

وقوله: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾؛ أي: بسريرها.

﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؛ أحب سليمان ﷺ أن يأخذ السرير من حيث يجوز أخذه، لأنهم لو أتوا مسلمين لم يجز أخذ ما في أيديهم.

وجائز أن يكون أراد سليمان إظهار آية معجزة في تصيير العرش إليه في الساعة لأنها من الآيات المعجزات.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ﴾؛ والعفريت: النافذ في الأمر المبالغ فيه مع خبث ودهاء ، يقال: ((رجل عِفْر وعِفْريت ، وعِفْرية نِفْرية ونفارية)) في معنى واحد.

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَقَامِكَ﴾؛ أي: مقدار جلوسك الذي تجلسه مع أصحابك ، وقيل: قبل أن تقوم من مجلسك للحكم.

وقوله: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ﴾ ويقال: إنه آصف بن برخيا.

﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ ؛ أي: بمقدار ما يبلغ البالغ إلى نهاية نظرك ثم يعود إليك.

وقيل: في مقدار ما تفتح عينيك ثم تطرف ، وهذا أشبه بارتداد الطرف ، ومثله من الكلام: ((فعل ذلك في لحظة عين))؛ أي: في مقدار ما نظر نظرة واحدة.

ويقال في التفسير إنه دعا باسم الله الأعظم ، الذي إذا دعي به أجاب.

وقيل: إنه ((يا ذا الجلال والإكرام)).

وقيل: إنه ((يا إلهنا وإله الخلق جميعاً إلهاً واحدا لا إله إلا أنت)) ، فذكر هذا الاسم ثم قال: ائت بعرشها ، فلما استتم ذلك ظهر السرير بين يدي سليمان.

وقوله: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي﴾؛ الجزم في ﴿نَنظُرْ﴾ الوجه ، وعليه القراءة ويجوز ﴿نَنظُرُ﴾ بالرفع فمن جزم فلجواب الأمر ، ومن رفع فعلى معنى: فسننظر.

وقوله: ﴿أَتَهْتَدِي﴾ معناه: أتهتدي لمعرفته أم لا.

وقوله: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾؛ ولم تقل: ((إنه عرشها)) ، ولا قالت: قالت ليس هو بعرشها شبهته به لأنه منكر ، يروى: أنه جعل أسفله أعلاه.

وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؛ أي: صدها عن الإيمان لعادة التى كانت عليها ، لأنها نشأت ولم تعرف إلا قوماً يعبدون الشمس ، فصدتها العادة.

بين عادتها بقوله: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؛ ويجوز: ((أنها كانت من قوم كافرين)) فيكون المعنى: صدها كونها من قوم كافرين ويكون مبيناً عن قوله -عزّ وجل-: ﴿مَا كَانَت تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾؛ والصرح في اللغة: القصر ، والصحن ، يقال: ((هذه ساحة الدار وصحنة الدار وباحة الدار وقاعة الدار وقارعة الدار)) ، هذا كله في معنى الصحن.

وقوله ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾؛ أي: حسبته ماء ، وكان قد عمل لسليمان صحن من قوارير وتحته الماء والسمك ، فظنت أنه ماء فكشفت عن ساقيها. وذاك أن الجن عابوا عنده ساقيها ورجليها وذكروا أن رجليها كحافر الحمار فتبين أمر رجليها.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾؛ أي: فإذا قوم صالح فريقان مؤمن وكافر ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ فيقول كل فريق منهم الحق معي.

وطلبت الفرقة الكافرة على تصديق صالح العذاب ، فقال: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾؛ أي: لم قلتم إن كان ما أتيت به حقا فأتنا بالعذاب.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ أي: هلا تستغفرون الله.

قوله: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَعَكَ﴾؛ الأصل: ((تطيرنا)) فأدغمت التاء في الطاء ، واجتلبت الألف لسكون الطاء ، فإذا ابتدأت قلت: ((اطيرنا بك)) ، وإذا وصلت لم تذكر الألف وتسقط لأنها ألف وصل.

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: ما أصابكم من خير أو شر فمن الله.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾؛ أي: تختبرون ، ويجوز تفتنون من الفتنة؛ أي: تطيركم فتنة.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾؛ هؤلاء عتاة قوم صالح.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا﴾؛ وتجوز: ((لَتُبَيِّتُنَّهُ)) ، ويجوز ((لَيُبَيِّتُنَّهُ وأهله)) بالياء ، فيها ثلاثة أوجه؛ فمن قرأ بالنون قرأ ((ثم لنقولن)) لوليه ، ممن قرأ ((لتبيتنه)) بالتاء قرأ ((ثم لتقولن)) ومن قرأ ((ليبيتنه)) بالياء قرأ ((ثم ليقولن لوليه)).

فمن قرأ بالنون فكأنهم قالوا: ((احلفوا لنبيتنه وأهله))، ومن قرأ بالتاء فكأنهم قالوا: ((احلفوا لتبيتنه)) ، فكأنه أخرج نفسه في اللفظ.

والنون أجود في القراءة ، ويجوز أن يكون قد أدخل نفسه في التاء لأنه إذا قال ﴿تَقَاسَمُوا﴾، فقد قال: ((تحالفوا)) ولا يخرج نفسه من التحالف ، ومن قرأ: ((قالوا تقاسموا بالله ليبيتنه)) ، فالمعنى: قالوا: ليبيتنه متقاسمين ، فكأن هؤلاء النفر تحالفوا أن يبيتوا صالحاً ويقتلوه وأهله في بياتهم ، ثم ينكرون عند أولياء صالح أنهم شهدوا مهلكه ومهلك أهله ، ويحلفون إنهم لصادقون ، فهذا مكر عزموا عليه.

قال الله -عز وجل-: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ فمضوا لبغيتهم فأرسل الله عليهم صخرة فدمغتهم وأرسل على باقي قومهم ما قتلهم به.

وقوله: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ يقرأ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بكسر ((إن)) وبفتحها.

فمن قرأ بالكسر رفع ((العاقبة)) لا غير؛ المعنى: فانظر أي شيء كان عاقبة مكرهم ، ثم فسرها فقال: ((إنا دمرناهم)). فيكون ((إنا)) في موضع رفع على هذا التفسير.

ويجوز أن تكون ﴿أَنَّا﴾ في موضع نصب على معنى: فانظر كيف كان عاقبة مكرهم لأنا دمرناهم.

ويجوز أن تكون ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾؛ المعنى: فانظر كيف كان عاقبة مكرهم الدمار.

ويجوز أن يكون اسم ﴿كَانَ﴾: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ و﴿عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ منصوبة؛ المعنى: فانظر كيف كان الدمار عاقبة مكرهم.

و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب في جميع هذه الأقوال ، ونصبها إذا جعلت ((العاقبة)) اسم ((كان)) و((كيف)) الخبر ، لأنها في موضع خبر ((كان))، فإذا جعلت اسم ((كان)) وخبرها ما بعدها فهي منصوبة على الظرف ، وعمل فيها جملة الكلام كما تقول: ((كيف كان زيد ، وكيف كان زيد قائماً)).

وقوله: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾؛ أكثر القراء نصب ﴿خَاوِيَةً﴾ على الحال.

المعنى: فانظر إلى بيوتهم خاوية بما ظلموا. ورفعها من أربعة أوجه قد بيناها فيمن قرأ ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً﴾[هود: ٧٢].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾؛ نصب ((لوطاً)) من جهتين ، على معنى وأرسلنا لوطا ، وعلى معنى: واذكر لوطاً إذ قال لقومه ، لأنه قد جرت أقاصيص رسل ، فدخل معنى إضمار اذكر ههنا.

﴿أَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: وأنتم تعلمون فاحشة ، فهو أعظم لذنوبكم.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ يجوز على أوجه ، ((أائنكم)) بهمزتين بينهما ألف ، ويجوز ((أئنكم)) بهمزتين محققتين، والأجود ((أينكم)) بجعل الهمزة الثانية بين بين، تكون بين الياء والهمزة.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا﴾:

﴿جَوَابَ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ و﴿أَن قَالُوا﴾ الاسم ، ويجوز: ((فما كان جوابُ قومه إلا أن قالوا)).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾؛ قال قوم لوط هذا للوط ولمن آمن معه ، على جهة الهزؤ بهم لأنهم تطهروا عن أدبار الرجال وأدبار النساء.

ويروى عن ابن عمر أنه سئل: هل يجوز هذا في النساء؟ قيل له: ما تقول في التحميض؟ فقال: أو يفعل ذلك المسلمون؟ فهذا عظيم جداً ، وهو الذي سماه الله فاحشة.

وقوله -عز وجل-: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، و((تشركون)) بالياء والتاء ، ويقرأ: ((الله ، وآلله)) ، بالمد وترك المد ، ويجوز -والله أعلم-: ((الله خير أما يشركون)).

قال أبو إسحاق: إذا ضمت التاء والياء فمعناه: أنهم جعلوا لله شركاء ، وإذا فتحت التاء والراء ، فمعناه: إنكم تجعلون أنفسكم لله شركاء ، يقال: ((شَرِكت الرجال أشركه)) إذا صرت شريكه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً﴾ حجز بينهما بقدرته فلا يختلط العذب بالملح.

وقوله -عز وجل-: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾؛ بالرفع القراءة ، ويجوز النصب ، ولا أعلم أحداً قرأ به ، فلا تقرأن بها.

فمن رفع في قوله: ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ فعلى البدل؛ المعنى: لا يعلم أحد الغيب إلا الله ، أي: لا يعلم الغيب إلا الله ، ومن نصب فعلى معنى: لا يعلم أحد الغيب إلا الله ، على معنى استثني الله -عز وجل- ، فإنه يعلم الغيب.

وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ و ((أيان تبعثون)) جميعاً.

أي: لا يعلمون متى البعث.

وقوله -تعالى-: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخرة﴾ فيها أوجه:

قرأ أبو عمرو: ((بل أُدرِك علمهم في الآخرة)) ، وقرأ أكثر الناس ﴿بَلِ ادَّارَكَ﴾ بتشديد الدال.

وروي عن ابن عباس: ((بلى أَدرَك علمهم في الآخرة)) ، ويجوز: ((بلى ادّرك علمهم في الآخرة)) فمن قرأ: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخرة﴾ وهو الجيد ، فعلى معنى: بل تدارك علمهم في الآخرة، على معنى: بل يتكامل علمهم يوم القيامة، لأنهم مبعوثون وكل ما وعدوا به حق، ومن قرأ: ((بل أُدرِك علمهم)) فعلى معنى التقرير والاستخبار، كأنه قيل: لم يدرك علمهم في الآخرة أي: ليس يقفون في الدنيا على حقيقتها، ثم بين ذلك في قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾.

وقالوا في تفسير ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾: أم أَدرَك علمهم، والقراءة الجيدة: ﴿ادَّارَكَ﴾ على معنى تدارك بإدغام التاء في الدال فتصير دالاً ساكنة فلا يبتدأ بها، فيأتي بألف الوصل إلى التكلم بها، وإذا وقفت على ((بل)) وابتدأت قلت: ((ادّراك))، وصلت كسرت اللام في ((بل)) لسكونها وسكون الدال.

وقوله: ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾؛ ((الحدائق)): واحدتها: ((حديقة))، والحديقة: البستان، وكذلك الحائط وقيل: القطعة من النخيل.

وقوله: ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ معناه: ذات حسن، ويجوز في غير القراءة: ((ذوات بهجة))، لأنها جماعة، كما تقول: ((نسوتك ذوات حسن))، إذا جاز ذات بهجة لأن المؤنث يخبر عنه في الجمع بلفظ الواحد، إذا أردت جماعة، كأنك قلت: ((جماعة ذات بهجة)).

وقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾؛ معناه: يكفرون.

أي: يعدلون عن القصد وطريق الحق.

وقوله: ﴿وَلاَ تَكُن فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ يقرأ ﴿فِي ضَيْقٍ﴾ و((ضِيقٍ)).

وقوله: ﴿عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ قيل في التفسير: عجل لكم. ومعناه في اللغة: رَدِفَكُمْ مثل: رَكِبَكُمْ وجاء بَعْدَكُمْ.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ﴾: وتقرأ: ((وما أنت تهدي العمي عن ضلالتهم ويجوز: ((بهاد العمي عن ضلالتهم)).

فأما الوجهان الأولان فجيدان في القراءة، وقد قريء بهما جميعاً، والوجه الثالث يجوز في العربية، فإن ثبتت به رواية وإلا لم يُقرأ به، ولا أعلم أحداً قرأ به.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾؛ معناه: ما تسمع إلا من يؤمن، وتأويل: ((ما تسمع))، أي: ما يسمع منك فيعي ويعمل إلا من يؤمن بآياتنا، فأما من سمع ولم يقبل فبمنزلة الأصم.

كما قال الله -عز وجل-: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[البقرة: ١٨] قال الشاعر:

* أصم عما ساءه سميع *

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا وجب.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ و((تَكْلِمُهُم)).

ويروى أن أول أشراط الساعة خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها.

وأكثر ما جاء في التفسير أنها تخرج بتهامة تخرج من بين الصفا والمروة.

وقد جاء في التفسير: أنها تخرج ثلاث مرات في ثلاث أمكنة.

وجاء في التفسير: تنكت في وجه الكافر نكتة سوداء وفي وجه المؤمن نكتة بيضاء، فتفشو نكتة الكافر حتى يسود منها وجهه أجمع، وتفشو نكتة المؤمن حتى يبيض منها وجهه، فتجتمع الجماعة على المائدة، فيعرف المؤمن من الكافر.

فمن قرأ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ فهو من الكلام، ومن قرأ ((تَكْلِمُهُم)) فهو من الكَلِم، وهو الأثر والجرح.

وقوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ القراءة النصب، ويجوز الرفع: ((صنعُ)).

فمن نصب فعلى معنى المصدر، لأن قوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ دليل على الصنعة، كأنه قيل: صَنَعَ الله ذلك صنعاً.

ومن قال: ((صنعُ الله)) بالرفع، فالمعنى: ذلك صنعُ الله.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ و((أتاه ذاخرين))، من وحد فللفظ كل، ومن جمع فلمعناها.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾:

﴿الَّذِي﴾ في موضع نصب من صفة ﴿رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ وقد قرئت: ((التي حرمها))، وقد قريء بها لكنها قليلة، فـ((التي)) في موضع خفض من نعت ((البلدة)).

وقوله -عز وجل-: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: سيريكم الله في جميع ما خلق، وفي أنفسكم.

سورة القصص(١)

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طسم﴾: قد تقدم ما ذكر في هذا.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾ يقال: بَانَ الشيء وأَبَان في معنى واحد، ويقال: بَانَ الشيء، وأَبَنْتُه أنا، فمعني ((مبين)) مبين خبره وبركته، ومبين الحق من الباطل والحلال من الحرام، ومبين أن نبوة النبي -عليه السلام- حق لأنه لا يقدر أحد بمثله، ومبين قصص الأنبياء.

وقوله: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ أي: من خبر موسى وخبر فرعون.

قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: يصدقون.

وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ﴾: معناه: طغى.

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة**: سورة القصص من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف الثامنة والعشرون. عدد آياتها ثمان وثمانون آية. جاءت تسميتها القصص لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة من حين ولادته، إلى حين رسالته، وفيها من غرائب الأحداث وعجائبها ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه.

سورة القصص تهتم بجانب العقيدة: التوحيد، والرسالة، والبعث. وهي تتفق في منهجها، وهدفها مع سورتي النمل والشعراء.

محور السورة الكريمة يدور حول فكرة الحق والباطل، ومنطق الإذعان والطغيان، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن، وجند الشيطان. وقد ساقت في سبيل ذلك قصتين: أولاهما قصة الطغيان بالحكم والسلطان، ممثلة في قصة فرعون الطاغية المتجبر الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب، وتعالى على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية. والثانية قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال، ممثلة في قارون مع قومه، وكلتا القصتين رمز إلى طغيان الإنسان في الحياة سواء بالمال، أو الجاه أو السلطان.

ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون، وعلوه، وفساده في الأرض، ومنطق الطغيان في كل زمان ومكان. ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى، وخوف أمه عليه من بطش فرعون، ثم تحدثت عن بلوغ موسى سن الرشد، وعن قتله القبطي، وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب. ثم انتقلت إلى الحديث عن قصة قارون، وبينت الفارق العظيم بين منطق الإيمان، ومنطق الطغيان. ثم ختمت بالإرشاد إلى طريق السعادة وهو طريق الإيمان الذي دعا إليه الرسل الكرام.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً﴾.

معنى ((شيع)) فرق، أي: جعل كل فرقة يشيع بعضها بعضا في فعلها.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾؛ معنى ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ نسائهم ههنا أنه كان يستحيي بناتهم.

وإنما كان يعمل ذلك، لأنه قال له بعض الكهنة أن مولودا يولد في ذلك الحين يكون سبب ذهاب ملكك.

فالعجب من حمق فرعون، إن كان هذا الكاهن عنده صادقاً فما ينفع القتل، وإن كان كاذباً فما معنى القتل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ﴾ يعني بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: نجعلهم ولاة يؤتم بهم.

﴿وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾ أي: يرثون فرعون وملكه.

وقوله: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ﴾ القراءة النصب، ((نمكن ونري)). ويجوز الرفع: ((ونمكنُ لهم في الأرض ونريْ)) بإسكان الياء.

فمن نصب عطف على ﴿نَّمُنَّ﴾، فكان المعنى: وأن نمكن وأن نري، ومن رفع فعلى معنى: ونحن نمكن، وقرئت: ((ويَرَى فرعون وهامان وجنودهما))، فـ((يُرى)) يكون في موضع نصب على العطف على ((نمكن))، ويجوز أن يكون في موضع رفع على: وسيرى فرعون وهامان وجنودهما.

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ قيل: ان الوحي ههنا: إلقاء الله في قلبها، وما بعد هذا يدل -والله أعلم- أنه وحي من الله -عز وجل- على جهة الإعلام للضمان لها ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ﴾ ويدل عليه: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾.

وقد قيل: ان الوحي ههنا الإلهام، وجائز أن يلقي الله في قلبها أنه مردود إليها وأنه يكون مرسلاً، ولكن الإعلام أبين في هذا، أعني أن يكون الوحي ههنا إعلاما.

وأصل الوحي في اللغة: كلها إعلام في خفاء، فلذلك صار الإلهام يسمى وحياً.

وقوله﴿فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ﴾: اليم البحر.

وقوله -تعالى-: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً﴾ ويجوز ((وحُزْنا)).

ومعنى ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً﴾ أي: ليصير الأمر إلى ذلك لا إنهم طلبوه وأخذوه لهذا كما تقول للذي كسب مالاً فأدى ذلك إلى الهلاك: ((إنما كسب فلان لحتفه))، وهو لم يطلب المال للحتف، ومثله: ((فللموت ما تلد الوالدة))، أي: فهي لم تلده طلباً أن يموت ولدها ولكن المصير إلى ذلك.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾؛ رفع ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ على إضمار ((هو)) قرة عين لي ولك، وهذا وقف التمام، ويقبح رفعه على الابتداء وأن يكون الخبر: ﴿لاَ تَقْتُلُوهُ﴾ فيكون كأنه قد عرف أنه قرة عين له.

ويجوز رفعة على الابتداء على بعد على معنى: إذا كان قرة عين لي ولك فلا تقتله.

ويجوز النصب ولكن لا تقرأ به لأنه لم يأت فيه رواية قراءة، والنصب على معنى: لا تقتلوا قرة لي ولك لا تقتلوه، كما تقول زيداً لا تضربه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾؛ المعنى: أصبح فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى.

قيل: إلا من الهم بموسى؛ والمعنى احد.

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾؛ المعنى: إن كادت لتظهر أنه ابنها، وقد قرئت: ((فَرِغاً))، والأكثر: ﴿فَارِغاً﴾.

﴿لَوْلا أَن رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ معناه: لولا ربطنا على قلبها.

والربط على القلب: إلهام الصبر وتشديده وتقويته.

وقوله: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ بمعنى اتبعي أثره.

﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ معناه: فاتبعته، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ أي: بعد تبصر ولا توهم أنها تراه.

يقال: بَصُرت به عن جنب وعن جنابة إذا نظرت إليه عن بعد، قال الشاعر[1] [من الطويل]:

فَلاَ تحرِمَنّي نائِلاً عَن جَنابَةٍ فَإنّي اِمرُؤٌ وَسطَ القِبابِ غَريبُ

أي: لا تحرمني نائلا عن بعد، وإن كنت بعيداً منك.

---

(١) هو : علقمة الفحل.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ معناه: من قبل أن نرده على أمه، وكان موسى لم يأخذ من ثدي أي: لم يرضع من ثدي إلى أن رد إلى أمه فرضع منها، وهذا معنى﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ أي: فقالت أخت موسى -عليه السلام- لما تعذر عليهم رضاعة: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾

فلما سمعوا قولها: ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ قالوا: قد عرفت أهل هذا الغلام، بقولك وهم له ناصحون، فقال: عنيت ((هم له)) هم للملك ناصحون، فدلتهم على أم موسى، فدفع إليها تربية لهم في حسابهم.

وقوله: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يعني ما وعدت به مما أوحي إليها من قوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، واستقر عندها أنه سيكون نبياً:

قوله -عز وجل-: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ قيل: الأشد بضع وثلاثون سنة، وهو ما بين ثلاثة وثلاثين إلى تسع وثلاثين.

وتأويل ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾: استكمل نهاية قوة الرجل، وقيل: إن معنى ﴿وَاسْتَوَى﴾ بلغ الأربعين، وجائز أن يكون ((استوى)) وصل حقيقة بلوغ الأشد.

وقوله: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ فعلم موسى -عليه السلام- وحكم قبل أن يبعث.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فجعل الله إتيان العلم والحكمة مجازاة على الإحسان لأنهما يؤديان إلى الجنة التي هي جزاء المحسنين.

والعالم الحكيم: من استعمل علمه، لأن الله -عز وجل- قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٠٢]، فجعلهم إذ لم يعملوا بالعلم جهالاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾؛ جاء في التفسير: أنه دخلها وقت القائلة، وهو انتصاف النهار.

وقوله: ﴿هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ هذا موضع فيه لطف، وذلك أنه قيل في الغائب: ((هذا)).

والمعنى: وجد فيها رجلين أحدهما من شيعته وأحدهما من عدوه، وقيل: فيهما هذا وهذا على جهة الحكاية للحضرة، أي: فوجد فيها رجلين إذا نظر إليهما الناظر قال: هذا من شيعته وهذا من عدوه.

﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ﴾ أي: استنصره، والذي من شيعته من بني إسرائيل، والذي من عدوه من أصحاب فرعون.

وجاء في التفسير: أن فرعون كان رجلاً من أهل ((اصْطَخْرٍ))، ويقال: إن الرجل الذي هو من عدوه رجل من القبط وقيل: أيضاً من أهل ((اصْطَخْرٍ)).

﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أي: فقتله، والوكز: أن تضرب بجمع كفك، وقد قيل: وكزه بالعصا.

وقوله: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يدل أن قتله إياه كان خطأ وأنه لم يكن أمر ((موسى)) بقتل ولا قتال، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ أي: يستغيث به، والاستصراخ الإغاثه والاستنصار، ﴿قَالَ لَهُ مَوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾.

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ وتقرأ ((يَبْطُشُ)).

المعنى: -والله أعلم- فلما أراد المستصرخ أن يبطش موسى بالذي هو عدو لهما، ولم يفعل موسى، قال موسى: إنك لغوي مبين.

﴿قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾

فأفشى على موسى -عليه السلام-؛ ويقال: إن من قتل اثنين فهو ((جبار)).

والجبار في اللغة: المتعظم الذي لا يتواضع لأمر الله، فالقاتل مؤمناً جبار، وكل قاتل فهو جبار، قتل واحداً أو جماعة ظلماً.

وقوله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ يقال: إنه مؤمن آل فرعون، وأنه كان نجاراً، ومعنى ﴿يَسْعَى﴾ يعدو.

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾:

﴿الْمَلأَ﴾ أشراف القوم، والمنظور إليهم، ومعنى يأتمرون بك يأمر بعضهم بعضاً بقتلك.

﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: فاخرج من المدينة.

وقوله: ﴿لَكَ﴾ ليست من صلة ﴿النَّاصِحِينَ﴾ لأن الصلة لا تقدم على الموصول؛ والمعنى: في قوله: ﴿إِنِّي لَكَ﴾ إنها مبينة كأنه قال: إني من الناصحين ينصحون لك، والكلام نصحت لك، وهو أكثر من نصحتك.

وقوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾ أي: يرقب أن يلحقه من يقتله، وينظر الآثار.

وقوله -عز وجل-: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني من قوم فرعون.

وقوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾:

﴿مَدْيَنَ﴾ ماء كان لقوم يقال: إنه بينه وبين مصر مسيرة ثمانية أيام، كما بين البصرة والكوفة، وكان موسى -عليه السلام- خرج من مصر.

ومعنى ﴿تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾، أي: سلك في الطريق التي تلقاء مدين فيها.

﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾:

﴿السَّبِيلِ﴾ الطريق، وسواء السبيل: قصد الطريق في الاستواء.

قوله: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ ((مدين)) في موضع خفض، ولكنه لا ينصرف لأنه اسم للبقعة.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾: ﴿أُمَّةً﴾ جماعة.

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: تذودان غنمهما عن أن يقرب موضع الماء، لأنها يطردها عن الماء من هو على السقي أقوى منهما.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما أمركما، معناه: ما تخطبان، أي: ما تريدان بذودكما غنمكما عن الماء.

﴿قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ وقرئت ﴿حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾، بضم الياء وكسر الدال، أي: لا نقدر أن نسقي حتى ترد الرعاه غنمهم وقد شربت فيخلو الموضع فنسقي.

فمن قرأ ﴿يُصْدِرَ﴾ بضم الدال فمعناه: حتى يرجع الرعاء، والرعاء: جمع راع، كما يقال صاحب وصحاب.

وقوله: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾: الفائدة في قوله: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لا يمكنه أن يرد ويسقي. فلذلك احتجنا ونحن نساء أن نسقي.

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾ أي: فسقى لهما من قبل الوقت الذي كانتا تسقيان فيه.

ويقال: إنه رفع حجراً عن البئر كان لا يرفعه إلا عشر أنفس. وقيل: إن موسى كان في ذلك الوقت من الفقر لا يقدر على شق تمرة.

وقوله: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا﴾؛ المعنى: فلما شربت غنمهما، وجاءتاه قبل وقتهما شاربة غنمهما، فوجه بإحداهما تدعو موسى فجاءته ﴿تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾.

جاء في التفسير: إنها ليست بخراجة من النساء ولا ولاجة، أي: تمشي مشي من لم تعتد الدخول والخروج متخفرة مستحيية.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾؛ المعنى: فأجابها فمضى معها إلى أبيها.

﴿فلما جاءه وقص عليه القصص﴾ أي: قص عليه قصته في قتله الرجل، وأنهم يطلبونه ليقتلوه.

﴿قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وذلك أن القوم لم يكونوا في مملكة فرعون، فأعلم شعيب موسى أنه قد تخلص من الخوف، وأنه لا يقدر عليه، أعني بالقوم قوم مدين الذين كان فيهم أبو المراتين.

ويقال في التفسير: إنه كان ابن أخي شعيب النبي -عليه السلام-.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أي: اتخذه أجيراً.

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ أي: إن خير من استعملت من قوي على عملك وأدى الأمانة فيه.

وإنما قالت: ﴿الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ فوصفته بالقوة لسقيه غنمها بقوة وشدة، وقيل: لقوته على رفع الحجر الذي كان لا يقله أقل من عشرة أنفس. وقد قيل: إنه كان لا يقله أقل من أربعين نفساً.

فأما وصفها له بالأمانه فقيل: إن موسى لما صار معها إلى أبيها تقدم أمامها وأمرها أن تكون خلفة، وتدله على الطريق، وخاف إذا كانت بين يديه أن تصيب ملحفتها الريح فيتبين وصفها، فذلك ما عرفته من أمانته.

وقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ معنى أنكحك أزوجك.

﴿عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ أي: تكون أجيراً لي ثماني سنين.

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: فذلك بفضل منك ليس بواجب عليك.

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: ذلك الذي وصفت لي بيني وبينك، ومعناه: أي: ما شرطت علي فلك وما شرطت لي فلي، كذلك الأمر بيننا.

ثم قال: ﴿أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ العدوان: المجاوزة في الظلم.

و﴿عُدْوَانَ﴾ منصوب بـ((لا))، ولو قرئت: ﴿فَلاَ عُدْوَانٌ علي﴾ لجاز من جهتين إحداهما: أن تكون ((لا)) كـ((ليس)) كما قال الشاعر [من مجزوء الكامل]:

مَن صَدَّ عَن نيرانِها فَأَنا ابنُ قَيسٍ لا بَراحُ

ويجوز أن يكون ﴿عُدْوَانٌ﴾ رفعاً بالابتداء و﴿عَلَيَّ﴾ الخبر، و ((لا)) نافية غير عاملة، كما تقول: ((لا زيد أخوك ولا عمرو))، و ((أي)) هي في موضع الجزاء منصوبة بـ﴿قَضَيْتُ﴾، وجواب الجزاء ﴿فَلاَ عُدْوَانَ﴾، و((ما)) زائدة موكدة.

والمعنى: أي الأجلين قضيت فلا عدوان علي.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: والله -عز وجل- شاهدنا على ما عقد بعضنا على بعض.

وقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾، يروى أنه قضى أتم الأجلين، وهو عشر سنين.

وقوله: ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾:

﴿آنَسَ﴾ علم وأبصر، يقال: قد آنست ذلك الشخص أي: أبصرته.

﴿قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: لعلي أعلم أوقدت.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ الجذوة: القطعة من الحطب.

ويقرأ: ((أو جُذوة)) بالضم، ويقال: ((جَذوة)) بالفتح؛ فيها ثلاث لغات.

وقوله: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ سميت مباركة لأن الله كلم موسى فيها، وبعثه نبياً، ويقال: ((بُقعة وبَقعة)) بالضم والفتح. وقد قرىء بهما جميعاً، فمن جمع ((بِقاعاً)) فهي جمع ((بَقعة)) بالفتح، مثل: ((قصعة وقصاع))، ومن قال: ((بُقعة)) بالضم، فأجود الجمع: ((بُقَع)) مثل ((غُرفة وغُرف))، وقد يجوز في ((بُقعة: بقَاع)) مثل: ((حُفرة وحِفار)).

وقوله: ﴿أَن يَا مُوسَى﴾: ((أن)) في موضع نصب.

المعنى: نودي بأنه يا موسى وكذلك ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ عطف عليها.

﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ معناه: لم يلتفت.

وقوله: ﴿أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ﴾ أي: قد آمنت من أن ينالك منها مكروه، وهي حية.

﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: أي: من غير برص.

﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ و﴿الرُّهْبِ﴾ جميعاً ومعناهما واحد، مثل: الرُّشد والرَّشد.

والمعنى: في جناحك ههنا هو العضد، ويقال: اليد كلها جناح.

وقوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ﴾ تقرأ: بتخفيف النون وتشديدها ﴿فَذَانِّكَ﴾ فكأن: ((فذانك)) تثنية: ((ذلك))، و((ذانك)) تثنية: ((ذاك)). جعل اللام في ((ذلك)) تشديد النون في ((ذانك)) وبرهانان: آيتان بينتان.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: أرسلناك إلى فرعون وملئه بهاتين الآيتين.

وقوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقْنِي﴾:

و ﴿يُصَدِّقْنِي﴾ بالرفع والجزم، قرىء بهما جميعاً، فمن قرأ ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بضم القاف فهو صفة قوله: ﴿رِدْءاً﴾ والردء: العون، تقول: ((رَدَأته أرْدَؤُه رَداءً))، إذا أعنته، والرِّدْء: المعين.

ومن جزم ﴿يُصَدِّقْنِي﴾ فعلى جواب المسأله ((أرسله يصدقني))، ومن رفع ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ فالمعنى: رداءً مصدقاً لي.

وقوله: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنعينك بأخيك، ولفظ ((العضد)) على جهة المثل، لأن اليد قوامها عضدها، فكل معين عضد.

وتقول: ((قد عَاضَدَني فلان على الأمر)) أي: عاونني.

وقوله: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً﴾ أي: حجة نيرة بينة، وإنما قيل للزيت ((السليط)) لأنه يستضاء به، فالسلطان أبين الحجج.

وقوله: ﴿فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بسلطاننا وحجتنا.

ف﴿بِآيَاتِنَا﴾ من صلة ﴿يَصِلُونَ﴾، كأنه قال: لا يصلون إليكما، تمتنعان منهم بآياتنا، وجائز أن يكون ﴿بِآيَاتِنَا﴾ متصلاً بـ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً﴾ ﴿بِآيَاتِنَا﴾، أي: حجة تدل على النبوة بآياتنا، أي: بالعصا واليد، وسائر الآيات التي أعطي موسى -عليه السلام-.

ويجوز أن يكون ﴿بِآيَاتِنَا﴾ مبيناً عن قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الغَالِبُونَ﴾ أي: تغلبون بآياتنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾:

لم يأتوا بحجة يدفعون بها ما ظهر من الآيات إلا أن قالوا: إنها سحر؛ فلما جمع السحرة تبينوا أن آيات موسى -عليه السلام- ليست بسحر، فغلب موسى بآيات الله وبحجته كما قال -عز وجل- به.

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾ أي: اعمل آجُرّاً، ويقال: إن فرعون أول من عمل الآجُرَّ.

﴿فَاجْعَل لِي صَرْحاً﴾ والصرح: كل بناء متسع مرتفع.

وقوله: ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ فظن فرعون أنه يتهيأ له أن يبلغ بصرحه نحو السماء فيرى السماء وما فيها.

﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ الظن في اللغة: ضربٌ يكون شكاً ويقيناً.

وقول فرعون: ﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ﴾ اعتراف بأنه شاك، وأنه لم يتيقن أن موسى كاذب، ففي هذا بيان أنه قد كفر بموسى على غير يقين أنه ليس بنبي، وقد وقع في نفسه أنه نبي لأن الآيات التي هي النبوة لا يجهلها ذو فطرة.

وقوله في غير هذا الموضع: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾[الإسراء: ١٠٢] دليل على أنه قد ألزم فرعون الحجة القاطعة.

وقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي اليَمِّ﴾ اليم: البحر وهو الذي يقال له ((إيساف)) وهو الذي غرق فيه فرعون وجنوده بناحية مصر.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: من اتبعهم فهو في النار.

﴿وَيَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ناصر لهم ولا عاصم من عذاب الله.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ فكان خاتمة إهلاك القرون بالعذاب في الدنيا أن جعل المكذبين بموسى الذين عدوا في السبت قردة خاسئين عند تكذيبهم بموسى -عليه السلام-.

وقوله: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: مبيناً للناس.

المعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب بصائر للناس أي: هذه حال إتياننا إياه الكتاب مبيناً نبينه للناس.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ عطف على ﴿بَصَائِرَ﴾، ولو قرئت بالرفع على معنى: فهو هدى ورحمة جاز، والنصب أجود، ولا أعلم أحداً قرأ بالرفع، فلا تقرأن بها.

وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ أي: وما كنت بجانب الجبل الغربي.

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي: ما كنت مقيماً في أهل مدين.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾: يعني نادينا موسى.

﴿وَلَكِن رَحْمَةً مِن رَبِّكَ﴾؛ المعنى: إنك لم تشاهد قصص الأنبياء، ولا تليت عليك، ولكن أوحيناها إليك، وقصصناها عليك.

﴿رَحْمَةً مِن رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْماً﴾ أي: لتعرفهم قصص من أهلك بالعذاب ومن فاز بالثواب.

ولو قرئت ((ولكن رحمة)) لكان جائز على معنى: ولكن فعل ذلك رحمة من ربك، والنصب على معنى: فعلنا ذلك للرحمة، كما تقول: فعلت ذلك ابتغاء الخير، أي: فعلته لابتغاء الخير، فهو مفعول له.

وقوله: ﴿وَلَوْلا أَن تُصِيبَهُم مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لولا ذلك لم يحتج إلى إرسال الرسل، ومواترة الاحتجاج.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي: فلما جاءتهم الحجة القاطعة التي كان يجوز أن يعتلو بتأخرها عنهم.

﴿قَالُوا لَوْلا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾؛ المعنى: هلا أوتي محمد مثل ما أوتي موسى -صلى الله عليهما- من أمر العصا والحية وانفلاق البحر، وسائر الآيات التي أتى بها موسى، فقد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد عليهما السلام.

﴿قَالُوا سَاحِرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: تعاونا.

جاء في التفسير: إنهم عنوا موسى وهارون، وقالوا: عنوا موسى وعيسى، وقيل: موسى ومحمد عليهما السلام.

وقرىء ﴿سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ يعنون: كتابين، فقالوا: الإنجيل والقرآن، ودليل من قرأ ﴿سِحْرَانِ﴾ قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾ وهذا لا يمنع ﴿سَاحِرَانِ﴾، لأن المعنى يصير: قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى من كتابيهما.

وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فاعلم أن ما ركبوه من الكفر لا حجة لهم فيه، وإنما آثروا فيه الهوى وقد علموا أنه الحق.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أي: فصلنا ذكر الأنبياء وأقاصيصهم، وأقاصيص من مضى بعضها ببعض.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: أي: لعلهم يعتبرون.

وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾:

جاء في التفسير: أن هؤلاء طائفة من أهل الكتاب كانوا يأخذون به وينتهون إليه ويقفون عنده. كانوا يحكمون بحكم الله، بالكتاب الذي أنزل قبل القرآن. فلما بعث محمد -عليه السلام- وتلا عليهم القرآن قالوا: آمنا به أنه الحق من ربنا.

وذلك أن ذكر محمد -عليه السلام- كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فلم يعانده هؤلاء وآمنوا وصدقوا، فأثنى الله عليهم خيراً وقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: يؤتون أجرهم بإيمانهم بالكتاب الذي من قبل محمد -عليه السلام-، ويؤتون أجرهم بمحمد -عليه السلام- والقرآن.

﴿وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ معنى ((يدرؤون)) يدفعون، بما يعملون من الحسنات، ما تقدم لهم من السيئات.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ أي: يتصدقون.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي: إذا سمعوا ما لا يجوز وينبغي أن يلغى لم يلتفتوا إليه.

﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ﴾؛ ليس يريدون بقولهم ههنا: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ التحية؛ المعنى فيه: أعرضوا عنه وقالوا: سلام عليكم، أي: بيننا وبينكم المتاركة والتسلم، وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾:

أجمع المفسرون: أنها نزلت في أبي طالب، وجائز أن يكون ابتداء نزولها في أبي طالب وهي عامة، لأنه لا يهدي إلا الله، ولا يرشد ولا يوفق إلا هو، وكذلك هو يضل من يشاء.

﴿وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ كانوا قالوا للنبي -عليه السلام-: إنا نعلم أن ما آتيت به حق، ولكنا نكره إِنْ آمنا بك أَنْ نقصد ونتخطف من أرضنا، فأعلمهم الله أنه قد تفضل عليهم بأن آمنهم بمكة، وأعلمهم أن قد آمنهم بحرمة البيت، ومنع منهم العدو أي: فلو آمنوا لكان أولى بالتمكن والأمن والسلامة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ القُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾ .

يعني بأمها مكة، ولم يكن ليهلكها إلا بظلم أهلها.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَن مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني: المؤمن والكافر، فالمؤمن من آمن بالله ورسوله وأطاعه ووقف عند أمره فلقيه جزاء ذلك، وهو الجنة، والذي مُتِّع متاع الحياة الدنيا كافر لم يؤمن بالله، ثم أحضر يوم القيامة العذاب وذلك قوله -عز وجل- ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ المُحْضَرِينَ﴾.

وجاء في التفسير: أن هذه الآية نزلت في محمد -عليه السلام- وأبي جهل بن هشام فالنبي -عليه السلام- وُعد وعداً حسناً فهو لاقيه في الدنيا بأنه نصره على عدوه في الدنيا، وهو في الآخرة في أعلى المراتب من الجنة، وأبو جهل من المحضرين.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ ((معيشتها)) منصوبة بإسقاط في وعمل الفعل، وتأويله: بطرت في معيشتها، والبطر: الطغيان بالنعمة.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: يوم ينادي الإنس. وسماهم ((شركائي)) على حكاية قولهم.

المعنى: أين شركائي في قولكم، والله واحد لا شريك له.

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ﴾: الجن، والشياطين.

﴿هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾؛ يعنون الإنس، أي: سولنا لهم الغي والضلال.

﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي: أضللناهم كما ضللنا.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ برىء بعضهم من بعض، وصاروا أعداء، كما قال الله -عز وجل-: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧].

وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي: لم يجيبوا بحجة.

﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ جواب ((لو)) محذوف -والله أعلم-.

المعنى: لو كانوا يهتدون لما اتبعوهم ولا رأوا العذاب.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أجود الوقوف على ﴿وَيَخْتَارُ﴾، وتكون ((ما)) نفياً.

المعنى: ربك يخلق ما يشاء، وربك يختار ليس لهم الخيرة، وما كانت لهم الخيرة؛ أي: ليس لهم أن يختاروا على الله، هذا وجه.

ويجوز أن تكون ((ما)) في معنى ((الذي)) فيكون المعنى: ويختار الذي كان لهم فيه الخيرة. ويكون معنى الاختيار ههنا ما يتعبدهم به، أي: ويختار لهم فيما يدعوهم إليه من عبادته ما لهم فيه الخيرة، والقول الأجود: أن تكون ((ما)) نفياً.

وقوله: ﴿سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معنى سبحان الله تنزيه له من السوء. كذا هو في اللغة، وكذا جاء عن النبي -عليه السلام-.

قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ السرمد في اللغة: الدائم.

وقوله: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ﴾ أي: بنهار تبصرون فيه، وتتصرفون في معايشكم وتصلحون فيه ثماركم ومنابتكم، لأن الله -عز وجل- جعل الصلاح للخلق بالليل مع النهار، فلو كان واحد منهما دون الآخر لهلك الخلق، وكذلك قوله في النهار.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ أعلمهم أن الليل والنهار رحمة فقال:

﴿وَمِن رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾.

المعنى: جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً، لتسكنوا بالليل وتبتغوا من فضل الله بالنهار. وجائز أن تسكنوا فيهما، وأن تبتغوا من فضل الله فيهما، فيكون المعنى: جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله.

وقوله: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ أي: نزعنا من كل أمة نبياً أي: اخترنا منها الأنبياء وكل نبي شاهد على أمته.

وقوله: ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: هاتوا فيما اعتقدتم برهاناً أي: بياناً أنكم كنتم على حق.

﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ لِلَّهِ﴾ أي: فعلموا أن الحق توحيد الله وما جاء به أنبياؤه.

وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: لم ينتفعوا بكل ما عبدوه من دون الله، بل ضرهم أعظم الضرر.

وقوله -تعالى-: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى﴾.

((قارون)) اسم أعجمي لا ينصرف، ولو كان ((فاعولاً)) من العربية، من: ((قرنت الشيء)) لانصرف فلذلك لم ينون.

وجاء في التفسير: أن قارون كان ابن عم موسى، وكان من العلماء بالتوراة. فبغى على موسى وقصد إلى الإفساد عليه وتكذيبه، وكان من طلبه للإفساد عليه ان بَغِيًا كانت مشهورة في بني إسرائيل فوجه إليها قارون -وكان أيسر أهل زمانه- يأمرها أن تصير إليه، وهو في ملأ من أصحابه لِتَتَكَذَّب على موسى وتقول: إنه طلبني للفساد والريبة، وضمن لها قارون إن فعلت ذلك أن يخلطها بنسائه، وأن يعطيها على ذلك عطاءً كبيراً.

فجاءت المرأة وقارون جالس مع أصحابه ورزقها الله التوبة فقالت في نفسها: ما لي مقام توبةٍ مثلُ هذا، فأقبلت على أهل المجلس وقارون حاضر، فقالت لهم: إن قارون هذا وجه إليّ يأمرني ويسألني أن أتكذب على موسى، وأن أقول: إنه أرادني للفساد، وأن قارون كاذب في ذلك فلما سمع قارون كلامها تحير وأبلس، واتصل الخبر بموسى -عليه السلام- فجعل الله أمر قارون إلى موسى وأمر الأرض أن تطيعه فيه، فورد موسى على قارون فأحس قارون بالبلاء، فقال يا موسى ارحمني، فقال: يا أرض خذيه فخسف به وبداره إلى ركبتيه، فقال: يا موسى ارحمني، فقال: يا أرض خذيه فخسف به إلى سُرته، ثم قال: يا أرض خذيه فخسف به إلى عنقه، واسترحم موسى فقال يا أرض خذيه فخسف به

حتى ساخت الأرض به وبداره، قال الله -عز وجل-: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ﴾.

وقوله -تعالى-: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ﴾.

روي في التفسير: أن مفاتحه كانت من جُلُود على مقدار الإصبع، وكانت تحمل على سبعين بغلاً أو ستين بغلاً.

وجاء أيضاً: أن ﴿مَفَاتِحَهُ﴾ خزائنه، وقيل: إن العصبة ههنا سبعون رجلاً، وقيل: أربعون، وقيل: ما بين الخمسة عشر إلى الأربعين، وقيل: ما بين الثلاث إلى العشرة.

والعصبة في اللغة: الجماعة الذين أمرهم واحد يتابع بعضهم بعضاً في الفعل ويتعصب بعضهم لبعض.

والأشبه فيما جاء في التفسير: أن ﴿مَفَاتِحَهُ﴾ خزائنه، وإنها خزائن المال الذي يحمل على سبعين، أو على أربعين بغلاً -والله أعلم-.

ومعنى ﴿لَتَنُوءُ﴾ بالعصبة، لتثقل العصبة. قال أبو زيد: يقال: ((نُؤْت بالحمل أَنوء به نَوْءاً)) إذا نهضت به، ((ونَاءَ بي الحمل)) إذا أثقلني.

وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِينَ﴾.

جاء في التفسير: لا تَأْشَر إن الله لا يحب الأَشِرين. و﴿لاَ تَفْرَحْ﴾ ههنا -والله أعلم- أي: لا تفرح لكثرة المال في الدنيا لأن الذي يفرح بالمال ويصرفه في غير أمر الآخرة مذموم فيه، قال الله -عز وجل-: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[الحديد: ٢٣].

والدليل على أنهم أرادوا لا تفرح بالمال في الدنيا قولهم: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾.

﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: لا تنس أن تعمل به لآخرتك، لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا الذي يعمل به لآخرته.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ ادعى أن المال أعطيه لعلمه بالتوراة، والذي روي أنه كان يعمل الكيمياء، وهذا لا يصح لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له.

وقوله: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾:

جاء في التفسير: أنه خرج هو وأصحابه على خيلهم وعليهم وعلى الخيل الأرجوان.

والأرجوان في اللغة: صبغ أحمر، وقيل: كان عليهم وعلى خيلهم الديباج الأحمر.

وقوله: ﴿وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ أي: لا يلقى هذه الفعلة وهذه الكلمة، يعني قولهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾.

وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ﴾ يعني الذين قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾

هذه اللفظة لفظة ((ويك)) قد أشكلت على جماعة من أهل اللغة، وجاء في التفسير: أن معناها ألم تر أنه لا يفلح الكافرون.

وقال بعضهم: معناها أما ترى أنه لا يفلح الكافرون، وقال بعض النحويين: وهذا غلط عظيم إن معناها: ويلك؛ أعلم أنه لا يفلح الكافرون، فحذف اللام فبقيت ((ويك)) وحذف ((أعلم أنه لا يفلح الكافرون))، وهذا خطأ من غير جهة، لو كان كما قال لكانت ((أن)) مكسورة كما تقول: ((ويلك أنه قد كان كذا وكذا))، ومن جهة أخرى أن يقال لمن خاطب القوم بهذا فقالوا: ((ويلك إنه لا يفلح الكافرون))، ومن جهة أخرى أنه حذف اللام من ((ويل)).

والقول الصحيح في هذا ما ذكره سيبويه عن الخليل ويونس قال: سألت عنها الخليل فزعم أنه ((وي)) مفصولة من ((كان))، وأن القوم تنبهوا فقالوا: ((ويء))، متندمين على ما سلف منهم، وكل من تندم أو ندم فإظهار تندمه أو ندامته ان يقول ((وَيْ)) كما تعاتب الرجل على ما سلف منه فتقول: ((وي))، كأنك قصدت مكروهي، فحقيقة الوقف عليها ((ويء))، وهو أجود في الكلام، ومعناه: التنبيه والتندم، قال الشاعر:

سَالَتَاني الطَّلاقَ أَنْ رأتَا مَا ... لِي قليلاً قَدْ جئتماني بنُكْرِ

وَيْكَأَنْ مَن يكن له نَشَبٌ يُحـ ... ـبَبْ ومن يفتقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ

فهذا تفسير الخليل، وهو مشاكل لما جاء في التفسير، لأن قول المفسرين هو تنبيه.

وقوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾:

معنى ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أنزله عليك وألزمك، وفرض عليك العمل بما يوجبه القرآن.

﴿لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾؛ جاء في التفسير: لرادك إلى مكانك بمكة، وقيل: إلى معاد إلى مكانك في الجنة، وأكثر التفسير: لباعثك، وعلى هذا كلام الناس: اذكر المعاد. أي: اذكر مبعثك في الآخرة.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: معيناً للكافرين، ويجوز: ((فلا تكون ظهيراً))، ولكني أكرهها لأنها تخالف المصحف، ويجب أن تكتب بالتخفيف بالألف.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾:

﴿وَجْهَهُ﴾ منصوب بالاستثناء، ومعنى: ﴿إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ إلا إياه، ويجوز ((إِلاَّ وَجْهُهُ)) بالرفع، ولكن لا ينبغي أن يقرأ بها، ويكون المعنى: كل شيء غير وجهه هالك، وهو مثل قول الشاعر[1] [من الوافر]:

وكُلُّ أَخٍ مُفَارِقُهُ أخوهُ لَعَمرُ أَبيكَ إِلا الفَرقَدانِ

المعنى: وكل أخ غير الفرقدان أخوه.

* * *

(١) هو: عمرو بن معدي كرب الزبيدي.

سورة العنكبوت (١)

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ﴾:

﴿الم﴾ تفسيرها: أنا الله أعلم. وقد فسرنا كل شيء قيل في هذا في أول سورة البقرة.

وقوله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا﴾؛ اللفظ لفظ استخبار؛ والمعنى: معنى تقرير وتوبيخ.

ومعناه: أحسبوا أن نقنع منهم أن يقولوا: ((إنا مؤمنون)) فقط ولا يمتحنون بما يتبين به حقيقة إيمانهم.

وجاء في التفسير في قوله -عز وجل-: ﴿وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾، لا يختبرون بما يعلم به صدق إيمانهم من كذبه.

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة العنكبوت من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف التاسعة والعشرون. عدد آياتها تسع وستون آية. جاءت تسميتها العنكبوت؛ لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلاً للأصنام المنحوتة، والآلهة المزعومة بالعنكبوت وبيتها.

هذه السورة من السور المكية عالجت موضوعات العقيدة، أصولها الكبرى: الوحدانية، والرسالة، والبعث، والجزاء. ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان، وسنة الابتلاء في هذه الحياة، لأنّ المسلمين في مكة كانوا في أقسى أنواع المحنة والشدّة.

ابتدأت السورة الكريمة بهذه الافتتاحية الصريحة التي تنبه فريقًا من الناس يظنون أن الإيمان كلمة تقال، ولكن لا واقع لها عند نزول الشدائد.

وتحدثت السورة عن محنة الأنبياء وما لاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله بدءًا بقصة نوح، ثم إبراهيم، ثم لوط، ثم شعيب، وتحدثت عن بعض الطغاة المتجبرين كعاد، وثمود، وقارون، وهامان وغيرهم. وفي قصص الأنبياء دروس من المحن والابتلاء. ففي قصة لوط يظهر التبجح بالرذيلة دون خجل أو حياء، وبعد الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء، تواصل السورة الكريمة تبيّن صدق رسالة محمد ﷺ، فهو رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب، ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز، وهذا من أعظم البراهين على أنه كلام ربّ العالمين.

وتنتقل السورة للحديث عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية منبثقة من هذا الكون الفسيح، ثم تختم ببيان جزاء الذين صبروا أمام المحن والشدائد، وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي والمالي، ووقفوا في وجه المحنة والابتلاء.

وقيل: ﴿وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾: لا يبتلون في أنفسهم وأموالهم، فيعلم بالصبر على البلاء الصادق الإيمان من غيره.

وموضع ((أن)) الأولى نصب اسم ((حسب)) وخبره، وموضع ((أن)) الثانية نصب من جهتين؛ أجودهما: أن تكون منصوبة بـ﴿يُتْرَكُوا﴾، فيكون المعنى: أحسب الناس أن يتركوا لأن يقولوا، وبأن يقولوا، فلما حذف حرف الخفض وصل بـ﴿يُتْرَكُوا﴾ إلى ((أن)) فنصب، ويجوز أن تكون الثانية العامل فيها: ﴿أَحَسِبَ﴾ كان المعنى: على هذا -والله أعلم- أحسب الناس أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، والأول أجود.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: اختبرنا وابتلينا.

وقوله: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾؛ المعنى: وليعلمن صدق الصادق بوقوع صدقه منه، وكذب الكاذب بوقوع كذبه منه، وهو الذي يجازى عليه، والله قد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما ولكن القصد وقوع العلم بما يجازى عليه.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ أي: يحسبون أنهم يفوتوننا، أي: ليس يعجزوننا.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ على معنى ساء حكماً يحكمون، كما تقول: ((نعم رجلاً زيد))، ويجوز أن تكون رفعاً على معنى: ساء الحكم حكمهم.

وقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ﴾ معناه: -والله أعلم- من كان يرجو ثواب لقاء الله؟

فأما من قال: إن معناه: ((الخوف ضد الرجاء))، وليس في الكلام ضد وقد بينا ذلك في كتاب الأضداد.

وقوله: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾.

﴿مَن﴾ في معنى الشرط، يرتفع بالابتداء، وخبرها ﴿كَانَ﴾، وجواب الجزاء ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾.

وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾ القراءة ﴿حُسْناً﴾، وقد رويت: ((إحساناً))، و﴿حُسْناً﴾ أجود لموافقة المصحف.

فمن قال: ﴿حُسْناً﴾ فهو مثل: ((وصينا إلا أن يفعل بوالديه ما يحسن))، ومن قرأ ((إحساناً)) فمعناه: ووصينا الإنسان أن يحسن إلى والديه إحساناً، وكان ﴿حُسْناً﴾ أعم في البر.

وقوله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ معناه: وإن جاهداك أيها الإنسان والداك لتشرك بي، وكذلك على أن تشرك بي.

ويروى أن رجلا خرج من مكة مهاجراً إلى النبي -عليه السلام- إلى المدينة، فحلفت أمه أن لا يظلها بيت حتى يرجع، فأعلم الله أن بر الوالدين واجب، ونهى أن يتابعا على معصية الله والشرك به، وإن كان ذلك عند الوالدين براً.

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: فإذا ناله أذى أو عذاب بسبب إيمانه جزع من ذلك ما يجزع من عذاب الله.

وينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذية في الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ يقرأ: ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ بسكون اللام وبكسرها في قوله: ﴿وَلِنَحْمِلْ﴾، وهو أمر في تأويل الشرط والجزاء، والمعنى: إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم.

والمعنى: إن كان فيه إثم فنحن نحتمله، ومعنى ﴿سَبِيلَنَا﴾ الطريق في ديننا الذي نسلكه، فأعلم الله -عز وجل- أنهم لا يحملون شيئاً من خطاياهم فقال: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِن شَيْءٍ﴾؛ معناه: من شيء يخفف عن المحمول عنه العذاب.

ثم أعلم أنهم يحملون أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم كما قال -عز وجل-: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[النحل: ٢٥]، فقال في هذه السورة: ﴿لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

وجاء في الحديث تفسير هذا: أنه من سن سنة ظلم، أو من سن سنة سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها، ولا ينتقص من أوزار الذين عملوا بها شيء، ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ولا ينتقص من أجورهم شيء.

وعلى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[الانفطار: ٥]، أي: علمت ما قدمت من عمل، وما سنت من سنة خير أو شر فإن ذلك مما أخرت.

ويجوز أن يكون ﴿مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ ما قدمت من عمل وما أخرت مما كان يجب أن تقدمه.

ثم أعلم الله -عز وجل- أنه يوبخهم فقال: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ فذلك سؤال توبيخ كما قال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ﴾، فأما سؤال استعلام فقد أعلم الله

-عز وجل- أنه لا يسأل سؤال استعلام في قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾[الرحمن: ٣٩].

وقوله: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَاماً﴾ فالاستثناء مستعمل في كلام العرب.

وتأويله عند النحويين: توكيد العدد وتحصيله وكماله، لأنك قد تذكر الجملة ويكون الحاصل أكثرها، فإذا أردت التوكيد في تمامها قلت كلها، وإذا أردت التوكيد في نقصانها أدخلت فيها الاستثناء، تقول: ((جاءني إخوتك)) يعني أَنَّ جميعهم جاءك. وجائز أن تعنى أن أكثرهم جاءك، فإذا قلت: ((جاءني إخوتك كلهم)) أكدت معنى الجماعة، وأعلمت أنه لم يتخلف منهم أحد، وتقول أيضاً: ((جاءني إخوتك إلا زيداً)) فتؤكد أن الجماعة تنقص زيداً.

وكذلك رؤوس الأعداد مشبهة بالجماعات، تقول: ((عندي عشرة))، فتكون ناقصة، وجائز أن تكون تامة، فإذا قلت: ((عشرة إلا نصفاً)) أو ((عشرة كاملة)) حققت، وكذلك إذ قلت: ((ألف إلا خمسين)) فهو كقولك: ((عشرة إلا نصفاً)) لأنك إنما استعملت الاستثناء فيما كان أملك بالعشرة من التسعة، لأن النصف قد دخل في باب العشرة، ولو قلت: ((عشرة إلا واحداً أو اثنين)) كان جائز وفيه قبح، لأن تسعة وثمانية عشر يؤدي عن ذلك العدد، ولكنه جائز من جهة التوكيد أن هذه التسعة لا تزيد ولا تنقص، لأن قولك: ((عشرة إلا واحداً)) قد أخبرت فيه بحقيقة العدد واستثنيت ما يكون نقصاناً من رأس العدد.

والاختيار في الاستثناء في الأعداد التي هي عُقُود الكسور، والصحيح: أنه جائز أن يستثني. فأما استثناء نصف الشيء فقبيح جداً، لايتكلم به العرب، فإذا قلت: ((عشرة إلا خمسة)) فليس تَطور العشرة بالخمسة لأنها ليست تقرب منها، وإنما تتكلم بالاستثناء كما تتكلم بالنقصان، فتقول: ((عندي درهم ينقص قيراطاً))، ولو قلت: ((عندي درهم ينقص خمسة دوانيق)) أو ((تنقص نصفه)) كان الأولى بذلك: ((عندي نصف درهم)). ولم يأت الاستثناء في كلام العرب إلا قليل من كثير. فهذه جملة كافية.

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ الطوفان من كل شيء: ما كان كثيراً مطيفاً بالجماعة كلها، كالغرق الذي يشتمل على المدن الكبيرة، يقال فيه: ((طوفان))، وكذلك القتل الذريع والموت الجارف: ((طوفان)) .

وقوله: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ قد بيّن في غير هذه الآية مَن أصحاب السفينة، في قوله: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾[هود: ٤٠].

وقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ﴾؛ المعنى: وأرسلنا إبراهيم، عطفاً على نوح.

وقوله: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ وقرئت ((وَتَخلِقُون إِفْكاً)). أوثاناً أصناماً.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾ فيه قولان؛ تخلقون كذباً، وقيل: تعملون الأصنام، ويكون التأويل على هذا القول: إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وأنتم تصنعونها.

وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وتقرأ ((تروا)) بالتاء.

﴿ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ أي: ثم إن الله يبعثهم ثانية بنشئهم نشأة أخرى، كما قال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى﴾[النجم: ٤٧]. وأكثر القراءة ﴿النَّشْأَةَ﴾ بتسكين الشين وترك المد، وقرأ أبو عمرو ((النَّشَأَةَ الآخِرَة)) بالمد.

وقوله -تعالى-: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: ليس يعجز الله في خلق السماوات ولا في الأرض.

وفي هذا قولان؛ أحدهما معناه: ما أنتم بمعجزين في الأرض ولا أهل السماء معجزين في السماء، أي: من في السماوات ومن في الأرض غير معجزين.

ويجوز -والله أعلم- وما أنتم بمعجزين في الأرض، لا ولو كنتم في السماء، أي: لا ملجأ من الله إلا إليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَحْمَتِي﴾:

روي عن قتادة أنه قال: إن الله ذم قوماً هانوا عليه فقال: ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَحْمَتِي﴾، وقال: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[يوسف: ٨٧]، وينبغي للمؤمن ألا ييأس من روح الله، ولا من رحمته، ولا يأمن من عذابه وعقابه، وصفة المؤمن أن يكون راجياً لله، خائفاً.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ﴾؛ وقرأ الحسن: ((فما كان جوابُ قومه)) بالرفع، فمن نصب جعل ﴿أَن قَالُوا﴾ اسم ﴿كَانَ﴾، ومن رفع الجواب جعله اسم ﴿كَانَ﴾ وجعل الخبر ﴿أَن قَالُوا﴾ وما عملت فيه.

ويكون المعنى: ما كان الجواب إلا مقالتهم: ((اقتلوه)) لما أن دعاهم إبراهيم إلى توحيد الله -عز وجل-، واحتج عليهم بأنهم يعبدون ما لايضرهم ولا ينفعهم، جعلوا الجواب اقتلوه أو حرقوه.

وقوله: ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾؛ المعنى: فحرقوه فأنجاه الله من النار.

ويروى: أن إبراهيم -عليه السلام- لم تعمل النار في شيء منه إلا وثاقه الذي شد به.

ويروى: أن جميع الدواب والهوام كانت تطفئ عن إبراهيم إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ النار، فأمر بقتلها، ويرد: أنه لم ينتفع في ذلك اليوم بالنار، أعني يوم أخذوا إبراهيم -عليه السلام-.

وجميع ما ذكرناه في هذه القصة مما رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه، وكذلك أكثر ما رويت في هذا الكتاب من التفسير، فهو من كتاب التفسير عن أحمد بن حنبل.

وقال الله -عز وجل-: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: قال إبراهيم لقومه إنما اتخذتم هذه الأوثان لِتَتَوادُّوا بها في الحياة الدنيا.

﴿ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً﴾ وهذا كما قال الله -عز وجل-: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المُتَّقِينَ﴾[الزخرف: ٦٧].

وفيها في القراءة أربعة أوجه: منها ((مودةَ بينِكم))، بفتح مودة، وبالاضافة إلى بين، ونصب ((مودةً)) والتنوين، ونصب ((بينَ))، ((مودةً بينَكم)) ويجوز: ((مودةُ بينِكم)) بالرفع والإضافة إلى ((بين))، ويجوز ((مودةٌ بينَكم)) بالرفع والتنوين ونصب ((بين)).

فالنصب في ((مودة)) من أجل أنها مفعول لها، أي: اتخذتم هذا للمودة بينكم.

ومن رفع فمن جهتين؛ إحداهما: أن يكون ((ما)) في معنى ((الذي)) ويكون المعنى: إن ما اتخذتموه من دون الله أوثاناً مودة بينكم، فيكون ((مودة)) خبر ((إن))، ويكون برفع ((مودة)) على إضمار ((هي))، كأنه قال: تلك مودة بينكم في الحياة الدنيا، أي: ألفتكم واجتماعكم على الأصنام مودة بينكم في الحياة الدنيا.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ صدق لوط إبراهيم -عليه السلام-، وقال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾، إبراهيم هاجر من ((كُوثَى)) إلى ((الشام)).

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ قيل: الذكر الحسن، وكذلك ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾[الصافات: ٧٨].

وقيل: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أنه ليس من أمة من المسلمين واليهود والمجوس والنصارى إلا وهم يعظمون إبراهيم.

وقيل: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أن الأنبياء من ولده، وقيل: الولد الصالح.

وقوله -تعالى-: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ﴾؛ المعنى: أنه لم يَنْزُ ذَكَر على ذَكَرٍ قبل قوم لوط.

وقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ اللفظ لفظ استفهام والمعنى معنى التقرير والتوبيخ.

﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾:

جاء في التفسير: ويقطعون سبيل الولد، وقيل: يعترضون الناس في الطرق لطلب الفاحشة.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المُنكَرَ﴾ أي: تأتون في مجالسكم المنكرْ.

قيل: إنهم كانوا يخذفون الناس في مجالسهم ويسخرون منهم، فأعلم الله -عز وجل- أن هذا من المنكر، وأنه لا ينبغي أن تتعاشر الناس عليه، ولا يجتمعوا إلا فيما قرب إلى الله وباعد من سخطه، وألا يجتمعوا على الهزء والتلهي.

وقيل: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ المُنكَرَ﴾ إنهم كانوا يفسقون في مجالسهم.

وقوله: ﴿وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِن مَسَاكِنِهِمْ﴾؛ المعنى: وأهلكنا عاداً وثموداً، لأن قبل هذا قارون وأصحابه، فأخذتهم الرجفة.

وقوله: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً﴾ وهم قوم لوط.

﴿وَمِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ وهم قوم ثمود ومدين.

﴿وَمِنْهُم مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ﴾: وهم قوم قارون وأصحابه.

﴿وَمِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا﴾: وهم قوم نوح وفرعون.

فأعلم الله أن الذي فعل بهم عدل، وأنه لم يظلمهم، وأنهم ظلموا أنفسهم. لأنه قد بين لهم ذلك.

قوله ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أتوا ما أتوه وقد بين لهم أن عاقبته عذابهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ العَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾:

((لو)) متصلة بقوله: ﴿اتَّخَذُوا﴾، أي: لو علموا أن اتخاذهم الأولياء كاتخاذ العنكبوت، ليس أنهم لا يعلمون أن بيت العنكبوت ضعيف، وذلك أن بيت العنكبوت لا بيت أضعف منه، فيما يتخذه الهوام في البيوت، ولا أقل وقاية منه من حر أو برد.

والمعنى: إن أولياءهم لا ينقصونهم، ولا يرزقونهم ولا يدفعون عنهم ضرراً، كما أن بيت العنكبوت غير موق للعنكبوت.

وقوله -تعالى-: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾:

قال الحسن وقتادة: ((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست صلاته بصلاة، وهي وبال عليه)).

وقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فيها أوجه:

فمنها أن ﴿أَكْبَرُ﴾ في معنى كبير، وجاء في التفسير: لذكر الله إياكم إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم.

ووجه آخر معناه: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ هو النهي عن الفحشاء والمنكر، أكبر من الانتهاء عن الفحشاء والمنكر، لأن الله قد نهى عنها.

وقوله: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾؛ أي: أهل الحرب.

فالمعنى: لا تجادلوا أهل الجزية إلا بالتي هي أحسن، وقاتلوا الذين ظلموا.

وقيل: إن الآية منسوخة بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى قوله حتى ﴿حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة: ٢٩]، فكأن الصغار خارجاً من التي هي أحسن، فالأشبه أن تكون منسوخة.

وجائز أن يكون الصغار أخذ الجزية منهم وإن كرهوا، فالذين تؤخذ منهم الجزية بنص الكتاب اليهود والنصارى، لأنهم أصحاب التوراة والإنجيل، فأما المجوس فأخذت منهم الجزية لقول رسول الله -عليه السلام- ((سنوا بهم سنة أهل الكتاب)).

واختلف الناس فيمن سوى هؤلاء من الكفار مثل عبدة الأوثان ومن أشبههم فهم عن مالك بن انس يجرون هذا المجرى. تؤخذ منهم الجزية كانوا عجماً أو عرباً، وأما أهل العراق فقالوا: نقبل الجزية من العجم غير العرب إذا كانوا كفاراً، وأن خرجوا من هذه الأصناف أعني اليهود والنصارى والمجوس، نحو الهند والترك والديلم، فأما العرب عندهم فإذا خرجوا من هذه الثلاثة الأصناف لم تقبل منهم جزية، وكان القتل في أمرهم إن أقاموا على ملة غير اليهودية والنصرانية والمجوسية، وبعض الفقهاء لا يرى إلا القتل في عبدة الأوثان والأصنام ومن أشبههم ﷺ.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: ما كنت قرأ الكتب ولا كنت كاتباً، وكذلك صفة النبي -عليه السلام- عندهم في التوراة والإنجيل.

وقوله: ﴿لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ قيل: إنهم كفار قريش.

وقوله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قيل: فيه ثلاثة أوجه:

منها: بل القرآن آيات بينات.

ومنها: بل النبي -عليه السلام- وأموره آيات بينات.

ومنها: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: بل إنه لا يقرأ ولا يكتب، آيات بينات، لأنه إذا لم يكن قرأ كتاباً، ولا هو كاتب ثم أخبر بأقاصيص الأولين والأنبياء، فذلك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم.

وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾.

هذه نزلت في قوم جهلة قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾[الأنفال: ٣٢] فأعلم الله -عز وجل- أن لعذابهم أجلاً فقال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾[القمر: ٤٦].

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ معناه: فجاءة، و﴿بَغْتَةً﴾ اسم منصوب في موضع الحال، ومعناه: وليأتينهم مفاجأة.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾:

كان قوم من المسلمين كتبوا شيئاً عن اليهود فأتوا به النبي -عليه السلام- فقال -عليه السلام-: ((كفى بها حماقة قوم، أو ضلالة قوم إن رغبوا عما أتى به نبيهم إلى ما أتى به غير نبيهم إلى غير قومهم)).

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾:

تفسيرها: قيل: إنهم أمروا بالهجرة من الموضع الذي لا تمكنهم فيه عبادة الله -عز وجل- وأداء فرائضه، وأصل هذا فيمن كان يمكنه ممن آمن وكان لا يمكنه إظهار إيمانه، وكذلك يجب على كل من كان في بلدة يعمل فيه بالمعاصي ولا يمكنه بغير ذلك أن يهاجر وينتقل إلى حيث يتهيأ له أن يعبد الله حق عبادته.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ ((إياي)) منصوب مضمر، ((الذي)) ظهر يفسره.

المعنى: فاعبدوا إياي، فاعبدوني، فاستغنى بأحد الفعلين، أعني الثاني عن إظهار الأول، فإذا قلت: ((فإياي فاعبدوا))، ((فاياي)) منصوب بما بعد الفاء، ولا تنصبه بفعل مضمر كما إنك إذا قلت: ((بزيد فامرر))، فالباء متعلقة بـ((امرر)).

والمعنى: إن أرضي واسعة فاعبدون، فالفاء إذا قلت: ((زيداً فاضرب)) لا يصلح إلا أن تكون جواباً للشرط، كأن قائلاً قال: ((أنا لا أضرب عمراً ولكني أضرب زيداً))، فقلت أنت مجيباً له: ((فاضرب زيداً))، ثم قلت: ((زيداً فاضرب))، فجعلت تقديم الاسم بدلاً من الشرط، كأنك قلت: ((زيداً فاضرب إن كان الأمر على ما تصف زيداً))، وهذا مذهب جميع النحويين البصريين.

وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ كل حيوان على الأرض مما يعقل، وما لا يعقل فهو دابة، وإنما هو من: ((دبت على الأرض)) فهي دابة.

والمعنى: نفس دابة. ومعنى ﴿وَكَأَيِّن﴾: وكم من دابة.

وقوله: ﴿لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ أي: لا تدخر رزقها، إنما تصبح فيرزقها الله.

وعلى هذا أكثر الحيوان والدِّبيب، وليس في الحيوان الذي هو دبيب ما يدخرون فيما تبين غير النمل، فإن ادخاره بين.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: هي الدار الحياة الدائمة.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِنَ الجَنَّةِ غُرَفاً﴾ وقرئت ((لنثوينهم)) بالثاء؛ يقال: ((ثوى الرجل)) إذا أقام بالمكان و((أثويته)) أنزلته منزلاً يقيم فيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ قرىء بكسر اللام وتسكينها، والكسر أجود على معنى: لكي يكفروا وكي يتمتعوا.

وقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: لم يدعوا أن تنجيهم أصنامهم وما يعبدونه مع الله.

﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: يعبدون مع الله غيره.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أعلم الله أنه يزيد المجاهدين هداية كما أنه يضل الفاسقين، ويزيد الكافرين بكفرهم ضلالة، كذلك يزيد المجاهدين هدايه، كذا قال الله -عز وجل-: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾[محمد: ١٧].

فالمعنى: أنه أتاهم ثواب تقواهم وزادهم على هدايتهم.

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ﴾؛ تأويله: أن الله ناصرهم، لأن قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ الله معهم يدل على نصرهم، والنصرة: تكون في علوهم على عدوهم بالغلبة بالحجة والغلبة بالقهر والقدرة.

* * *

سورة الروم[1]

مكية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ﴾:

قد شرحنا ما جاء في ﴿الم﴾، وقرئت ﴿غُلِبَتِ﴾ بضم الغين، وقرأ أبو عمرو ﴿غَلِبَتِ﴾ بفتح الغين؛ والمعنى على: ((غُلِبَت))، وهي إجماع القراء؛ وذلك: أن فارس كانت قد غلبت الروم في ذلك الوقت، والروم مغلوبة فالقراءة ﴿غُلِبَتِ﴾.

وقوله: ﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾ قيل: في أطراف الشام.

وتأويله: أدني الأرض من أرض العرب.

وقوله: ﴿وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾:

هذه من الآيات التي تدل على أن القرآن من عند الله، لأنه أنبأ بما سيكون، وهذا لا يعلمه إلا الله -عز وجل-، وكان المشركون سُروا بأن غلبت فارس الروم، وذلك لأنهم قالوا: إنكم أيها المسلمون تزعمون بأنكم تنصرون لأنكم أهل كتاب، فقد غلبت فارس

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة الروم من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف الثلاثون. عدد آياتها ستون آية. جاءت تسميتها الرّوم لذكر تلك المعجزة الباهرة التي تدل على صدق أنباء القرآن العظيم بالغيب.

سورة الروم من السور المكية، وأهدافها أهداف السور المكية نفسها، التي تعالج قضايا العقيدة الإسلامية في إطارها العام وميدانها الفسيح.

ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار بحدث غيبي مهمّ، أخبر عنه القرآن الكريم قبل حدوثه، ألا وهو انتصار الروم على الفرس في الحرب التي ستقع بينهما، وقد حدث كما أخبر عنه القرآن، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي.

ساقت الآيات دلائل وشواهد انتصار الحق على الباطل، في شتى العصور والأزمنة. ثم تناولت السورة الحديث عن الساعة والقيامة، حيث يكون المؤمنون في روضات يحبرون، ويكون المجرمون في العذاب محضرين. وعرضت السورة بعد ذلك بعض المشاهد الكونية والدلائل الغيبية، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته، لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان. وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش، الذين لم تنفعهم الآيات والنّذر، ولم يهتدوا بالبراهين الساطعة. جاء ذلك العرض البديع في السُّورة تسلية وتخفيفًا لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين، وليصبر على أذاهم حتى يأتي النصر.

الروم، وفارس ليست أهل كتاب، والروم أهل كتاب، فكذلك سنغلبكم نحن.

فأعلم الله -عز وجل- أن الروم سيغلبون في بضع سنين، وسيسر المسلمون بذلك فراهن المسلمون المشركين، وبايعوهم على صحة هذا الخبر.

والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع، فلما مضى بعض البضع طالب المشركون المسلمين وقالوا: قد غلبناكم، لأنه قد مضت بضع سنين ولم تغلب الروم فارس، واحتج عليهم المسلمين بأن البضع لم يكمل، وزادوهم وآخروهم إلى تمام البضع، فغلبت الروم فارس وقَمِر المسلمون وذلك قبل أن يحرم القمار وفرح المسلمون وخزي الكافرون.

وقوله -عز وجل-: ﴿لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ القراءة الضم، وعليه أهل العربية، والقراء كلهم مجمعون عليه، فأما النحويين فيجزون: ((من قبلٍ ومن بعدٍ)) بالتنوين، وبعضهم يجيز: ((من قبلِ ومن بعدِ)) بغير التنوين، وهذا خطأ لأن ((قبل وبعد)) ههنا أصلها الخفض ولكن بنيتا على الضم لأنها غايتان.

ومعنى ((غاية)) أن الكلمة حذفت منها الإضافة، وجعلت غاية الكلمة ما بقي بعد الحذف. وإنما بنيتا على الضم لإعربهما في الإضافة النصب والخفض. تقول: ((رأيته قبلك))، ولا يرفعان لأنهما لا يحدث عنهما لأنهما استعملتا ظرفين، فلما عدلا عن بابهما حركا بغير الحركتين اللتين كانتا تدخلان عليهما بحق الإعراب. فأما وجوب ذهاب إعرابهما، وبناؤهما فلأنهما عرفا من غير جهة التعريف، لأنه حذف منهما ما أيفتا إليه.

المعنى: لله الأمر من قبل أن يغلب الروم ومن بعد ما غلبت.

وأما الخفض والتنوين فعلى جعلهما نكرتين.

المعنى: لله الأمر من تقدم وتأخر. والضم أجود، فأما الكسر بلا تنوين فذكر الفراء أنه تركه على ما كان عليه في الإضافة ولم ينون، واحتج بقول الفرزدق:

بين ذِرَاعيْ وَجَبْهَةِ ٱلأَسَدِ

وبقوله[1] [من مجزوء الكامل]:

إلاّ عُلالَة أو بُدا هةَ قارحٍ نهِد الجُزاره

وليس هذا كذلك لأن معنى ((بين ذراعي وجبهة الأسد)). بين ذراعيه وجبهتيه، فقد ذكر أحد المضافين إليهما، وذلك لو كان: لله الأمر من قبل ومن بعد كذا لجاز، وكان

---

(١) قائله: الأعشى

المعنى: من قبل كذا ومن بعد كذا. وليس هذا القول مما يعرج عليه ولا قاله أحد النحويين المتقدمين.

وقوله -عز وجل-: ﴿مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ الغلب والطلب: مصدران، تقول: ((غلبت غَلَباً))، و((طلبت طَلَباً)).

وزعم بعض النحويين أنه في الأصل: ((من بعد غلبتهم))، وذكر أن الإضافة لما وقعت حذفت هاء الغلبة، وهذا خطأ، ((الغَلَبة والغَلَب)) مصدر: ((غَلْب)) مثل: ((الجَلْب والجَلَبة)).

وقوله: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ القراءة النصب في وعد، ويجوز الرفع، ويجوز النصب، ولا أعلم أحداً قرأ بالرفع.

فالنصب على أنه مصدر مؤكد لأن قوله: ﴿وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ هو وعد من الله للمؤمنين، وقوله ((وعد الله)) بمنزلة وعد الله وعداً.

ومن قال: وعد الله كان على معنى: ذلك وعد الله، كما قال: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِن نَهَارٍ بَلاغٌ﴾[الأحقاف: ٣٥].

وقوله -عز وجل-: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هذا في مشركي أهل مكة.

المعنى: يعلمون من معايش الحياة الدنيا، لأنهم كانوا يعالجون التجارات، فأعلم الله -عز وجل- لما نفى أنهم لا يعلمون ما الذي يجهلون، ومقدار ما يعلمون فقال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾.

((هم)) الأولى مرفوعة بالابتداء ((وهم)) الثانية ابتداء ثان و﴿غَافِلُونَ﴾ خبر ((هم)) الثانيه، والجملة الثانية خبر ((هم)) الأولى، والفائدة في الكلام أن ذكر ((هم)) ثانيةً وأن كانت ابتداءً تجرى مجرى التوكيد كما تقول: ((زيد هو عالم))، فهو أوكد من قولك: ((زيد عالم)).

ويصلح أن تكون ((هم)) بدلاً من ((هم)) الأولى مؤكدة أيضاً كما تقول: ((رأيته إياه)).

وقوله -عز وجل-: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ معناه: أو لم يتفكروا فيعلموا، لأن الكلام دليلاً عليه.

ومعنى ﴿بِالْحَقِّ﴾ ههنا ((إلا للحق)) أي: لإقامة الحق.

﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: لإقامة الحق وأجل مسمى، وهو الوقت الذي توفى فيه كل نفس ما كسبت.

وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ أي: الكافرون بلقاء ربهم تقدمت الباء لأنها متصلة بكافرون، وما اتصل بخبر ((إن)) جاز أن يقدم قبل اللام، ولا يجوز أن تدخل اللام بعد مضي الخبر، لا يجوز أن تقول: ((إن زيداً كافراً لبالله)). لأن اللام حقها أن تدخل على الابتداء والخبر، وأبين الابتداء والخبر، لأنها تؤكد الجمله، فلا تأتي توكيداً وقد مضت الجمله، ولا اختلاف بين النحويين في أن اللام لا تدخل بغير الخبر.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ يعني إن الذين أهلكوا من الأمم الخالية، كانوا أكثر حرثاً وعمارة من أهل مكة، لأن أهل مكة لم يكونوا أصحاب حرث.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ القراءة بنصب ﴿عَاقِبَةَ﴾ ورفعها، فمن نصب جعل ﴿السُّوأَى﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ ومن رفع ﴿عَاقِبَةَ﴾ جعل ﴿السُّوأَى﴾ خبراً لـ﴿كَانَ﴾.

والتفسير في قوله: ﴿أَسَاؤُوا﴾ ههنا: أنهم أشركوا، و﴿السُّوأَى﴾ النار، وإنما كان ﴿أَسَاؤُوا﴾ ههنا يدل على الشرك لقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ فإساءتهم ههنا كفرهم، وجزاء الكفر النار. ودل أيضاً على أن ﴿أَسَاؤُوا﴾ ههنا: الكفر: ﴿أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

فالمعنى: ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أعلم الله -عز وجل- أنهم في القيامه ينقطعون في الحجة انقطاع يائسين من رحمة الله.

والمبلس: الساكت المنقطع في حجته، اليائس من أن يهتدي إليها، تقول: ناظرت فلاناً فأبلس أي: انقطع وأمسك ويئس من أن يحتج.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾:

جاء في التفسير: أنه افتراق لا اجتماع بعده، وفيما بعده دليل على أن التفرق هو للمسلمين والكافرين، فقال ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾، ثم بيّن على أي حال يتفرقون فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾

وجاء في التفسير: ان ﴿يُحْبَرُونَ﴾ سماع الغناء في الجنة.

والحبرة في اللغة: كل نغمة حسنة، فهي حبرة، والتحبر التحسين، والحَبْر: العالم أيضاً هو من هذا؛ المعنى: أنه متخلق بأحسن أخلاق المؤمنين، والحِبر: المداد إنما سمي لأنه يحسن به.

وقوله:﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ فَأُوْلَئِكَ فِي العَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾؛ أي: حال المؤمنين السماع في الجنة والشغل بغاية النعمة، وحال الكافرين العذاب الأليم هم حاضروه أبداً غير مخفف عنهم.

ثم أعلم -عز وجل- بعد هذا ما تدرك به الجنة، ويتباعد به عن النار بقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

جاء في التفسير: عن ابن عباس أن الدليل على أن الصلوات خمس هذه الآية ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ فـ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: صلاة المغرب وعشاء الآخرة، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الغداة ﴿وَعَشِيًّا﴾ صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ صلاة الظهر.

وقد قيل: إن قوله: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ أنها الصلاة الخامسة، فيكون على هذا التفسير قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ لصلاة واحدة.

ومعنى ((سبحان الله)): تنزيه الله من السوء، هذا لا اختلاف فيه.

وقوله - -عز وجل- - ﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ﴾:

جاء في التفسير: أنه يخرج النطفة -وهي الميت- من الحي من الإنسان، ويخرج الحي من الميت، يخرج الإنسان من النطفة.

﴿وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: يجعله تنبت، وإحياء الأرض إخراج النبات منها.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: وكذلك تخرجون من قبوركم مبعوثين.

وموضع ((الكاف)) نصب بـ﴿تُخْرَجُونَ﴾؛ والمعنى: أن بعثكم عليه كخلقكم، أي: هما في قدرته متساويان.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ﴾ أي: من العلامات التي تدل على أن الله واحد لا مثيل له؛ ظهور القدرة التي يعجز عنها المخلوقون، ومعنى ﴿خَلَقَكُم مِن تُرَابٍ﴾، أي: خلق آدم من تراب.

﴿ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي: آدم وذريته.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ خلق ((حواء)) من ضلع من اضلاع آدم، وجعل بين المرأة والزوج المودة والرحمة من قبل الله، وأن ((الفرْك)) وهو ((البُغض)) من قبل الشيطان، يقال: ((فَرِكت المرأة زوجها تَفْركه فِرْكا))، إذا أبغضته.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ منصوبان على المفعول له.

المعنى: يريكم البرق للخوف والطمع، وهو خوف المسافر، وطمع للحاضر.

المعنى: ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا. هذا أجود في العطف. لأنه قال: ((ومن آياته خلق)) فنسق باسم على اسم، ومثله من الشعر [من الطويل][(١)].

وما الدهر إلا تارتانِ فَمِنهُما أَموتُ وأُخرى أَبتغي العيشَ أكدَحُ

المعنى: فمنهما تارة أموتها أي: أموت فيها وأخرى ابتغي العيش أكدح.

المعنى: ويريكم البرق خوفاً وطمعاً من آياته، فيكون عطفاً بجملة على جملة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي: تقوم السماء بغير عمد، وكذلك الأرض قائمة بأمره والسماء محيطة بها.

وقوله -عز وجل-: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ﴾ أي: للبعث بعد الموت.

وقوله: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ معناه: مطيعون.

والمعنى: تدل وهذا من آياته، ولم يذكر ((ومن آياته)) لأنه قد تقدم ذكر ذلك مرات، ومعنى ﴿قَانِتُونَ﴾ مطيعون طاعة لا يجوز أن تقع معها معصية، لأن القنوت القيام بالطاعة.

ومعنى الطاعة ههنا، أن الله -عز وجل- لا يقدر في خلقهم دليل على أنهم مخلوقون بإرادة الله -عز وجل- لا يقدر أحد على تغيير الخلقة، ولا يقدر عليه ملك مقرب، فآثار الصنعة والخلقة تدل على الطاعة، ليس يعني طاعة العبادة، إنما هي طاعة الإرادة والمشيئة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ فيه غير قول:

فمنها: أن الهاء تعود على الخلق، فالمعنى: الإعادة والبعث اهون على الإنسان من انشائه، لأنه يقاسي في النشء ما لا يقاسيه في الإعادة والبعث.

---

(١) قائله: العجير السلولي.

وقال أبو عبيدة وكثير من أهل اللغه؛ إن معناه: وهو هين عليه، وأن ﴿أَهْوَنُ﴾ ههنا ليس معناه: أن الإعادة تهون عليه من الابتداء، لأن الإعادة والابتداء كل سهل عليه ومن ذلك الشعر [من الطويل](١):

لَعَمرُكَ ما أَدري وَإِنّي لأَوجَلُ عَلى أَيِّنا تَغدو المَنِيَّةِ أَوَّلُ

فمعني ((لأَوجَلُ)) لوجل، وقالوا: ((الله أكبر)) أي: الله كبير، وهو غير منكر، وأحسن من هذين الوجهين أنه خاطب العباد بما يعقلون، فأعلمهم أنه يجب عندهم أن يكون البعث أسهل وأهون من الابتداء والإنشاء، وجعله مثلاً لهم فقال: ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾أي: قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ قد ضربه لكم مثلاً فبما يصعب ويسهل.

وقوله -تعالى-: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَكُم مِن مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾:

هذا مثل ضربه الله -عز وجل- لمن جعل له شريكاً من خلقه.

فأعلم -عز وجل- أن مملوك الإنسان ليس بشريكة في ماله وزوجته، وأنه لا يخاف من مملوكه أن يرثه فقال: ضرب لكم مثلاً من أنفسكم إن جعلتم ما هو ملك لله من خلقه مثل الله، وأنتم كلكم بشر، ليس مماليككم بمنزلتكم في أموالكم، فالله -عز وجل- أجدر ألا يكون يعدل به خلقه.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ موضع الكاف نصب.

وقوله -عز وجل-: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ الحنيف: الذي يميل إلى شيء فلا يرجع عنه كالحنف في الرجل وهو ميلها إلى خارجها خلقه، لا يملك الاحنف أن يرد حنفه.

وقوله – -عز وجل-: ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾؛ ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ﴾ منصوب بمعنى اتبع فطرة الله.

لأن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ اتبع الدين القيم، اتبع فطرة الله، ومعنى ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ﴾ خلقة الله التي خلق عليها البشر.

---

(١) لمعن بن أوس المزني.

وقوله النبي -عليه السلام-: ((**كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**)) معناه: ان الله -عز وجل- فطر الخلق على الإيمان على ما جاء في الحديث، أن الله -جل ثناؤه- أخرج من صلب آدم ذريته كالذر، وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم، قال الله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ فكل مولود فهو من تلك الذرية التي شهدت بأن الله خالقها.

فمعني ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ﴾ دين الله الذي فطر الناس عليه.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾:

أكثر ما جاء في التفسير؛ أن معناه: لا تبديل لدين الله، وما بعده يدل عليه، وهو قوله: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون بحقيقة ذلك.

وقوله: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ منصوب على الحال بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾.

زعم جميع النحويين: أن معنى هذا؛ فأقيموا وجوهكم منبين إليه، لأن مخاطبة النبي -عليه السلام- يدخل معه فيها الأمة، والدليل على ذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وقوله: ﴿مُنِيبِينَ﴾ معناه: راجعين إليه إلى كل أمر به ولا يخرجون عن شيء من أمره.

فأعلمهم الله -عز وجل- أن الطريقة المستقيمة في دين الإسلام هو اتباع الفطرة والتقوى مع الإسلام وأداء الفرائض، وأنه لا ينفع ذلك إلا بالإخلاص في التوحيد فقال:

﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم﴾ وقرئت ﴿فَارَقُوا دِينَهُم﴾.

﴿وَكَانُوا شِيَعًا﴾ فرقاً، فأمرهم الله -عز وجل- بالاجتماع والألفه ولزوم الجماعة، والسنة: هي الهدايه، والضلالة: هي الفرقة.

وقوله -عز وجل-: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: كل حزب من هذه الجماعة الذين فارقوا دينهم فرح يظن أنه هو المهتدي.

ثم أعلم الله -عز وجل-أنهم إذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين إليه، أي: لا يلجأون في شدائدهم إلى من عبدوه مع الله -عز وجل- إنما يرجعون في دعائهم إليه وحده.

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: إذا أذاقهم رحمة بأن يخلصهم من تلك الشدة التي دعوا فيها الله وحده مردوا[1] بعد ذلك على شركهم.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ معنى ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ خطاب بعد الإخبار لأنه لما قال: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ كان خبراً عن غائب. فكان المعنى: فتمتعوا ايها الفاعلون لهذا فسوف تعلمون، وليس هذا بأمر لازم أمرهم الله به.

وهو أمر على جهة الوعيد والتهدد، وذلك مستعمل في كلام الناس تقول: ((إن أسمعتني مكروهاً فعلت بك وصنعت)) ثم تقول: ((افعل بي كذا فإنك سترى ما ينزل بك)) فليس؛ إذا لم يسمعك كان عاصياً لك. فهذا دليل أنه ليس بأمر لازم، وكذلك ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: ٢٩]، وكذلك: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[فصلت: ٤٠].

لم يخيروا بين الإيمان والكفر ولكنه جرى على خطاب العباد وتحوار العرب الذي تستعمله في المبالغة في الوعيد، ألا ترى أن قوله بعد ذلك ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.

جعل الله -عز وجل- لذي القربى حقاً وكذلك للمساكين.

وابن السبيل: الضيف فجعل الضيافة لازمة، فأما القرابات فالمواريث قد بينت ما يجب لكل صنف منهم، وفرائض المواريث كأنها قد نسخت هذا أعنى أمر حق القرابة، وجائز أن يكون للقرابة حق لازم في البر.

وقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِن رِبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُو عِندَ اللَّهِ﴾.

يعنى به دفع الإنسان الشيء ليعوض ما هو أكثر منه، فذلك في أكثر التفسير ليس بحرام، ولكنه لا ثواب لمن زاد على ما أخذ.

والربا ربوان، والحرام كل قرض يؤخذ به أكثر منه أو يجر منفعة، فهذا حرام، والذى ليس بحرام هو الذي يهبه الإنسان يستدعى به ما هو أكثر منه، أو يهدى الهدية يستدعى بها ما هو أكثر منها.

وقوله: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾؛ أي: وما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة وإنما يقصدون بها ما عند الله.

---

(١) أي: لجوا فيه وأبوا غير الشرك بعد أن أنجاهم الله برحمته لما دعوه.

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾؛ أي: فأهلها هم المضعفون، أي: هم الذي يضاعف لهم الثواب، يعطون بالحسنة عشرة أمثالها ويضاعف الله لمن يشاء وقيل: ﴿الْمُضْعِفُونَ﴾ كما يقال: ((رجل مقو))، أي: صاحب قوة، و((موسر)) أي: صاحب يسار، وكذلك مضعف، أي: ذو أضعاف من الحسنات.

قوله -عز وجل-: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ ((أقم)) قصدك واجعل جهتك اتباع الدين القيم من قبل أن تأتي الساعة وتقوم القيامة فلا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.

ومعنى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾؛ يتفرقون فيصيرون فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير.

وقوله: ﴿فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾؛ أي: لأنفسهم يوطئون.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾؛ أي: فرأوا النبت قد اصفر وجف.

﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾؛ ومعناه: ليظلن، لأن معنى الكلام الشرط والجزاء، فهم يستبشرون بالغيث ويكفرون إذا انقطع عنهم الغيث وجف النبات.

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾؛ أي: قطعاً من السحاب.

وقوله: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ﴾؛ أي: فترى المطر يخرج من خلل السحاب.

فأعلم -عز وجل- أنه ينشئ السحاب ويحيي الأرض ويرسل الرياح، وذلك كله دليل على القدرة التي يعجز عنها المخلوقون، أنه قادر على إحياء الموتى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾.

المعنى: إن ينزل عليهم المطر، ويقرأ ((أن يَنْزِل))، ومعنى ((مبلسين)) منقطعين انقطاع آيسين، فأما تكرير قوله ((من قبل)) ففيه وجهان:

قال قطرب: إن قبل الأولى للتنزيل، وقيل الثانية: للمطر.

وقال الأخفش وغيره من البصريين: تكرير ((قبل)) على التوكيد؛ والمعنى: وإن كانوا من قبل تنزيل المطر لمبلسين.

والقول كما قالوا: تنزيل المطر بمعنى المطر، لأن المطر لا يكون إلا بتنزيل كما أن الرياح لا تعرف إلا بمرورها قال الشاعر[١] [من الطويل]:

رُوَيداً كَما اهتَزَّت رِماحٌ تَسَفَّهَت أَعالِيَها مَرُّ الرِّياحِ النَّواسِمِ

فمعنى ((مر الرياح)) كقولك: ((تسفهت أعلاليها مر الرياح النواسم)).

وقوله -عز وجل-: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ويقرأ ﴿أَثَرِ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، يعني آثار المطر الذي هو رحمة من الله ﴿كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وإحياؤها: أن جعلها تنبت فكذلك إحياء الموتى، فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ذلك إشارة إلى الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾:

هذا مثل ضربه الله للكفار كما قال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، فجعلهم في تركهم العمل بما يسمعون ووعي ما يبصرون بمنزلة الموتى، لأن ما بيّن من قدرته وصنعته التي لا يقدر على مثلها المخلوقون دليل على وحدانيته.

وقوله: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾؛ أي: ما يسمع إلا من يؤمن بآياتنا، وجعل الإسماع ههنا إسماعا إذا قبل وعمل بما سمع، وإذا لم يقبل بمنزله ما لم يسمع ولم يبصر.

وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلالَتِهِمْ﴾ القراءة بالجر في ﴿الْعُمْيِ﴾ والنصب جائز، ((بهاد العميَ عن ضلالتهم)) فالقراءة بالجر، فأما النصب فإن كانت فيها رواية، والا فليست القراءة بها جائزة، لأن كل ما يقرأ به ولم يتقدم فيه رواية لقراء الأمصار المتقدمين فالقراءة به بدعة وإن جاز في العربية، والعمل في القراءة كلها على اتباع السنة.

وقوله -عز وجل-: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾

تأويله: أنه خلقكم من النطف في حال ضعف، ثم قواكم في حال الشبية ثم جعل بعد الشبيبة ضعفاً وشيبة.

وروي في الحديث أن ابن عمر قرأ على النبي -عليه السلام-: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ...﴾ قال فأقرأني: ﴿مِن ضُعْفٍ﴾، وقرأ عطية على ابن عمر ﴿مِن ضَعْفٍ﴾ فأقرأه

---

(١) هو: ذي الرمة.

﴿مِن ضُعْفٍ﴾، وقال له: قرأتها على النبي -عليه السلام- ﴿مِن ضَعْفٍ﴾ فأقرأني ﴿مِن ضُعْفٍ﴾.

فالذي روى عطية عن ابن عمر عن النبي -عليه السلام- ﴿مِن ضُعْفٍ﴾ بالضم، وقد قرئت بفتح الضاد، والاختيار الضم للرواية.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يعني يوم القيامة.

والساعة في القرآن: على معنى الساعة التي تقوم فيها القيامة، فلذلك ترك ذكر أن يعرف أي ساعة هي.

﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾: يحلف المجرمون.

﴿ما لبثوا غير ساعة مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي: ما لبثوا في قبورهم إلا ساعة واحدة.

﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: مثل هذا الكذب كذبهم لأنهم أقسموا على غير تحقيق.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي: في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: إن ما وعدك الله من النصر على عدوك حق، وإظهار دين الإسلام حق.

﴿وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يستفزنك عن دينك الذين لا يوقنون، أي: هم ضلال شاكون.

سورة لقمان[1]

مكيه

ما خلا ثلاث آيات منه مدنية؛ قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ﴾ إلى تمام الثلاث آيات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم﴾: قال ابن عباس معنى ((الم)) أنا الله أعلم، وقد فسرنا في سورة البقرة جميع ما قيل: في ((الم)) وما أشبهها.

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾؛ معناه: هذه الآيات، تلك الآيات التي وعدتم بها في التوراة، ويجوز أن يكون بمعنى: هذه آيات الكتاب، وقد تقدم تفسير مثل هذا من سورة البقرة أيضاً.

وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ القراءة بالنصب على الحال.

المعنى: تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة.

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة لقمان من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف الحادية والثلاثون. عدد آياتها أربع وثلاثون آية. وجاءت تسميتها لُقْمَان لاشتمالها على وصايا لقمان التي تضمنت فضيلة الحكمة، وسرّ معرفة الله تعالى وصفاته، وذمّ الشرك، والأمر بمكارم الأخلاق، والنهي عن القبائح والمنكرات وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها، وكانت من الحكمة والرشاد.

وسورة لُقْمَان من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة، وتُعنَى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان، وهي الوحدانية، والنبوة، والبعث والنشور، كما هو الشأن في السور المكية.

ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم، معجزة محمد ﷺ الخالدة، الباقية الدائمة على مدى الزمان، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية ربّ العالمين، وذكرت دلائل القدرة الباهرة والإبداع العجيب في هذا الكون الفسيح، المحكم النظام المتناسق في التكوين، في سمائه وأرضه وشمسه وقمره ونهاره وليله، وفي جباله وبحاره وأمواجه وأمطاره، ونباته وأشجاره، وفي سائر ما يشاهده المرء من دلائل القدرة والوحدانية مما يأخذ بالقلب ويبهر العقل. كما لفتت أنظار المشركين إلى هذه الدلائل التي يراها الإنسان في خلق الله.

ومن أبرز ما تحدثت عنه السورة وصية لقمان لابنه وهو يعظه وقد اشتملت على تقرير عقيدة التوحيد وأن الشرك ظلم عظيم وتعميق فضيلة البر بالوالدين والفصل بين البر والطاعة فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. أما مصاحبة الوالدين بالمعروف فأمر واجب مع عدم طاعتهما في المعصية. ثم تحدثت السورة عن باقي وصايا لقمان وبيان ما ركّز فيها بعد ذلك على الجانب الأخلاقي.

وختمت السورة الكريمة بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يجزي والد عن ولده ولا مولود عن والده شيئاً لأن كل واحد منهم في شأن يغنيه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ويقرأ: ((لِيَضل عن سبيل الله)).

فاكثر ما جاء في التفسير: أن ﴿لَهْوَ الحَدِيثِ﴾ ههنا الغناء لأنه يلهي عن ذكر الله، وقد روي عن النبي -عليه السلام- أنه حرم بيع المغنية.

وقد قيل في تفسير هذه الآية: أن لهو الحديث ههنا الشرك، فمن قرأ ((لِيُضل)) بضم الياء؛ فمعناه: ليضل غيرة، فإذا أضل غيره فقد ضل هو أيضاً، ومن قرأ ((لِيَضل)) فمعناه: ليصير أمره إلى الضلال، فكأنه وإن لم يكن يُقَدَّر أنه يضل فسيصير أمره إلى أن يضل.

وقوله: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾ أي: يتخذ آيات الله هزوا، وقد جرى ذكر الآيات في قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ﴾.

وقد جاء في التفسير أيضاً: أن قوله: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً﴾ يتخذ سبيل الله هزواً.

وقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ وصف الله -عز وجل- خلقه الذي يعجز المخلقون عن أن يأتوا بمثله، أو يقدروا على نوع منه.

ثم قال: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ قيل: في التفسير: إنها بعمد لا ترونها، أي: لا ترون تلك العمد، وقيل: خلقها بغير عمد وكذلك ترونها.

والمعنى في التفسير يؤول إلى شيء واحد، ويكون تأويل ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الذي فسر بعمد لا ترونها. يكون معنى ((العمد)) قدرته -عز وجل- التي يمسك بها السماوات والأرض.

﴿وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾:

﴿رَوَاسِيَ﴾ جبال ثوابت، كما قال -عز وجل-: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً﴾[النبأ: ٦، ٧]، فمعني ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهة أن تميد بكم، ومعنى ﴿تَمِيدَ﴾ تتحرك حركة شديدة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ معناه: لأن تشكر الله.

ويجوز أن تكون ((أن)) مفسرة، فيكون المعنى: أي: أشكر لله تبارك وتعالى،

وتأويل ﴿أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ قلنا له: اشكر لله على ما آتاك.

وقد اختلف في التفسير في ((لقمان)) فقيل: كان نبياً، وقيل: كان حكيماً، وقيل: كان رجلاً صالحاً، وقيل: كان حبشياً غليظ المشافر مشقق الرجلين، ولكن الله أتاه الحكمة، فلسنا نشك أنه كان حكيماً لقوله الله -عز وجل-: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ﴾.

وقيل: كان نجاراً، وقيل: كان خياطاً، وقيل: كان راعياً.

وروي في التفسير: أن إنساناً وقف عليه وهو في مجلسه فقال له: ألست الذي كنت ترعى معي في موضع كذا وكذا، قال: بلى، قال فما بلغ بك ما أري؟ فقال: صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ موضع ((إذ)) نصب بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ﴾ أي: ولقد آتينا لقمان الحكمة إذ قال؛ لأن هذه الموعظة حكمة.

وقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؛ يعني أن الله المحيي المميت الرازق المنعم وحده لا شريك له، فإذا أشرك به أحد غيره فذلك أعظم الظلم لأنه جعل النعمة لغير ربها.ط

وأصل الظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه. وقد بينا ذلك فيما سلف من الكتاب.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ المَصِيرُ﴾:

جاء في التفسير: ﴿وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ ضعفاً على ضعف، أي: لزمها لحملها إياه أن ضعفت مرة بعد مرة.

وموضع ((أن)) نصب بـ﴿وَوَصَّيْنَا﴾؛ المعنى: وصينا الإنسان أن اشكره لي ولوالديك، أي: وصيناه بشكرنا وبشكر والديه.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾:

يروى أن سعد بن أبي وقاص ذكر أن هذه الآية نزلت بسببه، وذلك أنه كان أسلم فحلفت أمه لا تأكل طعاماً، ولا تشرب شراباً حتى يرتد إلى الكفر، فمكثت ثلاثاً لا تطعم ولا تشرب حتى شجروا فاها أي: فتحوه، بعود حتى أكلت وشربت.

ويروى أنه قال: لو كانت لها سبعون نفساً فخرجت لما ارتددت عن الإسلام.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ يقال: صاحبته مصاحباً ومصاحبة. ومعنى المعروف: ما يستحسن من الأفعال.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي: اتبع سبيل من رجع إلي.

وقوله: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ وتقرأ ﴿مِثْقَالُ حَبَّةٍ﴾.

والآية إلى قوله ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطيف في استخراجها خبير بمكانها. ويقال ﴿فِي صَخْرَةٍ﴾، أي: في الصخرة التي تحت الأرض.

ويروى أن ابن لقمان سأل لقمان فقال: أرأيت الحبة تكون في مقل البحر، أي: في مغاص البحر أيعلمها الله؟ يقال: ((مَقَل يَمْقُل)) إذا غاص، فأعلمه أن الله -عز وجل- يعلم الحبة حيث كانت، وفي أخفى المواضع، لأن الحبة في الصخرة أخفى من الماء.

ثم أعلمه أنها حيث كانت يعلمها بلطفه -عز وجل- وخبرته.

وهذا مثل لأعمال العباد؛ أن الله يأتي بأعمالهم يوم القيامة فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شر يره.

فأما رفع ((مثقالُ)) مع تأنيث ((تك)) فلأن ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ راجع إلى معنى خردلة، فهو بمنزلة: إن تك حبة من خردل.

ومن قرأ: ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ بالنصب، فعلى معنى: أن التي سألتني عنها إن تك مثقال حبة، وعلى معنى: إن ما فعله الإنسان وإن صغرت يأت الله بها.

ويجوز: ((أنها إن تك)) -بالتاء- ((مثقال حبة من خردل))، على معنى: أن القصة كما تقول: ((إنها هند قائمة))، ولو قلت: ((إنها زيد قائم)) لجاز، إلا أن النحويين يختارون ذلك مع المذكر، ويجيزون مع المؤنث التأنيث والتذكير، يقولون: ((أنه هند قائمة))، و((إنها أمة الله قائمة))، فيجيزون الوجهين.

فأما: ((إنها إن تك مثقال حبة من خردل)) عند من لا يجيز ((إنها زيد قائم))، فيجوز عنده هذا لأن معناهالتأنيث، برد ((ما)) إلى الحبة من الخردل.

وقوله -تعالى-: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ ويقرأ: ((تصاعر)).

ويجوز في اللغة العربية: ((ولا تصْعِرْ))، ولا أعلم أحداً قرأ بها، فإذا لم ترو فلا تقرأ بها.

ومعناه: لا تعرض عن الناس تكبراً، يقال: ((أصاب البعير صَعَر وصيد)) إذا أصابه داء فلوى منه عنقة، فيقال للمتكبر: ((فيه صَعَرٌ، وفيه صَيَد))، فأما ﴿تُصَعِّرْ﴾ فعلى وجه المبالغة على معنى ((يفاعل))، كأنك تعارضهم بوجهك.

ومعنى ﴿تُصَعِّرْ﴾ تلزم خدك الصعر، لأنه لا داء بالإنسان أدوأ من الكبر.

والمعنى في الثلاثة هذا المعنى، إلا أن ((تُصَعِّر وتُصَاعِر)) أبلغ من ((تُصْعِرْ)).

وقوله: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً﴾ أي: لا تمش متبختراً مختالاً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ معنى ((اغضض)) انقص، ومن ذلك: ((غضضت بصري))، و((فلان يغض بصره من فلان)) أي: ينتقصه.

ومعنى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ﴾ أقبح الأصوات، يقال: أتانا فلان بوجه منكر الخلقه، أي: قبيح.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾:

تسخير ما في السماوات الشمس والقمر والنجوم، ومعنى تسخيرها للآدميين الانتفاع بها في بلوغ منابتهم، والاهتداء بالنجوم في مسالكهم، وتسخير ما في الأرض تسخير بحارها وأنهارها ودوابها وجميع منافعها.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ ويقرأ ﴿نِعمَةً﴾ على الإفراد. فمن قرأ ﴿نِعمَةً﴾ فعلى معنى ما أعطاهم من توحيد -عز وجل-، ومن قرأ ﴿نِعَمَهُ﴾ فعلى جميع ما أنعم به عليهم.

قوله -عز وجل-: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ أي: من أسلم فقد استمسك بقوله: ((لا اله إلا الله))، وهي العروة الوثقي.

وقوله -تعالى-: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾

ويقرأ ((والبحرُ)) بالرفع.

فأما النصب فعطف على ((ما)) والمعنى: ولو أن ما في الأرض ولو أن البحر، والرفع أحسن على معنى: والبحر هذه حاله، ويجوز أن يكون معطوفاً على موضع ((أن)) مع ما بعدها لأن معنى ((لو)) أن ما في الأرض لو وقع في الأرض لأن ((لو)) تطلب الأفعال فإذا جاءت معها ((إلا)) لم تذكر معها الأفعال، لأنه تذكر معها الأسماء والأفعال.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ معناه: ما قطعت.

ويروى أن المشركين قالوا في القرآن: إن هذا الكلام سينفد وسيقطع، فأعلم الله -عز وجل- أن كلماته وحكمته لا تنفد.

وقوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ تأويله: إلا كخلق نفس واحدة، وكبعث نفس واحدة، أي: قدرة الله على بعث الخلق أجمعين وعلى خلق الخلق أجمعين وقدرته على خلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة.

وقوله: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ معناه: يدخل الليل في النهار، ليل الصيف في نهاره.

﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يدخل نهار الشتاء في الليل.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ يقرأ ((بِنِعِمات الله))، ويجوز: ((بِنَعْمَات الله))، ويجوز: ((بِنِعَمَات الله)) بفتح العين ففيها ثلاث أوجه إذا جمعت، وأكثر القراءة ﴿بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ على الواحدة، وأما الكسر فعلى مذهب من جمع كسرة على كسرات، ومن أسكن وهو أجود أوجهه فعلى من جمع ((كِسْرات))، لأن ((كِسِرات)) يقل مثله في كلام العرب، إنما جاء في أصول الأبنية ما توالت فيه ((كسرتان)) نحو: ((إبل وإطل)) فقط.

ومن قراء ((بِنِعَمَات الله)) فلأن الفتح أخف الحركات، قال الشاعر[1] [من الطويل]:

فَلَمّا رَأَونا بادِياً رُكَبَاتُنا عَلى مَوطِنٍ لا نَخلِطُ الجِدَّ بِالهَزلِ

والأكثر: ((رَكبات))، و((رُكبات)) لثقل الضمة، ولكنه أكثر من الكلام من ((نِعِمَات، وكِسِرات)).

وقوله -عز وجل-: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ روى قتادة: أن أحب العباد إلى الله من إذا أُعطى شكر، وإذا ابتلي صبر.

فأعلم الله -عز وجل- أن المعتبر المتفكر في خلق السماوات والأرض هو الصبار الشكور.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾.

قال في ((الموج)) ﴿كَالظُّلَلِ﴾ لأن موج البحر يعظم حتى يصير كأنه ظلل.

وقوله ﴿خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختر: أقبح الغدر.

(١) هو: عمرو بن شأس الأسدي.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً﴾ جاز في المصحف بغير ياء والأصل: ((جازى)). وذكر سيبويه والخليل: أن الاختيار في الوقف هو جاز، بغير ياء.

والأصل: ((جازى)) بضمة وتنوين، فثقلت الضمة في الياء، فحذفت وسكنت الياء والتنوين فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، وكان ينبغي أن يكون في الوقف بياء لأن التنوين قد سقط ولكن الفصحاء من العرب وقفوا بغير ياء ليعلموا أن هذه الياء تسقط في الوصل.

وزعم يونس: أن بعض العرب الموثوق بهم يقف بياء، ولكن الاختيار اتباع المصحف والوقف بغير ياء.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ﴾، ﴿الغَرُورُ﴾ الشيطان.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

جاء في التفسير: أن هذه الخمس مفاتح الغيب التي قال الله -عز وجل- فيها: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾[الأنعام: ٥٩] فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن، لأنه قد خالفه.

* * *

سورة السجدة[1]

مكية

إلا ثلاث آيات منها مدنية، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً﴾ إلى تمام الثلاث آيات.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله -عز وجل-: ﴿الم * تَنزِيلُ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾.

روى أحمد بن حنبل بإسناد له أن النبي -عليه السلام- كان يقرأ في كل ليلة سورة السجدة ﴿الم * تَنزِيلُ﴾، وسورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ﴾.

وروى كعب الأحبار أنه قال: ((من قرأ سورة السجدة كتبت له سبعون حسنة وحطت عنه سبعون سيئة ورفعت له سبعون درجة)).

وقوله: ﴿الم * تَنزِيلُ الكِتَابِ﴾ قد شرحنا ما قيل: في ﴿الم﴾، ورفع: ﴿تَنزِيلُ﴾ على خبر الابتداء على إضمار الذي نتلو تنزيل الكتاب، ويجوز أن يكون رفعه على الابتداء،

---

(١) مقدمة للسورة الكريمة: سورة السجدة من سور القرآن الكريم المكية. ترتيبها في المصحف الشريف الثانية والثلاثون. عدد آياتها ثلاثون آية.

جاءت تسميتها السجدة لما ذكر تعالى فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم استجابوا لها فخروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم.

سورة السجدة كسائر السور المكية تعالج العقيدة الإسلامية، الإيمان بالله، واليوم الآخر، والكتب والرسل، والبعث والجزاء. والمحور الذي تدور حوله السورة الكريمة هو موضوع البعث بعد الفناء، الذي طالما جادل المشركون فيه، واتخذوه ذريعة لتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام.

ابتدأت السورة الكريمة بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم، المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ الذي لا تحوم حوله الشبهات والأباطيل. ومع وضوح إعجازه، وسطوع آياته، وإشراق بيانه، وسمو أحكامه، اتهم المشركون الرسول بأنه افترى هذا القرآن، واختلقه من تلقاء نفسه فجاءت السورة الكريمة تردّ هذا البهتان، بروائع الحجة والبيان. ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية، ببيان آثار قدرة الله في الكائنات العلوية، والسفلية، على طريقة القرآن في لفت الأنظار إلى إبداع الواحد القهار. ثم ذكر القرآن شبهة المشركين السخيفة في إنكارهم للبعث والنشور، والردّ على ذلك. وخُتمت السورة بالحديث عن يوم الحساب، وما أعدّ الله فيه للمؤمنين، المتقين من النعيم الدائم في جنات الخلد، وما أعده للمجرمين من العذاب، والنكال في دار الجحيم.

ويكون خبر الابتداء ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾.

وقوله -عز وجل-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ معناه: بل أيقولون افتراه.

وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُم مِن نَّذِيرٍ مِن قَبْلِكَ﴾، ومثله ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾[يس: ٦] و((ما)) في جمع الموضعين نفي، أي: لم يشاهدوا هم ولا آباؤهم نبياً.

فأما الإنذار بما تقدم من رسل الله -صلى الله عليهم وسلم- فعلى آبائهم به الحجة، لأن الله -عز وجل- لا يعذب إلا من كفر بالرسل، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء: ١٥].

قوله: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾.

أعلم الله -عز وجل- أنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج الأمر إليه في يوم، وذلك اليوم مقداره ألف سنة مما تعدون.

ومعنى ﴿يَعْرُجُ﴾ ينزل ويصعد، يقال: عرجت في السلم أعرج، ويقال: ((عَرَج يَعْرُج)) إذا صار أعرج.

وقول -تعالى-: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ وقد قرىء ﴿خَلَقَهُ﴾ بتحريك اللام وتسكينها جميعها، ويجوز ((خلْقه)) بالرفع ولا أعلم أحداً قراء بها.

فأما ﴿خَلَقَهُ﴾ فعلى الفعل الماضي، وتأويل الإحسان في هذا أنه خلقه على إرادته فخلق الإنسان في أحسن تقويم، وخلق القِرْدَ على ما أحب -عز وجل- وخلقه إياه على ذلك من أبلغ الحكمة.

ومن قرأ ﴿خَلْقَهُ﴾ بتسكين اللام فعلى وجهين؛ أحدهما: المصدر الذي دل عليه أحسن؛ والمعنى: الذي خلق كل شيء خلقه، ويجوز أن يكون على البدل فيكون المعنى: الذي أحسن خلق كل شيء خلقه، والرفع على إضمار: ((ذلك خلقه))

وقوله -عز وجل-: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ يعني آدم وذريته، فآدم خلق من طين.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِن مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ومعنى ﴿مَهِينٍ﴾ ضعيف.

ومعنى ((السلالة)) في اللغة: العربية ما ينسل من الشيء القليل، وكذلك ((الفعالة)) نحو: ((الفضالة والنخامة والقوارة)).

وقوله -عز وجل-: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ويقرأ: ((أَنَّا لفي خلق جديد))، ويقرأ: ((إِنَّا لفي خلق جديد)).

وموضع ((إذا)) نصب، فمن قرأ ﴿أَئِنَّا﴾ فعلى معنى: أنبعث إذا ضللنا في الأرض، ويكون يدل عليه ((إنا لفي خلق جديد))، ومن قرأ: ((إنا لفي خلق جديد)) فـ((إذا)) منصوبة بـ((ضللنا))، ويكون بمعنى الشرط والجزاء، ولا يضر ألاَّ يذكر الفاء لأن ((إذا)) قد وليها الفعل الماضي، ولا يجوز أن ينتصب ((إذا)) بما بعد ((أن))، لا خلاف بين النحويين في ذلك.

ومعنى ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا﴾ إذا متنا فصرنا تراباً وعظاماً فضللنا في الأرض فلم يتبين شيء من خلقنا، ويقرأ: ((صللنا)) بالصاد، ومعناه على ضربين؛ أحدهما: انتنا وتغيرنا، وتغيرت صورنا، يقال: صل اللحم وأصل إذا انتن وتغير، والضرب الثاني: ((صللنا)) صرنا من جنس الصلة، وهي الأرض اليابسة.

وقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ﴾ من توفية العدد.

تأويله: أنه يقبض أرواحكم أجمعين فلا ينقص واحد منكم، كما تقول: قد استوفيت من فلان، وتوفيت من فلان مالي عنده، فتأويله: أنه لم يبق لي شيء.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ المُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هذا متروك الجواب، وخطاب النبي -عليه السلام- خطاب الخلق، الدليل عليه ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[الطلاق: ١] فهو بمنزلة: ولو ترون؛ فالجواب لرأيتم ما يعتبر به غاية الاعتبار.

وقوله: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ فيه إضمار ((يقولون)) ربنا أبصرنا.

وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾؛ تأويله: مثل قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى﴾[الأنعام: ٣٥]، ومثله ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[الشعراء: ٤].

وقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ قال قتادة: بذنوبهم، وهذا حسن، لأن الله -عز وجل- قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الطور: ١٦].

وقوله: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾؛ تأويل ((النسيان)) ههنا الترك.

المعنى: فذوقوا بما تركتم عمل لقاء يومكم هذا فتركناكم من الرحمة.

وقوله -عز وجل-: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾:

معنى ﴿تَتَجَافَى﴾ ترتفع وتفارق المضاجع.

ومعنى ﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ خوفاً من عذاب الله وطمعاً في رحمة الله.

وانتصاب ﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ لأنه مفعول له، كما تقول: ((فعلت حذار الشر)) أي:لحذار الشر وحقيقته أنه في موضع المصدر لأن ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ في هذا الموضع يدل على أنهم يخافون عذابه ويرجون رحمته، فهو في تأويل يخافون خوفاً ويطمعون طمعاً.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: ينفقون في طاعة الله.

وقد اختلف في تفسيرها؛ أكثر ما جاء في التفسير: إنهم كانوا يصلون في الليل وقت صلاة العتمة المكتوبة لا ينامون عنها.

وقيل: التطوع بين الصلاتين، صلاة المغرب والعشاء الآخرة.

وقوله: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ دليل على أنها الصلاة في جوف الليل، لأنه عمل يستسر الإنسان به فجعل لفظ ما يجازي به.

﴿أُخْفِيَ﴾ ويقرأ بإسكان الياء ويكون المعنى: ما أخفي لهم، أخبار عن الله، وإذا قرئت: ﴿أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ بفتح الياء فعلى تأويل الفعل الماضي، ويكون اسم ما لم يسم فاعله ما في ((أخفي)) من ذكر ((ما)).

وقرأ الناس كلهم: ﴿مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ إلا أبا هريرة فإنه قرأ: ((من قرات أعين)). ورواه عن النبي -عليه السلام-.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

((جزاء)) أيضاً منصوب مفعول له، قرئت: ((فلا تعلم نفس ما أخفيْ لهم)) أي: ما أخفى الله لهم.

وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾:

جاء في التفسير: إنها نزلت في علي بن أبي طالب -عليه السلام-، وعقبة بن أبي معيط. فالمؤمن: علي ﷺ، والفاسق: عقبة بن أبي معيط.

فشهد الله لعلي بالإيمان وأنه في الجنة بقوله: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾.

وقال: ﴿لا يَسْتَوُونَ﴾، ولو كان قال: ((لا يستويان)) لكان جائزاً. ولكن ((مَن)) لفظها لفظ الواحد، وهي تدل على الواحد وعلى الجماعة فجاء ﴿لا يَسْتَوُونَ﴾ على معنى لا يستوي المؤمنون والكافرون، ويجوز أن يكون ﴿لا يَسْتَوُونَ﴾ للاثنين، لأن معنى الاثنين جماعة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِنَ العَذَابِ الأَدْنَى دُونَ العَذَابِ الأَكْبَرِ﴾: ((الأدنى)) ما يصيبهم في الدنيا.

وقد اختلف في تفسيرها، فقيل: ما يصيبهم من الجدب والخوف، ويكون دليل هذا القول قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾[البقرة: ١٥٥].

وقيل: ﴿العَذَابِ الأَدْنَى﴾ ههنا السباء والقتل، وجملته: أن كل ما يعذب به في الدنيا فهو العذاب الأدنى، والعذاب الأكبر عذاب الآخرة.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِن لِقَائِهِ﴾؛ جاء في التفسير لا تكن في شك من لقاء موسى -عليه السلام-.

ودليل هذا القول في التفسير قوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنَا﴾[الزخرف: ٤٥].

فالمعنى: لا تكن يا محمد في مرية من لقائه، والخطاب للنبي -عليه السلام- بمنزله الخطاب له ولأمته في هذا الموضع، أي: فلا تكونوا في شك من لقاء النبي -عليه السلام- بموسى.

وقيل: ﴿فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِن لِقَائِهِ﴾؛ أي: من لقاء موسى الكتاب، وتكون الهاء للكتاب ويكون في لقائه ذكر موسى، ويجوز أن يكون الهاء لموسى، والكتاب محذوف، لأن ذكر الكتاب قد جرى كما جرى ذكر موسى.

وهذا والله أعلم أشبه بالتفسير.

وقوله ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾؛ أكثر البصريين لا يجيزون: ((أئمة)) بهمزتين، وابن أبي إسحاق وحدة يجيز اجتماع همزتين، وسيبويه والخليل وجميع البصريين إلا ابن إسحاق يقولون: ((أيمة)) بهمزة وياء، وإذا كانت الهمزتان في كلمة واحدة لم يجيزوا إلا إبدال الثانية في نحو: ((ايمة، وآدم)).

ومن قرأ ﴿أَئِمَّةً﴾ لزمه أن يقول في آدم: أآدم، لأنه أفعل من الأدمة، وأئمة أفعلة، ولا ينبغي أن تقرأ إلا ((أيمة))، لأن من حقق الهمزة فيما يجوز فيه تخفيف الهمز أجاز التخفيف فكذلك هو يجيز التخفيف في ((أيمة))، فتصير قراءة أيمة إجماعاً.

وقوله: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾؛ ولما صبروا، والقراءة بالتشديد والتخفيف في ((لما)) فالتخفيف معناه: جعلناهم أئمة لصبرهم، ومن قرأ ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ فالمعنى: معنى حكاية المجازاة لما صبروا أئمة، وأصل الجزاء في هذا كأنه قيل: إن صبرتم جعلناكم أئمة، فلما صبروا جعلوا أئمة.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، وقرئت بالنون: ((أو لم نهد لهم)).

وزعم بعض النحويين: أن ((كم)) في موضع رفع بـ((يهد))، والمعنى عنده: أو لم تبين لهم القرون التى أهلكنا من قبلهم. وهذا عندنا -أعنى عند البصريين- لا يجوز، لأنه لا يعمل ما قبل ((كم)) لا يجوز في قولك: ((كم رجل جاءني))، وأنت مخبر أن تقول: ((جاءني كم رجل))، لأن ((كم)) لا تزال عن الابتداء، ولذلك جاز أن يفصل بينهما وبين ما عملت فيه إذا نصبت بما في الخبر والاستفهام تقول في الخبر:

* كَمْ بِجُودٍ مُقْرِفاً نَالَ الغِنَى *

ففصلت بين ((كم)) وبين قولك: ((مقرفاً)) بقولك: ((بجود)) فيكون الفصل فيها بين ((كم)) وما عملت فيه عوضاً من تصرفها، ألا ترى أنه لا يجوز: ((عشرون عندي درهماً))، ويجوز في الخبر: ((عندي درهماً)) جيداً.

وحقيقة هذا المعنى أن ((كم ة ةفي موضع نصب بـ((أهلكنا))، وفاعل ((يهد)) ما دل عليه المعنى مما سلف من الكلام، ويكون ((كم)) أيضاً دليلاً على الفاعل في ((يهدي)) ويدل على هذا قراءة من قرأ: ((أو لم نهد)) بالنون؛ أي: ألم نبين لهم. ويجوز أيضاً على ((يهد)) بالياء أن يكون الفعل لله -عزّ وجل- يدل عليه قراءة من قرأ: ((أو لم نهد)).

وقوله -عزّ وجل- ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾؛ يقرأ: ﴿الجُرُزِ﴾ ويجوز: ((الْجَرَز والْجَرْز والْجُرْز)) كل ذلك قد حكي في ﴿الجُرُزِ﴾.

جاء في التفسير: أنها أرض اليمن.

والجرز عند أهل اللغة: الأرض التي لا تنبت. وكان أصلها أنها تأكل نباتها، يقال امرأة جزور إذا كانت أكولاً، ويقال: سيف جراز إذا كان مستأصلاً.

فمن قال: ((جُرْز)) فهو تخفيف: ((جُرُز)) ومن قال: جَرَز وجَرْز فهما لغتان.

ويجوز أن يكون ((جُرْز)) مصدراً وصف به كأنه أرض ذات جرز، أعني بإسكان الراء؛ أي: ذات أكل للنبات.

وقوله: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾؛ ويجوز في ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾: تمشون.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَـذَا الفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ جاء في التفسير: أن أصحاب النبي -عليه السلام- قالوا: يوشك أن يكون لنا يوم نستريح فيه، فقال المشركون: متى هذا الفتح إن كنتم صادقين.

فأعلم الله -عزّ وجل- أن الراحة في الجنة في الآخرة.

وجاء أيضاً: في الفتح متى هذا الحكم إن كنتم صادقين، ومتى هذا الفصل، فأعلم الله -عزّ وجل- أن ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ لاَ يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾

أي: أنهم ما داموا في الدنيا فالتوبة معروفة لهم ولا توبة في الآخرة.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُنتَظِرُونَ﴾ وقرئت: ((فانتظر إنهم منتظرون))، و((مُنتَظَرُون)).

* * *

سورة الأحزاب[1]

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وقوله -عزّ وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾.

معناه: اثبت على تقوى الله ودم عليها.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾؛ أي: كان عليماً بما يكون قبل كونه، حكيماً فيما يخلقه قبل خلقه إياه.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ﴾؛ يعنى به القرآن.

وقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ دخلت الباء بمعنى الأمر، وإن كان لفظه لفظ الخبر؛ المعنى: اكتف بالله وكيلا.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾؛ قال ابن عباس: إن النبي ﷺ صلى فسها كما يسهو الرجال في صلاته، وخطرت على باله كلمة فقال المنافقون: إن له قلبين، قلباً معكم وقلباً مع أصحابه.

وأكثر ما جاء في التفسير: أن عبد الله بن خطل كانت قريش تسميه ذا القلبين.

---

(١) **مقدمة للسورة الكريمة**: سورة الأحزاب من سور القرآن الكريم المدنية. ترتيبها في المصحف الشريف الثالثة والثلاثون. عدد آياتها ثلاث وسبعون آية. وجاءت تسميتها الأحزاب لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة، فاجتمع كفّار مكة مع غطفان وبني قريظة، وأوباش العرب على حرب المسلمين، ولكن الله ردهم مدحورين، وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة.

سورة الأحزاب من السور المدنية التي تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة، وبالأخص أمر الأسرة فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والهناء.

وقد تناولت السورة التوجيهات والآداب الإسلامية حيث جاء الحديث عن بعض الآداب الاجتماعية كآداب الوليمة، وآداب الستر والحجاب، وعدم التبرج، وآداب معاملة الرسول ﷺ . وتناولت كذلك الأحكام والتشريعات الإلهية، وجاء الحديث عنها في الأحكام التشريعية مثل حكم الظهار والتبني، وتعدد زوجات الرسول الطاهرات والحكمة منه، وحكم الصلاة على الرسول ﷺ ، وحكم الحجاب الشرعي، والأحكام المتعلقة بأمور الدعوة إلى الوليمة، إلى غير ذلك من أحكام تشريعية. وتحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الخندق التي تسمى غزوة الأحزاب، وصوّرتها تصويرًا دقيقًا بتآلب قوى البغي والشر على المؤمنين، وكشفت عن خفايا المنافقين، وحذّرت من كيدهم، وأطالت الحديث عنهم في البدء والختام.

وروي أنه قال: إن لي قلبين أفهم بكل واحد منهما أكثر مما يفهم محمد، فأكذبه الله -عزّ وجل- فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

ثم قرن بهذا الكلام ما يقوله المشركون غيرهم مما لا حقيقة له فقال -عزّ وجل-: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾؛ وتقرا: ((تَظَّاهرون منهن)).

فمن قرأ ﴿تُظَاهِرُونَ﴾ بالتخفيف فعلى قولك: ظاهر الرجل من امرأته، ومن قرأ: ((تَظَّاهرون)) بالتشديد فعلى تظاهر الرجل من امرأته، ومعناه: أنه قال لها: أنت علي كظهر أمي

فأعلم الله -عزّ وجل- أن الزوجة لا تكون أماً، وكانت الجاهلية تطلق بهذا الكلام، فأنزل الله كفارة الظهار في سورة المجادلة.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾؛ أي: ما جعل من تدعونه ابناً وليس بولد في الحقيقة ابناً.

وكانوا يتوارثون على الهجرة ولا يرث الإعرابي من المهاجر، وإن كان النسب يوجب له الإرث. فأعلم الله أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض وأبطل الإرث بالهجرة.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾؛ أي: ادعاؤكم نسب من لا حقيقة لنسبه قول بالفم لا حقيقةَ معنى تحته.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾؛ أي: الله لا يجعل الابن غير الابن.

﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾؛ أي: يهدي السبيل المستقيمة مثل قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[الممتحنة: ١].

وقوله: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾؛ أي: هو أعدل.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾؛ أي: فإن لم تعلموا أن المدعو ابن فلان فهو أخوك في الدين إذا كان مؤمن؛ أي: فقل يا أخي.

﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾؛ أي: بنو عمكم، ويجوز أن يكون ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾: أولياؤكم في الدين.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾؛ في هذا وجهان:

إحداهما: ليس عليكم جناح فيما أخطأتم به مما قد فعلتموه قبل أن تنهوا عن هذا، ولكن ما تعمدت قلوبكم؛ أي: ولكن الإثم فيما تعمدت قلوبكم، و((ما)) في موضع جر،

عطف على ((ما)) الأولى؛ المعنى: وليس عليكم جناح في الذي أخطأتم به ولكن في الذي تعمدت قلوبكم.

ويجوز أن يكون: ولا جناح عليكم في أن تقولوا له يا بنى على غير أن تتعمد أن تجريه مجرى الولد في الإرث.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾؛ وفي بعض القراءة: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم، ولا يجوز أن تقرأ بها لأنها ليست في المصحف المجمع عليه، والنبي -عليه السلام- أبو الأمة في الحقيقة.

ومعنى ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾؛ أي: لا تحل زوجة النبي ﷺ لأحد بعده إذ هي بمنزله ألام.

وقوله: ﴿وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾؛ أي: ذو الرحم بذي رحمه أولى من المهاجر إذا لم يكن من ذوي رحمه.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَعْرُوفاً﴾؛ ((إلا)) أن استثناء ليست من الأول، المعنى: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز، وهو أن يوصى الرجل لمن يتولاه بما أحب من ثلثه، إذا لم يكن وارثاً، لأنه لا وصية لوارث.

﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُوراً﴾؛ أي: كان ذلك في الكتاب الذي فرض فيه الفرض.

﴿مَسْطُوراً﴾؛ أي: مكتوباً.

وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾؛ موضع ((إذ)) نصب؛ المعنى: اذكر إذ أخذنا.

فذكره الله ﷺ في أخذ الميثاق قبل نوح.

وجاء في التفسير: ((إني خُلقت قبل الأنبياء، وبُعثت بعدهم)).

فعلى هذا القول لا تقديم في الكلام ولا تأخير. هو على نسقه، وأخذ الميثاق حيث أخرجوا من صلب آدم ﷺ كالذر، ومذهب أهل اللغة أن الواو معناها الاجتماع، وليس فيها دليل أن المذكور أولاً لا يستقيم أن يكون معناه التأخير.

فالمعنى على مذهب أهل اللغة: ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ومنك، ومثله قوله: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[آل عمران: ٤٣].

وقوله: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾؛ معناه: ليسأل المبلغين من الرسل عن صدقهم في تبليغهم.

وتأويل مسألة الرسل -والله يعلم أنهم صادقون- التبكيت للذين كفروا بهم كما قال الله -عزّ وجل- ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ فأجاب فقال: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾، ثم قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾[المائدة: ١١٦، ١١٧].

فتأويله: التبكيت للمكذبين، فعلى هذا ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾؛ أي: للكافرين بالرسل.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ هؤلاء الجنود هم الأحزاب.

والجنود الذين كانوا: هم قريش مع أبي سفيان وغطفان وبنو قريظة، تحزبوا وتظاهروا على حرب رسول الله ﷺ فأرسل الله عليهم ريحاً كفأت قدورهم؛ أي: قلبتها، وقلعت فساطيطهم وأظعنتهم من مكانهم.

والجنود التي لم يروها: الملائكة.

وقوله: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾؛ جاءت قريظة من فوقهم، وجاءت قريش وغطفان من ناحية مكة من أسفل منهم.

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾؛ اختلفت القراء فيها فقرأ بعضهم بإثبات الألف في الوقف والوصل، وقرأ بعضهم ((الظنون)) بغير ألف في الوصل، بألف في الوقف. وقرأ أبو عمر: ((الظنون)) بغير ألف في الوصل والوقف.

والذي عليه حذاق النحويين والمُتبعون السُنة من حُذاقهم أن يقرأوا ﴿الظُّنُونَا﴾، ويقفون على الألف ولا يصلون، وإنما فعلوا ذلك لأن أواخر الآيات عندهم فواصل، ويثبتون في آخرها في الوقف ما قد يحذف مثله في الوصل. وهؤلاء يتبعون المصحف ويكرهون أن يصلوا ويثبتوا الألف، لأن الآخر لم يقفوا عليه فيجروه مجرى الفواصل. ومثل هذا من كلام العرب في القوافي:

* أَقِلي اللَّومَ عَاذِل والعِتَابَا *

فأتيت الألف لأنها في موضع فاصلة وهي القافية.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾؛ ويجوز ((زَلزالاً)). بفتح الزاي؛ والمصدر من المضاعف يجيء على ضربين ((فِعلال وفَعلال)) نحو: ((قلقله وقِلقالا وقَلقالا وزلزلزلته زِلزالا وزَلزالا))، والكسر أكثر وأجود لأن غير المضاعف من هذا الباب مكسور الأول، نحو: ((دَحرجته دِحراجاً)) لا يجوز فيه غير الكسر.

ومعنى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: في تلك الحال اختبر المؤمنون.

ومعنى ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾؛ أزعجوا إزعاجاً شديداً وحركوا.

وقوله ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾؛ موضع ((إذ)) نصب؛ المعنى: اذكر إذ يقول المنافقون.

ومعنى الآية: أن المنافقين قالوا: وعدنا محمد ﷺ أن فارس والروم تفتحان علينا ونحن بمكاننا هذا ما يقدر أحدنا يبرز لحاجته، فهذا وعد غرور.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَت طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾، ويقرأ: ((لا مَقام لكم)) بفتح الميم.

فمن ضم الميم فالمعنى: لا إقامة لكم، تقول: أقمت في البلد إقامة ومُقاماً، ومن قرأ: ((لا مَقام لكم)) بفتح الميم، فالمعنى: لا مكان لكم تقيمون فيه، وهؤلاء كانوا يثبطون المؤمنين عن النبي ﷺ.

﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ ؛ أي: مُعَوَّرة.

وذلك أنهم قالوا: إن بيوتنا مما يلي العدو، ونحن نسرق منها، فكذبهم الله تعالى وأعلم أن قصدهم الهرب والفرار فقال: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾.

ويقرأ: ((وما هي بِعَوِرة))، يقال: ((عَوِر المكان يَعْوَر عَوَراً، وهو عَوِر وبيوت عَوِرة، وبيوت عَوْرة)) على ضربين، على تسكين ((عَوْرة))، وعلى معنى ذات عَورة.

﴿إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً﴾ ؛ أي: ما يريدون تحرزاً من سرق، ولكن المنافقين يريدون الفرار عن نصرة النبي -علية السلام-.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ ؛ أي: ولو دخلت البيوت من نواحيها.

﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا﴾، ويقرأ بالقصر: ((لأتوها))، فمن قرأ ﴿لآتَوْهَا﴾ بالمد فالمعنى: لأعطوها؛ أي: لو قيل لهم كونوا على المسلمين مظهرين الفتنة لفعلوا ذلك ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً﴾.

ومن قرأ: ((لأتوها)) بالقصر، فالمعنى: لقصدوها.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ ؛ أي: الذين يعوقون عن النبي ﷺ نُصَّاره، وذلك أنهم قالوا لنُصَّار النبي ﷺ: ما محمد وأصحابه فخلوهم وتعالوا إلينا.

وقوله: ﴿وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾؛ أي: لا يأتون الحرب مع أصحاب النبي ﷺ إلا تعذيراً يوهمونهم أنهم معهم.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾؛ ﴿أَشِحَّةً﴾ منصوب على الحال، المعنى: يأتون الحرب بخلاء عليكم بالظفر والغنيمة، فإذا جاء الخوف فهم أجبن قوم، فإذا جاءت الغنيمة فأشح قوم وأخصمهم.

﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾؛ لأنهم يحضرون على غير نية خير، إلا نية شر.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾؛ معنى: ﴿سَلَقُوكُم﴾ خاطبوكم أشد مخاطبة وأبلغها في الغنيمة، ويقال: خطيب مِسْلاق وسَلاَّق إذا كان بليغاً في خطبه.

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ ؛ أي: خاطبوكم وهم أشحة على المال والغنيمة.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ﴾؛ أي: هم وإن أظهروا الإيمان ونافقوا فليسوا بمؤمنين.

وقوله: ﴿يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾؛ أي: يحسبون الأحزاب بعد انهزامهم وذهابهم لم يذهبوا لجبنهم وخوفهم منهم.

﴿وَإِن يَأْتِ الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ﴾؛ أي: إذا جاءت الجنود والأحزاب ودوا أنهم في البادية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ﴾؛ فوصف الله حال المنافقين في حرب الكافرين وحال المؤمنين في حرب الكافرين.

فوصف المنافقين بالفشل والجبن والروغان والمسارعة إلي الفتنة والزيادة في الكفر، ووصف المؤمنين بالثبوت عند الخوف في الإيمان، فقال ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ﴾... الآية.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ والوعد أن الله قال لهم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة: ٢١٤].

فكذلك لما ابتلي أصحاب النبي ﷺ وزلزلوا زلزالاً شديداً علموا أن الجنة والنصر قد وجبتا لهم.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾؛ المعنى: أنهم عاهدوا في الإسلام فأقاموا على عهدهم، وموضع ((ما)) نصب بـ((صدقوا)).

﴿فَمِنْهُم مَن قَضَى نَحْبَهُ﴾؛ أي: أجله ولم يبذل. وهو قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾، فالمعنى: أنه مات على دينه غير مبدل.

﴿لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ﴾؛ أي: ليجزي الذين صدقوا في عهدهم، والمنافقون كذبوا في عهدهم لأنهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أو ينقلهم من النفاق إلى الإيمان.

وقوله: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً﴾؛ يعنى به ههنا أبو سفيان وأصحابه الأحزاب، لم ينالوا خيراً؛ أي: لم يظفروا بالمسلمين وكان ذلك عندهم خيراً فخوطبوا على استعمالهم.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾؛ يعنى به بنو قريظة.

ومعنى ﴿ظَاهَرُوهُم﴾ عاونوهم على النبي ﷺ فقذف الله في قلوبهم الرعب وأنزلهم على حكم سعد، وكان سعد ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾.

جعل النبي ﷺ أرضهم وديارهم وأموالهم للمهاجرين لأنهم لم يكونوا ذوي عقار.

ومعنى ((الصياصي)): كل ما يمتنع به، والصياصي ههنا: الحصون، وقيل القصور، والقصور قد يتحصن فيها. والصياصي: قرون البقر والظباء، وكل قرن صيصية، لأن ذوات القرون يتحصن بقرونها وتمتنع بها، وصيصة الديك شوكته لأنه يتحصن بها أيضاً.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾؛ وكن أردن شيئاً من أمر الدنيا، فأمر الله رسوله ﷺ أن

يخير نساءه بين الإقامة معه على طلب ما عند الله، أو التسريح إن أردن الحياة الدنيا وزينتها، فاخترن الآخرة على الدنيا والجنة على الزينة.

وقوله: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾ ؛ أي: من آثر منكن الآخرة فأجره أجر عظيم.

وقوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾؛ ولم يقل: ((كواحدة من النساء))، لأن أحداً نفي عام للمذكر والمؤنث والواحد والجماعة.

وقوله: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾؛ في موافقتكن له.

﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْروفاً﴾ ؛ أي: قلن ما يوجبه الدين والإسلام بغير خضوع فيه، بل بتصريح وبيان.

﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ بتسكين العين، نسق على: ﴿فَلاَ تَخْضَعْنَ﴾ فيطمع.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ ويقرأ: ((وقِرن)) بكسر القاف، فمن قرأ بالفتح فهو من قررت بالمكان أقر، فالمعنى: وأقررن فإذا خففت صارت: ((وقرن)) حذفت الألف لثقل التضعيف في الراء وألقيت حركتها على القاف.

والأجود: ((وقِرن في بيوتكن)) بكسر القاف، وهو من الوقار، وتقول: وَقِر يَقِر في المكان، ويصلح أن يكون من قررت في المكان أقره فيحذف على أنه من (((أقرِرن)) بكسر الراء الأولى، والكسر من جهتين، من أنه من الوقار، ومن أنه من القرار جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾؛ التبرج: إظهار الزينة، وما تستدعي به شهوة الرجل.

وقيل: إنهن كن يتكسرن في مشيتهن، ويتبخترن.

وقيل: إن الجاهلية الأولى من كان من لدن آدم إلى زمن نوح.

وقيل: من زمن نوح إلى زمن إدريس.

وقيل: منذ زمن عيسى إلى زمن النبي ﷺ.

والأشبه تكون منذ زمن عيسى إلى زمن النبي ﷺ لأنهم هم الجاهلية المعروفون، لأنه روي أنهم كانوا يتخذون البغايا، وهن الفواجر.

فإن قيل: لم قيل ((الأولى))؟ قيل: يقال لكل متقدم ومتقدمة: ((أولى وأول))، فتأويله: أنهم تقدموا أمة محمد ﷺ، فهم أولى وهم أول من أمة محمد ﷺ.

وقوله -عزّ وجل-: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾؛ وتقرأ: ((مُبَيَّنَة)) .

﴿يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، القراءة يضاعف بألف، وقرأ أبو عمرو وحده ((يضعف))، وكلاهما جيد.

وقال أبو عبيدة: يعذب ثلاثة أَعْذِبَةٍ، قال: كان عليها أن يعذب مرة واحدة، فإذا ضوعفت المرة ضعفين، صار العذاب ثلاثة أعذبة، وهذا القول ليس بشي لأن معنى يضاعف لها العذاب ضعفين يجعل عذاب جرمها كعذابي جرمين. والدليل عليه ﴿نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ فلا يكون أن تعطى على الطاعة أجرين وعلى المعصية ثلاثة أعذبة، ومعنى ضعف الشيء مثله، لأن ضعف الشيء الذي يضعفه بمنزلة مثقال الشيء.

ومعنى ﴿يَقْنُتْ﴾: يقيم على الطاعة.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً﴾؛ جاء في التفسير: أنه الجنة.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ﴾؛ ﴿أَهْلَ البَيْتِ﴾، منصوب على المدح، ولو قرئت: ﴿أَهْلِ البَيْتِ﴾ بالخفض أو قرئت: ﴿أَهْلُ البَيْتِ﴾ بالرفع لجاز ذلك ولكن القراءة النصب، وهو على وجهين: على معنى: أعنى أهل البيت، وعلى النداء، على معنى يا أهل البيت.

والرجس في اللغة: كل مستنكر مستقذر من مأكول أو عمل أو فاحشة.

وقيل إن ﴿أَهْلَ البَيْتِ﴾ ههنا: يعنى به نساء النبي ﷺ.

وقيل: نساء النبي والرجال الذين هم آله، واللغة تدل على أنه للنساء والرجال جميعاً لقوله: ﴿عَنكُمُ﴾ بالميم، ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾، ولو كان للنساء لم يجز إلا: ((عنكن ويطهركن))، والدليل على هذا قوله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ حين أفرد النساء بالخطاب.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾:

لما نزل في نساء النبي -عليه السلام- ما نزل، قال النساء من المسلمات: فما نزل فينا نحن شيء، فأعلم الله -عز وجل- أن النساء والرجال يجازون بأعمالهم المغفرة والأجر العظيم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾؛ المعنى: والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات.

استغنى عن ذكر الهاء بما تقدم ودل على المحذوف، ومثله: ((ونخلع ونترك من يفجرك))؛ المعنى: ونخلع من يفجرك ونتركه، ومثله من الشعر [من الطويل][1].

وَكُمتاً مُدَمّاةً كَأَنَّ مُتونَها جَرى فَوقَها وَاستَشعَرَت لَونَ مُذهَبِ

على رفع لون؛ المعنى: جرى فوقها لون مذهب واستشعرته.

وقوله -تعالى-: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالياء، ﴿وَتَعْمَلْ﴾ بالتاء الأول محمول على اللفظ، ﴿وَتَعْمَلْ﴾ على المعنى،. ومن قرأهما جميعا بالتاء حمل على المعنى، أراد والتي تقنت منكن لله ورسوله وتعمل. ومن قرأ الأول بالتاء قبح أن يقرأ: ((ويعمل))، لأنه قد حمل على المعنى، واوضح الموصول بأنه مؤنث، فيقبح الحمل على اللفظ.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ ﴿الخِيَرَةُ﴾ التخيير.

ونزلت هذه الآية بسبب زينب بنت جحش، وكانت بنت عمة رسول الله -عليه السلام- وزيد بن حارثة، وكان زيد مولى رسول الله -عليه السلام- وكانت منزلته منه في محبته إياه كمنزلة الولد، فخطب رسول الله -عليه السلام- زينب ليزوجها من زيد، فظنت أنه خطبها لنفسه -عليه السلام- فلما علمت أنه يريدها لزيد كرهت ذلك.

وأعلم الله -جل وعلا- أنه لا اختيار على ما قضاه الله ورسوله، وزوجها من زيد.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾:

معنى ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ هداه للاسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ اعتقته من الرق.

وكان زيد شكا إلى النبي -عليه السلام- أمر زينب، فأمره بالتمسك بها، وكان -عليه السلام- يحب التزوج بها إلا أنه -عليه السلام- آثر ما يحب من الأمر بالمعروف فقال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾.

---

(١) قائله: الطفيل الغنوي.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾ أي: تكره مقالة الناس.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾ أي: فلما طلقها زيد.

والوطر في اللغة والأرب بمعنى واحد، قال الخليل: معنى الوطر كل حاجة يكون لك فيها همة، فإذا بلغها البالغ قيل: ((قد قضى وطره وأربه))، أي: بلغ مراده منها.

وقوله -عز وجل-: ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾أي: زوجناك زينب وهي امرأة زيد الذي قد تبنيت به، لئلا يظن أنه من تبنى برجل لم تحل امرأته للمتبني.

وقوله -تعالى-: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: لم يكن زيد بن محمد، لم يلده، وقد ولد لرسول الله -عليه السلام- ذكور إبراهيم والطيب والقاسم والمطهر.

وإنما تأويله: ما كان يحرم عليه ممن تبنى به ما يحرم على الوالد، والنبي -عليه السلام- أبو المؤمنين في التبجيل والتعظيم.

وقرئت: ((وخاتِم النبيين)) و((خاتَم النبيين))، فمن كسر التاء فمعناه: ختم النبيين، ومن قرأ و((خاتَم النبيين)) بفتح التاء فمعناه: آخر النبيين، لا نبي بعده -عليه السلام-.

يجوز: ((ولكن رسول الله وخاتمُ النبيين)) فمن نصب فالمعنى: ولكن رسول الله وكان خاتم النبيين، ومن رفع فالمعنى: ولكن هو خاتم النبيين.

وقوله -عز وجل-: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾:

﴿سُنَّةَ﴾ منصوب على المصدر، لأن معناه: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ﴾ سَنَّ الله سنة حسنة واسعة لا حرج فيها، أي: لا ضيق فيها.

والسنة: الطريقة، والسنن من ذا كله.

وقوله -عز وجل-: ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ معناه: في النبيين الذين قبل محمد -عليه السلام- وعليهم، أي: سنة الله في التوسعة على محمد -عليه السلام- فيما فرض الله له كَسُنَّته في الأنبياء الماضين.

وقوله -تعالى-: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ﴾.

﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض نعت لقوله: ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾، ويجوز أن يكون رفعاً على المدح على: هم الذين يبلغون رسالات الله، ويجوز أن يكون نصباً على معنى: أعني الذين يبلغون.

وقوله: -عز وجل-: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ صلاة الله على خلقه رحمته وهدايته إياهم.

وقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ﴾ تحية أهل الجنة السلام، قال الله -عز وجل-: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾[يونس: ١٠].

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾؛ أي: شاهداً على أمتك بالإبلاغ، إبلاغ الرسالة، ومبشراً بالجنة ومنذراً من النار، وهذا كله منصوب على الحال، أي: أرسلناك في حال الشهادة والبشارة والإنذار.

﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ أي: داعياً إلى توحيد الله وما يقرب منه، و﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي: بأمره.

﴿وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ أي: وكتاباً بيناً؛ المعنى: أرسلناك شاهداً وذا سراج منير وذا كتاب بين، وإن شئت كان ﴿وَسِرَاجاً﴾ منصوباً على معنى داعياً إلى الله وتالياً كتاباً بيناً.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ معناه: دع أذى المنافقين.

وتأويل: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ دعهم لا تجازهم عليه إلى أن تؤمر فيهم بأمر.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾: معنى ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ تقربوهن.

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾:

قال بعضهم ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ نسخها قوله -عز وجل-: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾[البقرة: ٢٣٧] والنصف ينوب عن التمتيع، إلا أن يكون لم يسم لها مهراً، فلها نصف مهر مثلها.

وأسقط الله العدة عن التي لم يدخل بها، لأن العدة في الأصل استبراء.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾؛ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مهورهن.

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾:

وأصل الإملاك في الإماء والعبيد ما يجوز سبيه وفيئه، فأما سبي الخبيثة فلا يجوز وطئه ولا ملكه، يقال هذا سبي طيبة، وسبي خبيثة، فسبي الطيبة سبي من يجوز حربه من أهل الكفر، فأما من كان له العهد فلا يجوز سبيه ولا ملك عبد منه ولا أمة.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

وتقرأ: ((أن وهبت)) بالفتح. أي: وهبت نفسها للنبي حلت له، ومن قرأ ((أن وهبت)) بالفتح فالمعنى: أحللناها لأن وهبت نفسها.

﴿خَالِصَةً﴾ منصوب على الحال؛ المعنى: إنا أحللنا لك هؤلاء. وأحللنا لك من وهبت نفسها لك.

وإنما قيل للنبي ههنا لأنه لو قيل: إن وهبت نفسها لك كان يجوز أن يتوهم أن في الكلام دليلاً أنه يجوز ذلك لغير النبي -عليه السلام-، كما جاز في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾، لأن بنات العم وبنات الخال يحللن للناس.

وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: أن التزويج لا ينعقد إلا بولي وشاهدين وملك اليمين لا يكون إلا ممن يجوز سبيه.

وقوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾؛ ﴿تُرْجِي﴾ بالهمز وغير الهمز، والهمز أكثر وأجود، ومعنى ﴿تُرْجِي﴾ تؤخر بالهمز وغير الهمز المعنى: واحد.

وهذا مما خص الله به النبي -عليه السلام- فكان له أن يؤخر من أحب من نسائه ويؤوي إليه من أحب من نسائه وليس ذلك لغيره من أمته، وله أن يرد من أخر إلى فراشه -عليه السلام-.

﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أي: إن أردت ممن عزلت أن تؤوي إليك فلا جناح عليك.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: ويرضين كلهن بما أعطيتهن من تقريب وإرجاء، ويجوز النصب في ﴿كُلُّهُنَّ﴾ توكيداً للهاء والنون.

وقوله -عز وجل-: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ وتقرأ: ((لا تحل لك النساء)) بالتاء، فمن قرأ بالياء فلأن الياء في معنى جمع النساء، والنساء يدل على التأنيث فيستغني عن تأنيث يحل. ويجوز لا تحل بالتاء على معنى: لا تحل لك جماعة النساء.

وقوله: ﴿وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ موضع ((ما)) رفع.

المعنى: لا يحل لك إلا ما ملكت يمينك. جعل ((ما)) بدلاً من ((النساء)) ويجوز أن يكون موضع ((ما)) نصباً على معنى لا يحل لك النساء استثنى ما ملكت يمينك.

وقوله -عز وجل-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ بضم الباء وقد رويت عن عاصم ((بِيوت)) بكسر الباء وعن جماعة من أهل الكوفة.

وليس يروي البصريون ((بيوت)) بكسر الباء، بل يقولون: إن الضم بعد الكسر ليس موجوداً في كلام العرب ولا في أشعارها، والذين كسروا فكأنهم ذهبوا إلى اتباع الياء، والاختيار عند الكوفيين الضم في ((بيوت)).

وقوله: ﴿إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ في موضع نصب.

المعنى: إلا بأن يؤذن لكم، أو لأن يؤذن لكم.

وقوله: ﴿إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾:

﴿إِنَاهُ﴾ نضجه وبلوغه، يقال: أنى يأني إناءً إذا نضج وبلغ.

و ﴿غَيْرَ﴾ منصوبة على الحال؛ المعنى: إلا أن يؤذن لكم غير منتظرين، ولا يجوز الخفض في ﴿غَيْرَ﴾ لأنها إذا كانت نعتاً للطعام ولم يكن بد من إظهار الفاعل لا يجوز إلا: غير ناظرين إناه أنتم.

وقوله -عز وجل-: ﴿وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾ ويجوز: ((فيستحي منكم)) بياء واحدة، وكذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ﴾ ويستحي بالتخفيف على ((استحييت))، والحذف لثقل الياءين.

وكان النبي -عليه السلام- يحتمل إطالتهم كرماً منه فيصبر على الأذى في ذلك، فعلَّم الله من بحضرته الأدب فصار أدباً لهم ولمن بعدهم.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: إذا أردتم أن تخاطبوا ازواج النبي -عليه السلام- في أمر فخاطبوهن من وراء حجاب، فنزل الأمر بالاستتار.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: ما كان لكم أذاه في شيء من الأشياء.

﴿وَلاَ أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ موضع ((أن)) رفع؛ المعنى: وما كان لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده.

وذلك: أنه ذكر أن رجلاً قال: إذا توفي محمد تزوجت امرأته فلانة، فأعلم الله أن ذلك محرم بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيماً﴾.

وقوله: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلاَ أَبْنَائِهِنَّ﴾ إلى قوله ﴿وَلاَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾:

ولم يرد في هذه القصة أعمامهن ولا أخوالهن.

فجاء في التفسير: أنه لم يذكر العم والخال، لأن كل واحد منهما يحل لابنة المرأة، فتحل لابن عمها وابن خالها. فقيل: كره ذلك لأنهما يصفانها لأبنائهما.

وهذه الآية نزلت في الحجاب فيمن يحل للمرأة البروز له، فذكر الأب والابن إلى آخر الآية.

المعنى: لا جناح عليهن في رؤية آبائهن لهن، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين في الرؤية.

وقد جاء في القرآن تسمية العم أباً في قوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً﴾[البقرة: ١٣٣]، فجعل العم أباً.

وقوله -عز وجل-: ﴿لَئِن لَمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ المعنى: لنسلطنك عليهم.

﴿ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ﴾ منصوب على الحال؛ المعنى: لا يجاورونك إلا وهم ملعونون.

وقوله: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا﴾ لا يجوز أن يكون ((ملعونين)) منصوباً بما بعد ﴿أَيْنَمَا﴾، لا يجوز أن تقول: ملعوناً أينما ثقف أخذ زيد يضرب، لأن ما بعد حروف الشرط لا يعمل فيما قبلها.

وقوله: ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾:

﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ منصوب بمعنى قوله: أخذوا وقتلوا، فالمعنى: سن الله في الذين ينافقون الأنبياء ويرجفون بهم أن يقتلوا حيثما ثقفوا.

وقوله: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾:

الاختيار ﴿السَّبِيلا﴾ بألف، وأن يوقف عليها، لأن أواخر الآي وفواصلها يجري فيها ما يجري في أواخر الأبيات من الشعر والفواصل، لأنه خوطب العرب بما يعقلون في الكلام المؤلف، فيدل بالوقف في هذه الأشياء وزيادة الحروف فيها نحو: ((الظنونا، والسبيلا، والرسولا)) أن الكلام قد تم وانقطع، وأن ما بعده مستأنف.

وقوله: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ ويقرأ ((كثيراً)) ومعناهما قريب.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ أي: لا تؤذوا النبي -عليه السلام- كما آذى أصحاب موسى؛ موسى -عليه السلام-، فينزل بكم ما أنزل بهم.

وكان أذاهم لموسى فيما جاء في التفسير: إنهم عابوه بشيء في بدنه فاغتسل يوماً ووضع ثوبه على حجر فذهب الحجر بثوبه فاتبعه موسى فرآه بنو إسرائيل ولم يروا ذلك العيب الذي آذوه بذكره.

﴿وَكَانَ عِندَ اللهِ وَجِيهاً﴾ كلمه الله تكليماً، وبرأه من العيب الذي رموه به بآية معجزة.

وقوله -عز وجل-: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾:

روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير أنهما قالا: الأمانة ههنا الفرائض التي افترضها الله على عباده.

وقال ابن عمر: عرضت على آدم الطاعة والمعصية وعرف ثواب الطاعة، وعقاب المعصية.

وحقيقة هذه الآية -والله أعلم- وهو موافق للتفسير: أن الله -عز وجل- ائتمن بني آدم على ما افترضه عليهم من طاعته، وائتمن السماوات والأرض والجبال على طاعته والخضوع له، فأعلمنا الله أنه قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت: ١١]، وأعلمنا أن من الحجارة ما يهبط من خشية الله وأن الشمس والقمر والنجوم والملائكة وكثيراً من الناس يسجدون لله، فأعلمنا الله أن السماوات والأرض والجبال لم تحتمل الأمانة، أي: أدائها.

وكل من خان الأمانة فقد احتملها، وكذلك كل من أثم فقد احتمل الإثم، قال الله -عز وجل-: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[العنكبوت: ١٣]، فأعلم الله أن من باء بالإثم يسمى حاملاً للإثم، فالسماوات والأرض والجبال أبين أن يحملن الأمانة وآداها، وأداؤها طاعة الله فيما أمر به والعمل به وترك المعصية.

﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ قال الحسن: الكافر والمنافق حملا الأمانة ولم يطيعا، فهذا المعنى -والله أعلم-، ومن أطاع من الأنبياء والصديقين والمؤمنين فلا يقال كان ظلوماً جهولاً، وتصديق ذلك ما يتلو هذه الآية، من قوله: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾

* * *

فهرس الجزء الثالث

الموضــــــــــوع | الصفحة

سورة يوسف

إعراب المنادى ٤

أصل أحكمت في اللغة ١٠

معنى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ ١٢

الضغث في اللغة ١٨

«واذكر» بالذال، واختيار الزجاج «الدال» ١٨

﴿حَصْحَصَ﴾ واشتقاقه في اللغة ٢٠

معنى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ ٣١

سورة الرعد

قوله: ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ اختيار الزجاج الرفع «جنات» ٣٥

معنى غاض في اللغة ٣٧

معنى المحل في اللغة ٣٩

معنى قارعة في اللغة ٤٣

معنى: ﴿مَّثَلُ الجَنَّةِ الَتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾ ٤٣

سورة إبراهيم

معنى اجتثت في اللغة ٥١

معنى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ ٥٢

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾؛ القراءة بغير ياء واختيار الزجاج اثباتها ٥٤

سورة الحجر

معنى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ٦٥

حقيقة «المتوسمون» في اللغة ٦٧

سورة النحل

معنى الفرط في اللغة.. ٨٢
معنى الوحي في اللغة.. ٨٤
﴿حَنِيفاً﴾ وحقيقته في اللغة.. ٩٢
معنى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾.. ٩٣

سورة الإسراء

معنى سبحان الله في اللغة.. ٩٤
معنى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.. ٩٥
معنى: ﴿لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.. ١٠٩
أصل الزخرف في اللغة والزخرفة.. ١١٦

سورة الكهف

معنى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾.. ١٢٢
معنى: ﴿وَلَوْلا﴾.. ١٣٤
الحسبان في اللغة.. ١٣٥
والرَّحم والرُّحم في اللغة.. ١٤٤
معنى: ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾.. ١٤٤
الكنز في اللغة.. ١٤٥
الردم في اللغة.. ١٤٨
الجنة في اللغة.. ١٥١

سورة مريم

﴿تَرَيِنَّ﴾ اختيار الزجاج أنها بغير همز.. ١٥٨
معنى:﴿صِرَاطاً سَوِيّاً﴾.. ١٦١

سورة طه

الثرى في اللغة.. ١٧٣
الوزير في اللغة واشتقاقه.. ١٧٧

«لعل» في اللغة ١٧٧
معنى: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ ١٧٨
معنى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ١٨٥
الوزر في اللغة.. ١٨٧
أصل الخفوت في اللغة ١٩٠
الهمس في اللغة.. ١٩٠
الضنك وأصله في اللغة................................ ١٩١

سورة الأنبياء

الأضغاث في اللغة.. ١٩٥
معنى تميد في اللغة ١٩٩
معنى: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ٢٠٢
معنى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ ٢٠٣
الكفل في اللغة.. ٢٠٥

سورة الحج

معنى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ ٢١٢
معنى الإلحاد في اللغة ٢١٩

سورة المؤمنون

معنى: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾................................ ٢٣٥
معنى: ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ ٢٣٩
معنى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ ٢٤٠
معنى: ﴿فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾.......................... ٢٤١
معنى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ﴾.. ٢٤٥

سورة النور

معنى: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ ٢٥٥

معنى: ﴿لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ٢٥٩
معنى: ﴿يُزْجِي﴾ ٢٦١

سورة الفرقان

معنى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾.......... ٢٧٨

سورة الشعراء

معنى﴿ كَرِيم﴾ ٢٨٥
معنى﴿حاذرون﴾ ٢٩٠

سورة النمل

معنى ﴿يُوزَعُونَ﴾ في اللغة ٣٠٣
معنى ﴿أَوْزِعْنِي﴾ وتأويله في اللغة ٣٠٤
الصرح في اللغة ٣١٠

سورة القصص

أصل الوحي في اللغة ٣١٧
الجبار في اللغة.......................... ٣٢٠
الظن في اللغة ٣٢٥
السرمد في اللغة.......................... ٣٢٩
العصبة في اللغة ٣٣١
الأرجوان في اللغة.......................... ٣٣٢
معنى: ﴿إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ ٣٣٣

سورة العنكبوت

معنى﴿سبيلنا ﴾.......................... ٣٣٦
معنى﴿وكأين من دآبة لا تحمل رزقها﴾.......................... ٣٤٣

سورة الروم

الحبرة في اللغة.......................... ٣٤٩
معنى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ ٣٥٤

سورة لقمان

أصل الظلم في اللغة ٣٥٩
معنى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ﴾ ٣٦١

سورة السجدة

معنى «السلاله» في اللغة ٣٦٥

سورة الأحزاب

معنى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ٣٧٥
معنى: ﴿سَلَقُوكُم﴾ ٣٧٦